صحيح

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى

1427هـ - 2006م

رقم الإيداع : 2006/13379
الترقيم الدولي : 0-088-390-977
I. S.B.N

دار ابن رجب   طبع. نشر. توزيع   دار الفوائد

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس 002057441550 جوال : 0122368002
فرع المنصورة : 33 شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : 0020502312068

صحيح

تفسير ابن كثير رحمه الله

اختصره وخرج أحاديثه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

الجزء الثاني

دار ابن رجب


بسم الله الرحمن الرحيم

تفْسِيرُ سُورَةِ الأَنعَامِ[1]

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَادِحًا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ ، وَحَامِدًا لَهَا عَلَى خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَرَارًا لِعِبَادِهِ . وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنْفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، فَجَمَعَ لَفْظَ الظُّلُمَاتِ وَوَحَّدَ لَفْظَ النُّورِ ؛ لِكَوْنِهِ أَشْرَفَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَفَرَ بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا وَعَدْلًا ، وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى اللهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ يَعْنِي : أَبَاهُمْ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يَعْنِي : الْآخِرَةَ . وَفَصَّلَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ قَالَ : مَا بَيْنَ أَنْ يُخْلَقَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ وَهُوَ مَا بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ إِلَى أَنْ

---

(١) أَوْرَدَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - عِدَّةَ أَحَادِيثَ وَآثَارٍ مَفَادُهَا أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ عِنْدَ نُزُولِهَا نَزَلَ مَعَهَا مِنَ المَلَائِكَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا ، أَوْ مَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ مِنَ المَلَائِكَةِ ، يُشَيِّعُونَهَا وَلَا يَخْلُو خَبَرٌ مِنْهَا مِنْ مَقَالٍ ، وَهَلْ كَثْرَتُهَا تَشْهَدُ بِأَنَّ لَهَا أَصْلًا أَمْ لَا ؟ فِي ذَلِكَ وَجْهَانِ لِلْعُلَمَاءِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

يُبْعَثَ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ تَقْدِيرُ الْأَجَلِ الْخَاصِّ وَهُوَ عُمْرُ كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَتَقْدِيرُ الْأَجَلِ الْعَامِّ وَهُوَ عُمْرُ الدُّنْيَا بِكَمَالِهَا ، ثُمَّ انْتِهَائِهَا وَانْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا ، وَالْمَصِيرِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، **وَقِيلَ أَيْضًا** : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يَعْنِي : مُدَّةَ الدُّنْيَا ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يَعْنِي : عُمْرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ ، وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠]، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ عِندَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ** : يَعْنِي تَشُكُّونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ اِخْتَلَفَ مُفَسِّرُو هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَقْوَالٍ بَعْدَ الاتِّفَاقِ عَلَى تَخْطِئَةِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ الْأُوَلِ الْقَائِلِينَ – تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا –: بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، حَيْثُ حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ **فَالْأَصَحُّ مِنَ الْأَقْوَالِ** : أَنَّهُ الْمَدْعُوُّ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ أَيْ : يَعْبُدُهُ وَيُوَحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَيُسَمُّونَهُ الله ، وَيَدْعُونَهُ رَغَبًا وَرَهَبًا ، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] أَيْ : هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خَبَرًا أَوْ حَالًا .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ سِرٍّ وَجَهْرٍ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿ يَعْلَمُ ﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ : ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تَقْدِيرُهُ : وَهُوَ اللهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وَقْفٌ تَامٌّ ثُمَّ اِسْتَأْنَفَ الْخَبَرَ فَقَالَ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ وَهَذَا اِخْتِيَارُ اِبْنِ جَرِيرٍ ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ : أَنَّهُمْ مَهْمَا أَتَتْهُمْ ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ ، أَيْ : دَلَالَةٌ وَمُعْجِزَةٌ وَحُجَّةٌ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ : بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَلَيَجِدُنَّ غِبَّهُ وَلَيَذُوقُنَّ وَبَالَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى وَاعِظًا وَمُحَذِّرًا لَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ الدُّنْيَوِيِّ مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَاسْتِغْلَالًا لِلْأَرْضِ وَعِمَارَةً لَهَا ، فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ وَالسَّعَةِ وَالْجُنُودِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ أَيْ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ أَيْ : أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَمْطَارَ السَّمَاءِ وَيَنَابِيعَ الْأَرْضِ أَيْ : اِسْتِدْرَاجًا وَإِمْلَاءً لَهُمْ ﴿ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : بِخَطَايَاهُمْ وَسَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي اجْتَرَمُوهَا ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : فَذَهَبَ الْأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : جِيلًا آخَرَ لِنَخْتَبِرَهُمْ فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ فَهَلَكُوا كَهَلَاكِهِمْ ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ، وَالرَّسُولُ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ رَسُولِهِمْ ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْعَذَابِ وَمُعَاجَلَةِ الْعُقُوبَةِ مِنْهُمْ ، لَوْلَا لُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا

لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَمُبَاهَتَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِيهِ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : عَايَنُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ وَبَاشَرُوا ذَلِكَ : ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُكَابَرَتِهِمْ لِلْمَحْسُوسَاتِ ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ - ١٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : ٤٤]

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أَيْ : لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ نُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لَجَاءَهُمْ مِنَ اللهِ الْعَذَابُ . كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر:٨]، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ أَنْزَلْنَا مَعَ الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ مَلَكًا أَيْ : لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مَلَكِيًّا لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ ؛ لِتُفْهَمَ مُخَاطَبَتُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِالْأَخْذِ عَنْهُ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَالْتَبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ كَمَا يُلَبِّسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قَبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٥] فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُ لِيَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلِيُمَكِّنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضٍ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟

بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : فَكِّرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ وَانْظُرُوا مَا أَحَلَّ اللهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُوَطِّئَةُ لِلْقَسَمِ ، فَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيَجْمَعَنَّ عِبَادَهُ ﴿ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَّا الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : كُلُّ دَابَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) .

وَالأَرْضِ ، الجَمِيعُ عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٤]، وَالمَعْنَى : لَا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ : خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الرَّزَّاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات :]، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ هَهُنَا ((وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ)) أَيْ : لَا يَأْكُلُ . ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : الْعَذَابُ ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ يَعْنِي : فَقَدْ رَحِمَهُ اللهُ ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]، وَالْفَوْزُ هُوَ : حُصُولُ الرِّبْحِ وَنَفْيُ الْخَسَارَةِ .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ مَالِكُ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ

لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر : ٢] ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ** »(١).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ ، وَتَوَاضَعَتْ - لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ - الْأَشْيَاءُ ، وَاسْتَكَانَتْ وَتَضَاءَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَحُكْمِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا ، فَلَا يُعْطِي إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ أَيْ : مَنْ أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أَيْ : هُوَ نَذِيرٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥٠] ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ عَنِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ بَشَّرُوا بِوُجُودِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبِبَعْثِهِ وَصِفَتِهِ وَبَلَدِهِ وَمُهَاجِرِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : خَسِرُوا كُلَّ الْخَسَارَةِ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَنَوَّهَتْ بِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَا أَظْلَمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠) ، ومسلم (٥٩٣) .

مِمَّنْ تَقَوَّلَ عَلَى اللهِ فَادَّعَى أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ ، ثُمَّ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَدَلَالَاتِهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُفْلِحُ هَذَا وَلَا هَذَا ، لَا المُفْتَرِي وَلَا المُكَذِّبُ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ قَائِلًا لَهُمْ ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : ٦٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أَيْ حُجَّتُهُمْ ، **وَقِيلَ** : مَعْذِرَتُهُمْ . **وَقِيلَ** : قِيلِهِمْ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالصَّوَابُ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قِيلُهُمْ عِنْدَ فِتْنَتِنَا إِيَّاهُم اعْتِذَارًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قَالَ : أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ فَقَالُوا : تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ فَيَجْحَدُونَ ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا ، فَهَلْ فِي قَلْبِكَ الْآنَ شَيْءٌ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ أُنْزِلَ فِيهِ شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَجْهَهُ [١].

(١) أخرج البخاري نحوه (مع الفتح ٨/ ٥٥٥ - ٥٥٦) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أَيْ : يَجِيئُوكَ لِيَسْمَعُوا قِرَاءَتِكَ وَلَا تُجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ، أَيْ : أَغْطِيَةً لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيْ : صُمًّا عَنِ السَّمَاعِ النَّافِعِ فَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة : ١٧١]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أَيْ : مَهْمَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَلَا فَهْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا إِنْصَافَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ ﴾ أَيْ : يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاظِرُونَكَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ وَمَنْقُولٌ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ وَفِي مَعْنَى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالِانْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أَيْ : وَيُبْعِدُونَهُمْ عَنْهُ ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَظْهَرُ – وَاللهُ أَعْلَمُ – وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ . **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : رُوِيَ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُؤْذَى . ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يُهْلِكُونَ بِهَذَا الصَّنِيعِ وَلَا يَعُودُ وَبَالُهُ إِلَّا عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ إِذَا وُقِفُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُكَذِّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حِينَئِذٍ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ وَإِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ ؛ كَمَا قَالَ قَبْلَهُ بِيَسِيرٍ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لِأَتْبَاعِهِمْ خِلَافَهُ ، كَقَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ لِلنَّاسِ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ ، وَيَكُونَ هَذَا إِخْبَارًا عَمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كَلَامِ طَائِفَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا كَوْنُ هَذِهِ السُّورَةِ مَكِّيَّةً ، وَالنِّفَاقُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ وُقُوعَ النِّفَاقِ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ وَهِيَ الْعَنْكَبُوتُ فَقَالَ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ هَذَا إِخْبَارًا عَنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ حِينَ يُعَايِنُونَ الْعَذَابَ ، يَظْهَرُ لَهُمْ حِينَئِذٍ غِبُّ مَا كَانُوا يُبْطِنُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالشِّقَاقِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَأَمَّا مَعْنَى الِاعْتِرَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَايَنُوهُ جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي تَمَنِّيهِم الرَّجْعَةَ رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِمْ :

﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أَيْ : لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَقَالُوا : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَا مَعَادَ بَعْدَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : أُوقِفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : بِمَا كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٥]

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ وَعَنْ خَيْبَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدُهُ عَلَى الْحَيَاةِ وَعَلَى الْأَعْمَالِ وَعَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ . أَيْ : فِي أَمْرِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أَيْ : يَحْمِلُونَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَعْمَلُونَ . ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا غَالِبُهَا كَذَلِكَ ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَحَطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، وَحُزْنِكَ وَتَأَسُّفِكَ عَلَيْهِمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَّهِمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ . **وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ** : يَعْلَمُونَ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ وَيَجْحَدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعْزِيَةٌ لَهُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَوَعْدٌ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نُصِرُوا ، وَبِالظَّفَرِ حَتَّى كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ بَعْدَمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَالْأَذَى الْبَلِيغِ ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، [المجادلة : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ خَبَرِهِمْ كَيْفَ نُصِرُوا وَأُيِّدُوا عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ وَبِهِمْ قُدْوَةٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : النَّفَقُ : السَّرْبُ ، فَتَذْهَبَ فِيهِ فَتَأْتِيَهِمْ بِآيَةٍ ، أَوْ تَجْعَلَ لَكَ سُلَّمًا فِي

السَّمَاءِ فَتَصْعَدَ فِيهِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ أَفْضَلَ مِمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ فَافْعَلْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس : ٩٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدُعَائِكَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعِيهِ وَيَفْهَمُهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[يس : ٧٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْكُفَّارُ ؛ لأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ ، فَشَبَّهَهُمُ اللهُ بِأَمْوَاتِ الأَجْسَادِ فَقَالَ : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالإِزْدِرَاءِ عَلَيْهِمْ .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أَيْ : خَارِقٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَمِمَّا يَتَعَنَّتُونَ كَقَوْلِهِمْ : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾[الإسراء : ٩٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ حِكْمَتَهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ ، لأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا وَفْقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا فَعَلَ بِالأُمَمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء : ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾[الشعراء : ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ قِيلَ : أَيْ : أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا . وَقِيلَ : الطَّيْرُ أُمَّةٌ ، وَالإِنْسُ أُمَّةٌ ، وَالجِنُّ أُمَّةٌ ، وَقِيلَ : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ أَيْ : خَلْقٌ أَمْثَالُكُمْ . ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : الجَمِيعُ عِلْمُهُمْ عِنْدَ الله ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، سَوَاءٌ كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا كَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] أَيْ : مُفْصِحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَظَانِّهَا ، وَحَاصِرٌ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَشْرُهَا المَوْتُ . وَعَنْهُ قَالَ : مَوْتُ الْبَهَائِمِ حَشْرُهَا . وَقِيلَ : أَنَّ حَشْرَهَا بَعْثُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : ٥] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قَالَ : يُحْشَرُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبَهَائِمُ وَالدَّوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ الله يَوْمَئِذٍ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ : كُونِي تُرَابًا ، فَلِذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ [النبأ : ٤٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أَيْ : مَثَلُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ ، كَمَثَلِ أَصَمَّ وَهُوَ : الَّذِي لَا يَسْمَعُ ، أَبْكَمُ وَهُوَ : الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي مِثْلُ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ أَوْ يَخْرُجَ مِمَّا هُوَ فِيهِ ؟ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٧ - ١٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟

وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ : أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِي اتِّخَاذِكُمْ آلِهَةً مَعَهُ . ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : فِي وَقْتِ الضَّرُورَةِ لَا تَدْعُونَ أَحَدًا سِوَاهُ وَتَذْهَبُ عَنْكُمْ أَصْنَامُكُمْ وَأَنْدَادُكُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ يَعْنِي : الْفَقْرُ وَالضِّيقُ فِي الْعَيْشِ ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ وَالْآلَامُ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَدْعُونَ اللهَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ وَيَخْشَعُونَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا إِذَا ابْتَلَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ تَضَرَّعُوا إِلَيْنَا وَتَمَسْكَنُوا لَدَيْنَا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : مَا رَقَّتْ وَلَا خَشَعَتْ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الشِّرْكِ وَالْمُعَانَدَةِ وَالْمَعَاصِي ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَعْرَضُوا عَنْهُ وَتَنَاسَوْهُ وَجَعَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ مِنْ كُلِّ مَا يَخْتَارُونَ ، وَهَذَا اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ تَعَالَى وَإِمْلَاءٌ لَهُمْ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ مَكْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : عَلَى غَفْلَةٍ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ[١] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ » ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُل ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ أَيْ : سَلَبَكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَعْطَاكُمُوهَا فَإِنَّهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣]، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِبَارَةٌ عَنْ مَنْعِ الِانْتِفَاعِ بِهِمَا الِانْتِفَاعَ الشَّرْعِيَّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [يونس : ٣١]، وَقَالَ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أَيْ : هَلْ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ إِذَا سَلَبَهُ اللهُ مِنْكُم ؟ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُهَا وَنُوضِحُهَا وَنُفَسِّرُهَا ، دَالَّةً عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ بَاطِلٌ وَضَلَالٌ ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ يَصْدِفُونَ ، أَيْ : يَعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أَيْ : وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٤٥) .

بِهِ حَتَّى بَغَتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أَيْ : ظَاهِرًا عِيَانًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ بِالله وَيَنْجُو الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : مُبَشِّرِينَ عِبَادَ الله الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرَاتِ ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِالله النِّقْمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَيْ : بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا ، اللهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَّفُوهُ وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أَيْ : يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَخَرَجُوا عَنْ أَوَامِرِ الله وَطَاعَتِهِ وَارْتَكَبُوا مَنَاهِيه وَمَحَارِمِهِ وَانْتَهَاكِ حُرُمَاتِهِ .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَسْتُ

أَمْلِكُهَا وَلَا أَتَصَرَّفُ فِيهَا ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ أَيْ : وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ الله ﷻ وَلَا أَطَّلِعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَطْلَعَنِي عَلَيْهِ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أَيْ : وَلَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ يُوحَى إِلَيَّ مِنَ الله ﷻ ، شَرَّفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أَيْ : لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قَيْدَ شِبْرٍ وَلَا أَدْنَى مِنْهُ ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ أَيْ : هَلْ يَسْتَوِي مَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدِيَ إِلَيْهِ وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الرعد : ١٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ أَيْ : وَأَنْذِرْ بِهَذَا الْقُرْآنِ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] ، وَالَّذِينَ ﴿ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[الرعد : ٢١] ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيۡسَ لَهُم ﴾ أَيْ : يَوْمَئِذٍ ﴿ مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ أَيْ : لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي لَا حَاكِمَ فِيهِ إِلَّا اللهُ ﷻ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا تُبْعِدْ هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْكَ ، بَلِ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخِصَّاءَكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[الكهف : ٢٨] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ﴾ أَيْ : يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ﴿ بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْمَكْتُوبَاتُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ ﴾ [غافر : ٦٠] ، أَيْ : أَتَقَبَّلْ مِنْكُمْ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أَيْ : يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلَ وَجْهَ الله الْكَرِيمِ ، فَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ كَقَوْلِ نُوحٍ ﷺ فِي جَوَابِ الَّذِينَ ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١ - ١١٣] أَيْ : إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ﷻ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ . قَالَ سَعْدُ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا نَسْتَبِقُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَنَدْنُو مِنْهُ ، وَنَسْمَعُ مِنْهُ ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : تُدْنِي هَؤُلَاءِ دُونَنَا ، فَنَزَلَتْ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : اِبْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ غَالِبُ مَنِ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ ضُعَفَاءُ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ لِنُوحٍ : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧] . وَكَمَا قَالَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ لِأَبِي سُفْيَانَ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ ، فَقَالَ لَهُ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقَالَ : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ . فَقَالَ هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ[2]. وَالْغَرَضُ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ كَانُوا يَسْخَرُونَ بِمَنْ آمَنَ مِنْ ضُعَفَائِهِمْ ، وَيُعَذِّبُونَ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ أَيْ : مَا كَانَ اللهُ لِيَهْدِي هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا وَيَدَعَنَا ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : ١١] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم : ٧٣] قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم : ٧٤] ، وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ حِينَ قَالُوا : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ

---

(١) مسلم (حديث ٢٤١٣) .
(٢) البخاري (حديث ٧) .

بِالشَّـٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ فَيُوَفِّقُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « **إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** »[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : فَأَكْرِمْهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ وَبَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أَيْ : أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ . ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَأَقْلَعَ وَعَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ وَأَصْلَحَ الْعَمَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَمَّا قَضَى اللهُ عَلَى الْخَلْقِ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي** »[٢].

وَمِمَّا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ الْأَحَادِيثِ أَيْضًا : قَوْلُهُ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : « **أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** » ثُمَّ قَالَ : « **أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ** »[٣].

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى

---

(١) مسلم (حديث ٢٥٦٤) .
(٢) البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) .
(٣) البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (حديث ٣٠) .

وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ عَلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ وَذَمِّ الْمُجَادَلَةِ وَالْعِنَادِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : وَلِتَظْهَرَ طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ ، وَقُرِئَ ((وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِيْنَ)) أَيْ : وَلِيَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا مُخَاطَبُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللهُ إِلَيَّ ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ اللهِ ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنَ الْعَذَابِ ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ شَاءَ أَنْظَرَكُمْ وَأَجَّلَكُمْ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ خَيْرُ مَنْ فَصَّلَ الْقَضَايَا ، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ مَرْجِعُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِلَيَّ لَأَوْقَعْتُ بِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾))[1] [لقمان : ٣٤] ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ بَرِّيِّهَا وَبَحْرِيِّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الصَّرْصَرِيُّ :

فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرُّ إِمَّا ... تَرَاءَى لِلنَّوَاظِرِ أَوْ تَوَارَى

---

(١) البخاري (٤٦٢٧) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أَيْ : وَيَعْلَمُ الحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الجَمَادَاتِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالحَيَوَانَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا المُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جِنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر : ١٩]

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفِّي الأَصْغَرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الزمر : ٤٢] ، فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الآيَةِ الوَفَاتَيْنِ الكُبْرَى وَالصُّغْرَى ، وَهَكَذَا ذَكَرَ فِي هَذَا المَقَامِ حُكْمَ الوَفَاتَيْنِ الصُّغْرَى ثُمَّ الكُبْرَى ،فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ دَلَّتْ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، فِي حَالِ سُكُونِهِمْ وَحَالِ حَرَكَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[الرعد : ١٠] ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي اللَّيْلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[القصص : ٧٣] أَيْ : فِي النَّهَارِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾[النبأ : ١٠ - ١١] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَعْمَالِ فِيهِ ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي النَّهَارِ ، وَقِيلَ : أَيْ : فِي المَنَامِ ، وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يَعْنِي بِهِ : أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ

مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : فَيُخْبِرُكُمْ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : وَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : ١١]، وَحَفَظَةٌ يَحْفَظُونَ عَمَلَهُ وَيُحْصُونَهُ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار : ١٠]وَكَقَوْلِهِ : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧- ١٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أَيْ : احْتُضِرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أَيْ : مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أَيْ : فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللهُ ﷻ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَفِي عِلِّيِّينَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفُجَّارِ فَفِي سِجِّينٍ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، قَالُوا : اُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اُخْرُجِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، قَالَ : فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلَانٌ ، فَيُقَالُ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اُدْخُلِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ . فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ . وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ ، قَالُوا : اُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اُخْرُجِي ذَمِيمَةً ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فُلَانٌ ، فَيُقَالُ : لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، اِرْجِعِي ذَمِيمَةً ، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَيُقَالُ لَهُ

مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ ، وَيَجْلِسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فَيُقَالُ لَهُ مِثْلَ مَا قِيلَ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ))(١).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : الخَلَائِقَ كُلُّهُمْ إِلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩ - ٥٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧ - ٤٩] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ .

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَيْ : الْحَائِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَّةِ الْبَرِّيَّةِ وَفِي اللُّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ إِذَا هَاجَتِ الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ ، فَحِينَئِذٍ يُفَرِّدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٢] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أَيْ : جَهْرًا وَسِرًّا ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ أَيْ : مِنْ هَذِهِ الضَّائِقَةِ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : بَعْدَهَا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ ذَلِكَ

(١) وقد أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥) بسندٍ صحيح ، لكن المتن به ألفاظ مغايرة لما ورد في حديث البراء في هذا الصدد ، والله أعلم .

﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهِيَةِ آلِهَةً أُخْرَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لَمَّا قَالَ : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أَيْ : بَعْدَ إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((أَعُوذُ بِوَجْهِكَ)) ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قَالَ : ((أَعُوذُ بِوَجْهِكَ)) ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((هَذِهِ أَهْوَنُ - أَوْ - أَيْسَرُ))[١].

وَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى مَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، فَصَلَّيْنَا مَعَهُ فَنَاجَى رَبَّهُ ﷻ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : ((سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا : سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا))[٢].

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الرَّجْمُ ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْخَسْفُ . وَهَذَا هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ . وَقِيلَ : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يَعْنِي : أُمَرَاءَكُمْ ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : عَبِيدُكُمْ وَسَفَلَتُكُمْ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ صَحِيحٌ لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَظْهَرُ وَأَقْوَى وَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - وَيَشْهَدُ لَهُ بِالصِّحَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦ - ١٧] ، وَفِي الْحَدِيثِ : ((لَيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ))[٣] وَذَلِكَ مَذْكُورٌ مَعَ نَظَائِرِهِ فِي أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَظُهُورِ الْآيَاتِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَتَأْتِي فِي مَوْضِعِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

---

(١) البخاري (حديث ٤٦٢٨) .

(٢) مسلم (٢٨٩٠) بنحوه .

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٥٢) ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب . قلت : وفي سنده أبو صخر حميد ابن زياد فيه كلام .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ يَعْنِي : يَجْعَلُكُمْ مُلْتَبِسِينَ شِيَعًا فِرَقًا مُتَخَالِفِينَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : الْأَهْوَاءَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي : يُسَلِّطُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ . وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُهَا وَنُوَضِّحُهَا وَنُقَرِّرُهَا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنِ اللهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ وَالْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يَعْنِي : قُرَيْشًا ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وَلَسْتُ بِمُوَكَّلٍ بِكُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف : ٢٩] أَيْ : إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَعَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَمَنِ اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَيْ : لِكُلِّ نَبَأٍ حَقِيقَةٌ ، أَيْ : لِكُلِّ خَبَرٍ وُقُوعٌ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾[ص : ٨٨] ، وَقَالَ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أَيْ : بِالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أَيْ : حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللهِ ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ

مَوَاضِعِهَا ، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بَعْدَ التَّذَكُّرِ ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] . أَيْ : إِنَّكُمْ إِذَا جَلَسْتُمْ مَعَهُمْ وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ سَاوَيْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : إِذَا تَجَنَّبُوهُمْ فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ فَقَدْ بَرِئُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِثْمِهِمْ . عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَا عَلَيْكَ أَنْ يَخُوضُوا فِي آيَاتِ اللهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ، أَيْ : إِذَا تَجَنَّبْتَهُمْ وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ مَعْنَاهُ وَإِنْ جَلَسُوا مَعَهُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ النِّسَاءِ الْمَدَنِيَّةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ . وَعَلَى قَوْلِهِمْ يَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ أَمَرْنَاكُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ حِينَئِذٍ تَذْكِيرًا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : دَعْهُمْ وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَمْهِلْهُمْ قَلِيلًا ، فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : ذَكِّرِ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَحَذِّرْهُمْ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تُبْسَلَ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : ﴿ تُبْسَلَ ﴾ تُسْلَمُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : تُفْضَحُ . وَقِيلَ : تُحْبَسُ ، وَقِيلَ : تُؤَاخَذُ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى ، وَحَاصِلُهَا : الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ ،

وَالْحَبْس عَنِ الْخَيْرِ وَالِارْتِهَانِ عَنْ دَرْكِ الْمَطْلُوبِ كَقَوْلِهِ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ [المدثر : ٣٨-٣٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أَيْ : لَا قَرِيبَ وَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ فِيهَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أَيْ : وَلَوْ بَذَلَتْ كُلَّ مَبْذُولٍ مَا قُبِلَ مِنْهَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ [آل عمران : ٩١] . وَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣

قَالَ السُّدِّيُّ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتْرُكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أَيْ : فِي الْكُفْرِ ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فَيَكُونَ مَثَلُنَا مَثَلُ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ : مَثَلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ ائْتِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيق ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيهِمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الطَّرِيقِ ،

وَالطَّرِيقُ هُوَ : الْإِسْلَامُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَضَلَّتْهُ فِي الْأَرْضِ ، يَعْنِي : اسْتَهْوَتْهُ سِيرَتُهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ قَالَ : رَجُلٌ حَيْرَانٌ يَدْعُوهُ أَصْحَابُهُ إِلَى الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يَضِلَ بَعْدَ أَنْ هدِىَ ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر : ٣٧] وَقَالَ : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نُخْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : وَأَمَرَنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُدَبِّرُ لَهُمَا وَلِمَنْ فِيهِمَا . ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقُولُ اللهُ : كُنْ فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، وَيَوْمَ مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱتَّقُوه ﴾ وَتَقْدِيرُهُ : وَاتَّقُوا يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُون ، وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ وَهُوَ مُنَاسِبٌ ، وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ تَقْدِيرُهُ وَاذْكُرْ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ جُمْلَتَانِ مَحَلُّهُمَا الْجَرُّ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَه ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالصُّورِ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالصُّورِ : الْقَرْنِ الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عليه السلام . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ عِنْدَنَا مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ

إِسْرَافِيلَ(١) قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ». وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الصُّورُ ؟ قَالَ : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ »(٢).

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ النَّسَبِ : إِنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ اسْمُهُ تَارِخ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : آزَرَ : اِسْمُ صَنَمٍ . قُلْتُ : كَأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ آزَرَ لِخِدْمَتِهِ ذَلِكَ الصَّنَمَ - فَاللهُ أَعْلَمُ - .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ أَنَّ اِسْمَ أَبِيهِ آزَرَ ، ثُمَّ أَوْرَدَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلَ النَّسَّابِينَ أَنْ اِسْمَهُ تَارِخ ، ثُمَّ أَجَابَ : بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونَ لَهُ اِسْمَانِ كَمَا لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا لَقَبًا ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاهُ فَلَمْ يَنْتَهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ أَيْ : أَتَتَأَلَّهُ لِصَنَمٍ تَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أَيْ : السَّالِكِينَ مَسْلَكَكَ ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : تَائِهِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ ، بَلْ فِي حِيرَةٍ وَجَهْلٍ ، وَأَمْرُكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ صَحِيحٍ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ

(١) ذكر إسرافيل هنا لم أقف عليه بسند صحيح ، وإنما الوارد صاحب القرن وقد تقدم وهو صحيح .
(٢) صحيح : أحمد في المسند (٢/ ١٦٢) .

لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ - ٤٨] ، فَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ وَتَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ ذَلِكَ رَجَعَ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[1] : « **أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَلْقَى أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ لَهُ آزَرُ : يَا بُنَيَّ الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، وَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيُقَالُ : يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ مَا وَرَاءَكَ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ﷻ فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٨٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ **قِيلَ** : « الْوَاوُ » زَائِدَةٌ ، تَقْدِيرُهُ : وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ **وَقِيلَ** : بَلْ هِيَ عَلَى بَابِهَا ، أَيْ : نُرِيهِ ذَلِكَ لِيَكُونَ عَالِمًا وَمُوقِنًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أَيْ : تَغَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أَيْ : نَجْمًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أَيْ : غَابَ ، **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ** :

(١) البخاري (٣٣٥٠) .

الْأُفُولُ : الذَّهَابُ **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يُقَالُ أَفَلَ النَّجْمُ يَأْفِلُ وَيَأْفُلُ أُفُولًا وَأَفَلًا : إِذَا غَابَ . قَالَ : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أَيْ : طَالِعًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أَيْ : هَذَا الْمُنِيرُ الطَّالِعُ رَبِّي ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : جُرْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنَ الْقَمَرِ وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ أَيْ : غَابَتْ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أَيْ : أَخْلَصْتُ دِينِي ، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِي حَنِيفًا أَيْ : مَائِلًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ هَلْ هُوَ مَقَامُ نَظَرٍ أَوْ مُنَاظَرَةٍ ؟ فَقِيلَ** : أَنَّهُ مَقَامُ نَظَرٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ الْآيَةَ .

وَالْحَقُّ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ وَالْأَصْنَامِ ، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْأَرْضِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُوَرِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ . وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَطَأَهُمْ وَضَلَالَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ ، وَهِيَ : الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ السَّبْعَةُ الْمُتَحَيِّرَةُ وَهِيَ : الْقَمَرُ وَعُطَارِدُ وَالزُّهَرَةُ وَالشَّمْسُ وَالْمِرِّيخُ وَالْمُشْتَرَى وَزُحَل ، وَأَشَدُّهُنَّ إِضَاءَةً وَأَشْرَفُهُنَّ عِنْدَهُمُ الشَّمْسُ ثُمَّ الْقَمَرُ ثُمَّ الزُّهَرَةُ ، فَبَيَّنَ أَوَّلًا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ هَذِهِ الزُّهَرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ ، لِأَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ مُقَدَّرَةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ لَا تَزِيغُ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا تَصَرُّفًا ، بَلْ هِيَ جُرْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ ، خَلَقَهَا اللهُ مُنِيرَةً لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَهِيَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ ثُمَّ تَسِيرُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى تَغِيبَ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيهِ ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى

الْقَمَرِ فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْلَ مَا بَيَّنَ فِي النَّجْمِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الشَّمْسِ كَذَلِكَ ، فَلَمَّا انْتَفَتِ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَنْوَرُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُوَالَاتِهِنَّ ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَةً فَكِيدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخِّرَهَا وَمُقَدِّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي حَقِّهِ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥١-٥٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ١٢٠- ١٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١]

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ** » وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ** »(٢). وَقَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ سَائِرِ الْخَلِيقَةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ ، بَلْ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالسَّجِيَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا

(١) البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) .
(٢) مسلم (حديث ٢٨٦٥) .

المَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ لَا نَاظِرًا قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ جَادَلَهُ قَوْمُهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَنَاظَرُوهُ بِشُبَهٍ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ أَيْ : تُجَادِلُونَنِي فِي أَمْرِ الله ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الْحَقِّ ، وَأَنَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فَكَيْفَ أَلْتَفِتُ إِلَى أَقْوَالِكُمُ الْفَاسِدَةِ ، وَشُبَهِكُمُ الْبَاطِلَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِكُمْ فِيمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ : أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا تُؤَثِّرُ شَيْئًا ، وَأَنَا لَا أَخَافُهَا ، وَلَا أُبَالِيهَا ، فَإِنْ كَانَ لَهَا صُنْعٌ فَكِيدُونِي بِهَا ، وَلَا تُنْظِرُونِ بَلْ عَاجِلُونِي بِذَلِكَ . ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ : لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا اللهُ ﷻ : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ أَيْ : أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتَنْزَجِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهَا ، وَهَذِهِ الْحُجَّةُ نَظِيرُ مَا احْتَجَّ بِهَا نَبِيُّ الله هُودٌ عليه السلام عَلَى قَوْمِهِ « عَاد » فِيمَا قَصَّ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أَيْ : كَيْفَ أَخَافُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَيْ : حُجَّةٌ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَأَيُّ الطَّائِفَتَيْنِ أَصْوَبُ ، الَّذِي عَبَدَ مَنْ بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ أَو الَّذِي عَبَدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ ؟ أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، هُمُ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ**(١) : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولُ الله ﷺ : وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ **وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ**(٢) : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : « **إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ** : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ **إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ أَيْ : وَجَّهْنَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : بِذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ الْآيَة . وَقَدْ صَدَّقَهُ اللهُ وَحَكَمَ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، عَلِيمٌ أَيْ : بِمَنْ يَهْدِيه وَمَنْ يُضِلّهُ ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنَّ

(١) البخاري (حديث ٤٦٢٩) ، ومسلم (حديث ١٢٤) .
(٢) أحمد بسندٍ صحيح (١/ ٣٧٨ ، ٤٢٤) .

ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي السِّنِّ وَأَيِسَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَارَّةُ مِنَ الْوَلَدِ ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَتْ : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢ - ٧٣]، فَبَشَّرُوهُمَا مَعَ وُجُودِهِ بِنُبُوَّتِهِ وَبِأَنَّ لَهُ نَسْلًا وَعَقِبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢]، وَهَذَا أَكْمَلُ فِي الْبِشَارَةِ وَأَعْظَمُ فِي النِّعْمَةِ . وَقَالَ : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١]أَيْ : وَيُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا فَتَقِرَّ أَعْيُنُكُمَا بِهِ ، كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ ، فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ لِبَقَاءِ النَّسْلِ وَالْعَقِبِ ، وَلَمَّا كَانَ وَلَدُ الشَّيْخِ وَالشَّيْخَةِ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا يُعَقِّبُ لِضَعْفِهِ ، وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَبِوَلَدِهِ بِاسْمِ يَعْقُوبَ الَّذِي فِيهِ اشْتِقَاقُ الْعَقِبِ وَالذُّرِّيَّةِ ، وَكَانَ هَذَا مُجَازَاةً لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام

حِينَ اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وَتَرَكَهُمْ وَنَزَحَ عَنْهُمْ وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ ، ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ فِي الْأَرْضِ ، فَعَوَّضَهُ اللهُ ﷻ عَنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ بِأَوْلَادٍ صَالِحِينَ مِنْ صُلْبِهِ عَلَى دِينِهِ ، لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[مريم : ٤٩] ،**وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، أَمَّا نُوحٌ ﷺ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوهُ فِي السَّفِينَةِ جَعَلَ اللهُ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَأَمَّا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ فَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ ﷻ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾[مريم : ٥٨] ، **وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ أَيْ : وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾ الْآيَة ، وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى نُوحٍ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ . وَعَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ الَّذِي سِيقَ الْكَلَامُ مِنْ أَجْلِهِ حَسَنٌ ، لَكِنْ يُشْكِلُ عَلَى ذَلِكَ لُوطٌ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، بَلْ هُوَ ابْنُ أَخِيهِ مَارَان بْنِ آزَرَ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ دَخَلَ فِي الذُّرِّيَّةِ تَغْلِيبًا كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة : ١٣٣] ، فَإِسْمَاعِيلُ عَمُّهُ دَخَلَ فِي آبَائِهِ تَغْلِيبًا . وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر : ٣٠-٣١] ، فَدَخَلَ إِبْلِيسُ فِي أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ ، وَذُمَّ عَلَى الْمُخَالَفَةِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي تَشَبُّهٍ بِهِمْ فَعُومِلَ مُعَامَلَتَهُمْ وَدَخَلَ مَعَهُمْ تَغْلِيبًا ، وَإِلَّا فَهُوَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَطَبِيعَتُهُ مِنَ النَّارِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنَ النُّورِ ، وَفِي ذِكْرِ عِيسَى ﷺ فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ نُوحٍ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ دَلَالَةٌ عَلَى دُخُولِ وَلَدِ الْبَنَاتِ فِي ذُرِّيَّةِ الرَّجُلِ ، لِأَنَّ عِيسَى

عليه السلام إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِأُمِّهِ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - فَإِنَّهُ لَا أَبَ لَهُ . فَلِهَذَا إِذَا أَوْصَى الرَّجُلُ لِذُرِّيَّتِهِ ، أَوْ وَقَفَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ ، أَوْ وَهَبَهُمْ دَخَلَ أَوْلَادُ الْبَنَاتِ فِيهِمْ ، فَأَمَّا إِذَا أَعْطَى الرَّجُلُ بَنِيهِ أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ بَنُوهُ لِصُلْبِهِ وَبَنُو بَنِيهِ ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ

وَقَالَ آخَرُونَ : وَيَدْخُل بَنُو الْبَنَاتِ فِيهِمْ أَيْضًا ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ : « **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّد ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** »[1]. فَسَمَّاهُ ابْنًا فَدَلَّ عَلَى دُخُولِهِ فِي الْأَبْنَاءِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هَذَا تَجَوُّزٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ ذَكَرَ أُصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ وَذَوِي طَبَقَتِهِمْ ، وَأَنَّ الْهِدَايَةَ وَالِاجْتِبَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَهُمْ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ تَشْدِيدٌ لِأَمْرِ الشِّرْكِ وَتَغْلِيظٌ لِشَأْنِهِ وَتَعْظِيمٌ لِمُلَابَسَتِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وَهَذَا شَرْطٌ وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ الْوُقُوعِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ أَيْ : أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ وَلُطْفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أَيْ : بِالنُّبُوَّةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ : الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ مَكَّةَ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ يُكْفَرْ بِهَذِهِ النِّعَمِ مَنْ كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ

(١) البخاري (٧١٠٩) .

وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ وَمِلِّيِّينَ وَكِتَابِيِّينَ ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ أَيْ : الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَتْبَاعِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا : مُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ مَعَ مَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ وَهُمُ الْأَشْبَاهُ ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : هُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ لَا غَيْرُهُمْ ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ أَيْ : اقْتَدِ وَاتَّبِعْ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا لِلرَّسُولِ ﷺ فَأُمَّتُهُ تَبَعٌ لَهُ فِيمَا يُشَرِّعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ . **وَفِي الْبُخَارِيِّ**[1] **عَنْ مُجَاهِدٍ** أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَفِي ((ص)) سَجْدَةٌ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ تَلَا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : هُوَ مِنْهُمْ ، وَفِي رِوَايَةٍ زَادَ فَقَالَ : نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَيْ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى إِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا ، أَيْ : أُجْرَةً ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : يَتَذَكَّرُونَ بِهِ فَيَرْشُدُوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى ، وَمِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ .

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمَا عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ . **وَقِيلَ** : نَزَلَتْ فِي

---

(١) البخاري (٤٦٣٢) .

قُرَيْشٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ . وَقِيلَ : فِي فِنْحَاص رَجُلٍ مِنْهُمْ . وَقِيلَ : فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ : لأَنَّ الآيَةَ مَكِّيَّة ، وَالْيَهُودُ لَا يُنْكِرُونَ إِنْزَالَ الْكُتُبِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقُرَيْشٌ وَالْعَرَبُ قَاطِبَةً كَانُوا يَبْعُدُونَ إِرْسَالَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ كَمَا قَالَ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤-٩٥]، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِإِنْزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامَ بِإِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ مُوجِبَةٍ ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ يَعْنِي التَّوْرَاةَ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ أَنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمُشْكِلَاتِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلَمِ الشُّبُهَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : يَجْعَلُهَا حَمَلَتُهَا قَرَاطِيسَ أَيْ : قِطَعًا تَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي بِأَيْدِيكُمْ ، وَتُحَرِّفُونَ مِنْهَا مَا تُحَرِّفُونَ ، وَتُبَدِّلُونَ وَتَتَأَوَّلُونَ وَتَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، أَيْ : فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : وَمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ اللهُ فِيهِ مِنْ خَبَرِ مَا سَبَقَ وَنَبَأِ مَا يَأْتِي ، مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . قَالَ قَتَادَةُ : هَؤُلَاءِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هَذِهِ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : قُلِ اللهُ أَنْزَلَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ دَعْهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ يَلْعَبُونَ حَتَّى يَأْتِيَهِمْ مِنَ اللهِ الْيَقِينُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَلَهُمُ الْعَاقِبَةُ أَمْ لِعِبَادِ اللهِ الْمُتَّقِينَ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ

بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وَقَالَ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي**))(١) ، وَذَكَرَ مِنْهُنَّ ((**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**)) ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : يَقُومُونَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا .

وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَـٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَـٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله فَجَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ أَوْ وَلَدًا ، أَوِ ادَّعَى أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٌ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ** : نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ . ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : وَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِضُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله مِنَ الْوَحْيِ مِمَّا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَـٰذَآ ﴾ [الأنفال : ٣١]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ أَيْ : فِي سَكَرَاتِهِ

---

(١) صحيح: وقد تقدم .

وَغَمَرَاتِهِ وَكُرُبَاتِهِ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالضَّرْبِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾ [المائدة : ٢٨] . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة : ٢] . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالْعَذَابِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : بِالضَّرْبِ لَهُمْ حَتَّى تَخْرُجَ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْجَحِيمِ وَالْحَمِيمِ وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَتَتَفَرَّقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَتَعْصِي وَتَأْبَى الْخُرُوجَ ، فَتَضْرِبُهُم الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ ، قَائِلِينَ لَهُمْ : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى الله ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لِرُسُلِهِ .

وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي كَيْفِيَّةِ احْتِضَارِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَهِيَ مُقَرَّرَةٌ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ أَيْ : كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعَدْنَاكُمْ ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَبْعِدُونَهُ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ النِّعَمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي اقْتَنَيْتُمُوهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ تَقْرِيعٌ لَهُمْ

(١) مسلم (٢٩٥٨، ٢٩٥٩) .

وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، ظَانِّينَ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، إِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَقَطَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَانْزَاحَ الضَّلَالُ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ، وَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ . ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : ٦٢ - ٧٤] ، ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٢ - ٩٣] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ أَيْ : فِي الْعِبَادَةِ لَهُمْ فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قُرِئَ بِالرَّفْعِ أَيْ : شَمْلُكُمْ ، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ أَيْ : لَقَدْ انْقَطَعَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوُصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أَيْ : وَذَهَبَ عَنْكُمْ ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ - ١٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، أَيْ : يَشُقُّهُ فِي الثَّرَى ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الزُّرُوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنَ الْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُعُومِهَا

مِنَ النَّوَى ، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلَهُ : ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ بِقَوْلِهِ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ أَيْ : يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس : ٣٣ - ٣٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ . وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ لِلْمَعْنَى : فَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ ، وَمِنْ قَائِلٍ : يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ وَالْفَاجِرَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا الْآيَةُ وَتَشْمَلُهَا . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَاعِلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ ، فَتَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أَيْ : خَالِقُ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أَيْ : فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظَلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ فَيُضِيءُ الْوُجُودَ ، وَيَسْتَنِيرُ الْأُفُقَ ، وَيَضْمَحِلُّ الظَّلَامُ ، وَيُذْهِبُ اللَّيْلُ بِدَآدِئِهِ وَظَلَامِ رِوَاقِهِ وَيَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[الأعراف : ٥٤] ، فَبَيَّنَ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَقَابَلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أَيْ : سَاجِيًا مُظْلِمًا لِتَسْكُنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١-٢] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أَيْ : يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ ، بَلْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَنَازِلُ يَسْلُكُهَا فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طُولًا وَقِصَرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾[يونس : ٥] . وَقَالَ : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[الأعراف : ٥٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانِعُ وَلَا يُخَالِفُ ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَكَثِيرًا مَا إِذَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى خَلْقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَخْتِمُ الْكَلَامَ بِالْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ ، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[يس : ٣٧- ٣٨] ، وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ قَالَ : ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[فصلت : ١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مَنِ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَكَذَبَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَه . إِنَّ اللهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : قَدْ بَيَّنَّاهَا وَوَضَّحْنَاهَا ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : يَعْقِلُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيَجْتَنِبُونَ الْبَاطِلَ .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ عليه السلام ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[النساء : ١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى ذَلِكَ . **قَالَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْحَامِ ، قَالُوا - أَوْ أَكْثَرُهُمْ - ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أَيْ : فِي الْأَصْلَابِ

وَقَالَ آخَرُونَ : عَكْسُ ذَلِكَ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : فَمُسْتَقَرٌّ فِي الدُّنْيَا ، وَمُسْتَوْدَعٌ حَيْثُ يَمُوتُ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ : وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الأَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ وَيَعُونَ كَلَامَ اللهِ وَمَعْنَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أَيْ : بِقَدَرٍ مُبَارَكًا رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَإِحْيَاءً وَغِيَاثًا لِلْخَلَائِقِ ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِخَلْقِهِ ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠]﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أَيْ : زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَرَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَخْلُقُ فِيهِ الْحَبَّ وَالثَّمَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أَيْ : يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَالسَّنَابِلِ وَنَحْوِهَا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أَيْ : جَمْعُ قِنْوٍ وَهِيَ عُذُوقُ الرُّطَبِ ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أَيْ : قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ يَعْنِي : بِالْقِنْوَانِ الدَّانِيَةِ قِصَارُ النَّخْلِ اللَّاصِقَةِ عُذُوقُهَا بِالْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أَيْ : وَنُخْرِجُ مِنْهُ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَهَذَانِ النَّوْعَانِ هُمَا أَشْرَفُ الثِّمَارِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِجَازِ ، وَرُبَّمَا كَانَا خِيَارُ الثِّمَارِ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا امْتَنَّ اللهُ بِهِمَا عَلَى عِبَادِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧]وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، وَقَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ﴾ [يس : ٣٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ** : يَتَشَابَهُ فِي الْوَرَقِ وَالشَّكْلِ ، قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ، وَيَتَخَالَفُ فِي الثِّمَارِ شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أَيْ : نُضْجِهِ . **قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : فَكِّرُوا فِي قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ حَطَبًا صَارَ عِنَبًا وَرُطَبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى

ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد : ٤] . وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ لَأَيَٰتٍ ﴾ أَيْ : دَلَالَاتٍ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ وَأَشْرَكُوا بِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، أَنْ عَبَدُوا الْجِنَّ فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ . فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ عُبِدَتِ الْجِنُّ وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّهُمْ مَا عَبَدُوا الْأَصْنَامَ إِلَّا عَنْ طَاعَةِ الْجِنِّ وَأَمْرِهِمْ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١١٧ - ١٢٠] ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤١] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أَيْ : وَقَدْ خَلَقَهُمْ فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ ؟ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥-٩٦] ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يُنَبِّهُ بِهِ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا كَمَا يَزْعُمُهُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْيَهُودِ فِي عُزَيْرٍ ، وَمَنْ قَالَ مِنَ النَّصَارَى فِي عِيسَى ، وَمَنْ قَالَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ أَنَّهَا بَنَاتُ اللهِ . تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَمَعْنَى ﴿ خَرَقُوا ﴾ أَيْ : اِخْتَلَقُوا وَائْتَفَكُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَبُوا ، كَمَا قَالَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا :

وَجَعَلُوا لله الْجِنَّ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَهُوَ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِهِمْ بِغَيْرِ شَرِيكٍ وَلَا مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ ﴿ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ ﴾ . يَقُولُ : وَتَخَرَّصُوا لله كَذِبًا ، فَافْتَعَلُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بِحَقِيقَةِ مَا يَقُولُونَ وَلَكِنْ جَهْلًا بِالله وَبِعَظَمَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ إِلَهًا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَات وَلَا صَاحِبَةَ ، وَلَا أَنْ يُشْرِكَهُ فِي خَلْقِهِ شَرِيكٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ الضَّالُّونَ : مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَالْأَنْدَادِ ، وَالنُّظَرَاءِ ، وَالشُّرَكَاءِ .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مُبْدِعُهُمَا وَخَالِقُهُمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحْدِثُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْبِدْعَةُ بِدْعَةً ؛ لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهَا فِيمَا سَلَفَ ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أَيْ : وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُنَاسِبهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [الكهف : ٨٨ - ٩٥]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تُنَاسِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ أَيْ : فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَقِرُّوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا وَالِدَ وَلَا

صَاحِبَةَ لَهُ ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أَيْ : حَفِيظٌ وَرَقِيبٌ يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلَأُهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ **فِيهِ أَقْوَالٌ لِلْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ : أَحَدُهَا** : لَا تُدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ . **كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ** : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، وَفِي رِوَايَةٍ - عَلَى اللهِ - فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ (١). وَقَدْ خَالَفَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ فَعَنْهُ إِطْلَاقُ الرُّؤْيَةِ ، وَعَنْهُ أَنَّهُ رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ ، وَالْمَسْأَلَةُ تُذْكَرُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّجْمِ إِنْ شَاءَ اللهُ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : جَمِيعُهَا ، وَهَذَا مُخَصَّصٌ بِمَا ثَبَتَ مِنْ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ** بِمُقْتَضَى مَا فَهِمُوهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّهُ لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، فَخَالَفُوا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي ذَلِكَ ، مَعَ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْجَهْلِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ . أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْكَافِرِينَ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ : فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُحْجَبُونَ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَجَرِيرٍ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْعَرَصَاتِ وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ آمِينَ . **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : الْعُقُولُ ، وَهَذَا غَرِيبٌ جِدًّا وَخِلَافُ ظَاهِرِ الْآيَةِ ، وَكَأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الْإِدْرَاكَ فِي مَعْنَى الرُّؤْيَةِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - . **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَنَفْيِ الْإِدْرَاكِ ، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ أَخَصُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْأَخَصِّ انْتِفَاءُ الْأَعَمِّ . ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي الْإِدْرَاكِ الْمَنْفِيِّ مَا هُوَ ؟ فَقِيلَ : مَعْرِفَةُ الْحَقِيقَةِ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَنَّ

---

(١) البخاري (حديث ٣٢٣٤) .

مَنْ رَأَى الْقَمَرَ فَإِنَّهُ لا يُدْرِكُ حَقِيقَتَهُ وَكُنْهَهُ وَمَاهِيَّتَهُ ، فَالْعَظِيمُ أَوْلَى بِذَلِكَ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى . وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُرَادُ بِالْإِدْرَاكِ : الْإِحَاطَةُ ، قَالُوا : وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ الْإِحَاطَةِ عَدَمُ الرُّؤْيَةِ كَمَا لَا يَلْزَم مِنْ عَدَمِ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ عَدَمُ الْعِلْمِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[1] : ((**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**)) وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ الثَّنَاءِ فَكَذَلِكَ هَذَا .

كَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تُثْبِتُ الرُّؤْيَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَتَنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا ، وَتَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ فَالَّذِي نَفَتْهُ الْإِدْرَاكُ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَةِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِلْبَشَرِ وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ وَلَا لِشَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ خَلَقَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤]، وَقَدْ يَكُونُ عَبَّرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لَا يَرَاهُ شَيْءٌ وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ ، **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ قَالَ : اللَّطِيفُ بِاسْتِخْرَاجِهَا الْخَبِيرُ بِمَكَانِهَا - وَاللهُ أَعْلَمُ -. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ لُقْمَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ ابْنَهُ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦]

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

الْبَصَائِرُ : هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجَجُ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ قَالَ : ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّهَا

(١) حديث رقم (٤٨٦) .

لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أَيْ : بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ ، بَلْ إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أَيْ : وَكَمَا فَصَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، هَكَذَا نُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُبَيِّنُهَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ لِجَهَالَةِ الْجَاهِلِينَ ، وَلِيَقُولَ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ الْمُكَذِّبُونَ : دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ . هَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ [الفرقان : ٤ - ٥] ، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ زَعِيمِهِمْ وَكَاذِبِهِمْ : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ١٨ - ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : وَلِنُوَضِّحَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِضْلَالِ أُولَئِكَ وَبَيَانِ الْحَقِّ لِهَؤُلَاءِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٣ - ٥٤] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ وَأَنَّهُ يُضِلُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « **وَلِيَقُولُوا دَارَسْت** » قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ أَيْضًا : أَيْ : قَرَأْتَ وَتَعَلَّمْتَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسَت ﴾ أَيْ : تَقَادَمَتْ وَانْمَحَتْ .

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُ: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ: اِقْتَدِ بِهِ وَاقْتَفِ أَثَرَهُ وَاعْمَلْ بِهِ، فَإِنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ: اُعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لَكَ وَيَنْصُرَكَ وَيُظْفِرَكَ عَلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ للهِ حِكْمَةً فِي إِضْلَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أَيْ: بَلْ لَهُ الْمَشِيئَةُ وَالْحِكْمَةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارُهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَيْ: حَافِظًا تَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ: مُوَكَّلٌ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَقَالَ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ إِلَّا أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتَنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ. فَنَهَاهُمُ اللهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ رَوَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - وَهُوَ تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحُ مِنْهَا - مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ(١)

(١) أخرج مسلم في صحيحه (حديث ١٩٧٨) من حديث عليٍّ ﷺ مرفوعا « لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ »، وأخرج البخاري (٥٩٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ: « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ ».

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : ((**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أَيْ : وَكَمَا زَيَّنَّا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ حُبَّ أَصْنَامِهِمْ وَالْمُحَامَاةِ لَهَا وَالِانْتِصَارِ ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ ﴿ عَمَلَهُمْ ﴾ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَيْ : حَلَفُوا أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ أَيْ : مُعْجِزَةٌ وَخَارِقٌ ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ أَيْ : لَيُصَدِّقُنَّهَا ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعَنُّتًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالِاسْتِرْشَادِ : إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى الله ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ بِهَا وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ كَمَا قَالَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قِيلَ الْمُخَاطَبُ بِمَا يُشْعِرُكُمُ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ : وَمَا يُدْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ فِي هَذِهِ الْأَيْمَانِ الَّتِي تَقْسِمُونَ بِهَا ، وَعَلَى هَذَا فَالْقِرَاءَةُ ﴿ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بِكَسْرِ إِنَّهَا عَلَى اسْتِئْنَافِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ بِنَفْيِ الْإِيمَانِ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ((**أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ**)) بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقٍ . وَقِيلَ : الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ الْمُؤْمِنُونَ ، يَقُولُ : وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَعَلَى هَذَا فَيَجُوزُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنَّهَا ﴾ الْكَسْرُ كَالْأَوَّلِ وَالْفَتْحُ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولُ يُشْعِرُكُمْ ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ ((لَا)) فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صِلَةٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، أَيْ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ،

وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى إِيمَانِهِمْ - أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ ، **قَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ أَنَّهَا ﴾ بِمَعْنَى لَعَلَّهَا . وَقَدِ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَذَكَرَ عَلَيْهِ شَوَاهِدَ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَنَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أَيْ : نَتْرُكُهُمْ ﴿ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : فِي كُفْرِهِمْ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : فِي ضَلَالِهِمْ ﴿ يَعْمَهُون ﴾ فِي كُفْرِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ أَنَّنَا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، فَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ تُخْبِرُهُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللهِ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ ، كَمَا سَأَلُوا فَقَالُوا : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢١] ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ : « قِبَلًا » بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : بِضَمِّهِمَا ، **قِيلَ** : مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ أَيْضًا . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ قُبُلا ﴾ أَيْ : أَفْوَاجًا قَبِيلًا قَبِيلًا ، أَيْ : تَعْرِضُ عَلَيْهِمْ كُلَّ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةٍ ، فَيُخْبِرُونَهُمْ بِصِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : إِنَّ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧]

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءً يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءً فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ ﴾ الْآيَة . وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : لَهُمْ أَعْدَاءٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَالشَّيْطَانُ : كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ بِالشَّرِّ ، وَلَا يُعَادِي الرُّسُلَ إِلَّا الشَّيَاطِينُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ - قَبَّحَهُمُ اللهُ وَلَعَنَهُمْ - وَشَيْطَانُ كُلِّ شَيْءٍ مَارِدُهُ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ**))(٢) وَمَعْنَاهُ ، - وَاللهُ أَعْلَمُ -: شَيْطَانٌ فِي الْكِلَابِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أَيْ : يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُزَيَّنَ الْمُزَخْرَفَ ، وَهُوَ الْمُزَوَّقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهَلَةِ بِأَمْرِهِ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيْ : وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أَيْ : فَدَعْهُمْ ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ ، أَيْ : دَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي عَدَاوَتِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ ، أَيْ : وَلِتَمِيلَ إِلَيْهِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ أَيْ : يُحِبُّوهُ وَيُرِيدُوهُ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣]

(١) البخاري حديث (٤) ، ومسلم حديث (١٦٠) .
(٢) مسلم (حديث ٥١٠) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : وَلِيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ ، وَقِيلَ : وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ .

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أَيْ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أَيْ : مُبَيَّنًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤] ، وَهَذَا شَرْطٌ وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي وُقُوعَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : صِدْقًا فِيمَا قَالَ وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ . يَقُولُ : صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ ، فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، وَكُلُّ مَا أُمِرَ بِهِ فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عَدْلَ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِلٌ فَإِنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ مَفْسَدَةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ يُعَقِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِم الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الصافات : ٧١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف : ١٠٣] ، وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ بَاطِلٍ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فَإِنَّ الْخَرْصَ : هُوَ الْحَزْرُ ، وَمِنْهُ خَرْصُ النَّخْلِ وَهُوَ : حَزْرُ مَا عَلَيْهَا مِنَ التَّمْرِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فَيُيَسِّرُهُ لِذَلِكَ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فَيُيَسِّرُهُمْ لِذَلِكَ « **وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » .

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الذَّبَائِحِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُ لَا يُبَاحُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، كَمَا كَانَ يَسْتَبِيحُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَاتِ ، وَأَكْلِ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ نُدِبَ إِلَى الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَّحَهُ ، **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ فَصَّلَ ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ، **وَقَرَأَ آخَرُونَ** بِالتَّخْفِيفِ وَالْكُلُّ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : إِلَّا فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى جَهَالَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ فِي اسْتِحْلَالِهِمُ الْمَيْتَاتِ وَمَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللهِ تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ .

وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ مَعْصِيَتَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : ظَاهِرُهُ الزِّنَا مَعَ الْبَغَايَا ذَوَاتِ الرَّايَاتِ ، وَبَاطِنُهُ الزِّنَا مَعَ الْخَلِيلَةِ وَالصَّدَائِقِ وَالْأَخْدَانِ ، وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا فَإِنَّ اللهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ . عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْإِثْمِ فَقَالَ : « الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ »[١].

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا وَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا تَحِلُّ هَذِهِ الذَّبِيحَةُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَسَوَاءٌ مَتْرُوكُ التَّسْمِيَةِ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا ، وَهُوَ قَوْلُ فَرِيقٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ، وَاحْتَجُّوا لِمَذْهَبِهِمْ هَذَا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِقَوْلِهِ فِي آيَةِ الصَّيْدِ : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤] ثُمَّ قَدْ أَكَّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ، وَالضَّمِيرُ قِيلَ : عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ ، وَقِيلَ : عَائِدٌ عَلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ ، وَبِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ وَالصَّيْدِ كَحَدِيثَيْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَأَبِي ثَعْلَبَةَ : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ »[٢] ، وَحَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ »[٣] ، وَحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلْجِنِّ : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ

(١) مسلم (حديث ٢٥٥٣) .
(٢) صحيح: وقد تقدم في سورة المائدة .
(٣) صحيح: وقد تقدم في سورة المائدة .

ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ))(١) ، وَحَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله**))(٢). وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ الله إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ قَالَ : ((**سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوا**))(٣) قَالَتْ : وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْكُفْرِ .

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُمْ فَهِمُوا أَنَّ التَّسْمِيَةَ لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَخَشَوْا أَنْ لَا تَكُونَ وُجِدَتْ مِنْ أُولَئِكَ لِحَدَاثَةِ إِسْلَامِهِمْ ، فَأَمَرَهُمْ بِالِاحْتِيَاطِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ ، لِتَكُونَ كَالْعِوَضِ عَنِ الْمَتْرُوكَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ إِنْ لَمْ تَكُنْ وُجِدَتْ ، وَأَمَرَهُمْ بِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى السَّدَادِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي فِي الْمَسْأَلَةِ : أَنَّهُ لَا يَشْتَرِطُ التَّسْمِيَةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ فَإِنْ تُرِكَتْ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا لَمْ يَضُرَّ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَجَمِيعُ أَصْحَابِهِ ، وَرِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَرِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ . وَحُكِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيْضًا ، وَحَمَلَ الشَّافِعِيُّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ عَلَى مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ الله كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . وَاحْتَجَّ الْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا بِحَدِيثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - الْمُتَقَدِّمُ : أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ الله إِنَّ قَوْمًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ يَأْتُونَنَا بِلَحْمٍ لَا نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ : ((**سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا**)) قَالُوا : فَلَوْ كَانَ وُجُودُ التَّسْمِيَةِ شَرْطًا لَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ إِلَّا مَعَ تَحَقُّقِهَا - وَاللهُ أَعْلَمُ .

الْمَذْهَبُ الثَّالِثُ فِي الْمَسْأَلَةِ : إِنْ تَرَكَ الْبَسْمَلَةَ عَلَى الذَّبِيحَةِ نِسْيَانًا لَمْ يَضُرَّ ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَمْدًا لَمْ تَحِلَّ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَبِهِ يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ وَهُوَ مَحْكِيٌّ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَرَأْيُ الْأَكْثَرِينَ . **وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ** - رَحِمَهُ اللهُ -:

---

(١) مسلم (حديث ٤٥٠) .
(٢) البخاري (حديث ٩٨٥) ، ومسلم (حديث ١٩٦٠) .
(٣) البخاري (٢٠٥٧) .

مَنْ حَرَّمَ ذَبِيحَةَ النَّاسِي فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ جَمِيعِ الْحُجَّةِ ، وَخَالَفَ الْخَبَرَ الثَّابِتَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ **عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ** : قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، قَالَ : صَدَقَ ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَة : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ . **وَعَنْ أَبِي زُمَيْلٍ قَالَ** : كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَجَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ زَعَمَ أَبُو إِسْحَاقَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : صَدَقَ ، فَنَفَرْتُ ، وَقُلْتُ : يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ صَدَقَ ؟. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمَا وَحْيَانِ وَحْيُ الله وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ ، فَوَحْيُ الله إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ الله لَكُمْ وَشَرْعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١]

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مَيْتًا ، أَيْ : فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا فَأَحْيَاهُ اللهُ ، أَيْ : أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ ، وَالنُّورُ : هُوَ الْقُرْآنُ . وَقِيلَ : الْإِسْلَامُ ، وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ ، أَيْ : الْجَهَالَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : لَا يَهْتَدِي إِلَى مَنْفَذٍ وَلَا مُخَلِّصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى ، وَمَنْ**

(١) في سنده أبو حذيفة موسى بن مسعود ، من العلماء من وثقه ، وكثيرون قد تكلموا فيه .
ومثل هذا الأثر يُحسن إسناده ، والله أعلم .

أَخْطَأَهُ ضَلَّ »(١) كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَوَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ فِي ضَرْبِ الْمَثَلَيْنِ هَهُنَا بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ لِمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ . وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْمَثَلِ رَجُلَانِ مُعَيَّنَانِ ، فَقِيلَ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ هُوَ الَّذِي كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، **وَقِيلَ** : عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَأَمَّا الَّذِي فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا : أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ - لَعَنَهُ اللهُ - **وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ** يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : حَسَّنَّا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ ، قَدَرًا مِنَ اللهِ وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكَابِرَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاةً إِلَى الْكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَإِلَى مُخَالَفَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ ، كَذَلِكَ كَانَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦] **قِيلَ** : مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَخَالَفُوا فَدَمَّرْنَاهُمْ ، **وَقِيلَ** : أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدَرِيًّا كَمَا قَالَ هَهُنَا ﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ . **وَرَوَى**

(١) حسن : أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) .

بَعْض أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ قَالَ : سَلَّطْنَا شِرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ . وَقَالَ آخَرونَ : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ قَالَ : عُظَمَاؤُهَا .

قُلْتُ : وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٤-٣٥] وَالْمُرَادُ بِالْمَكْرِ هَهُنَا : دُعَاؤُهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ نُوحٍ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : ٢٢] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [سبأ : ٣١-٣٣] ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ قَالَ : كُلُّ مَكْرٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ عَمَلٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَعُودُ وَبَالُ مَكْرِهِمْ ذَلِكَ ، وَإِضْلَالِهِمْ مَنْ أَضَلُّوهُ إِلَّا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : حَتَّى تَأْتِينَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللهِ بِالرِّسَالَةِ ، كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان : ٢١] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣١- ٣٢] يَعْنُونَ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ جَلِيلٍ مُبَجَّلٍ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴿ مِّنَ

ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ أَيْ : مِنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - قَبَّحَهُمُ اللهُ - كَانُوا يَزْدَرُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ بَغْيًا وَحَسَدًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هَذَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَنْشَئِهِ - صَلَّى اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ - حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهَمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ « الْأَمِين » وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَئِيسُ الْكُفَّارِ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ سَأَلَهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟ قَالَ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ ، قَالَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قَالَ : لَا الْحَدِيثُ[1] بِطُولِهِ الَّذِي اسْتَدَلَّ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ ﷺ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ ، وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ .

وَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** »[2] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا ، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ** »[3].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ[4].

---

(١) أخرجه البخاري بطوله (حديث رقم ٧) .
(٢) مسلم (٢٢٧٦) .
(٣) البخاري (٣٥٥٧) .
(٤) **سنده حسن** : أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٧٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الْآيَة . هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ الله ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَالِانْقِيَادِ لَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي الله صَغَارٌ وَهُوَ الذِّلَّةُ الدَّائِمَةُ ، كَمَا أَنَّهُمْ اِسْتَكْبَرُوا أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] أَيْ : صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ لَمَّا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ خَفِيًّا ، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحَيُّلِ وَالْخَدِيعَةِ ، قُوبِلُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أَيْ : تَظْهَرُ الْمُسْتَتِرَاتُ وَالْمَكْنُونَاتُ وَالضَّمَائِرُ ، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ** »[1] ، وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا : أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْغَدْرُ خَفِيًّا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَصِيرُ عَلَمًا مَنْشُورًا عَلَى صَاحِبِهِ بِمَا فَعَلَ .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ أَيْ : يُيَسِّرُهُ لَهُ وَيُنَشِّطُهُ وَيُسَهِّلُهُ لِذَلِكَ ، فَهَذِهِ عَلَامَةٌ عَلَى الْخَيْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : يُوَسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قُرِئَ بِفَتْحِ الضَّادِ وَتَسْكِينِ الْيَاءِ ، وَالْأَكْثَرُونَ ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا ، وَهُمَا لُغَتَانِ كَهَيْنٍ وَهَيِّنٍ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ « **حَرِجًا** » بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ ، **قِيلَ** : بِمَعْنَى أَثِمَ ، قَالَهُ

(١) البخاري (٦١٧٧) ، ومسلم (١٧٣٥) .

السُّدِّيُّ . **وَقِيلَ** : بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ﴿ حَرَجًا ﴾ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَالرَّاءِ وَهُوَ : الَّذِي لَا يَتَّسِعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَا يَنْفَعهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَنْفُذُ فِيهِ . وَذُكِرَ فِي تَفْسِيرِ الْحَرَجِ أَقْوَالًا مِنْهَا : شَاكًّا . وَمِنْهَا : لَيْسَ لِلْخَيْرِ فِيهِ مَنْفَذٌ . وَمِنْهَا ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَتَّى لا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَدْخُلَ قَلْبَهُ ، كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ . وَمِنْهَا : لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعُدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ . **وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْن جَرِير**(١) : وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ تَضْيِيقِهِ إِيَّاهُ عَنْ وُصُولِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ ، يَقُولُ : فَمَثَلُهُ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضِيقِهِ عَنْ وُصُولِهِ إِلَيْهِ مَثَلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ عَنْهُ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يَقُولُ : كَمَا يَجْعَلُ اللهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّنْ أَبَى الْإِيمَانَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَيُغْوِيَهُ وَيَصُدَّهُ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . **قِيلَ** : الرِّجْسُ : الشَّيْطَانُ . **وَقِيلَ** : كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ ، **وَقِيلَ** : الْعَذَابُ .

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِّينَ عَنْهَا نَبَّهَ عَلَى أَشْرَفِ مَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ ، أَيْ : هَذَا الدِّينُ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : وَضَّحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يعْقِلُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ . ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا وَصَفَ اللهُ الْجَنَّةَ هَهُنَا بِدَارِ السَّلَامِ لِسَلَامَتِهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُقْتَفِي أَثَرَ الْأَنْبِيَاءِ

(١) في تفسيره (١٢/ ١٠٩) .

وَطَرَائِقَهُمْ ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الاِعْوِجَاجِ أَفْضَوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أَيْ : وَالسَّلَامُ - وَهُوَ اللهُ - وَلِيُّهُمْ أَيْ : حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ تَوَلَّاهُمْ وَأَثَابَهُم الْجَنَّةَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا تَقُصُّهُ عَلَيْهِمْ وَتُذَكِّرُهُمْ بِهِ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يَعْنِي : الْجِنَّ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَعُوذُونَ بِهِمْ وَيُطِيعُونَهُمْ وَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أَيْ : يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ، وَسِيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أَيْ : مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٠-٦٢] ، فَقَوْلُهُ : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ يَعْنِي : أَضْلَلْتُمْ مِنْهُمْ كَثِيرًا ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ . ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا : مُجِيبِينَ للهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذَا ، **رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ**[1] عَنِ الْحَسَنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : اِسْتَكْثَرَ رَبُّكُمْ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ . قَالَ الْحَسَنُ : وَمَا كَانَ اِسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إِلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتِ الْإِنْسَ . **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُ الْأَرْضَ فَيَقُولُ : أَعُوذُ بِكَبِيرِ هَذَا الْوَادِي ، فَذَلِكَ اِسْتِمْتَاعُهُمَا فَاعْتَذَرُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَمَّا اِسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَإِنَّهُ كَانَ فِيمَا ذُكِرَ مَا يَنَالُ الْجِنَّ مِنَ الْإِنْسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي اِسْتِعَانَتِهِمْ بِهِمْ ، فَيَقُولُونَ : قَدْ سُدْنَا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ ﴿ وَبَلَغْنَآ

---

(١) في التفسير (٤/ ٧٨٩٠) .

أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَعْنِي : المَوْتَ ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : مَأْوَاكُمْ وَمَنْزِلَكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَاؤُكُمْ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَرْجِعُ مَعْنَى الاِسْتِثْنَاءِ إِلَى الْبَرْزَخِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذَا رَدٌّ إِلَى مُدَّةِ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي سَيَأْتِي تَقْرِيرُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٧]

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِهَا : إِنَّمَا يُوَلِّي اللهُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَالْمُؤْمِنُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِ أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ ، وَالْكَافِرُ وَلِيُّ الْكَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ ، لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي . وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾ قَالَ ظَالِمِي الْجِنِّ وَظَالِمِي الْإِنْسِ ، وَقَرَأَ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] قَالَ : وَنُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الْجِنِّ عَلَى ظَلَمَةِ الْإِنْسِ . **وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ مِنَ الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَغْوَتْهُمْ مِنَ الْجِنِّ ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَنُهْلِكُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، وَنَنْتَقِمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يَقْرَعُ اللهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ - هَلْ بَلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ رِسَالَاتِهِ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِير ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ جُمْلَتِكُمْ ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . **وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ**

الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَفِي الاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ ؛ لأَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ ، وَهِيَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢٢] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجَانِ مِنَ الْمِلْحِ لَا مِنَ الْحُلْوِ ، وَهَذَا وَاضِحٌ وَللهِ الْحَمْدُ ، وَقَدْ نَصَّ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ بِعَيْنِهِ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٥] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجِنِّ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بِبَعْثَتِهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِنَّ تَبَعٌ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩-٣٢]

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ أَيْ : أَقْرَرْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَاتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : وَقَدْ فَرَّطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا

وَهَلَكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلْمُعْجِزَاتِ لِمَا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَعْذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ ، لِئَلَّا يُعَاقِبَ أَحَدًا بِظُلْمِهِ ، وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ ، وَلَكِنْ أَعْذَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ ، وَمَا عَذَّبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ : وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وَجْهَيْنِ : **أَحَدُهُمَا** : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مِنْ أَجْلِ ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ بِظُلْمِ أَهْلِهَا بِالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ يَقُول : لَمْ يَكُنْ يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يُنَبِّهُهُمْ عَلَى حُجَجِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُنْذِرهُمْ عَذَابَ اللهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُؤَاخِذُهُمْ غَفْلَةً فَيَقُولُوا : ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يَقُولُ : لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ لِيُهْلِكَهُمْ دُونَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ ، فَيَظْلِمَهُمْ بِذَلِكَ ، وَاللهُ غَيْرُ ظَلَّامٍ لِعَبِيدِهِ ، ثُمَّ شَرَعَ يُرَجِّحُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَقْوَى - وَاللهُ أَعْلَمُ - . **قَالَ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : وَلِكُلِّ عَامِلٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبُ وَمَنَازِلُ مِنْ عَمَلِهِ ، يُبْلِغُهُ اللهُ إِيَّاهَا ، وَيُثِيبُهُ بِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : وَلِكُلِّ عَامِلٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مِنْ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، أَيْ : وَلِكُلٍّ دَرَجَةٍ فِي النَّارِ بِحَسَبِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَيْ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِعِلْمٍ مِنْ رَبِّكَ يُحْصِيهَا وَيُثْبِتُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ إِيَّاهُ ، وَمَعَادهمْ إِلَيْهِ .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أَيْ : عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ﴿ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أَيْ : وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣]

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : قَوْمًا آخَرِينَ ، أَيْ : يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، سَهْلٌ عَلَيْهِ ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونَ الْأُولَى وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدَهَا ، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِتْيَانِ بِآخَرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ المَعَادِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ : وَلَا تُعْجِزُونَ اللهَ ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ تُرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا ، هُوَ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، أَيْ : اِسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاحِيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى ، فَأَنَا مُسْتَمِرٌّ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود : ١٢١ - ١٢٢] ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : تَكُونُ لِي أَوْ لَكُمْ ؟ وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ مَوْعُودَهُ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكَّنَ لَهُ فِي الْبِلَادِ ، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَأَهُ ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَى سَائِرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَكَذَلِكَ الْيَمَنَ وَالْبَحْرَيْنِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ ، ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَمْصَارُ وَالْأَقَالِيمُ وَالرَّسَاتِيق بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فِي أَيَّامِ خُلَفَائِهِ ﷺ أَجْمَعِينَ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٥٥] ، وَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هَذَا ذَمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اِبْتَدَعُوا بِدَعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًا ، وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ وَجُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أَيْ : مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأَ ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ أَيْ : مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا ﴾ أَيْ : جُزْءًا وَقِسْمًا ﴿ فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآبِهِمْ ﴾ **رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ** : إِنَّ أَعْدَاءَ الله كَانُوا إِذَا حَرَثُوا حَرْثًا أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ جَعَلُوا لله مِنْهُ جُزْءًا ، وَلِلْوَثَنِ جُزْءًا ، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الأَوْثَانِ حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ ، وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سُمِّيَ لِلصَّمَدِ رَدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ المَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لله جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَثَنِ ، وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الحَرْثِ وَالثَّمَرَةِ الَّتِي جَعَلُوهَا لله فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ قَالُوا : هَذَا فَقِيرٌ وَلَمْ يَرُدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لله ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ المَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لله فَسَقَى مَا سُمِّيَ لِلْوَثَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَثَنِ ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالحَامَ فَيَجْعَلُونَهُ لِلأَوْثَانِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَةً لله **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ الآيَة ، **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : كُلُّ شَيْءٍ جَعَلُوهُ لله مِنْ ذِبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الآلِهَةِ ، وَمَا كَانَ لِلآلِهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ الله مَعَهُ ، وَقَرَأَ الآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ فَإِنَّهُمْ أَخْطَئُوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمَةِ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَلَهُ المُلْكُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، لَا إِلَه غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا لَمْ يَحْفَظُوا القِسْمَةَ الَّتِي هِيَ فَاسِدَةٌ بَلْ جَارُوا فِيهَا كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا زَيَّنَتِ الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ أَنْ يَجْعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ، كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ خَشْيَةَ الإِمْلَاقِ ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : أَمَرَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتَ إِمَّا لِيُرْدُوهُمْ فَيُهْلِكُوهُمْ وَإِمَّا لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ . أَيْ : فَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ،

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩]، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ - ٩]، وَقَدْ كَانُوا أَيْضًا يَقْتُلُونَ الْأَوْلَادَ مِنَ الْإِمْلَاقِ وَهُوَ الْفَقْرُ ، أَوْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ فِي تَلَفِ الْمَالِ ، وَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ لِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ شَرْعِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أَيْ : كُلُّ هَذَا وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى ، وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : فَدَعْهُمْ وَاجْتَنِبْهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسَيَحْكُمُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ .

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الْحِجْرُ : الْحَرَامُ مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا . **وَقَالَ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : ﴿ حِجْرٌ ﴾ إِنَّمَا احْتَجَزُوهَا لِآلِهَتِهِمْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يَقُولُونَ حَرَامٌ أَنْ تُطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩]، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فَهِيَ : الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامُ ، وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا . قَالَ : لَا إِذَا أَوْلَدُوهَا وَلَا إِنْ نَحَرُوهَا . **عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ قَالَ لِي أَبُو وَائِلٍ** : أَتَدْرِي مَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ قُلْتُ : لَا . قَالَ : هِيَ الْبَحِيرَةُ كَانُوا لَا يَحُجُّونَ عَلَيْهَا . ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : عَلَى اللهِ ، وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رَضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ .

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَاثِهِمْ وَيَشْرَبُهُ ذُكْرَانُهُمْ ، وَكَانَتِ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ ، وَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ ، وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْبَحِيرَةُ لَا يَأْكُلُ مِنْ لَبَنِهَا إِلَّا الرِّجَالُ ، وَإِنْ مَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أَيْ : قَوْلُهُمُ الْكَذِبَ فِي ذَلِكَ . يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل ١١٦-] ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ بِكَذِبِهِمْ عَلَى اللهِ وَافْتِرَائِهِمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩- ٧٠] **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ**[1] : إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ « سُورَةِ الْأَنْعَامِ » .

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه (٣٥٢٤) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَقَسَّمُوهَا وَجَزَّءُوهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ **قِيلَ فِي الْمَعْرُوشَاتِ** : مَا عَرَّشَ النَّاسُ ، ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ مَا عُرِّشَ مِنَ الْكَرْمِ ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ مَا لَمْ يُعَرَّشْ مِنَ الْكَرْمِ ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : ﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ قَالَ : مُتَشَابِهًا فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي الْمَطْعَمِ ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ قَالَ مِنْ رُطَبِهِ وَعِنَبِهِ ، ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : قَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ « **مِنْ كُلِّ جَادٍّ عَشْرَةَ أَوْسَقٍ مِنَ التَّمْرِ بِقِنْوٍ يُعَلَّقُ فِي الْمَسْجِدِ لِلْمَسَاكِينِ** » وَهَذَا إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ[1]. **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ حَقٌّ آخَرُ سِوَى الزَّكَاةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هَذَا كُلُّهُ شَيْءٌ كَانَ وَاجِبًا ثُمَّ نَسَخَهُ اللهُ بِالْعُشْرِ أَوْ نِصْفِ الْعُشْرِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ . **قُلْتُ** : وَفِي تَسْمِيَةِ هَذَا نَسْخًا نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ شَيْئًا وَاجِبًا فِي الْأَصْلِ ، ثُمَّ إِنَّهُ فَصَّلَ بَيَانَهُ وَبَيَّنَ مِقْدَارَ الْمُخْرَجِ وَكَمِّيَّتَهُ ، **قَالُوا** : وَكَانَ هَذَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ يَصْرِمُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ كَمَا ذَكَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي سُورَةِ ﴿ ن ﴾ ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠).

حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[القلم: ١٧- ٣٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ لَا تُسْرِفُوا فِي الْإِعْطَاءِ فَتُعْطُوا فَوْقَ المَعْرُوفِ . **وَعَنْ عَطَاءٍ** : نُهُوا عَنِ السَّرَفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، **وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ** : مَا جَاوَزْتَ بِهِ أَمْرَ اللهِ فَهُوَ سَرَفٌ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ قَالَ : لَا تُعْطُوا أَمْوَالَكُمْ فَتَقْعُدُوا فُقَرَاءَ . ثُمَّ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ عَطَاءٍ : أَنَّهُ نَهْيٌ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ صَحِيحٌ ، لَكِنَّ الظَّاهِرَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ ، أَيْ : لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضَرَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١] ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ تَعْلِيقًا[١] ((**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**)) ، وَهَذَا مِنْ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ أَيْ : وَأَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَةٌ وَمَا هُوَ فَرْشٌ ، **قِيلَ المُرَادُ بِالحَمُولَةِ** : مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ ، **وَالْفَرْشُ** : الصِّغَارُ مِنْهَا مِنَ الْإِبِلِ ، **وَقِيلَ** : أَمَّا الْحَمُولَةُ : فَالْإِبِلُ وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا الْفَرْشُ : فَالْغَنَمُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ **قَالَ** : وَأَحْسِبُهُ إِنَّمَا سُمِّيَ فَرْشًا ؛ لِدُنُوِّهِ مِنَ الْأَرْضِ ، **وَقِيلَ** : الْحَمُولَةُ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ ، وَالْفَرْشُ : الْغَنَمُ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : الْحَمُولَةُ : مَا تَرْكَبُونَ ، وَالْفَرْشُ : مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلُبُونَ ، شَاةٌ لَا تَحْمِلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفُرُشًا ،

---

(١) البخاري في أول كتاب اللباس .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَسَنٌ يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[يس : ٧١-٧٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[النحل : ٦٦ - ٨٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : مِنَ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ ، فَكُلُّهَا خَلَقَهَا اللهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أَيْ : طَرَائِقَهُ وَأَوَامِرَهُ ، كَمَا اتَّبَعَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ أَيْ : مِنَ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : مُبِينٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[فاطر : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف : ٥٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هَذَا بَيَانٌ لِجَهْلِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا بَحِيرَةً وَسَائِبَةً وَوَصِيلَةً وَحَامًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا . ثُمَّ بَيَّنَ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ :

وَهُوَ بَيَاضٌ : وَهُوَ الضَّأْنُ ، وَسَوَادٌ : وَهُوَ المَعْزُ ذَكَرَهُ وَأُنْثَاهُ ، وَإِلَى إِبِلٍ : ذُكُورِهَا وَإِنَاثِهَا ، وَبَقَرٍ كَذَلِكَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا مِنْ أَوْلَادِهَا ، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِبَنِي آدَمَ : أَكْلًا وَرُكُوبًا وَحَمُولَةً وَحَلْبًا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ المَنَافِعِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ ﴾ [الزمر : ٦]

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ الْآيَة .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِينٍ كَيْفَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ مَا زَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللهِ مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَمْرُو بْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ ، وَحَمَى الْحَامِ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ[1].

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ قُل ﴾ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ﴿ لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ ﴾ أَيْ : آكِلٍ يَأْكُلُهُ ، قِيلَ مَعْنَاهُ : لَا أَجِدُ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمْتُمْ حَرَامًا سِوَى هَذِهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَا أَجِدُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ شَيْئًا حَرَامًا سِوَى هَذِهِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَا وَرَدَ مِنَ التَّحْرِيمَاتِ بَعْدَ هَذَا فِي سُورَةِ المَائِدَةِ وَفِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ رَافِعًا لِمَفْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ .

---

(١) البخاري حديث (٤٦٢٣ ، ٤٦٢٤) ، ومسلم حديث (٩٠١) .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ يَعْنِي : الْمُهْرَاقُ . وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا مِجْلَزٍ عَنِ الدَّمِ وَمَا يَتَلَطَّخُ مِنَ الذَّبْحِ مِنَ الرَّأْسِ ، وَعَنِ الْقِدْرِ يُرَى فِيهَا الْحُمْرَةُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا نَهَى اللهُ عَنِ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : حُرِّمَ مِنَ الدِّمَاءِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا ، فَأَمَّا اللَّحْمُ خَالَطَهُ دَمٌ فَلَا بَأْسَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أَيْ : فَمَنِ اُضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَلَبِّسٍ بِبَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ .

وَالْمَقصودُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اِبْتَدَعُوا مَا اِبْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ ، وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ ، وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَمْ يُحَرَّمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَفْوٌ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ حَرَامٌ ، وَمِنْ أَيْنَ حَرَّمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ ؟ وَعَلَى هَذَا فَلَا يَبْقَى تَحْرِيمُ أَشْيَاءَ أُخَر فِيمَا بَعْدَ هَذَا ، كَمَا جَاءَ النَّهْيُ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَلُحُومِ السِّبَاعِ ، وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ عَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ مَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَهُوَ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ مَا لَمْ يَكُنْ مَشْقُوقَ الْأَصَابِعِ كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْأَوزِّ وَالْبَطِّ . كَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي الثَّرْبُ وَشَحْمُ الْكُلْيَتَيْنِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ : إِنَّهُ حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ فَنَحْنُ نُحَرِّمُهُ .

وَقِيلَ : الثَّرْبُ ، وَكُلُّ شَحْمٍ كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَاسٍ يَعْنِي** : مَا عُلِّقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ ، **وَقِيلَ** : الْأَلْيَةُ مِمَّا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا . ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الْحَوَايَا : جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءُ . وَحَاوِيَةٌ ، وَحَوِيَّةٌ ، وَهُوَ : مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ وَهِيَ الْمَبَاعِرُ ، وَتُسَمَّى الْمَرَابِضَ وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ . **قَالَ : وَمَعْنَى الْكَلَامِ** : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوَ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : الْحَوَايَا : الْمَبْعَرُ وَالْمَرْبِضُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ أَيْ : وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِالْعِظَامِ فَقَدْ أَحْلَلْنَاهُ لَهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : شَحْمُ الْأَلْيَةِ مَا اخْتَلَطَ بِالْعُصْعُصِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقَوَائِمِ وَالْجَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ ، وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَنَحْوُهُ قَالَهُ السُّدِّيُّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أَيْ : هَذَا التَّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَأَلْزَمْنَاهُمْ بِهِ ، مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٠]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَزَيْنَاهُمْ بِهِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاك بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ** : بَلَغَ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا فَقَالَ : قَاتَلَ اللهُ سَمُرَةَ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا**))[1] وَعَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ : ((**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ**)) فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ ؛ فَإِنَّهَا يُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ ؟ فَقَالَ : ((**لَا ، هُوَ حَرَامٌ**)) ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : ((**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ**

(١) البخاري (٢٢٢٣) ، ومسلم (١٥٨٢) .

شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ، ثُمَّ بَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ »[1] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا »[2].

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالِفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ ، وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ تَرْهِيبٌ لَهُمْ فِي مُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فِي الْقُرْآنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩- ٥٠]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

هَذِهِ مُنَاظَرَةٌ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى ، وَشُبْهَةٌ تَشَبَّثَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي شِرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِ مَا

(١) البخاري (٢٢٣٦) ، ومسلم (١٥٨١) .
(٢) البخاري (٢٢٢٤) ، ومسلم (١٥٨٣) .

حَرَّمُوا ، فَإِنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمُوهُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِأَنْ يُلْهِمْنَا الإِيمَانَ ، أَوْ يَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ فَلَمْ يُغَيِّرْهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَرِضَاهُ مِنَّا ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ [الزخرف : ٢٠] ، وَكَذَلِكَ الآيَةِ الَّتِي فِي النَّحْلِ[1] مِثْلَ هَذِهِ سَوَاءً .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَهِيَ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ بَاطِلَةٌ ؛ لأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللهُ بَأْسَهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَأَدَالَ عَلَيْهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيمِ الانْتِقَامِ .

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : بِأَنَّ اللهَ رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ أَيْ : فَتُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ وَتُبْرِزُوهُ ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أَيْ : الْوَهْمُ وَالْخَيَالُ ، **وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هَهُنَا** : الاعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ أَيْ : تَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ **قُلْ** ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ أَيْ : لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مِنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْضَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَبْغَضُ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **قَالَ الضَّحَّاكُ** : لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَصَى اللهَ ، وَلَكِنْ للهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى عِبَادِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ أَيْ : أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ وَكَذَّبْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَى اللهِ فِيهِ ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أَيْ : لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - كَذِبًا وَزُورًا ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ

(١) الآية (٣٥) .

وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ : يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلًا .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ ، وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِآرَائِهِمْ وَتَسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ ﴿ قُل ﴾ لَهُمْ ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أَيْ : هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : أَقُصُّ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرُكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، لَا تَخَرُّصًا وَلَا ظَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَتَقْدِيرُهُ : وَأَوْصَاكُمْ ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَمَرْتُكَ أَنْ لَا تَقُومَ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، قُلْتُ ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ** » وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : أَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ هُوَ أَبُو ذَرٍّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ فِي الثَّالِثَةِ : « **وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ** » فَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ بَعْدَ تَمَامِ الْحَدِيثِ : وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي ، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ حَتَّى تَبْلُغَ**

(١) البخاري (١٢٣٧) ، ومسلم (حديث ٩٤) .

خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ »[1] وَلِهَذَا شَاهِدٌ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء : ٤٨] عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ »[2] وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أَيْ : وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . أَيْ : أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء : ٢٣] ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : « **وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** » أَيْ : أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ، وَاللهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ طَاعَتِهِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[لقمان : ١٤- ١٥] ، فَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ بِحَسْبِهِمَا ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « **الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **بِرُّ الْوَالِدَيْنِ** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ** » قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي .

لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِبِرِّ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانَ إِلَى الْأَبْنَاءِ وَالْأَحْفَادِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ ، فَكَانُوا يَئِدُونَ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ خَشْيَةَ الِافْتِقَارِ ، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** »

(١) **صحيح لشواهده** : وانظر مسند أحمد (٥/ ١٧٢) ، وانظر (٣/ ٢٣٨) .
(٢) أخرجه مسلم (٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧) ، مسلم (٨٥) .

قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ** »[1] ثُمَّ تَلَا رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ الْآيَة .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ هُوَ الْفَقْرُ ؛ أَيْ : وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمُ الْحَاصِلِ . وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ أَيْ : لَا تَقْتُلُوهُمْ خَشْيَةَ حُصُولِ فَقْرٍ فِي الْآجِلِ ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِلاهْتِمَامِ بِهِمْ ، أَيْ : لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِهِمْ فَرِزْقُهُمْ عَلَى الله ، وَأَمَّا هُنَا فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لأَنَّهُ الْأَهَمُّ هَهُنَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[2] عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا أَحَدُ أَغْيَرَ مِنَ الله ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنِ النَّهْيِ عَنْهُ تَأْكِيدًا ، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبِ الزَّانِي ، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ** »[3] وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ : « **وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ** » وَذَكَرَهُ .

وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالزَّجْرُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهَدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ

---

(١) البخاري حديث (٧٥٢٠) ، ومسلم حديث (٨٦) .

(٢) البخاري (حديث ٤٦٣٧) ، ومسلم (٢٧٦٠) .

(٣) البخاري حديث (٦٨٧٨) ، ومسلم حديث (١٦٧٦) .

كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1] عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عمَرو - رَضِيَ اللهُ عنهما - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يُرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا».

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ: هَذَا مَا وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ الله أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ[2]: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠]، فَانْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفَضِّلُ الشَّيْءَ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قَالَ: فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: يَعْنِي: حَتَّى يَحْتَلِمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الأَخْذِ وَالإِعْطَاءِ، كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١-٦]، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ كَانُوا يَبْخَسُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أَيْ: مَنِ اجْتَهَدَ فِي أَدَاءِ الْحَقِّ وَأَخْذِهِ فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِفْرَاغِ وُسْعِهِ وَبَذْلِ جَهْدِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ.

(١) البخاري (٦٩١٤).
(٢) صحيح: وقد تقدم عند الآيات المذكورة.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] ، وَكَذَا الَّتِي تُشْبِهُهَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ ، عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ وَبِوَصِيَّةِ اللهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا ، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ ، وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللهِ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا وَصَّاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : تَتَّعِظُونَ وَتَنْتَهُونَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ وَآخَرُونَ بِتَخْفِيفِهَا .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وَنَحْوِ هَذَا فِي الْقُرْآنِ ، قَالُوا : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللهِ . عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : « **هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا** » وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ** » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾(١).

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ(٢) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَنْ جَنْبَتَيِّ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ**

---

(١) له سند حسن عند أحمد (١/ ٤٣٥) ، وفيه بعض الاختلاف ، ولكن في الجملة فالحديث يحسن لشواهده . والله أعلم ، وانظر المنتخب لعبد بن حميد (بتحقيقي رقم ١١٣٩) .

(٢) انظر تحقيقه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ، قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ إِنَّمَا وَحَّدَ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا جَمَعَ السُّبُلَ لِتَفَرُّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧]

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

وَ ﴿ ثُمَّ ﴾ هَهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ بَعْدَ الْخَبَرِ ، لَا لِلتَّرْتِيبِ هَهُنَا ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وَهَهُنَا لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ عَطَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَاةِ وَرَسُولِهَا فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف : ١٢] . وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص : ٤٨] قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحقاف : ٣٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ أَيْ : آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيعَتِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أَيْ : جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ وَقِيَامِهِ بِأَوَامِرِنَا وَطَاعَتِنَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، **وَقِيلَ** : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أَيْ : أَحْسَنُ فِيمَا أَعْطَاهُ اللهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا تَمَّمَ لَهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ تَقْدِيرَ ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا ﴾ عَلَى إِحْسَانِهِ ، فَكَأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي مَصْدَرِيَّةً ، كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ [التوبة : ٦٩] أَيْ : كَخَوْضِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ :

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

وَقَالَ آخَرُونَ : « **الَّذِي** » هَهُنَا بِمَعْنَى : الَّذِينَ . **وَقَالَ الْبَغَوِيُّ** : الْمُحْسِنُونَ : الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ . يَعْنِي : أَظْهَرْنَا فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ . **قُلْتُ** : كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ، وَلَا يَلْزَم اصْطِفَاؤُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْخَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِأَدِلَّةٍ أُخْرَى . **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ تَمَامًا عَلَى إِحْسَانِ اللهِ إِلَيْهِ زِيَادَةً عَلَى مَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْبَغَوِيُّ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، وَبِهِ جَمَعَ ابْنُ جَرِيرٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَللهِ الْحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فِيهِ مَدْحُ لِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ، وَوَصَفَهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ .

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِئَلَّا يَقُولُوا : ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يَعْنِي : لِيَنْقَطِعَ عُذْرُهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ٤٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ ؛ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا ، وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَشُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : وَقَطَعْنَا تَعَلُّلَكُمْ ، أَنْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ [فاطر : ٤٢] . وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ يَقُولُ : فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ ، فِيهِ بَيَانٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ ، وَرَحْمَةٌ مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ ، وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ ، بَلْ صَدَفَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ ، أَيْ : صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ : أَعْرَضَ عَنْهَا ، وَقَوْلُ السُّدِّيِّ هَهُنَا فِيهِ قُوَّةٌ ؛ لأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل : ٨٨] ، **وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ .

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ ، وَالْمُخَالِفِينَ لِرُسُلِهِ ، وَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ، وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾ وَذَلِكَ كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَائِنٌ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » وَفِي لَفْظٍ « **فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، وَذَلِكَ حِينَ** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا ﴾ **طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ** »(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ ؟** » قُلْتُ : لَا أَدْرِي ! قَالَ : « **إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي ، فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ وَذَلِكَ حِينَ** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ »(٣).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ،**

---

(١) البخاري (٤٦٣٥ ، ٤٦٣٦) ، ومسلم (١٥٧) .
(٢) مسلم (١٥٨) بنحوه .
(٣) البخاري (٧٤٢٤) ، ومسلم (١٥٩) .

وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا »[1].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحًى ، فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا** »[2] .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيمَانًا يَوْمَئِذٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ ، وَإِنْ كَانَ مُخَلِّطًا فَأَحْدَثَ تَوْبَةً حِينَئِذٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَقَدِّمَةُ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ أَيْ : وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ لاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : ٨٤- ٨٥]

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . **وَقِيلَ** : هُمْ الْخَوَارِجُ . **وَقِيلَ** : هُمْ أَصْحَابُ الْبِدَعِ . **وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللهِ وَكَانَ مُخَالِفًا لَهُ** فَإِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ لَا اِخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اِفْتِرَاقَ ، فَمَنِ اخْتَلَفَ فِيهِ ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أَيْ : فِرَقًا كَأَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَرَّأَ رَسُولَ اللهِ

---

(١) مسلم (٢٩٠١) .
(٢) مسلم (٢٩٤١) .

ﷺ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الشورى : ١٣] . وَفِي الْحَدِيثِ « **نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ** »[١] ، فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالتَّمَسُّكُ بِشَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْمُتَأَخِّرِ وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلَالَاتٌ وَجَهَالَاتٌ وَآرَاءٌ وَأَهْوَاءٌ ، وَالرُّسُلُ بُرَآءُ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الحج : ١٧] . ثُمَّ بَيَّنَ لِنَفْسِهِ فَضْلَهُ سُبْحَانَهُ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ تَعَالَى :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

وَهَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الآيَةِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ مُطَابِقَةً لِهَذِهِ الآيَةِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « **إِنَّ رَبَّكُمْ** ﷻ **رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ أَوْ يَمْحُوهَا اللهُ** ﷻ **وَلَا يَهْلَكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ** »[٢].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَقُولُ اللهُ** ﷻ : **مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي**

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) بنحوه .

أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ** »(٢) .

وَاعْلَمْ أَنَّ تَارِكَ السَّيِّئَةِ الَّذِي لَا يَعْمَلُهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ، تَارَةً يَتْرُكُهَا لله : فَهَذَا تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ عَلَى كَفِّهِ عَنْهَا لله تَعَالَى ، وَهَذَا عَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ : « **فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي** »(٣) أَيْ : مِنْ أَجْلِي **وَتَارَةً يَتْرُكُهَا نِسْيَانًا وَذُهُولًا عَنْهَا** ، فَهَذَا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَنْوِ خَيْرًا وَلَا فَعَلَ شَرًّا ، **وَتَارَةً يَتْرُكُهَا عَجْزًا وَكَسَلًا عَنْهَا** بَعْدَ السَّعْيِ فِي أَسْبَابِهَا وَالتَّلَبُّسِ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهَا ، فَهَذَا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ فَاعِلِهَا ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ** » قَالُوا : يَا رَسُولَ الله هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : « **إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ** »(٤).

قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ يَقُولُ بِالشِّرْكِ .

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ : أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أَيْ : قَائِمًا ثَابِتًا ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ

(١) مسلم (٢٦٨٧) .
(٢) سنده صحيح : وقد أخرجه أبو يعلى (٦/ ٣٤٥١) .
(٣) مسلم (حديث ١٢٩) .
(٤) صحيح : وقد تقدم .

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٣٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] ، وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أَمَرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا ؛ لأَنَّهُ ﷺ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا ، وَأُكْمِلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًّا لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ ، وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَصَاحِبَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ حَتَّى الْخَلِيلَ ﷺ . عَنِ ابْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : « **أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ وَيَذْبَحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ ، أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ للهِ ، وَنُسُكَهُ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ : أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَالِانْحِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَالْإِقْبَالِ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَى . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾ النُّسُكُ : الذَّبْحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ وَنُسُكِى ﴾ قَالَ ذَبْحِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٠٦ ، ٤٠٧) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٣) وعزاه المزي في « الأطراف » إلى النسائي في « اليوم والليلة » .

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢] ، وَقَالَ يُوسُفُ ﷺ : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] ، وَقَالَ مُوسَى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس : ٨٤- ٨٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١] ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسْبِ شَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ ، الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، إِلَى أَنْ نُسِخَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَلَا تَزَالُ قَائِمَةٌ مَنْصُورَةٌ ، وَأَعْلَامُهَا مَشْهُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : « **نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ** »[1] فَإِنَّ أَوْلَادَ الْعَلَّاتِ : هُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمَّهَاتٍ شَتَّى ، فَالدِّينُ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتِ الشَّرَائِعُ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمَّهَاتِ ، كَمَا أَنَّ إِخْوَةَ الْأَخْيَافِ عَكْسُ هَذَا : بَنُو الْأُمِّ الْوَاحِدَةِ مِنْ آبَاءٍ شَتَّى ، وَالْإِخْوَةُ الْأَعْيَانُ الْأَشِقَّاءُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه[2] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ قَالَ : « ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَلَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ . تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ** » .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) مسلم بنحوه (٧٧١) .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُل ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ أَيْ : أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يُرَبِّينِي وَيَحْفَظُنِي ، وَيَكْلَؤُنِي ، وَيُدَبِّرُ أَمْرِي ، أَيْ : لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ ، لأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ : الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ العِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ ، كَمَا تَضَمَّنَتْ الآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا المَعْنَى يُقْرَنُ بِالْآخَرِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ ، أَنَّ النُّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ ، عَلَى أَحَدٍ ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] **قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ** : أَيْ فَلَا يُظْلَمُ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ ، وَلَا يُهْضَمُ بِأَنْ يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ [المدثر : ٣٨-٣٩] مَعْنَاهُ : كُلُّ نَفْسٍ مُرْتَهَنَةٌ بِعَمَلِهَا السَّيِّءِ ، إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فَإِنَّهُ قَدْ تَعُودُ بَرَكَاتُ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ عَلَى ذُرِّيَّاتِهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] أَيْ : أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي الْأَعْمَالِ ، بَلْ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ ، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ : أَيْ أَنْقَصْنَا أُولَئِكَ السَّادَةَ الرُّفَعَاءَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا ، حَتَّى سَاوَيْنَاهُمْ

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَنْقَصُ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ، بَلْ رَفَعَهُمْ - تَعَالَى - إِلَى مَنَازِلِ الْآبَاءِ بِبَرَكَةِ أَعْمَالِهِمْ بِفَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أَيْ : مِنْ شَرٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَيْ : اِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسَتَعْرِضُونَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِ وَيُنَبِّئُنَا وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ ، وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[سبأ : ٢٥-٢٦]

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَخَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ . قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾[الزخرف : ٦٠] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾[النمل : ٦٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أَيْ : فَاوَتَ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاوِئِ وَالْمَنَاظِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[الزخرف : ٣٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء : ٢١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَامْتَحَنَكُمْ بِهِ ، لِيَخْتَبِرَ الْغَنِيَّ فِي غِنَاهُ ، وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ(١) ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا لِيَنْظُرَ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**)) .

(١) مسلم (٢٧٤٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ تَرْهِيبٌ وَتَرْغِيبٌ ، أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ فِيمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَبَرٍ وَطَلَبٍ . وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩-٥٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، فَتَارَةً يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَصِفَةِ الْجَنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا لَدَيْهِ ، وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ وَذِكْرِ النَّارِ ، وَأَنْكَالِهَا وَعَذَابِهَا ، وَالْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا ، وَتَارَةً بِهَذَا وَبِهَذَا لِيَنْجَعَ فِي كُلٍّ بِحَسَبِهِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِمَّنْ أَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ ، وَصَدَّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ سَمِيعُ الدُّعَاءِ جَوَادٌ كَرِيمٌ وَهَّابٌ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِالْجَنَّةِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا ، وَعِنْدَ اللهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ**))[1].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

---

(١) مسلم (٢٧٥٥) .

تفسير سورة الأعراف
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ وَبَسْطه وَاخْتِلَاف النَّاسِ فِيهِ . ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أَيْ : هَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، أَيْ : مِنْ رَبِّكَ ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : شَكٌّ مِنْهُ ، **وَقِيلَ** : لَا تَتَحَرَّجْ بِهِ فِي إِبْلَاغِهِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُنْذِرَ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْعَالَمِ** : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أَيْ : اِقْتَفُوا آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أَيْ : لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]

وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَعْقَبَهُمْ

ذَلِكَ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أَيْ : فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ بَيَاتًا ، أَيْ : لَيْلًا ، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ : مِنَ الْقَيْلُولَةِ وَهِيَ : الِاسْتِرَاحَةُ وَسَطَ النَّهَارِ ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَقْتُ غَفْلَةٍ وَلَهْوٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأعراف : ٩٧ - ٩٨]

قَوْلُهُ : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ إِلَّا أَنِ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾[الأنبياء : ١١ - ١٥]

قَوْلُهُ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الْآيَةُ . كَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص : ٦٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[المائدة : ١٠٩] فَيَسْأَلُ اللهُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاغِ رِسَالَاتِهِ . ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ **قِيلَ فِي مَعْنَاهُ** : يُوضَعُ الْكِتَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِرُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام : ٥٩]

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ٱلْحَق ﴾ أَيْ : لَا يَظْلِمُ

تَعَالَى أَحَدًا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١- ١٠٣]

فَصْل

وَالَّذِي يُوضَعُ فِي المِيزَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ **قِيلَ** : الأَعْمَالُ ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَاضًا ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْلِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ « **يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوافَّ** »[١]. **وَقِيلَ** : يُوزَنُ كِتَابُ الأَعْمَالِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ وَيُوضَعُ لَهُ فِي كِفَّةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِلْكَ الْبِطَاقَةِ فِيهَا لَا إِلَه إِلَّا اللهُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَمَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ . فَتُوضَعُ تِلْكَ الْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةِ الميزَانِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ** »[٢] ، **وَقِيلَ** : يُوزَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ كَمَا فِي الحَدِيثِ[٣] : « **يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ** » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] وَفِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الميزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ** »[٤] وَقَدْ يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الآثَارِ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا : فَتَارَةً تُوزَنُ الأَعْمَالُ ، وَتَارَةً تُوزَنُ مَحَالُّهَا ، وَتَارَةً يُوزَنُ فَاعِلُهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

---

(١) مسلم حديث (٨٠٤) .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) .

(٣) البخاري (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) .

(٤) صحيح لغيره : أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١) .

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا ، وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَايِشَ أَيْ : مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا ، وَيَتَّجِرُونَ فِيهَا ، وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ ، وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وَقَدْ قَرَأَ الْجَمِيعُ : ﴿ مَعَـٰيِشَ ﴾ .جَمْعُ مَعِيشَةٍ مِنْ عَاشَ يَعِيشُ عَيْشًا .

وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلِأَبِيهِمْ آدَمَ ؛ لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرَائِقَهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٢٩] وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عليه السلام بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَصَوَّرَهُ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ اللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَهَذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنُ جَرِيرٍ ، أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ كُلِّهِ آدَمَ عليه السلام. **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ **قَالَ** : خُلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَصُوِّرُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ . وَنَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَيْضًا أَنَّ الْمُرَادَ بِـ ﴿ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ الذُّرِّيَّة .

قُلْتُ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ : آدَمُ ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٥٧] وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى ،

وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنَّةٌ عَلَى الْآبَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَصْلٌ ، صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَى الْأَبْنَاءِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] . فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ آدَمُ الْمَخْلُوقُ مِنَ السُّلَالَةِ ، وَذُرِّيَّتُهُ مَخْلُوقُونَ مِنْ نُطْفَةٍ ، وَصَحَّ هَذَا ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ الْجِنْسُ ، لَا مُعَيَّنًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ فِي تَوْجِيهِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ « لَا » هُنَا زَائِدَةٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : زِيدَتْ لِتَأْكِيدِ الْجَحْدِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ

فَأَدْخَلَ « إِنْ » وَهِيَ لِلنَّفْيِ عَلَى « مَا » النَّافِيَةِ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ . قَالُوا وَكَذَا هُنَا : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ مَعَ تَقَدُّمِ قَوْلِهِ : ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١] حَكَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ وَرَدَّهُمَا وَاخْتَارَ : أَنَّ مَنَعَكَ تَضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ آخَر تَقْدِيرُهُ : مَا أَحْوَجَكَ وَأَلْزَمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ وَنَحْوَ هَذَا . وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ ، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ ، لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ ، يَعْنِي :- لَعَنَهُ اللهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ ؟ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] فَشَذَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ بِتَرْكِ السُّجُودِ ، فَلِهَذَا أُبْلِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ . أَيْ : أَيِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، فَأَخْطَأَ - قَبَّحَهُ اللهُ - فِي قِيَاسِهِ ، وَدَعْوَاهُ أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ ، أَيْضًا فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرَّزَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ وَالتَّثَبُّتُ ، وَالطِّينُ مَحَلُّ النَّبَاتِ وَالنُّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسُّرْعَةُ ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسَ عُنْصُرُهُ ، وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةِ

وَالانْقِيَادِ وَالاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللهِ وَالاعْتِرَافِ وَطَلَبِ التَّوْبَةِ وَالمَغْفِرَةِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**))(١) .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرٍ قَدَرِيٍّ كَوْنِيٍّ ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ لِأَمْرِي ، وَخُرُوجِكَ عَنْ طَاعَتِي ، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . **قَالَ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ** : الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الجَنَّةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى المَنْزِلَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي المَلَكُوتِ الأَعْلَى ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أَيْ : الذَّلِيلِينَ الحَقِيرِينَ ، مُعَامَلَةً لَهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ وَمُكَافَأَةً لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ : ﴿ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ ، أَجَابَهُ تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَالإِرَادَةِ وَالمَشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٤١]

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وَاسْتَوْثَقَ إِبْلِيسُ بِذَلِكَ ، أَخَذَ فِي المُعَانَدَةِ وَالتَّمَرُّدِ فَقَالَ : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَغْوَيْتَنِي . **قِيلَ** : كَمَا أَضْلَلْتَنِي ، **وَقِيلَ** : كَمَا أَهْلَكْتَنِي ؛ لَأَقْعُدَنَّ لِعِبَادِكَ الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَذَا الَّذِي أَبْعَدْتَنِي بِسَبَبِهِ ، عَلَى ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : طَرِيقَ الحَقِّ وَسَبِيلَ النَّجَاةِ ، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ عَنْهَا ؛ لِئَلَّا يَعْبُدُوكَ وَلَا يُوَحِّدُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ

---

(١) مسلم (٢٩٩٦) .

إِيَّايَ ، وَقَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ : ((الْبَاءُ)) هُنَا قَسَمِيَّةٌ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : فَبِإِغْوَائِكَ إِيَّايَ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الصَّحِيحُ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ . قُلْتُ : عَنْ سَبْرَةَ ابْنِ أَبِي الْفَاكِهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟ قَالَ : فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ)) قَالَ : ((وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ : أَتُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطُّوَلِ ؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ - وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ - فَقَالَ : تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ ؟ قَالَ : فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ)) . وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ))(١).

قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ الْآيَةَ . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَمَّا ((مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)) فَمِنْ قِبَلِ دُنْيَاهُمْ ، وَأَمَّا ((مِنْ خَلْفِهِمْ)) فَأَمْرُ آخِرَتِهِمْ ، وَأَمَّا ((عَنْ أَيْمَانِهِمْ)) فَمِنْ قِبَلِ حَسَنَاتِهِمْ ، وَأَمَّا ((عَنْ شَمَائِلِهِمْ)) فَمِنْ قِبَلِ سَيِّئَاتِهِمْ . وَعَنْ قَتَادَةَ : أَتَاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ : ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَزَيَّنَهَا لَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ مِنْ قِبَلِ حَسَنَاتِهِمْ بَطَّأَهُمْ عَنْهَا ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ زَيَّنَ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا وَأَمَرَهُمْ بِهَا ، آتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ مِنْ فَوْقِكَ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ اللهِ . وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ قَالُوا : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ الدُّنْيَا ، ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ الْآخِرَةَ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ : جَمِيعُ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَالْخَيْرُ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ ، وَالشَّرُّ يُحَبِّبُهُ لَهُمْ ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مُوَحِّدِينَ ، وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُ وَتَوَهُّمٌ ، وَقَدْ

(١) صحيح : أخرجه النسائي (٦/ ٢١، ٢٢) .

وَافَقَ فِي هَذَا الْوَاقِعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢٠- ٢١]

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قال(١) : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي** » . قَالَ وَكِيعٌ : « مِنْ تَحْتِي » يَعْنِي : الْخَسْفُ .

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أَكَّدَ تَعَالَى اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَمَّا الْمَذْءُومُ : فَهُوَ الْمَعِيبُ . **قَالَ** : وَالْمَدْحُورُ : الْمُقْصَى وَهُوَ الْمُبْعَدُ الْمَطْرُودُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ قَالَ : مقيتًا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَعِينًا مَقِيتًا . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : مَنْفِيًّا مَطْرُودًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٣ - ٦٥]

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥/ ٣١٤) .

ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَّاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالْخَدِيعَةِ لِيُسْلَبَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ ﴿ وَقَال ﴾ كَذِبًا وَافْتِرَاءً ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدَيْنِ هَاهُنَا ، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَ لَكُمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] أَيْ : لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ﴾ [النساء : ١٧٦] أَيْ : لِئَلَّا تَضِلُّوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أَيْ : حَلَفَ لَهُمَا بِاللهِ ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ حَتَّى خَدَعَهُمَا ، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ بِاللهِ ، فَقَالَ : إِنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِّ أُرْشِدْكُمَا ، **وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ** : مَنْ خَدَعَنَا بِاللهِ انْخَدَعْنَا لَهُ .

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : جَعَلَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قَالَ : كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ . **قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ(١) .

قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ

(١) **قلت** : وهذا من تفسير القرآن بالقرآن .

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾

قِيلَ : المُرَادُ بِالخِطَابِ فِي : ﴿ ٱهْبِطُوا ﴾ آدَمُ وَحَوَّاءُ وَإِبْلِيسُ وَالحَيَّةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الحَيَّةَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْعَدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي ((سُورَةِ طَهَ)) قَالَ : ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[طه : ١٢٣] . وَحَوَّاءُ تَبَعٌ لِآدَمَ ، وَالحَيَّةُ إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا فَهِيَ تَبَعٌ لِإِبْلِيسَ . وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ الْأَمَاكِنَ الَّتِي هَبَطَ فِيهَا كُلٌّ مِنْهُمْ ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا ، وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَى المُكَلَّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ لَذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَوْ رَسُولِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : قَرَارٌ وَأَعْمَارٌ مَضْرُوبَةٌ إِلَى آجَالٍ مَعْلُومَةٍ قَدْ جَرَى بِهَا الْقَلَمُ ، وَأَحْصَاهَا الْقَدَرُ وَسُطِرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ .

قَوْلُهُ : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه : ٥٥] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مُدَّةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ وَقُبُورُهُمْ ، وَمِنْهَا نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللِّبَاسِ وَالرِّيَاشِ ، فَاللِّبَاسُ : يَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ السَّوْآتِ ، وَالرِّيَاشُ وَالرِّيشُ : مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا ، فَالْأَوَّلُ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ ، وَالرِّيشُ مِنَ التَّكْمِلَاتِ وَالزِّيَادَاتِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الرِّيَاشُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْأَثَاثُ ، وَمَا ظَهَرَ مِنَ الثِّيَابِ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الرِّيَاشُ : المَالُ . **وَقِيلَ** : اللِّبَاسُ وَالْعَيْشُ وَالنَّعِيمُ ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : الرِّيَاشُ : الجَمَالُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ؛ **فَقَالَ عِكْرِمَةُ** : يُقَالُ : هُوَ مَا يَلْبَسُهُ المُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَلِبَاسُ

ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ الْإِيمَانُ ، وَرُوِيَ عَنْ غَيْرِهِمْ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ . وَقِيلَ : خَشْيَةُ اللهِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : يَتَّقِي اللهَ فَيُوَارِي عَوْرَتَهُ فَذَاكَ لِبَاسُ التَّقْوَى . وَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ .

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ ، مُبَيِّنًا لَهُمْ عَدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عليه السلام فِي سَعْيِهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النَّعِيمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ وَالْعَنَاءِ ، وَالتَّسَبُّبِ فِي هَتْكِ عَوْرَتِهِ ، بَعْدَمَا كَانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُ ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عَدَاوَةٍ أَكِيدَةٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠]

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً يَقُولُونَ : نَطُوفُ كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتُنَا فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الْآيَةُ .

قُلْتُ : كَانَتِ الْعَرَبُ - مَا عَدَا قُرَيْشًا - لَا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لَبِسُوهَا ، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ : أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابٍ عَصَوُا اللهَ فِيهَا ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ - وَهُم الحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فَلَا يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا ، وَرُبَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ عُرْيَانَةً ، فَتَجْعَلُ عَلَى

فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرُهُ بَعْضَ السَّتْرِ فَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ[1]

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطُفْنَ عُرَاةً بِاللَّيْلِ ، وَكَانَ هَذَا شَيْئًا قَدِ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْلَ آبَائِهِمْ مُسْتَنِدٌ إِلَى أَمْرٍ مِنَ اللهِ وَشَرْعٍ ، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِمَنِ ادَّعَى ذَلِكَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ فَاحِشَةٌ مُنْكَرَةٌ ، وَاللهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَتُسْنِدُونَ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : أَمَرَكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجِزَاتِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللهِ ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَقَبَّلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشِّرْكِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ **قِيلَ** : يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ . **وَقِيلَ** : كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً ، **وَقِيلَ** : بَدَأَ فَخَلَقَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا ، ثُمَّ ذَهَبُوا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ، **وَقِيلَ** : كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلًا كَذَلِكَ يُعِيدُكُمْ آخِرًا . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ**[2] : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] » .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ **قَالَ** : يُبْعَثُ الْمُسْلِمُ مُسْلِمًا ، وَالْكَافِرُ كَافِرًا .

وَقِيلَ : كَمَا كَتَبَ عَلَيْكُمْ تَكُونُونَ ، **وَقِيلَ** : مَنِ ابْتَدَأَ اللهُ خَلْقَهُ عَلَى الشَّقَاوَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ عَلَيْهِ خَلْقُهُ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنِ ابْتَدَأَ خَلْقَهُ عَلَى

---

(١) ورد نحوه عند مسلم (٣٠٢٨) وسيأتي قريبا إن شاء الله .

(٢) البخاري (٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) .

السَّعَادَةِ صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ خَلْقُهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، كَمَا أَنَّ السَّحَرَةَ عَمِلُوا بِأَعْمَالِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ صَارُوا إِلَى مَا ابْتُدِئُوا عَلَيْهِ . **وَقِيلَ** : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ **قَالَ** : إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَدَأَ خَلْقَ ابْنِ آدَمَ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢] ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا . **قُلْت** : وَيَتَأَيَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ((**فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ**))(١) .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّهُ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**))(٢).

وَعَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**))(٣) .

قُلْتُ : وَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ إِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] وَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**))(٤) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**))(٥) الْحَدِيثُ . **وَوَجْهُ الْجَمْعِ عَلَى هَذَا** : أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ فِي ثَانِي الْحَالِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَطَرَ

(١) البخاري بنحوه (٣٢٠٨) وقد أخرجه أيضا في عدة مواطن من صحيحه .
(٢) بنحوه أخرجه البخاري (٦٦٠٧) ، ومسلم (حديث ١١٢) .
(٣) مسلم (حديث ٢٨٧٨) .
(٤) تقدم .
(٥) تقدم .

الخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، كَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفِطَرِهِمْ ، وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنَّ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢] ، وَفِي الحَدِيثِ « **كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا** »[١] . وَقَدَرُ اللهِ نَافِذٌ فِي بَرِيَّتِهِ فَإِنَّهُ هُوَ ﴿ **الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ وَ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[٢] : « **فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ** » . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَأِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ رَكِبَهَا أَوْ ضَلَالَةٍ اعْتَقَدَهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِصَوَابِ وَجْهِهَا ، فَيَرْكَبُهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا ، لأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الهُدَى فَرْقٌ ، وَقَدْ فَرَّقَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ عُرَاةً .

وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ[٣] : كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً : الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ ، وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ . **وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا** : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، وَلِهَذِهِ الْآيَةِ

---

(١) صحيح : وتقدم .
(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٩٤٨) ، ومسلم (حديث ٢٦٤٧) .
(٣) مسلم (حديث ٣٠٢٨) .

وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ السُّنَّةِ يُسْتَحَبُّ التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَلَا سِيَّمَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَيَوْمُ الْعِيدِ ، وَالطِّيبِ ؛ لأَنَّهُ مِنَ الزِّينَةِ ، وَالسِّوَاكُ ؛ لأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ ، وَمِنْ أَفْضَلِ اللِّبَاسِ الْبَيَاضُ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ ، وَإِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الإِثْمِدَ ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ**))(١) . وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**عَلَيْكُمْ بِثِيَابِ الْبَيَاضِ فَالْبَسُوهَا ، فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**))(٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : كُلْ مَا شِئْتَ ، وَالْبَسْ مَا شِئْتَ ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ . **وَقَالَ** : أَحَلَّ اللهُ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً . عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ**))(٣).

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : ((**مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنُ آدَمَ أُكَلَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**))(٤) .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى :إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، حَدَّهُ فِي حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ ، الْغَالِينَ فِيمَا أَحَلَّ أَوْ حَرَّمَ ،بِإِحْلَالِ الْحَرَامِ أَوْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ ، وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُحَلَّلَ مَا أَحَلَّ وَيُحَرَّمَ مَا حَرَّمَ ، وَذَلِكَ الْعَدْلُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ .

---

(١) **صحيح لغيره**: أخرجه أبو داود (٣٨٧٨) والترمذي (٩٩٤) وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وانظر الحديث التالي .

(٢) **صحيح**: وقد أخرجه النسائي (٤/ ٣٤) ، وانظر ما قبله .

(٣) **صحيح لشواهده**: أخرجه أحمد (١/ ١٨٢) وهو عند أحمد من طريق قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا .

(٤) **حسن بمجموع طرقه**: أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وأحمد (٤/ ١٣٢) وغيرهما .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ المَآكِلِ أَوِ المَشَارِبِ أَوِ المَلَابِسِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ الله ﴿ قُل ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِم الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَاعِهِمْ ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِالله وَعَبَدَهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَإِنْ شَرِكَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حِسًّا فِي الدُّنْيَا ، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ الله فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ الله** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . وَحَاصِلُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْإِثْمُ : أَنَّهُ الخَطَايَا المُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ ، وَالْبَغْيُ : هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللهُ هَذَا وَهَذَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مِنَ الِافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ

---

(١) البخاري بنحوه (٥٢٢٠ ، ٧٤٠٣) ، ومسلم (٢٧٦٠) .

وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيْ : قَرْنٌ وَجِيلٌ ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أَيْ : مِيقَاتُهُمُ الْمُقَدَّر لَهُمْ ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ عَنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَنْذَر تَعَالَى بَنِي آدَمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبَشَّر وَحَذَّر فَقَالَ : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ أَيْ : تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ ﴾ أَيْ : كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ . قِيلَ : يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ ، وَكُتِبَ لِمَنْ يَفْتَرِي عَلَى اللهِ أَنَّ وَجْهَهُ مُسْوَدٌّ ، وَقِيلَ : نَصِيبُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ ، مَنْ عَمِلَ خَيْرًا جُزِيَ بِهِ ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا جُزِيَ بِهِ ، وَقِيلَ : مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ قَالَ : عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمْرُهُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ فِي الْمَعْنَى ، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ وَيَصِيرُ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩-٧٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ الْآيَةَ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّتِ الْمُشْرِكِينَ تُفْزِعُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ إِلَى النَّارِ ، يَقُولُونَ لَهُمْ : أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله ؟ اُدْعُوهُمْ يُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، قَالُوا : ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا نَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : أَقَرُّوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ ﴿ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أَشْكَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿ مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ أَيْ : مَعَ أُمَمٍ ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت:٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أَيْ : اِجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : آخِرُهُمْ دُخُولًا - وَهُمُ الْأَتْبَاعُ - لِأُولَاهُمْ - وَهُمُ الْمَتْبُوعُونَ - لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيَشْكُوهُمُ الْأَتْبَاعُ إِلَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ فَيَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : أَضْعِفْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ

ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا ﴾ [النحل : ٨٨]. وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : قَالَ الْمَتْبُوعُونَ لِلْأَتْبَاعِ ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ وَهَذَا الْحَالُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٣١ - ٣٣]

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝

قَوْلُهُ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ لَا يُرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ . **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ لَا تُفَتَّحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ . وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ[١] ، عَنِ الْبَرَاءِ : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، ذَكَرَ قَبْضَ رُوحِ الْفَاجِرِ ، وَأَنَّهُ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ : ((**فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا تَمُرُّ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانٌ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى**

---

(١) صحيح.

يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَسْتَفْتِحُونَ بَابَهَا لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآيَةُ . وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ[1] بِطُولِهِ . عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ ، وَلَمَّا يُلْحَدُ ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : « اِسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ إِلَى الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُم الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أُخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ » . قَالَ : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ ، وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : أُكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى » . قَالَ : « فَتُعَادُ رُوحُهُ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عَمَلُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وطِيبِهَا وَيُفْسَحُ

---

(١) صحيح : وقد أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) .

لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ » قَالَ : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي » . قَالَ : « وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ إِلَى الْآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اُخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللهِ وَغَضَبٍ ، قَالَ : فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : اُكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ » .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لَا تُفَتَّحُ لِأَعْمَالِهِمْ ، وَلَا لِأَرْوَاحِهِمْ ، وَهَذَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ . هَكَذَا قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ الْبَعِيرُ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : حَتَّى يَدْخُلَ الْبَعِيرُ فِي خَرْقِ الْإِبْرَةِ . ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ الْفُرُشُ : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ اللُّحُفُ . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السُّعَدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، وَيُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أَيْ : مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا ، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا** »(١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ**

---

(١) البخاري (حديث ٢٤٤٠) .

فَيَقُولُ : **لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي ، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً** »[1]. وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الجَنَّةِ نُودُوا : ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ نَالَتْكُمُ الرَّحْمَةُ فَدَخَلْتُمُ الجَنَّةَ وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ . وَإِنَّمَا وَجَبَ الحَمْلُ عَلَى هَذَا لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ** » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** »[2].

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطِبُ أَهْلُ الجَنَّةِ بِهِ أَهْلَ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ « أَن » هَاهُنَا مُفَسِّرَةٌ لِلْقَوْلِ المَحْذُوفِ . وَ « قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ . أَيْ : قَالُوا لَهُمْ : قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ . كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ عَنِ الَّذِي كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الكُفَّارِ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات : ٥٥ - ٥٩] أَيْ : يُنْكِرُ عَلَيْهِ مَقَالَتَهُ الَّتِي يَقُولُهَا فِي الدُّنْيَا ، وَيُقْرِعُهُ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ وَكَذَلِكَ تُقْرِعُهُمُ المَلَائِكَةُ يَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٤ - ١٦] وَكَذَلِكَ قَرَّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَتْلَى

---

(١) صحيح لشواهده : وأخرجه أحمد (٢/ ٥١٢) وانظر أيضا البخاري (٦٥٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ، ومسلم (٢٨١٦، ٢٨١٧، ٢٨١٨) .

الْقَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَادَى : ((**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام ، وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ** – وَسَمَّى رُءُوسَهُمْ – ((**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**)) وَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ الله تُخَاطِبُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا فَقَالَ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا**))(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْلَمُ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ : ﴿ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : مُسْتَقِرَّةٌ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الله وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَيَبْغُونَ أَنْ يَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ بِلِقَاءِ الله فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ : أَيْ جَاحِدُونَ مُكَذِّبُونَ بِذَلِكَ لَا يُصَدِّقُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ نَبَّهَ أَنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حِجَابًا ، وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَانِعُ مِنْ وُصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] وَهُوَ الْأَعْرَافُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ كَذَا وَرَدَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ هُوَ السُّورُ ، وَهُوَ الْأَعْرَافُ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالْأَعْرَاف : جَمْعُ عُرْفٍ ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيكِ عُرْفًا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٢) بنحوه .

لِارْتِفَاعِهِ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْأَعْرَافُ : تَلٌّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حُبِسَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي **أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ** مَنْ هُمْ ؟ وَكُلُّهَا قَرِيبَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ : **قَوْمٌ اِسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ** . **وَقَدْ حَكَى الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ فِيهِمْ اِثْنَيْ عَشَرَ قَوْلًا مِنْهَا** : أَنَّهُمْ شَهِدُوا أَنَّهُمْ صُلَحَاءُ تَفَرَّعُوا مِنْ فَزَعِ الْآخِرَةِ وَدَخَلُوا يَطَّلِعُونَ عَلَى أَخْبَارِ النَّاسِ ، **وَقِيلَ** : هُمْ أَنْبِيَاءُ ، **وَقِيلَ** : مَلَائِكَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْرِفُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِبَيَاضِ الْوُجُوهِ ، وَأَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ ، وَقَالُوا : أَنْزَلَهُمُ اللهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ؛ لِيَعْرِفُوا مَنْ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ وَلِيَعْرِفُوا أَهْلَ النَّارِ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ وَيَتَعَوَّذُوا بِاللهِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يُحَيُّونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِالسَّلَامِ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَهُمْ دَاخِلُوهَا إِنْ شَاءَ اللهُ .

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ ، قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ فَرَأَوْا وُجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةً وَأَعْيُنُهُمْ مُزْرَقَّةً ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَقْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِيمَاهُمْ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ أَيْ : كَثْرَتُكُمْ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صِرْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ . ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ يَعْنِي : أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذِلَّةِ أَهْلِ النَّارِ وَسُؤَالِهِمْ أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي : الطَّعَامُ . **وَقِيلَ** : يَسْتَطْعِمُونَهُمْ وَيَسْتَسْقُونَهُمْ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، **قَالَ** : يُنَادِي الرَّجُلُ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ فَيَقُولُ لَهُ : قَدِ احْتَرَقْتُ ، فَأَفِضْ عَلَيَّ مِنَ المَاءِ . فَيُقَالُ لَهُمْ : أَجِيبُوهُمْ . فَيَقُولُونَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يَعْنِي : طَعَامَ الجَنَّةِ وَشَرَابَهَا .

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ نَسِيَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشِذُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] ، وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وَقَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية : ٣٤] **قِيلَ** : نَتْرُكُهُمْ فِي النَّارِ ، **وَقِيلَ** : نَتْرُكُهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ ، كَمَا تَرَكُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِلِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « **أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟** » **فَيَقُولُ** : بَلَى ، **فَيَقُولُ** : **أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ ؟ فَيَقُولُ** : **لَا** ، **فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى** :

((فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي))[1].

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ ، بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَنَّهُ كِتَابٌ مُفَصَّلٌ مُبَيَّنٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود : ١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا فَصَّلْنَاهُ بِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء : ١٦٦] **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهَذِهِ الْآيَةُ مَرْدُودَةٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : ٢] . ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ أَيْ : مَا وُعِدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقَالَ مَالِكٌ** : ثَوَابُهُ ، **وَقَالَ الرَّبِيعُ** : لَا يَزَالُ يَجِيءُ مِنْ تَأْوِيلِهِ أَمْرٌ حَتَّى يَتِمَّ يَوْمَ الْحِسَابِ ، حَتَّى يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، فَيَتِمَّ تَأْوِيلُهُ يَوْمَئِذٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ أَيْ : فِي خَلَاصِنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ - ٢٨] كَمَا قَالَ هَاهُنَا

---

(١) مسلم حديث (٢٩٦٨) .

﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أيْ : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِم النَّارَ وَخُلُودِهُمْ فِيهَا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أيْ : ذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله ، فَلَا يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالسِّتَّةُ أَيَّامٌ هِيَ : الْأَحَدُ وَالِاثْنَيْنُ وَالثُّلَاثَاءُ وَالْأَرْبِعَاءُ وَالخَمِيسُ وَالجُمْعَةُ وَفِيهِ اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُ ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ ﷺ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هَلْ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَهَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا هُوَ المُتَبَادِرُ إِلَى الْأَذْهَانِ ، أَوْ كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، فَأَمَّا يَوْمُ السَّبْتِ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ ؛ لأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّابِعُ وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ وَهُوَ الْقَطْعُ ، فَأَمَّا الحَدِيثُ الوارِدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِي فَقَالَ : ((**خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ آخِرِ الخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ**)) . فَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١) وَفِيهِ اسْتِيعَابُ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ وَاللهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ : ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وَلِهَذَا تَكَلَّمَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الحُفَّاظِ فِي هَذَا الحَدِيثِ وَجَعَلُوهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ لَيْسَ مَرْفُوعًا وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا المَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا ، وَإِنَّمَا يُسْلَكُ فِي هَذَا المَقَامِ مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ ، وَلَا تَشْبِيهٍ ، وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَالظَّاهِرُ المُتَبَادِرُ

---

(١) مسلم (٢٧٨٩) .

إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ ، مِنْهُمْ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ قَالَ : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ ، فَمَنْ أَثْبَتَ للهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ ، وَنَفَى عَنِ اللهِ تَعَالَى النَّقَائِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أَيْ : يُذْهِبُ ظَلَامَ هَذَا بِضِيَاءِ هَذَا ، وَضِيَاءَ هَذَا بِظَلَامِ هَذَا ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا أَيْ سَرِيعًا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠] ، فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : لَا يَفُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى أَيْ : الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُنَبِّهًا : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان : ٦١]

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أَرْشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَةً كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱذْكُر

رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾[الأعراف : ٢٠٥] . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَيُّهَا النَّاسُ ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** » الحَدِيثُ ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ **قِيلَ** : السِّرُّ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : تَضَرُّعًا : تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَةً لِطَاعَتِهِ ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ يَقُولُ : بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، لَا جِهَارًا وَمُرَاءَاةً . **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءِ وَالصِّيَاحِ فِي الدُّعَاءِ ، وَيُؤْمَرُ بِالتَّضَرُّعِ وَالِاسْتِكَانَةِ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﷺ **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ **قَالَ** : فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ ، **وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ** : لَا يَسْأَلُ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ . **وَعَنْ أَبِي نَعَامَةَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ** : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا ، فَقَالَ : يَا بُنَيَّ سَلِ اللهَ الجَنَّةَ وَعُذْ بِهِ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهُورِ** »[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، كَانَ أَضَرَّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ ، فَنَهَى تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ لَدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَيْ : خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ ، وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ رَحْمَتَهُ مُرْصَدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَتْرُكُونَ زَوَاجِرَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف : ١٥٦] وَقَالَ : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : قَرِيبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ ، أَوْ لِأَنَّهَا مُضَافَةٌ إِلَى اللهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا

---

(١) البخاري (حديث ٤٢٠٥) ، ومسلم (حديث ٢٧٠٤) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٥٥) وأبو داود في الطهارة (٢/ ١٦٢) .

ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ ، وَأَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ ؛ لأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَّاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾ أَيْ : نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ الحَامِلِ لِلْمَطَرِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ : « بُشْرًا » كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم : ٤٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : بَيْنَ يَدَيِ الْمَطَرِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ أَيْ : حَمَلَتِ الرِّيَاحُ سَحَابًا ثِقَالًا ، أَيْ مِنْ كَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ ، تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُدْلَهِمَّةً ، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْن نُفَيْلٍ ، رَحِمَهُ اللهُ .

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ — لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ — لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ ﴾ أَيْ : إِلَى أَرْضٍ مَيِّتَةٍ مُجْدِبَةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ [يس : ٣٣] . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُنْزِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَاءً مِنَ السَّمَاءِ فَتُمْطِرُ الْأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ الحَبُّ فِي الْأَرْضِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يَضْرِبُ اللهُ مَثَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يَخْرُجُ نَبَاتُهَا سَرِيعًا حَسَنًا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ

لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قِيلَ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ . عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**))[١].

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَغَ مِنْهُ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوحٍ ﷺ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَيْنَ آدَمَ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ ﷺ عَشَرَةُ قُرُونٍ ، كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ .

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ : وَكَانَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ أَنَّ قَوْمًا صَالِحِينَ مَاتُوا، فَبَنَى قَوْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُوَرَ أُولَئِكَ فِيهَا ؛ لِيَتَذَكَّرُوا حَالَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَشَبَّهُوا بِهِمْ ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّوَرِ ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ : وَدًّا ، وَسُوَاعًا ، وَيَغُوثَ ، وَيَعُوقَ ، وَنَسْرًا ، فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا ، يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ :

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذَا لَقِيتُمُ اللهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ أَيْ : الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ فِي دَعْوَتِكَ إِيَّانَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَيْهَا . وَهَكَذَا حَالُ الْفُجَّارِ إِنَّمَا يَرَوْنَ الْأَبْرَارَ فِي ضَلَالَةٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٣٢] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مَا أَنَا ضَالٌّ وَلَكِنْ أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ بَلِيغًا فَصِيحًا نَاصِحًا عَالِمًا بِاللهِ ، لَا يُدْرِكُهُمْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُمْ أَوْفَرُ مَا كَانُوا وَأَكْثَرُ جَمْعًا : « **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟** » قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيُنَكِّسُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيَقُولُ : « **اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ** »[1] .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : لَا تَعْجَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلُطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا نِقْمَةَ اللهِ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أَيْ : تَمَادَوْا عَلَى تَكْذِيبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ

(١) مسلم (حديث ١٢١٨) في ثنايا هذا الحديث الطويل .

إِلَّا قَلِيلٌ ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أَيْ : السَّفِينَةُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت : ١٥] كَمَا قَالَ : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أَيْ : عَنِ الحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ ، فَبَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ انْتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَأَنْجَى رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١-٥٢] ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّفَرَ وَالْغَلَبَ لَهُمْ ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالْغَرَقِ ، وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ .

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . **قُلْتُ** : هَؤُلَاءِ هُمْ عَادٌ الْأُولَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَم ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٦-٨] ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَأْسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ . وَقَدْ كَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَحْقَافِ وَهُوَ جِبَالُ الرَّمَلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ وَالْمَلَأُ هُمُ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالَةٍ ، حَيْثُ دَعَوْتَنَا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَالإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، بَلْ جِئْتُكُمْ بِالحَقِّ مِنَ اللهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكه . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرُّسُلُ : الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أَيَّامَ اللهِ وَلِقَاءَهُ ، بَلِ احْمَدُوا اللهَ عَلَى ذَاكُمْ ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أَيْ : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ ، الَّذِي أَهْلَكَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أَيْ : زَادَ طُولَكُمْ عَلَى النَّاسِ ﴿ بَصْطَةً ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ ، كَقَوْلِهِ فِي قِصَّةِ طَالُوتَ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ، ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نِعَمِهِ وَمِنَّتِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَى هُودٍ عليه السلام : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الْآيَةَ . كَمَا قَالَ الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا .

قَالَ هُودٌ ﵇ : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أَيْ : قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ رِجْسٌ ﴾ قِيلَ : هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ رِجْزٍ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَعْنَاهُ سَخَطٌ وَغَضَبٌ ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أَيْ : أَتُحَاجُّونِّي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ آلِهَةً ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي أَمَاكِنَ أُخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ ، فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَتَثْلَغُ رَأْسَهُ حَتَّى تَبِينُهُ مِنْ بَيْنِ جُثَّتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧]

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا

مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالنَّسَبِ : ثَمُودُ بْنُ عَاثِرِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ وَهُوَ أَخُو جُدَيْسِ بْنِ عَاثِرَ وَكَذَلِكَ قَبِيلَةُ طَسْمَ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاءً مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَا حَوْلَهُ ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ** : لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَامَ تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمُ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُودَ ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا لَهَا الْقُدُورَ ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عُذِّبُوا وَقَالَ : « **إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ** »(١) وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالْحِجْرِ : « **لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ** »(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ فَجَمِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١٧) وهذا لفظه ، وهو في البخاري حديث (٣٣٧٩) ، ومسلم حديث (٢٩٨١) بدون الجزء المرفوع منه .

(٢) انظر البخاري (٣٣٧٩) ، ومسلم (٢٩٨١) وأحمد في المسند (٢/ ١١٧) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أَيْ: قَدْ جَاءَتْكُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ عَيَّنُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُنْفَرِدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحِجْرِ يُقَالُ لَهَا: الْكَاتِبَةُ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةٌ عُشَرَاءُ تَمْخُضُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمُ اللهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُم إِلَى طُلْبَتِهِمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ، قَامَ صَالِحٌ ﷺ إِلَى صَلَاتِهِ وَدَعَا اللهَ ﷻ، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاءَ وَبْرَاءَ يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنْبَيْهَا كَمَا سَأَلُوا.

فَأَقَامَتِ النَّاقَةُ - وَفَصِيلُهَا بَعْدَمَا وَضَعَتْهُ - بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مُدَّةً، تَشْرَبُ مَاءَ بِئْرِهَا يَوْمًا، وَتَدَعُهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَئُونَ مَا شَاءُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ، تَرِدُ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسَعَهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَضَلَّعُ مِنَ الْمَاءِ، وَكَانَتْ - عَلَى مَا ذُكِرَ - خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ تَكْذِيبُهُمْ لِصَالِحِ النَّبِيِّ ﷺ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا؛ لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمُ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا. **قَالَ قَتَادَةُ**: بَلَغَنِي أَنَّ الَّذِي قَتَلَ النَّاقَةَ طَافَ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا، حَتَّى عَلَى النِّسَاءِ فِي خُدُورِهِنَّ وَعَلَى الصِّبْيَانِ.

قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤] وَقَالَ: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] فَأَسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى مَجْمُوعِ الْقَبِيلَةِ فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ(١) أَنَّ سَبَبَ قَتْلِهَا أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا: عُنَيْزَةُ بِنْتُ غَنْمِ بْنِ مِجْلَزٍ وَتُكَنَّى أُمَّ غَنْمٍ كَانَتْ عَجُوزًا كَافِرَةً،

(١) وهذه أخبارٌ لم يصح بها خبرٌ مرفوع عن النبي ﷺ.

وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِصَالِحٍ ﷺ وَكَانَتْ لَهَا بَنَاتٌ حِسَانٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَكَانَ زَوْجُهَا ذُؤَابُ بْنُ عَمْرٍو أَحَدُ رُؤَسَاءِ ثَمُودَ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا: صَدُوفُ بْنَةُ المحيا بْنِ دِهرِ ابْنِ المَحْيَا ذَاتُ حَسَبٍ وَمَالٍ وَجَمَالٍ وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ ثَمُودَ فَفَارَقَتْهُ، فَكَانَتَا تَجْعَلَانِ لِمَنِ الْتَزَمَ لَهُمَا بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَدَعَتْ صَدُوفٌ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: الحُبَابُ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ فَأَبَى عَلَيْهَا، فَدَعَتِ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مِصْدَعُ بْنُ مُهَرِّجِ بْنِ المَحْيَا فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَدَعَتْ عُنَيْزَةُ بِنْتُ غَنْمٍ قُدَارَ بْنَ سَالِفِ بْنِ جُنْدُعَ، وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيرًا، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَنْيَةٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ سَالِفٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: صَهْيَادُ، وَلَكِنْ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ سَالِفٍ، وَقَالَتْ لَهُ: أُعْطِيكَ أَيَّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ وَمِصْدَعُ بْنُ مُهَرِّجٍ فَاسْتَنْفَرَا غُوَاةً مِنْ ثَمُودَ، فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ فَصَارُوا تِسْعَةَ رَهْطٍ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]، وَكَانُوا رُؤَسَاءَ فِي قَوْمِهِمْ فَاسْتَمَالُوا الْقَبِيلَةَ الْكَافِرَةَ بِكَمَالِهَا فَطَاوَعَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَانْطَلَقُوا فَرَصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ عَنِ المَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَصْلِ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا مِصْدَعُ فِي أَصْلِ أُخْرَى فَمَرَّتْ عَلَى مِصْدَعَ فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَانْتَظَمَ بِهِ عَضَلَةَ سَاقِهَا، وَخَرَجَتْ أُمُّ غَنْمٍ عُنَيْزَةَ وَأَمَرَتِ ابْنَتَهَا - وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا - فَسَفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا لِقُدَارٍ وَزمرته، وَشَدَّ عَلَيْهَا قُدَارُ بِالسَّيْفِ فَكَشَفَ عَنْ عُرْقُوبِهَا فَخَرَجَتْ سَاقِطَةً إِلَى الْأَرْضِ، وَرَغَتْ رُغَاةً وَاحِدَةً تُحَذِّرُ سَقْبَهَا، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَّتِهَا فَنَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَقْبُهَا - وَهُوَ فَصِيلُهَا - حَتَّى أَتَى جَبَلًا مَنِيعًا فَصَعِدَ أَعْلَى صَخْرَةٍ فِيهِ وَرَغَا، **فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الحَسَنِ الْبَصْرِيِّ** أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ أَيْنَ أُمِّي؟ وَيُقَالُ: أَنَّهُ رَغَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَنَّهُ دَخَلَ فِي صَخْرَةٍ فَغَابَ فِيهَا، وَيُقَالُ: إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ فَعَقَرُوهُ مَعَ أُمِّهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَفَرَغُوا مِنْ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الخَبَرَ صَالِحًا ﷺ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ

مُجْتَمِعُونَ فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى وَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : ٦٥] وَكَانَ قَتْلُهُمُ النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ، فَلَمَّا أَمْسَى أُولَئِكَ التِّسْعَةُ الرَّهْطُ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَقَالُوا : إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ [النمل : ٤٩ - ٥١]. فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَوَاطَئُوا عَلَيْهِ وَجَاءُوا مِنَ اللَّيْلِ لِيَفْتِكُوا بِنَبِيِّ اللهِ صَالِحٍ ، أَرْسَلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ - عَلَيْهِمْ حِجَارَةً فَرَضَخَتْهُمْ سَلَفًا وَتَعْجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ ، وَأَصْبَحَ ثَمُودُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظِرَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ كَمَا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ عليه السلام وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّأْجِيلِ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمْعَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةٌ ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ أَيَّامِ الْمَتَاعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ وَوُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ وَقَدْ تَحَنَّطُوا وَقَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ - عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ - لَا يَدْرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ ، وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، فَفَاضَتِ الْأَرْوَاحُ وَزَهَقَتِ النُّفُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أَيْ : صَرْعَى لَا أَرْوَاحَ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى ، قَالُوا : إِلَّا جَارِيَةٌ كَانَتْ مُقْعَدَةً وَاسْمُهَا كَلْبَةُ بِنْتُ السِّلْقِ وَيُقَالُ لَهَا : الذَّرِيقَةُ وَكَانَتْ كَافِرَةً شَدِيدَةَ الْعَدَاوَةِ لِصَالِحٍ عليه السلام فَلَمَّا رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنَ الْعَذَابِ أَطْلَقَتْ رِجْلَاهَا ، فَقَامَتْ تَسْعَى كَأَسْرَعِ شَيْءٍ ، فَأَتَتْ حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ فَأَخْبَرَتْهُمْ بِمَا رَأَتْ وَمَا حَلَّ بِقَوْمِهَا ثُمَّ اسْتَسْقَتْهُمْ مِنَ الْمَاءِ فَلَمَّا شَرِبَتْ مَاتَتْ .

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ : وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ثَمُودَ أَحَدٌ سِوَى صَالِحٌ عليه السلام وَمَنْ تَبِعَهُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - إِلَّا أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ : أَبُو رِغَالٍ كَانَ لَمَّا وَقَعَتِ النِّقْمَةُ بِقَوْمِهِ مُقِيمًا إِذْ ذَاكَ فِي الْحَرَمِ فَلَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ فَلَمَّا خَرَجَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى الْحِلِّ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَتَلَهُ .

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ ﷺ لِقَوْمِهِ لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى الله، وَإِبَائِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ **فِي الصَّحِيحَيْنِ**(١) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّتْ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَرَكِبَهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ**». وَهَكَذَا صَالِحٌ ﷺ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أَيْ: فَلَمْ تَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ كَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، فَبَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله ﷻ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ إِتْيَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ

(١) صحيح: وقد تقدم.

تَعْهَدُهُ وَلَا تَأْلَفُهُ وَلَا يَخْطِرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سَدُومَ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ الله .
قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ : مَا نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ حَتَّى كَانَ قَوْمُ لُوطٍ . **وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ بَانِي جَامِعِ دِمَشْقَ** : لَوْلَا أَنَّ اللهَ ﷻ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ لُوطٍ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ ذَكَرًا يَعْلُو ذَكَرًا ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ ﷺ ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أَيْ : عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ ؛ لِأَنَّهُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر : ٧١] ، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ ، فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَهُنَّ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود : ٧٩] أَيْ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا أَرَبَ لَنَا فِي النِّسَاءِ وَلَا إِرَادَةَ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مُرَادَنَا مِنْ أَضْيَافِكَ ، **وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ** : أَنَّ الرِّجَالَ كَانُوا قَدِ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قَدِ اسْتَغْنَيْنَ بَعْضُهُنَّ بِبَعْضٍ أَيْضًا .

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أَيْ : مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ وَنَفْيِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، فَأَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ وَأَدْبَارِ النِّسَاءِ . وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَأَنْجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥- ٣٦] **إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ** ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تُمَالِئُهُمْ عَلَيْهِ وَتُعْلِمُهُمْ بِمَنْ يَقْدَمُ عَلَيْهِ مِنْ ضِيفَانِهِ ، بِإِشَارَاتٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ لُوطٌ عليه السلام أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ أُمِرَ أَنْ لَا يُعْلِمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلِ اتَّبَعَتْهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ الْعَذَابُ الْتَفَتَتْ هِيَ فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ ، **وَالْأَظْهَرُ** : أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَلَدِ وَلَا أَعْلَمَهَا لُوطٌ ، بَلْ بَقِيَتْ مَعَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : الْبَاقِينَ ، **وَقِيلَ** : مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٢- ٨٣] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَنْ تَجْهَرَمَ عَلَى مَعَاصِي اللهِ ﷻ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ؟ . **وَقَدْ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ -** إِلَى أَنَّ اللَّائِطَ يُلْقَى مِنْ شَاهِقٍ وَيُتَّبَعُ بِالْحِجَارَةِ كَمَا فُعِلَ بِقَوْمِ لُوطٍ ، **وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : إِلَى أَنَّهُ يُرْجَمُ سَوَاءٌ كَانَ مُحْصَنًا أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَالْحُجَّةُ مَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**))(١) **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ كَالزَّانِي فَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا رُجِمَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُحْصَنًا جُلِدَ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْآخَرُ لِلشَّافِعِيِّ ، وَأَمَّا إِتْيَانُ النِّسَاءِ فِي الْأَدْبَارِ فَهُوَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى وَهُوَ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ إِلَّا قَوْلًا شَاذًّا لِبَعْضِ السَّلَفِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْهُ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

(١) في إسناده كلام، ففي سنده عمرو بن أبي عمرو متكلم فيه ، وخاصة في هذا الحديث ، والحديث قد أخرجه أبو داود (٤٤٦٢ ، ٤٤٦٤) والترمذي (١٤٥٥ ، ١٤٥٦) وغيرهما ، وانظر الكلام عليه في المنتخب (٥٧٣) بتحقيقي .

غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قُلْتُ : « مَدْيَنُ » تُطْلَقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ وَهِيَ الَّتِي بِقُرْبِ « مَعَانٍ » مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣] ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ أَقَامَ اللهُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مُعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ يُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، أَيْ لَا يَخُونُوا النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَيَأْخُذُوهَا عَلَى وَجْهِ الْبَخْسِ ، وَهُوَ نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ خُفْيَةً وَتَدْلِيسًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين : ١] ، وَهَـذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ - نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنْهُ - ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ لِفَصَاحَةِ عِبَارَتِهِ وَجَزَالَةِ مَوْعِظَتِهِ .

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

يَنْهَاهُمْ شُعَيْبٌ عليه السلام عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أَيْ : تَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطُوكُمْ أَمْوَالَهُمْ . ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ وَهِيَ الطُّرُقُ ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللهِ عِوَجًا مَائِلَةً ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ

كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أَيْ : كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَّتِكُمْ فَصِرْتُمْ أَعِزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعَاصِي اللهِ وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ .

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ أَيْ : قَدِ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿ فَٱصْبِرُوا ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرُوا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ وَبَيْنَكُمْ ، أَيْ : يَفْصِلُ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وَالدَّمَارَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الْكُفَّارُ نَبِيَّهُ شُعَيْبًا ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِيَّاهُ ، وَمَنْ مَعَهُ بِالنَّفْيِ مِنَ الْقَرْيَةِ ، أَوِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرُّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمْ وَالدُّخُولِ مَعَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَهَذَا خِطَابٌ مَعَ الرَّسُولِ ، وَالْمُرَادُ : أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى الْمِلَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ يَقُولُ أَوْ أَنْتُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، فَإِنَّا إِنْ رَجَعْنَا إِلَى مِلَّتِكُمْ وَدَخَلْنَا مَعَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ ، فَقَدْ أَعْظَمْنَا الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ فِي جَعْلِ الشُّرَكَاءِ مَعَهُ أَنْدَادًا ، وَهَذَا تَنْفِيرٌ مِنْهُ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ .

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ وَهَذَا رَدٌّ إِلَى الْمَشِيئَةِ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أَيْ : فِي أُمُورِنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ :افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ أَيْ : خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، فَإِنَّكَ الْعَادِلُ الَّذِي

لَا يَجُورُ أَبَدًا .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى هُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا وَأَصْحَابَهُ ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٩٤]، وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِنَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : ٨٧] فَجَاءَتِ الصَّيْحَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩]، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الشعراء : ١٨٧]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّه أَصَابَهُمْ ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩]، وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أَيْ : كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمُ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أَيْ : فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شُعَيْبٌ ﷺ بَعْدَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ وَالنَّكَالِ ، وَقَالَ مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : قَدْ أَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ فَلَا أَسَفَةَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ يَعْنِي : بِالْبَأْسَاءِ : مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ ، وَالضَّرَّاءُ : مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَدْعُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَبْتَهِلُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي كَشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : أَنَّهُ ابْتَلَاهُمْ بِالشِّدَّةِ لِيَتَضَرَّعُوا ، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ مِنْهُمْ ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيَخْتَبِرَهُمْ فِيهِ . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أَيْ : حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنًى لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ أَيْ : كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، يُقَالُ : عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ ﴿ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا ؛ لِيَتَضَرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى اللهِ ، فَمَا نَجَعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، وَلَا انْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا بَلْ قَالُوا : قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٌ وَتَارَاتٌ ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللهِ فِيهِمْ ، وَلَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَصْبِرُونَ

عَلَى الضَّرَّاءِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « **عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »(١) فَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَتَفَطَّنُ لِمَا ابْتَلَاهُ اللهُ بِهِ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً أَيْ : عَلَى بَغْتَةٍ وَعَدَمِ شُعُورٍ مِنْهُمْ . أَيْ : أَخَذْنَاهُمْ فَجْأَةً .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِلَّةِ إِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمُ الرُّسُلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] أَيْ : مَا آمَنَتْ قَرْيَةٌ بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُس ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَايَنُوا الْعَذَابَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٤٧ - ١٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ : ٣٤] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ وَصَدَّقَتْ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ وَاتَّقَوا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : قَطْرُ السَّمَاءِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَى مَا كَسَبُوا مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَالتَّجَرُّؤِ عَلَى زَوَاجِرِهِ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ

(١) مسلم حديث (٢٩٩٩) .

ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أَيْ : الْكَافِرَةُ ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أَيْ : عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أَيْ : لَيْلًا ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ ، ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ شُغْلِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ . ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَخْذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ الله - المُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجِلٌ خَائِفٌ ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أَوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهُمْ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ . **وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا** : يَقُولُ تَعَالَى أَوَلَمْ يَبِنْ لِلَّذِينَ يَسْتَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخَرِينَ قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلَهَا فَسَارُوا سِيرَتَهُمْ وَعَمِلُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَعَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يَقُولُ : أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلِهِمْ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وَنَخْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ مَوْعِظَةً وَلَا تَذْكِيرًا .

قُلْتُ : وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[طه : ١٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾[مريم : ٩٨] أَيْ : هَلْ تَرَى لَهُمْ شَخْصًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِهْلَاكَ عَادٍ ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأحقاف : ٢٥ - ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام : ١٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حُلُولِ

نِقَمِهِ بِأَعْدَائِهِ وَحُصُولِ نِعَمِهِ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ .

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ بَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أَيْ : مِنْ أَخْبَارِهَا ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠٠- ١٠١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ . أَيْ : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ ، حَكَاهُ ابْنُ عَطِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٩-١١٠] ، **وَلِهَذَا قَالَ هُنَا** : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم ﴾ أَيْ : لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿ مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ ، وَالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَعَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ، لَا مِنْ

عَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ ، وَفِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ((**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**))(١)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ((**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**))(١) . وَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ كَانَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى يَوْمَ أَقَرُّوا لَهُ بِالْمِيثَاقِ . أَيْ : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، لِعِلْمِ اللهِ مِنْهُمْ ذَلِكَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ هَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ أَيْ : الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرِهِمْ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللهِ أَجْمَعِينَ - ﴿ مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِنَا وَدَلَائِلِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى ﴿ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أَيْ : قَوْمِهِ ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ أَيْ : جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤]أَيْ : الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ أَيْ : أُنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرْأًى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ ، وَهَـذَا أَبْلَغُ فِي النَّكَالِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللهِ

(١) صحيح: وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام آية (٧٩) .

مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاظَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَإِلْجَامِهِ إِيَّاهُ بِالحُجَّةِ ، وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ بِحَضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قِبْطِ مِصْرَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ . ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مَعْنَاهُ حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ . أَيْ : جَدِيرٌ بِذَلِكَ وَحَرِيٌّ بِهِ . قَالُوا : ((وَالْبَاءُ)) ، ((وَعَلَى)) يَتَعَاقَبَانِ يُقَالُ : رَمَيْتُ بِالْقَوْسِ وَعَلَى الْقَوْسِ ، وَجَاءَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ وَبِحَالٍ حَسَنَةٍ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ** : مَعْنَاهُ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ ، ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللهِ أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَقَهْرِكَ وَدَعْهُمْ وَعِبَادَةُ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيٍّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ . ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : قَالَ فِرْعَوْنُ : لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ ، وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهِرْهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الحَيَّةُ الذَّكَرُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً فَاغِرَةً فَاهَا مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْنُ أَنَّهَا قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ ، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ فَفَعَلَ . قَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أَيْ : أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دِرْعِهِ بَعْدَمَا

أَدْخَلَهَا فِيهِ ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ تَتَلَأْلَأُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾[النمل : ١٢] ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ** : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ يَعْنِي : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كُمِّهِ فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ .

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

أَيْ : قَالَ الْمَلَأُ وَهُمُ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ ، بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فَوَافَقُوهُ وَقَالُوا كَمَقَالَتِهِ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ وَمَاذَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْمَادِ كَلِمَتِهِ وَظُهُورِ كَذِبِهِ وَافْتِرَائِهِ ؟ وَتَخَوَّفُوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسَ بِسِحْرِهِ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ فَيَكُون ذَلِكَ سَبَبًا لِظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[القصص : ٦] فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ ، وَائْتَمَرُوا بِمَا فِيهِ ، اتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ أَرْجِه ﴾ أَخِّرْهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : احْبِسْهُ ﴿ وَأَرْسِل ﴾ أَيْ : ابْعَثْ ﴿ فِي ٱلْمَدَآئِنِ ﴾ أَيْ : فِي الْأَقَالِيمِ وَمُعَامَلَةِ مُلْكِكَ ﴿ حَٰشِرِين ﴾ أَيْ : مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحَرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ وَيَجْمَعُهُمْ ، وَقَدْ كَانَ السِّحْرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا ، وَاعْتَقَدَ مَنِ اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأُوهِمَ مَنْ أُوهِمَ مِنْهُمْ ، أَنَّ مَا جَاءَ مُوسَى بِهِ ﷺ مِنْ قَبِيلِ مَا تُشَعْبِذُهُ سَحَرَتُهُمْ ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ السَّحَرَةَ ؛ لِيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ

نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾[طه : ٥٧ - ٦٠] ، وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا :

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَالسَّحَرَةُ الَّذِينَ اِسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى عليه السلام إِنْ غَلَبُوا مُوسَى لَيُثِيبَنَّهُمْ وَلَيُعْطِيَنَّهُمْ عَطَاءً جَزِيلًا ، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا ، وَلَيَجْعَلَنَّهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا تَوَثَّقُوا مِنْ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ .

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

وَهَذِهِ مُبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَى عليه السلام فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَكَ ؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه : ٦٥] . قَالَ لَهُمْ مُوسَى عليه السلام : ﴿ أَلْقُوا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَوَّلًا قَبْلِي وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِيُرِيَ النَّاسَ صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ ، فَإِذَا فُرِغَ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمُحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ وَالِانْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ ، فَيَكُونُ أَوْقَعُ فِي النُّفُوسِ ، وَكَذَا كَانَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أَيْ : خَيَّلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ وَخَيَالٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه : ٦٦ - ٦٩]

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ، الَّذِي فَرَّقَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أَيْ: تَأْكُلُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أَيْ: مَا يُلْقُونَهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَهُوَ بَاطِلٌ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: فَجَعَلَتْ لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشَبِهِمْ إِلَّا الْتَقَمَتْهُ، فَعَرَفَتِ السَّحَرَةُ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ، فَخَرُّوا سُجَّدًا، وَقَالُوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى ﷺ وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أَيْ: إِنَّ غَلَبَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١]، وَهُوَ يَعْلَمُ - وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ - أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مُوسَى ﷺ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدْيَنَ، دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللهِ وَأَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمُعَامَلَةِ سَلْطَنَتِهِ، فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِبِلَادِ مِصْرَ مِمَّنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الجَزِيلِ،

وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ . وَمُوسَى عليه السلام لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَلَا رَآهُ وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسَتُّرًا وَتَدْلِيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهَلَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾[الزخرف : ٥٤] فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات : ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللهِ وَأَضَلِّهِمْ .

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ الْمَشْهُورِ : عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قَالَ : الْتَقَى مُوسَى عليه السلام وَأَمِيرُ السَّحَرَةِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : أَرَأَيْتُكَ إِنْ غَلَبْتُكَ أَتُؤْمِنُ بِي وَتَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ ؟ قَالَ السَّاحِرُ : لَآتِيَنَّ غَدًا بِسِحْرٍ لَا يَغْلِبُهُ سِحْرٌ ، فَوَاللهِ لَئِنْ غَلَبْتَنِي لَأُومِنَنَّ بِكَ وَلَأَشْهَدَنَّ أَنَّكَ حَقٌّ ، وَفِرْعَوْنُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا ، قَالُوا : فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أَيْ : تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤَسَاءَ ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَصْنَعُ بِكُمْ . ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يَعْنِي : يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[طه : ٧١] أَيْ : عَلَى الْجُذُوعِ ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ وَأَوَّلَ مَنْ قَطَعَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ فِرْعَوْنُ . وَقَوْلُ السَّحَرَةِ : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ وَنَكَالُهُ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللهِ . وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أَيْ : عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عليه السلام وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه : ٧٢ - ٧٥] فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَى عليه السلام وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبِغْضَةِ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : لِفِرْعَوْنَ ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ ﴾ أَيْ : أَتَدَعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ . يَا للهِ لَلْعَجَبِ ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ ! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : « الْوَاو » هَاهُنَا : حَالِيَّةٌ ، أَيْ : أَتَذَرُهُ وَقَوْمُهُ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَقَدْ تَرَكَ عِبَادَتَكَ ؟ وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ عَاطِفَةٌ ، أَيْ : لَا تَدَعْ مُوسَى يَصْنَعُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْفَسَادِ مَا قَدْ أَقْرَرْتَهُمْ عَلَيْهِ ، وَعَلَى تَرْكِ آلِهَتِكَ ، **وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ** : « إِلَاهَتَكَ » أَيْ : عِبَادَتَكَ ، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى **قَالَ بَعْضُهُمْ** : كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ ، يَعْبُدُهُ فِي السِّرِّ . **وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى** : كَانَ لَهُ جُمَانَةٌ فِي عُنُقِهِ مُعَلَّقَةٌ يَسْجُدُ لَهَا .

فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيعِ ، وَقَدْ كَانَ نَكَّلَ بِهِمْ قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَى عليه السلام حَذَرًا مِنْ وُجُودِهِ ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَامَهُ وَضِدَّ مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ ، وَهَكَذَا عُومِلَ فِي صَنِيعِهِ هَذَا أَيْضًا ، إِنَّمَا أَرَادَ قَهْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِذْلَالَهُمْ ، فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ ، أَعَزَّهُمُ اللهُ

وَأَذَلَّهُ وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَغْرَقَهُ وَجُنُودَهُ .

وَلَمَّا صَمَّمَ فِرْعَوْنُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُسَاءَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَاقِبَةِ ، وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أَيْ : قَدْ جَرَى عَلَيْنَا مِثْلُ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْهَوَانِ وَالْإِذْلَالِ مِنْ قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَقَالَ مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى حَالِهِمُ الْحَاضِرَةِ ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَزَوَالِ النِّقَمِ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : اِخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ وَهِيَ سِنِي الْجُوعِ بِسَبَبِ قِلَّةِ الزُّرُوعِ ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْخِصْبِ وَالرِّزْقِ ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيْ : جَدْبٌ وَقَحْطٌ ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أَيْ : هَـذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ **قِيلَ** : مَصَائِبُهُمْ عِنْدَ اللهِ . أَيْ : الْأَمْرُ مِنْ قِبَلِ اللهِ .

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُونَ : أَيُّ آيَةٍ جِئْتَنَا بِهَا ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا ، فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، **فَقِيلَ** : كَثْرَةُ الْأَمْطَارِ الْمُغْرِقَةِ الْمُتْلِفَةِ لِلزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ . ، **وَقِيلَ** : الطُّوفَانُ : الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ . **وَقِيلَ** : هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ طَافَ بِهِمْ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم : ١٩] ، وَأَمَّا الْجَرَادُ فَمَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ ، وَهُوَ مَأْكُولٌ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي يَعْفُورَ قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى عَنِ الْجَرَادِ فَقَالَ : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ[1] . **وَأَمَّا الْقُمَّلُ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ ، **وَقِيلَ** : أَنَّهُ الدَّبَى وَهُوَ الْجَرَادُ الصِّغَارُ الَّذِي لَا أَجْنِحَةَ لَهُ ، **وَقِيلَ** : الْقُمَّلُ : دَوَابٌّ سُودٌ صِغَارٌ . **وَقِيلَ** : الْقُمَّلُ : الْبَرَاغِيثُ ، **وَقِيلَ** : الْقُمَّلُ : جَمْعٌ وَاحِدَتُهَا قَمَّلَةٌ ، وَهِيَ دَابَّةٌ تُشْبِهُ الْقَمْلَ تَأْكُلُهَا الْإِبِلُ فِيمَا بَلَغَنِي .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ[2] - **رَحِمَهُ اللهُ** - : فَرَجَعَ عَدُوُّ اللهِ فِرْعَوْنُ حِينَ آمَنَتِ السَّحَرَةُ مَغْلُوبًا مَغْلُولًا ، ثُمَّ أَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِي فِي الشَّرِّ ، فَتَابَعَ اللهُ عَلَيْهِ الْآيَاتِ وَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَانَ ، ثُمَّ الْجَرَادَ ، ثُمَّ الْقُمَّلَ ، ثُمَّ الضَّفَادِعَ ، ثُمَّ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ . فَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ - وَهُوَ الْمَاءُ - فَفَاضَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَكَدَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْرُثُوا وَلَا يَعْمَلُوا شَيْئًا حَتَّى جَهِدُوا جُوعًا ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَأَكَلَ الشَّجَرَ فِيمَا بَلَغَنِي ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُلُ مَسَامِيرَ الْأَبْوَابِ مِنَ الْحَدِيدِ حَتَّى تَقَعَ دُورُهُمْ وَمَسَاكِنُهُمْ ، فَقَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٥) ، ومسلم (١٩٥٢) .
(٢) هذه معضلات ، ولم تثبت عن رسول الله ﷺ .

مِمَّا قَالُوا ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ ، فَذُكِرَ لِي أَنَّ مُوسَى ﷺ أُمِرَ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى كَثِيبٍ حَتَّى يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ ، فَمَشَى إِلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَ عَظِيمٍ ، فَضَرَبَهُ بِهَا فَانْثَالَ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى الْبُيُوتِ وَالْأَطْعِمَةِ وَمَنَعَهُمُ النَّوْمَ وَالْقَرَارُ ، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا لَهُ ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ ، فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ فَمَلَأَتِ الْبُيُوتَ وَالْأَطْعِمَةَ وَالْآنِيَةَ فَلَا يَكْشِفُ أَحَدٌ ثَوْبًا وَلَا طَعَامًا إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِعَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ ذَلِكَ قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا ، فَسَأَلَ رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَصَارَتْ مِيَاهُ آلِ فِرْعَوْنَ دَمًا ، لَا يَسْتَقُونَ مِنْ بِئْرٍ وَلَا نَهَرٍ وَلَا يَغْتَرِفُونَ مِنْ إِنَاءٍ إِلَّا عَادَ دَمًا عَبِيطًا .

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى ، فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى أَثَرِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَتَغَافُلِهِمْ عَنْهَا .

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ - ٦] ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ يَعْنِي : الشَّامَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[القصص : ٥ - ٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ أَيْ : وَخَرَّبْنَا مَا كَانَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالْمَزَارِعِ ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ ، **قِيلَ** : يَبْنُونَ .

وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قَالَهُ جَهَلَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﷺ حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿ فَأَتَوْا ﴾ ، أَيْ : فَمَرُّوا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ . فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللهِ وَجَلَالَهُ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمَثِيلِ . ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ ﴾ ، أَيْ : هَالِكٌ ﴿ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ **عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ** : أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ ، قَالَ : وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا ، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا : ذَاتُ أَنْوَاطٍ ، قَالَ : فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ ، قَالَ : فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ : اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ : ((**قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى** ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾))[1].

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ

(١)صحيح : أخرجه الترمذي (٢١٨) وقال هذا حديث حسن صحيح .

وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾

يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى ﷺ بِنِعْمَةِ الله عَلَيْهِمْ مِنْ : إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالذِّلَّةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ ، وَالِاشْتِفَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَغَرَقِهِ وَدَمَارِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقَرَةِ .

۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى ﷺ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَاةَ وَفِيهَا أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شَرْعِهِمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مَا هِيَ ؟ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَالْعَشْرُ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ كَمُلَ الْمِيقَاتُ يَوْمَ النَّحْرِ وَحَصَلَ فِيهِ التَّكْلِيمُ لِمُوسَى ﷺ وَفِيهِ أَكْمَلَ اللهُ الدِّينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة : ٣] ، فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ وَعَزَمَ مُوسَى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ [طه : ٨٠] ، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ وَأَوْصَاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ . وَهَذَا تَنْبِيهٌ وَتَذْكِيرٌ وَإِلَّا فَهَارُونُ ﷺ نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى الله لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﷺ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِ الله تَعَالَى ، وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ الله ، سَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ، وَقَدْ أَشْكَلَ حَرْفُ « لَنْ » هَاهُنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؛ لأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ ، فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَهَذَا أَضْعَفُ الأَقْوَالِ ؛ لأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللهَ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، كَمَا سَنُورِدُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكُفَّارِ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥]، **وَقِيلَ** : إِنَّهَا لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ فِي الدُّنْيَا ، جَمْعًا بَيْنَ هَذِهِ الآيَةِ وَبَيْنَ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى صِحَّةِ الرُّؤْيَةِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، **وَقِيلَ** : إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَالْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣]، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي الأَنْعَامِ .

أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾ قَالَ : قَالَ « هَكَذَا » ، يَعْنِي : أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ . قَالَ أَحْمَدُ : أَرَانَاهُ مُعَاذٌ ، فَقَالَ لَهُ حُمَيْدُ الطَّوِيلُ : مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : فَضَرَبَ صَدْرَهُ ضَرْبَةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْد ؟! وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْدُ ؟! يُحَدِّثُنِي بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ أَنْتَ : مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ ؟(١) . ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قيل : تُرَابًا ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قيل : مَغْشِيًّا عَلَيْهِ . **وَأَخرجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ**(٢) : ذُكِرَ عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ رُوَيْم قَالَ : كَانَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَتَجَلَّى اللهُ لِمُوسَى عَلَى الطُّورِ صُمًّا مُلْسًا ، فَلَمَّا تَجَلَّى اللهُ لِمُوسَى عَلَى الطُّورِ دُكَّ وَتَفَطَّرَتِ الْجِبَالُ فَصَارَتِ الشُّقُوقُ وَالْكُهُوفُ . **وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ** : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَبَلَ حِينَ كُشِفَ الْغِطَاءُ وَرَأَى النُّورَ صَارَ مِثْلَ دَكٍّ مِنَ الدَّكَاتِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ أَيْ : فَتَّتَهُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ

(١) **سنده صحيح** : وانظر سنن الترمذي (٣٠٧٤) وقال الترمذي هنالك ، هذا حديث حسن غريب صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة . وانظر أيضا مسند أحمد (٣/ ١٢٥) .

(٢) في التفسير (٥ / ٨٩٤٣) .

﴿ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ ، فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ ، فَنَظَرَ إِلَى الجَبَلِ لَا يَتَمَالَكُ ، وَأَقْبَلَ الجَبَلُ فَدُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الجَبَلُ فَخَرَّ صَعِقًا . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ((**جَعَلَهُ دَكَّاءَ**)) قَالَ : نَظَرَ اللهُ إِلَى الجَبَلِ فَصَارَ صَحْرَاءَ تُرَابًا ، وَقَدْ قَرَأَ بِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ بَعْضُ الْقُرَّاءِ وَاخْتَارَهَا ابْنُ جَرِيرٍ .

وَالمَعْرُوفُ أَنَّ الصَّعْقَ : هُوَ الْغَشْيُ هَاهُنَا ، وَهُنَاكَ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْغَشْيِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ وَالإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ غَشْيٍ ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ ، ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **قِيلَ** : مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ . **وَقِيلَ** : قَدْ كَانَ قَبْلَهُ مُؤْمِنُونَ ، وَلَكِنْ يَقُولُ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ لَهُ اتِّجَاهٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي ، قَالَ : ((**أُدْعُوهُ**)) فَدَعَوْهُ ، قَالَ : ((**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟**)) قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ . قَالَ : قُلْتُ : وَعَلَى مُحَمَّدٍ ؟ وَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ قَالَ : ((**لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**))[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : اسْتَبَّ رَجُلَانِ : رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَقَالَ الْيَهُودِيُّ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُ عَلَى الْيَهُودِيِّ فَلَطَمَهُ ، فَأَتَى الْيَهُودِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى مُمْسِكٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي ، أَمْ كَانَ**

---

(١) البخاري حديث (٤٦٣٨) .

مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ))[(١)] .

وَالْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ ﷺ : ((لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى)) كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ : ((لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى)) قِيلَ : مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ ، وَقِيلَ : قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِذَلِكَ ، وَقِيلَ : نَهَى أَنْ يُفَضَّلَ بَيْنَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ وَالتَّعَصُّبِ ، وَقِيلَ : عَلَى وَجْهِ الْقَوْلِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالتَّشَهِّي ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ((فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، الظَّاهِرُ : أَنَّ هَذَا الصَّعْقَ يَكُونُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَحْصُلُ أَمْرٌ يَصْعَقُونَ مِنْهُ وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، وَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ ، كَمَا صَعِقَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ((فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ)) .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى عَالَمِيْ زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَكَلَامِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَلِهَذَا اخْتَصَّهُ اللهُ بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَأَتْبَاعِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ ﴿ لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قِيلَ : كَانَتِ الْأَلْوَاحُ مِنْ جَوْهَرٍ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا

(١) البخاري (٢٤١١) ، ومسلم (٢٣٧٣) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٤) .

مُفَصَّلَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَلَالِ وَالحَرَامِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَاحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَاةِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾[القصص : ٤٣] ، وَقِيلَ : الْأَلْوَاحُ أُعْطِيَهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَكَانَتْ كَالتَّعْوِيضِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَمُنِعَ مِنْهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : بِعَزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قِيلَ : أَمَرَ مُوسَى ﷺ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمَهُ ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : سَتَرَوْنَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي ، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَالتَّبَابِ ؟ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِمَنْ يُخَاطِبُهُ : سَأُرِيكَ غَدًا إِلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ حَالُ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا ، وَقِيلَ : مَنَازِلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَاللهُ أَعْلَمُ ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ انْفِصَالِ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَنْ بِلَادِ مِصْرَ ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ التِّيهَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : سَأَمْنَعُ فَهْمَ الحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَيْ : كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللهُ بِالجَهْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف : ٥] ، وَقَالَ

بَعْضُ السَّلَفِ : لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِيٌّ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ ، وَقَالَ آخَرُ : مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً بَقِيَ فِي ذُلِّ الجَهْلِ أَبَدًا . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قَالَ : أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ وَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

[يونس : ٩٦ – ٩٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾ أَيْ : طَرِيقَ النَّجَاةِ لَا يَسْلُكُوهَا ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقَ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الحَالِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا فِيهَا .

قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أَيْ : مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ ، حَبِطَ عَمَلُهُ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ ، مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ ﷺ فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، وَالخُوَارُ : صَوْتُ الْبَقَرِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى

لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى ، فَأَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه : ٨٥] ، **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ** : هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَارٌ ؟ أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ كَالْبَقَرِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَيُقَالُ : إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمُ الْعِجْلُ رَقَصُوا حَوْلَهُ وَافْتُتِنُوا بِهِ وَقَالُوا ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾[طه : ٨٨] فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[طه : ٨٩] **وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ ، وَذُهُولِهِمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ ، وَلَكِنْ غَطَّى عَلَى أَعْيُنِ بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : « لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا » بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقٍ ، ﴿ رَبُّنَا ﴾ مُنَادَى « وَتَغْفِر لَنَا » ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَالْتِجَاءٌ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى ﷺ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضْبَانُ أَسِفٌ . **قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ** : الْأَسَفُ أَشَدُّ الْغَضَبِ . ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ يَقُولُ : بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبْتُ وَتَرَكْتُكُمْ ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

يَقُولُ : اِسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ ((**لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**))[١] ، ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ فِي نَهْيِهِمْ ، قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [طه : ٩٢- ٩٤] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا تُسْقِنِي مَسَاقِهِمْ وَلَا تَخْلُطْنِي مَعَهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ لِيَكُونَ أَرَقَّ وَأَنْجَعَ عِنْدَهُ ، وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى عليه السلام بَرَاءَةَ سَاحَةِ هَارُونَ عليه السلام كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ [طه : ٩٠]. **فعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى** : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبِرِ ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عز وجل أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ**))[٢].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)) : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(١) سيأتي قريبا بمعناه .
(٢) إسناده صحيح : وأخرجه الطبراني وغيره (١٢/ ١٢٤٥١) وانظر كذلك المسند (١/ ٢١٥ ، ٢٧١) .

[البقرة : ٥٤]وَأَمَّا الذِّلَّةُ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذِلَّةً وَصِغَارًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ نَائِلَةً لِكُلِّ مَنِ افْتَرَى بِدْعَةً ، فَإِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ وَمُخَالَفَةَ الرِّسَالَةِ مُتَّصِلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى كَتِفَيْهِ ، كَمَا قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : إِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَغْلَاتُ وَطَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ . وَهَكَذَا رَوَى أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ الجَرْمِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ فَقَالَ : هِيَ وَاللهِ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : كُلُّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ ذَلِيلٌ .

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفَعْلَةِ ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ : أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَزْنِي بِالمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فَتَلَاهَا عَبْدُ اللهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ أَيْ : سَكَنَ غَضَبُهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَانَ أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، غَيْرَةً للهِ وَغَضَبًا لَهُ ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ : إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً ، وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَذَهَبَ ، وَزَعَمُوا أَنَّ رُضَاضَهَا لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا فِي خَزَائِنِ المُلُوكِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذَا . وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ حِينَ أَلْقَاهَا وَهِيَ مِنْ جَوْهَرِ الجَنَّةِ ، فَقَدْ

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَهَا بَعْدَمَا أَلْقَاهَا وَجَدَ فِيهَا ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾

﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ضَمَّنَ الرَّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّامِ .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : كَانَ اللهُ أَمَرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا ، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُوا رَبَّهُمْ ، وَكَانَ فِيمَا دَعَوا اللهَ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا قَبْلَنَا وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا ، فَكَرِهَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ دُعَائِهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إنما أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ ، وَلَا نَهَوْهُمْ ، وَيَتَوَجَّه هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أَيْ : اِبْتِلَاؤُكَ وَاخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ ، يَقُولُ : إِنِ الْأَمْرُ إِلَّا أَمْرُكَ ، وَإِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لَكَ فَمَا شِئْتَ كَانَ ، تُضِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ ، وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ الْغَفْرُ : هُوَ السَّتْرُ وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْغَفْرِ يُرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوقِعَهُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ أَنْ لَا يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ .

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ هُنَاكَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي دَفْعِ المَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ المَقْصُودِ وَالمَعْنَى : أَوْجِبْ لَنَا وَأَثْبِتْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الحَسَنَةِ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : تُبْنَا وَرَجَعْنَا وَأَنَبْنَا إِلَيْكَ . **قال غَيْرُ وَاحِدٍ** : وَهُوَ كَذَلِكَ لُغَةً .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِمُوسى فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ . قَالَ : ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ ، وَلِيَ الحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ آيَةٌ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧]

عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ للهِ ﷻ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاحَمُ بِهَا الخَلْقُ ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا ، وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** »[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَجَعَلَ عِنْدَكُمْ وَاحِدَةً تَتَرَاحَمُونَ بِهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَبَيْنَ الخَلْقِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّهَا إِلَيْهِ** »[2] تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ يَعْنِي : فَسَأُوجِبُ حُصُولَ رَحْمَتِي مِنَّةً مِنِّي وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : سَأَجْعَلُهَا لِلْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : الشِّرْكَ وَالْعَظَائِمَ مِنَ الذُّنُوبِ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ **قِيلَ** : زَكَاةُ النُّفُوسِ ، **وَقِيلَ** : الْأَمْوَالُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً لَهُمَا ، فَإِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُونَ .

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٧٥٣) .

(٢) إسناده حسن : وأخرجه أحمد (٢/ ٥٢٦) ، (٣/ ٥٥) بنحوه وانظر البخاري (حديث ٦٠٠٠) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ، بَشَّرُوا أُمَمَهُمْ بِبَعْثِهِ، وَأَمَرُوهُمْ بِمُتَابَعَتِهِ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاتُهُ مَوْجُودَةً فِي كُتُبِهِمْ يَعْرِفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَحْبَارُهُمْ.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ كَصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥] وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، أَسْمَيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا. قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ لَقِيتُ كَعْبًا فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَمَا اخْتَلَفَ حَرْفًا، إِلَّا أَنَّ كَعْبًا قَالَ بِلُغَتِهِ، قَالَ: قُلُوبًا غُلُوفِيًّا، وَآذَانًا صُمُومِيًّا، وَأَعْيُنًا عُمُومِيًّا. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فَذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَهُ وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظ»، «وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»[(١)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ. وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ شَرٍّ. وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ مَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، كَمَا أُرْسِلَ بِهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ قَبْلَهُ، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ**

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه (٤٨٣٨).

عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ))[١] . وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : إِذَا حَدَّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَاهُ وَأَهْنَاهُ وَأَتْقَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أَيْ : يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَيَّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ قِيلَ : كَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَآكِلِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ تَعَالَى ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : فَكُلُّ مَا أَحَلَّ اللهُ تَعَالَى فَهُوَ طَيِّبٌ نَافِعٌ فِي الْبَدَنِ وَالدِّينِ ، وَكُلُّ مَا حَرَّمَهُ فَهُوَ خَبِيثٌ ضَارٌّ فِي الْبَدَنِ وَالدِّينِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّمَاحَةِ . قَالَ ﷺ لِأَمِيرَيْهِ مُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ : ((**بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**))[٢] . وَقَالَ صَاحِبُهُ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ : إِنِّي صَحِبْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ[٣] ، وَقَدْ كَانَتِ الْأُمَمُ الَّذِينَ قَبْلَنَا فِي شَرَائِعِهِمْ ضُيِّقَ عَلَيْهِمْ ، فَوَسَّعَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمُورَهَا وَسَهَّلَهَا لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ**))[٤] وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة : ٢٨٦] . وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[٥] أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٧) ، (٥/ ٤٢٥) .
(٢) صحيح : وقد تقدم في سورة البقرة (آية ١٨٥) .
(٣) أخرجه البخاري (١٢١١) .
(٤) صحيح : وقد تقدم في سورة البقرة (آية ٢٨٤) .
(٥) مسلم (حديث ١٢٦) .

بَعْدَ كُلِّ سُؤَالٍ مِنْ هَذِهِ ((**قَدْ فَعَلْتُ ، قَدْ فَعَلْتُ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أَيْ : عَظَّمُوهُ وَوَقَّرُوهُ . ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ ، وَهَذَا مِنْ شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷺ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ضَرُورَةً أَنَّهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِم .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في شأنِ أبي بكرٍ ﷺ : ((**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي ؟ إِنِّي قُلْتُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ**))(١).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي ، فَاجْتَمَعَ وَرَاءَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَحْرُسُونَهُ ، حَتَّى إِذَا صَلَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ : ((**لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ**))(٢) .

---

(١) البخاري (٤٦٤٠) .

(٢) سنده حسن: وأخرجه أحمد (٢ / ٢٢٢) .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ**))(١) ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ ، وَفِيهِ ((**وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**))(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ صِفَةُ اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِ : ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي : إِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أَيْ : الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ وَبُشِّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُ مَنْعُوتٌ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : يَصْدُقُ قَوْلُهُ عَمَلَهُ ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ أَيْ : اُسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَاقْتَفُوا أَثَرَهُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩]

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا .
(٢) البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ[1]، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّي، وَنَبَّهْنَا عَلَى الفَرْقِ بين هَذَا السِّيَاقِ وَذَاكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة: ٦٥] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ أَيْ: وَاسْأَلْ هَؤُلَاءِ الْيَهُود الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ الله، فَفَاجَأَتْهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمُخَالَفَةِ، وَحَذِّرْ هَؤُلَاءِ مِنْ كِتْمَانِ صِفَتِكَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ، لِئَلَّا يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِإِخْوَانِهِمْ وَسَلَفِهِمْ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ « أَيْلَةُ » وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ الْقُلْزُم.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أَيْ: يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ الله فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ بِهِ إِذْ ذَاكَ ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ **قِيلَ**: أَيْ: ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ، **وَقِيلَ**: مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا

(١) الآيات: (٥٧ - ٦٠).

تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أَيْ : نَخْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ لَهُمْ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ ، وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي الْيَوْمِ الْمُحَلَّلِ لَهُمْ صَيْدُهُ ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نَخْتَبِرُهُمْ ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يَقُولُ : بِفِسْقِهِمْ عَنْ طَاعَةِ الله وَخُرُوجِهِمْ عَنْهَا ، وَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ اِحْتَالُوا عَلَى اِنْتِهَاكِ مَحَارِمِ الله بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا فِي الْبَاطِنِ تَعَاطِي الْحَرَامَ .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : **فِرْقَةٍ اِرْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ** وَاحْتَالُوا عَلَى اِصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، **وَفِرْقَةٍ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ** وَاعْتَزَلَتْهُمْ ، **وَفِرْقَةٍ سَكَتَتْ** فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أَيْ : لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ الله ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ ، قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكِرَةُ : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ : هَذِهِ مَعْذِرَةٌ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ ، أَيْ : نَفْعَلُ ذَلِكَ ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يَقُولُونَ : وَلَعَلَّ بِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى الله تَائِبِينَ ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أَيْ : اِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِينَ ، وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ ، وَسَكَتَ عَنِ

السَّاكِتِينَ ؛ لأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا وَلَا ارْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا ، وَمَعَ هَذَا فَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِيهِمْ : هَلْ كَانُوا مِنَ الهَالِكِينَ أَوْ مِنَ النَّاجِينَ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ :

رُوِيَ[1] **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ هِيَ قَرْيَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بَيْنَ مِصْرَ وَالمَدِينَةَ ، يُقَالُ لَهَا ((أَيْلَةُ)) فَحَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ الحِيتَانَ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ، وَكَانَتِ الحِيتَانُ تَأْتِيهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا مَضَى يَوْمُ السَّبْتِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا ، فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَخَذُوا الحِيتَانَ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ، فَنَهَتْهُمْ طَائِفَةٌ وَقَالُوا : تَأْخُذُونَهَا وَقَدْ حَرَّمَهَا اللهُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ سَبْتِكُمْ ؟ فَلَمْ يَزْدَادُوا إِلَّا غَيًّا وَعُتُوًّا ، وَجَعَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى تَنْهَاهُمْ ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النُّهَاةِ : تَعْلَمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وَكَانُوا أَشَدَّ غَضَبًا للهِ مِنَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى فَقَالُوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وَكُلٌّ قَدْ كَانُوا يَنْهَوْنَ ، فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللهِ نَجَتِ الطَّائِفَتَانِ اللَّتَانِ قَالُوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ قَالُوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ وَأَهْلَكَ اللهُ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الَّذِينَ أَخَذُوا الحِيتَانَ فَجَعَلَهُمْ قِرَدَةً . **الْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّ السَّاكِتِينَ كَانُوا مِنَ الهَالِكِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ بِالمَفْهُومِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا نَجَوْا وَ ﴿ بَئِيسٍ ﴾ فِيهِ قِرَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَعْنَاهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ : الشَّدِيدُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : أَلِيمٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مُوجِعٌ ، وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ أَيْ : ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ

---

(١) وذلك من وجهين ضعيفين .

ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَيْ : أَعْلَمَ . قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : أَمَرَ ، وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، وَلِهَذَا تُلُقِّيَتْ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الْيَهُودِ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ وَشَرْعِهِ ، وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ . قِيلَ : هِيَ الْجِزْيَةُ ، وَالَّذِينَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأُمَّتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ شَرْعَهُ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ ، لِئَلَّا يَحْصُلَ الْيَأْسُ فَيَقْرُنُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ كَثِيرًا لِتَبْقَى النُّفُوسُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا أَيْ : طَوَائِفَ وَفِرَقًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْجِنِّ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن : ١١] ، ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم ﴾ أَيْ : اِخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿ بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أَيْ : بِالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى ﴿ فَخَلَفَ ﴾ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِي فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ﴿ خَلۡفٌ ﴾ آخَرَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، وَقَدْ ﴿ وَرِثُواْ ﴾ دِرَاسَةَ ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هُمُ النَّصَارَى ، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ ذَلِكَ ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ أَيْ : يَعْتَاضُونَ عَنْ بَذْلِ الْحَقِّ وَنَشْرِهِ بِعَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُسَوِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَعِدُونَهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَكُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَقَعُوا فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ ، **وَكَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْمَلُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ مِنْهُ ، فَإِنْ عَرَضَ ذَلِكَ الذَّنْبَ أَخَذُوهُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ قَالَ : لَا يُشْرِفُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ ، حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا ، وَيَتَمَنَّوْنَ الْمَغْفِرَةَ ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ : إِي وَاللهِ ، لَخَلْفُ سُوءٍ ﴿ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ ، وَرَّثَهُمُ اللهُ وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [مريم : ٥٩] . **قَالَ** : ﴿ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ تَمَنَّوْا عَلَى اللهِ أَمَانِيَّ وَغِرَّةً يَغْتَرُّونَ بِهَا ﴿ وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ لَا يَشْغَلُهُمْ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ ، كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ ، لَا يُبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : قَوْلُهُ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ **قَالَ** : كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يَسْتَقْضُونَ قَاضِيًا إِلَّا ارْتَشَى فِي الْحُكْمِ ، وَإِنَّ خِيَارَهُمُ اجْتَمَعُوا فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَا يَرْتَشُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا اسْتُقْضِيَ ارْتَشَى ، فَيُقَالُ لَهُ : مَا شَأْنُكَ تَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ ؟ فَيَقُولُ : سَيُغْفَرُ لِي ، فَيَطْعَنُ عَلَيْهِ الْبَقِيَّةُ الْآخَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا صَنَعَ ، فَإِذَا مَاتَ أَوْ نُزِعَ وَجُعِلَ مَكَانَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَطْعَنُ عَلَيْهِ فَيَرْتَشِي ، يَقُولُ : وَإِنْ يَأْتِ الْآخَرِينَ عَرَضُ الدُّنْيَا يَأْخُذُوهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾

الآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ المِيثَاقِ لَيُبَيِّنُنَّ الحَقَّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] . قِيلَ : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ قَالَ : فِيمَا يُوجِبُونَ عَلَى اللهِ مِنْ غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، أَيْ : وَثَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى المَحَارِمَ ، وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يَقُولُ : أَفَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي عَقْلٌ يَرْدَعُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَهِ وَالتَّبْذِيرِ ، ثُمَّ أَثْنَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : اعْتَصَمُوا بِهِ وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ وَتَرَكُوا زَوَاجِرَهُ ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ رَفَعْنَاهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٤] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوَظَائِفِ ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ وَأَبَوْا أَنْ يُقَرِّبُوهَا ، حَتَّى نَتَقَ اللهُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ قَالَ : رَفَعَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَن

هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اِسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ ﷺ: ((**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**))[١] وَفِي رِوَايَةٍ : ((**عَلَى هَذِهِ المِلَّةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟**))[٢].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**يَقُولُ اللهُ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**))[٣].

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عليه السلام وَتَمْيِيزُهُمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ وَفِي بَعْضِهَا : الاِسْتِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[٤] ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي**)) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ** عليه السلام **بِنَعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا ،**

---

(١) صحيح : وقد تقدم (آية ٧٩ الأنعام)
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٨) .
(٣) صحيح : وقد تقدم (الأنعام آية ٧٩) .
(٤) البخاري (٣٣٣٤) ومسلم (٢٨٠٥) .

قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾))(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ ، قَالَ : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ ؟ قَالَ سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَيْ رَبِّ قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، قَالَ : أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ، قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ**))(٢) .

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا فِي حَدِيثِ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ عَنْ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ ، **وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ** : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فَطْرُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ ، وَمِنْ رِوَايَةِ الحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنِ الْأَسْوَدِ ابْنِ سَرِيعٍ ، وَقَدْ فَسَّرَ الحَسَنُ الْآيَةَ بِذَلِكَ ، قَالُوا : وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ آدَمَ ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ ظَهْرِهِ ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أَيْ : جَعَلَ نَسْلَهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، وَقَالَ : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، وَقَالَ : ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] ،

---

(١) **إسناده حسن** : وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) ، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٢٠٢) وغيرهم وقد أُعلَّ بالوقف ، ولكن له طرق يصح بها ، والله أعلم .

(٢) **صحيح** : أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وقال هذا حديث حسن صحيح ، وانظر الترمذي أيضا (٣٣٦٨) .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا ، وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ [الأنعام : ١٣٠] ، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧] أَيْ : حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات : ٧] كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْمَقَالِ وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] قَالُوا : وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا أَنْ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَه مَنْ قَالَ ؛ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ ، لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ ، فَإِنْ قِيلَ : إِخْبَارُ الرَّسُولِ ﷺ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ ، فَالْجَوَابُ أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ ، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ أَيِ التَّوْحِيدِ ﴿ غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا ﴾ الْآيَةُ .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَال لَهُ بُلْعُمُ بْنُ آبَرَ . **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ بُلْعُمُ بْنُ بَاعُر . **وَقَالَ آخَرُونَ** : إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ اسمَ اللهِ الْأَعْظَمَ وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ . **وَقِيلَ هُوَ** : أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ أُمَيَّةَ بْنَ

أَبِي الصَّلْتِ يُشْبِهُهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدِ اتَّصَلَ إِلَيْهِ عِلْمٌ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الشَّرَائِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ ، فَإِنَّهُ أَدْرَكَ زَمَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَلَغَتْهُ أَعْلَامُهُ وَآيَاتُهُ ، وَمُعْجِزَاتُهُ ، وَظَهَرَتْ لِكُلِّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ ، وَمَعَ هَذَا اجْتَمَعَ بِهِ وَلَمْ يَتْبَعْهُ وَصَارَ إِلَى مُوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُنَاصَرَتِهِمْ وَامْتِدَاحِهِمْ ، وَرَثَى أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَرْثَاةٍ بَلِيغَةٍ - قَبَّحَهُ اللهُ - فَإِنَّ لَهُ أَشْعَارًا رَبَّانِيَّةً وَحِكَمًا وَفَصَاحَةً ، وَلَكِنْ لَمْ يَشْرَحِ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .

وَأَغْرَبَ ، بَلْ أَبْعَدَ ، بَلْ أَخْطَأَ مَنْ قَالَ : كَانَ قَدْ أُوتِيَ النُّبُوَّةَ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِهِمْ وَلَا يَصِحُّ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : إِنَّ اللهَ لَمَّا انْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً الَّتِي قَالَ اللهُ : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾[المائدة : ٢٦] بَعَثَ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ نَبِيًّا فَدَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَّ اللهَ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ الْجَبَّارِينَ فَبَايَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ ، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ : بُلْعُمُ ، فَكَانَ عَالِمًا يَعْلَمُ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ الْمَكْتُومَ فَكَفَرَ - لَعَنَهُ اللهُ - وَأَتَى الْجَبَّارِينَ ، وَقَالَ لَهُمْ : لَا تُرْهِبُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي إِذَا خَرَجْتُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ أَدْعُو عَلَيْهِمْ دَعْوَةً فَيَهْلِكُونَ ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ فِيمَا شَاءَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ النِّسَاءَ مِنْ عِظَمِهِنَّ ، فَكَانَ يَنْكِحُ أَتَانًا لَهُ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أَيْ : اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ وَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ فَمَهْمَا أَمَرَهُ امْتَثَلَ وَأَطَاعَهُ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ الْحَائِرِينَ الْبَائِرِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أَيْ : لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التَّدَنُّسِ عَنْ قَاذُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَالَ إِلَى زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَّاتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَغَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى . **وَقَالَ أَبُو الزَّاهِرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : تَرَاءَى لَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى غُلْوَةٍ مِنْ قَنْطَرَةِ بَانْيَاسَ فَسَجَدَتِ الْحِمَارَةُ للهِ ، وَسَجَدَ

بَلْعَامُ لِلشَّيْطَانِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: وَكَانَ مِنْ قِصَّةِ هَذَا الرَّجُلِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن عَبْدِ الأَعْلَى ، حَدَّثَنَا المُعْتَمِرُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ فَحَدَّثَ عَنْ سَيَّارٍ : أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يُقَال لَهُ بَلْعَام - وَكَانَ قَدْ أُوتِيَ النُّبُوَّةَ - وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ ، قَالَ : وَإِنَّ مُوسَى أَقْبَلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُرِيدُ الأَرْضَ الَّتِي فِيهَا بَلْعَامُ - أَوْ قَالَ الشَّامُ - قَالَ : فَرُعِبَ النَّاسُ مِنْهُ رُعْبًا شَدِيدًا ، فَأَتَوْا بَلْعَامَ فَقَالُوا : أُدْعُ اللهَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ وَجَيْشِهِ قَالَ : حَتَّى أُوَامِرُ رَبِّي - أَوْ حَتَّى أُؤَامَر - قَالَ : فَوَامَرَ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَقِيلَ لَهُ : لا تَدْعُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادِي ، وَفِيهِمْ نَبِيُّهُمْ ، قَالَ : فَقَالَ لِقَوْمِهِ : إِنِّي قَدْ وَامَرْتُ رَبِّي فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنِّي قَدْ نُهِيتُ ، فَأَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً فَقَبِلَهَا ، ثُمَّ رَاجَعُوهُ ، فَقَالُوا : أُدْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي ، فَوَامَرَ فَلَمْ يَحُرْ إِلَيهِ شَيْءٌ ، فَقَالَ : قَدْ وَامَرْت فَلَمْ يَحُرْ إِلَيَّ شَيْءٌ ، فَقَالُوا : لَوْ كَرِهَ رَبُّكَ أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِمْ لَنَهَاكَ ، كَمَا نَهَاكَ المَرَّةَ الأُولَى ، قَالَ : فَأَخَذَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا دَعَا عَلَيْهِمْ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ الدُّعَاءَ عَلَى قَوْمِهِ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو أَنْ يفْتَحَ لِقَوْمِهِ دَعَا أَنْ يفْتَحَ لِمُوسَى وَجَيْشِهِ ، أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ، قَالَ : فَقَالُوا مَا نَرَاك تَدْعُو إِلَّا عَلَيْنَا ، قَالَ : مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِي إِلَّا هَكَذَا ، وَلَوْ دَعَوْتُ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا أُسْتُجِيبَ لِي ، وَلَكِنْ سَأَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الزِّنَا وَإِنَّهُمْ إِنْ وَقَعُوا فِي الزِّنَا هَلَكُوا ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهَ ، فَأَخْرِجُوا النِّسَاءَ يَسْتَقْبِلنَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُسَافِرُونَ ، فَعَسَى أَنْ يَزْنُوا فَيهْلكُوا ، قَالَ : فَفَعَلُوا فَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ يَسْتَقْبِلنَهُمْ قَالَ : وَكَانَ لِلْمَلِكِ ابْنَةٌ فَذَكَرَ مِنْ عِظَمِهَا مَا اللهُ أَعْلَم بِهِ ، قَالَ : فَقَالَ أَبُوهَا - أَوْ بَلْعَامُ - لَا تُمَكِّنِي نَفْسَكِ إِلَّا مِنْ مُوسَى ، قَالَ : وَوَقَعُوا فِي الزِّنَا ، قَالَ : فَأَتَاهَا رَأْسُ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَتْ : مَا أَنَا بِمُمَكِّنَةٍ نَفْسِي إِلَّا مِنْ مُوسَى ، فَقَالَ : إِنَّ مَنْزِلَتِي كَذَا وَكَذَا ، وَإِنَّ مِنْ حَالِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا تَسْتَأْمِرُهُ ، قَالَ : فَقَالَ لَهَا : فَأَمْكِنِيهِ ، قَالَ : وَيَأْتِيهِمَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَارُونَ وَمَعَهُ الرُّمْحُ فَيَطْعَنُهُمَا ، قَالَ : وَأَيَّدَهُ اللهُ بِقُوَّةٍ فَانْتَظَمَهُمَا جَمِيعًا ، وَرَفَعَهُمَا عَلَى رُمْحِهِ فَرَآهُمَا النَّاسُ

- أَوْ كَمَا حَدَّثَ - قَالَ : وَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الطَّاعُونَ فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا .

قَالَ أَبُو الْمُعْتَمِرِ : فَحَدَّثَنِي سَيَّارٌ : أَنَّ بَلْعَامًا رَكِبَ حَمَارَةً لَهُ حَتَّى أَتَى عَلُولِيَّ أَوْ قَالَ طَرِيقًا مِنْ عَلُولِيّ جَعَلَ يَضْرِبُهَا وَلَا تُقْدِمُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ : عَلَامَ تَضْرِبُنِي ؟ أَمَا تَرَى هَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ؟ فَإِذَا الشَّيْطَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ : فَنَزَلَ وَسَجَدَ لَهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ قَالَ : فَحَدَّثَنِي بِهَذَا سَيَّارٌ وَلَا أَدْرِي لَعَلَّهُ قَدْ دَخَلَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِ غَيْرِهِ .

قُلْتُ : هُوَ بَلْعَامُ ، وَيُقَالُ : بُلْعُمُ بْنُ بَاعُورَاءَ ، وَيُقَالُ : ابْنُ أَبَرَ ، وَيُقَالُ : ابْنُ بَاعُورَ بْنِ شَهُومَ بْنِ قُوشْتُمَ بْنِ مَابَ بْنِ لُوطَ بْنِ هَارَانَ ، وَيُقَالُ : ابْنُ حَرَّانَ بْنِ آزَرَ وَكَانَ يَسْكُنُ قَرْيَةً مِنْ قُرَى الْبَلْقَاءِ . **قَالَ ابْنُ عَسَاكِرَ** : وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ ، فَانْسَلَخَ مِنْ دِينِهِ ، لَهُ ذِكْرٌ فِي الْقُرْآنِ . ثُمَّ أَوْرَدَ مِنْ قِصَّتِهِ نَحْوًا مِمَّا ذَكَرْنَا هَاهُنَا أَوْرَدَهُ عَنْ وَهْبٍ وَغَيْرِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ، **فَأَمَّا عَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي النَّضْرِ** : أَنَّ بَلْعَامًا انْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ فَتَشْبِيهُهُ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ زُجِرَ وَإِنْ تُرِكَ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ ، وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَعَدَمِ الدُّعَاءِ كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِنْ حَمَلْتَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ ، فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالضَّالِّ ضَعِيفٌ فَارِغٌ مِنَ الْهُدَى ، فَهُوَ كَثِيرُ الْوَجِيبِ ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا ، نُقِلَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أَيْ : لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالِمِينَ بِحَالِ بَلْعَامَ ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُ وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي

تَعْلِيمِهِ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَشعْبِ الْإِيمَانِ أَتْبَاعَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، كَلِيمُ اللهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا ، وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ ، كَمَا أَخْبَرَتْهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَتْهُمْ بِهِ ، وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابِهِ وَكَتَمَهُ فَلَمْ يُعْلِمْ بِهِ الْعِبَادَ أَحَلَّ اللهُ بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ .

قَوْلُهُ : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : سَاءَ مَثَلًا مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، أَيْ سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شُبِّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْلَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ ، وَبِئْسَ الْمَثَلُ مَثَلُهُ ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السُّوءِ ، الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى وَطَاعَةِ الْمَوْلَى ، إِلَى الرُّكُونِ إِلَى دَارِ الْبِلَى ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى تَحْصِيلِ اللَّذَّاتِ وَمُوَافَقَةِ الْهَوَى .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ هَدَاهُ اللهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ : « **إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** »(٢).

---

(١) البخاري (٢٦٢٢) .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي بنحوه (حديث ١١٠٥) ، والنسائي (٦/ ٨٩) .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أَيْ : خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أَيْ : هَيَّأْنَاهُمْ لَهَا وَبِعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** »(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : دُعِيَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ طُوبَى لَهُ عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَوَغَيْرِ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ؟ إِنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ** »(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ « **ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ المَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ** »(٣) وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَمَسْأَلَةُ الْقَدَرِ كَبِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يَعْنِي : لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف : ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٨] هَذَا فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ ،

(١) مسلم (٢٦٥٣) .
(٢) مسلم (٢٦٦٢) .
(٣) البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

وَقَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا وَ بُكْمًا وَ عُمْيًا إِلَّا عَنِ الهُدَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَ الهُدَى ، كَالأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الحَوَاسِّ مِنْهَا ، إِلَّا فِي الَّذِي يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة : ١٧١] أَيْ : وَمَثَلُهُمْ فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الإِيمَانِ كَمَثَلِ الأَنْعَامِ ، إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَهُ وَلَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ ، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أَيْ : مِنَ الدَّوَابِّ ؛ لأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَبس بِهَا ، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهْ كَلَامَهُ ، بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ ، وَلأَنَّ الدَّوَاب تَفْقَهُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَعْبُدَ اللهَ وَيُوَحِّدَهُ ، فَكَفَرَ بِاللهِ وَأَشْرَكَ بِهِ ، وَلِهَذَا مَنْ أَطَاعَ اللهَ مِنَ الْبَشَرِ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ مِثْلِهِ مِنَ المَلَائِكَةِ فِي مَعَادِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْبَشَرِ كَانَتِ الدَّوَابُّ أَتَمَّ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ .

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ**))[1]. ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ الأَسْمَاءَ الحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي التِسْعَةِ وَالتِسْعِينَ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ**

(١) البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) .

خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا »(١) ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ : « بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ قِيلَ : إِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ بِأَنِ اشْتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ : يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ . وَقِيلَ : الْإِلْحَادُ : التَّكْذِيبُ ، وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ ، وَالْمَيْلُ وَالْجَوْرُ وَالِانْحِرَافُ ، وَمِنْهُ اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ لِانْحِرَافِهِ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ عَنْ سَمْتِ الْحَفْرِ .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ أَيْ : بَعْضُ الْأُمَمِ ﴿ أُمَّةٌ ﴾ قَائِمَةٌ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا ﴿ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴿ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْآثَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ هِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ .

وَفِي الصَّحِيحِ(٢) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » وَفِي رِوَايَةٍ : « حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » وَفِي رِوَايَةٍ « وَهُمْ بِالشَّامِ » .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ ، وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا ؛ حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا

(١) في سنده بعض الكلام ، أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) وأبو يعلى (٩/ ٥٢٩٧) والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٧) وفي سنده أبو سلمة الجهني في شأنه بعض الخلاف .
(٢) البخاري (٣٦٤١) .

عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٤ - ٤٥] ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡ ﴾ أَيْ : وَسَأُمْلِي لَهُمْ ، أَيْ : أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ أَيْ : قَوِيٌّ شَدِيدٌ .

أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا ، وَدَعَا إِلَى حَقٍّ ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعِي بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ [التكوير : ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ [سبأ : ٤٦] يَقُولُ إِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا للهِ ، لَيْسَ فِيهِ تَعَصُّبٌ وَلَا عِنَادٌ مَثْنَى وَفُرَادَى أَيْ : مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللهِ ، أَبِهِ جُنُونٌ أَمْ لَا ، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ بَانَ لَكُمْ ، وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقًا .

أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ، فِي مُلْكِ اللهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا ، فَيَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ ، وَمِنْ فِعْلِ مَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالدِّينُ الْخَالِصُ إِلَّا لَهُ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، وَيُصَدِّقُوا رَسُولَهُ ، وَيُنِيبُوا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ آجَالُهُمْ قَدِ اقْتَرَبَتْ فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ يَقُولُ : فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ وَتَرْهِيبٍ

بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهِيبِهِ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فِي آيِ كِتَابِهِ يُصَدِّقُونَ ، إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﷻ ؟ .

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي عَنْهُ شَيْئًا ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١]

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣] قِيلَ : نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ ، وَقِيلَ : فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ ، وَالأَوَّلُ أَشْبَهُ ؛ لِأَنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ اسْتِبْعَادًا لِوُقُوعِهَا وَتَكْذِيبًا بِوُجُودِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ قِيلَ : مُنْتَهَاهَا : أَيْ : مَتَى مَحَطُّهَا ، وَأَيَّانَ آخِرُ مُدَّةِ الدُّنْيَا ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ ، أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا . أَيْ : يَعْلَمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا ، وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ ؟ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قِيلَ : ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَقِيلَ : إِذَا جَاءَتْ ثَقُلَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَقُولُ : كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ ، وَالأَوَّلُ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - وَهُوَ كَمَا قَالَ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ ثِقَلُ مَجِيئِهَا

عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يَقُولُ خَفِيَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا حِينَ تَقُومُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ يَبْغَتُهُمْ قِيَامُهَا ، تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا ، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا** »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ لِقْحَتَهُ فَمَا يَصِلُ الْإِنَاءُ إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَالرَّجُلُ يَلُوطُ حَوْضَهُ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّى تَقُومَ** »[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ ؛ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ فَقِيلَ مَعْنَاهُ : كَأَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةً ، كَأَنَّكَ صَدِيقٌ لَهُمْ . **وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَرَابَةً ، فَأَسِرَّ إِلَيْنَا مَتَى السَّاعَةُ ؟ ، **وَقِيلَ** : كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ كَأَنَّكَ بِهَا عَالِمٌ ، وَقَدْ أَخْفَى اللهُ عِلْمَهَا عَلَى خَلْقِهِ وَقَرَأَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ فِي الْمَقَامِ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فَجَلَسَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسَ السَّائِلِ الْمُسْتَرْشِدِ ، وَسَأَلَهُ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** » أَيْ : لَسْتُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ ، وَلَا أَحَدٌ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ أَحَدٍ ، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان : ٣٤] ، وَفِي رِوَايَةٍ :

---

(١) البخاري حديث (٦٥٠٦) .
(٢) مسلم (٢٩٥٤) .

فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَبَيَّنَ لَهُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ ، ثُمَّ قَالَ « **فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ** » ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَفِي هَذَا كُلِّهِ يَقُولُ لَهُ بَعْدَ كُلِّ جَوَابٍ : صَدَقْتَ ؛ وَلِهَذَا عَجِبَ الصَّحَابَةُ مِنْ هَذَا السَّائِلِ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، ثُمَّ لَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** »(١).

وَلَمَّا سَأَلَهُ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ وَنَادَاهُ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هَاؤُمُ** » - عَلَى نَحْوٍ مِنْ صَوْتِهِ - قَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **وَيْحَكَ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟** » قَالَ : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ ، وَلَكِنْ أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ** »(٢) فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، فَفِيهِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ هَذَا الَّذِي لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى عِلْمِهِ ، أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ ، وَهُوَ الِاسْتِعْدَادُ لِوُقُوعِ ذَلِكَ ، وَالتَّهَيُّؤُ لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا تَعْيِينَ وَقْتِهِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَتِ الْأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلُوهُ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَيَنْظُرُ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَيَقُولُ : « **إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ ، حَتَّى قَامَتْ سَاعَتُكُمْ** »(٣) يَعْنِي بِذَلِكَ : مَوْتَهُمُ الَّذِي يُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْحُصُولِ فِي بَرْزَخِ الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ : « **تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ** »(٤). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ انْخِرَامَ ذَلِكَ الْقَرْنِ(٥) .

فَهَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُهُمْ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ ، وَالْعَاقِبُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَالْحَاشِرُ الَّذِي تُحْشَرُ

---

(١) انظر صحيح مسلم (حديث رقم ٨) ، ورقم (٩) ، وكذا انظر البخاري (حديث ٥٠) .
(٢) البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .
(٣) مسلم (حديث ٢٩٥٢) .
(٤) مسلم (٢٥٣٨) .
(٥) البخاري (١١٦) ، ومسلم (٢٥٣٧) .

النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ ، مَعَ قَوْلِهِ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ، وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : ((**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**))(١) وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَتَى أَمُوتُ لَعَمِلْتُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَقَالَ مِثْلَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ عَمَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ دِيمَةً(٢) ، وَفِي رِوَايَةٍ : كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ(٣) فَجَمِيعُ عَمَلِهِ كَانَ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى اللهِ ﷻ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرَهُ إِلَى الِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَالْأَحْسَنُ فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَالِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَعَلِمْتُ إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا مَا أَرْبَحُ فِيهِ فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا إِلَّا رَبِحْتُ فِيهِ ، ﴿ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ قَالَ : وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : **وَقَالَ آخَرُونَ** : مَعْنَى ذَلِكَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَعْدَدْتُ لِلسَّنَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنَ الْمُخَصَّبَةِ ، وَلَعَرَفْتُ الْغَلَاءَ مِنَ الرُّخْصِ ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرُّخْصِ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** ﴿ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ **قَالَ** : لَاجْتَنَبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَاتَّقَيْتُهُ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ ﴿ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَيْ : نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ

---

(١) البخاري (٦٥٠٣ ، ٦٥٠٤) ، ومسلم (٢٩٥٠ ، ٢٩٥١) .

(٢) مسلم (٧٨٣) ، والبخاري (١٩٨٧) .

(٣) مسلم (٧٨٢) ، وانظر البخاري (٦٤٦١ فما بعده) .

لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[مريم : ٩٧]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عليه السلام وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَّاءَ ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ مِنْهُمَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات : ١٣] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أَيْ : لِيَأْلَفَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[الروم : ٢١] ، فَلَا أُلْفَةَ بَيْنَ رُوحَيْنِ أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِرَ رُبَّمَا تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أَيْ : وَطِئَهَا ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا تَجِدُ الْمَرْأَةُ لَهُ أَلَمًا ، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ . ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ أَيْ : صَارَتْ ذَاتَ ثِقَلٍ بِحَمْلِهَا ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : كَبِرَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا . ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : بَشَرًا سَوِيًّا . فقد أَشْفَقَا أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ . ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يَذْكُرُ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا آثَارًا وَأَحَادِيثَ سَأُورِدُهَا وَأُبَيِّنُ مَا فِيهَا (١).

---

(١) ثم أورد الحافظ ابن كثير – رحمه الله – حديثًا وبين أنه معلول من ثلاثة أوجه رواه أحمد في المسند (٥/ ١١) من حديث سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَقَالَ سَمِّيهِ : عَبْدَ الْحَارِثِ ، فَإِنَّهُ يَعِيشُ ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الْحَارِثِ فَعَاشَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ » ثم ساق – رحمه الله – عدة آثار عن الحسن .

عَنِ الحَسَنِ : ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ قَالَ : كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ المِلَلِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ . **وَعَنْهُ أَيْضًا** : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، رَزَقَهُمُ اللهُ أَوْلَادًا فَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا ، صَحَّ هَذَا عَنِ الحَسَنِ ﷺ أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِذَلِكَ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ ، وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الحَدِيثُ(١) عِنْدَهُ مَحْفُوظًا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ تَقْوَاهُ لله وَوَرَعِهِ ، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الصَّحَابِيِّ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، مِثْلَ : كَعْبٌ أَوْ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَغَيْرُهُمَا ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ إِلَّا أَنَّنَا بَرِئْنَا مِنْ عُهْدَةِ المَرْفُوعِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَهَذِهِ الْآثَارُ(٢) **يَظْهَرُ عَلَيْهَا – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّهَا مِنْ آثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ** وَقَدْ صَحَّ الحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ** »(٣) ، **ثُمَّ أَخْبَارُهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ** : **فَمِنْهَا** مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ الله أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ، **وَمِنْهَا** : مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا دَلَّ عَلَى خِلَافِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَيْضًا ، **وَمِنْهَا** : مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، فَهُوَ المَأْذُونُ فِي رِوَايَتِهِ بِقَوْلِهِ عليه السلام : « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ** »(٤) وَهُوَ الَّذِي لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكَذَّبُ لِقَوْلِهِ : « **فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ** » ، وَهَذَا الْأَثَرُ هُوَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ ، فِيهِ نَظَرٌ ، فَأَمَّا مَنْ حَدَّثَ بِهِ مِنْ صَحَابِيٍّ أَوْ تَابِعِيٍّ فَإِنَّهُ يَرَاهُ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَعَلَى مَذْهَبِ الحَسَنِ الْبَصْرِيِّ – رَحِمَهُ الله – فِي هَذَا ، **وَأَنَّهُ لَيْسَ المُرَادُ مِنَ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَإِنَّمَا المُرَادُ مِنْ ذَلِكَ المُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ** ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : فَذَكَرَ آدَمَ وَحَوَّاءَ أَوَّلًا كَالتَّوْطِئَةِ لِمَا

---

(١) يريد حديث سمرة .

(٢) ساق الحافظ ابن كثير – قبل هذا التعليق – عدة آثار ضعيفة الإسناد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – تحمل قريبا من معنى حديث سمرة وقد حذفناها لضعفها ، ورجح – رحمه الله – أنها مأخوذة عن بعض أهل الكتاب .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ١٣٦) وأبو داود في سننه (٣٦٤٤) في سنده من لم يوثقه معتبر ، ألا وهو نملة بن نملة **ولكن الحديث قد روي في البخاري بلفظ قريب** وهو (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ .... ﴾ الآية (البخاري ٤٤٨٥) .

(٤) البخاري (٣٤٦١) .

بَعْدَهُمْ مِنَ الْوَالِدَيْنِ ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك : ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَصَابِيحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي زُيِّنَتْ بِهَا السَّمَاءُ ، لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا ، وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمَصَابِيحِ إِلَى جِنْسِهَا ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ فِي الْقُرْآنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا
وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ
كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ للهِ مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَنْتَصِرُ لِعَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا بِسَمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَبَطْشِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَيْ : أَتُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣ - ٧٤] أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ مَا

اِسْتَطَاعُوا خَلْقَ ذُبَابَةٍ ، بَلْ لَوْ سَلَبَتْهُمُ الذُّبَابَةُ شَيْئًا مِنْ حَقِيرِ المَطَاعِمِ وَطَارَتْ لَمَا اِسْتَطَاعُوا اسْتِنْقَاذَ ذَلِكَ مِنْهَا ، فَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَحَالُهُ كَيْفَ يُعْبَدُ لِيَرْزُقَ وَيُسْتَنْصَر ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الخَلِيلُ ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أَيْ : لِعَابِدِيهِمْ . ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يَعْنِي : وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ كَمَا كَانَ الخَلِيلُ عليه السلام يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُهِينُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات : ٩٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي : أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا ، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيم : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤٢] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَبِيدٌ مِثْلُ عَابِدِيهَا ، أَيْ : مَخْلُوقَاتٌ مِثْلُهُمْ ، بَلِ الْأَنَاسِيّ أَكْمَلُ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : اِسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ ، فَلَا تُؤَخِّرُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَاجْهَدُوا جَهْدَكُمْ ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : اللهُ حَسْبِي وَكَافِيَّ وَهُوَ نَصِيرِي ، وَعَلَيْهِ مُتَّكَلِي ، وَإِلَيْهِ أَلْجَأُ وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ بَعْدِي ، وَهَذَا كَمَا قَالَ هُودٌ عليه السلام لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمه ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦]، وَكَقَوْلِ الخَلِيلِ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٨]، وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨]

قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ مُؤَكِّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخِطَابِ ، وَذَاكَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . إِنَّمَا قَالَ : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يُقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ ، كَأَنَّهَا نَاظِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٌ ، وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ يَعْقِلُ ؛ لأَنَّهَا عَلَى صُوَرٍ مُصَوَّرَةٍ كَالْإِنْسَانِ ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرِ مَنْ يَعْقِلُ ؛ **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الْمُرَادُ بِهَذَا الْمُشْرِكُونَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ يَعْنِي : خُذْ مَا عُفِيَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَمَا أَتَوْكَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَخُذْهُ ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ بَرَاءَةٌ بِفَرَائِضِ الصَّدَقَاتِ وَتَفْصِيلِهَا ، وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الصَّدَقَاتُ ، وَقِيلَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ : أَنْفِقِ الْفَضْلَ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أَمَرَهُ اللهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ ، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قَالَ : مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : إِنَّمَا أَنْزَلَ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ(١) ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ(٢) قَوْلُهُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ **الْعُرْفُ**

---

(١) البخاري (٤٦٤٣) ولفظه عن عبد الله بن الزبير « ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال : ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس » ، وفي رواية أخرى « أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس » .

(٢) البخاري (٤٦٤٢) .

المَعْرُوفُ ، ثُمَّ سَاقَ السَنَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ - وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابُ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا - فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ : يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ؟ قَالَ : سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَ : هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ ، وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُ الْبُخَارِيِّ الْعُرْفُ : المَعْرُوفُ ، نَصَّ عَلَيهِ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ يُقَالُ : أَوْلَيْتُهُ مَعْرُوفًا وَعَارِفًا وَعَارِفَةً ، كُلُّ ذَلِكَ بِمَعْنَى : المَعْرُوفِ ، قَالَ : وَقَدْ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَدْخُلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنِ الجَاهِلِينَ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ لِخَلْقِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، لَا بِالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهِلَ الحَقَّ الْوَاجِبَ مِنْ حَقِّ اللهِ ، وَلَا بِالصَّفْحِ عَمَّنْ كَفَرَ بِاللهِ وَجَهِلَ وَحْدَانِيَّتَهُ ، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : النَّاسُ رَجُلَانِ فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَلَا تُكَلِّفْهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، وَلَا مَا يُحْرِجُهُ ، وَإِمَّا مُسِيءٌ فَمُرْهُ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ تَمَادَى عَلَى ضَلَالِهِ وَاسْتَعْصَى عَلَيْكَ وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْلِهِ فَأَعْرِضْ عَنْهُ ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ - ٣٥] أَيْ : هَذِهِ الْوَصِيَّةُ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

الْكَرِيمَةِ أَيْضًا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي الْأَعْرَافِ وَالْمُؤْمِنُونَ وحم السَّجْدَةُ لَا رَابِعَ لَهُنَّ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُرْشِدُ فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ فَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُفُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ثُمَّ يُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَكُفُّهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلِأَبِيكَ مِنْ قَبْلِكَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] ، وَإِمَّا يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مُجَازَاتِهِمْ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ يَقُولُ : فَاسْتَجِرْ بِاللهِ مِنْ نَزْغِهِ ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يَقُولُ : إِنَّ اللهَ الَّذِي تَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ سَمِيعٌ لِجَهْلِ الْجَاهِلِ عَلَيْكَ ، وَالِاسْتِعَاذَةُ بِهِ مِنْ نَزْغِهِ ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ عَلِيمٌ بِمَا يَذْهَبُ عَنْكَ نَزْغُ الشَّيْطَانِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ خَلْقِهِ .

قُلْتُ : وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الِاسْتِعَاذَةِ حَدِيثُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَسَابَّا بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا ، حَتَّى جَعَلَ أَنْفَهُ يَتَمَزَّعُ غَضَبًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** »(١) فَقِيلَ لَهُ ، فَقَالَ : مَا بِي مِنْ جُنُونٍ ، وَأَصْلُ النَّزْغِ الْفَسَادُ ، إِمَّا بِالْغَضَبِ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٥٣] وَ « الْعِيَاذُ » الِالْتِجَاءُ وَالِاسْتِنَادُ وَالِاسْتِجَارَةُ مِنَ الشَّرِّ ، وَأَمَّا الْمَلَاذُ فَفِي طَلَبِ الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَبِّيِّ فِي شِعْرِهِ :

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيثَ الِاسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا .

---

(١) البخاري (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ المُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ ، أَنَّهُمْ ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أَيْ : أَصَابَهُمْ (طَيْفٌ) ، وَقَرَأَ الآخَرُونَ ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ حَدِيثٌ وَهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ ، فَقِيلَ : بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَقِيلَ : بَيْنَهُمَا فَرْقٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ ، بِالصَّرْعِ وَنَحْوِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ بِالذَّنْبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾ أَيْ : عِقَابَ الله وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا وَاسْتَعَاذُوا بِالله وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : قَدِ اسْتَقَامُوا وَصَحُّوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أَيْ : وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الإِنْسِ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء : ٢٧] مِنَ الإِنْسِ ، وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ ، وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمُ الْقَابِلُونَ لِأَوَامِرِهِمْ ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ أَيْ : تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى المَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ . قِيلَ : « المَدُّ » الزِّيَادَةُ ، يَعْنِي : يَزِيدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ ، يَعْنِي : الجَهْلَ وَالسَّفَهَ ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَمُدُّ الإِنْسَ لَا تُقَصِّرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الآيَةُ . قَالَ : لَا الإِنْسُ يُقَصِّرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ عَنْهُمْ ، **وَقِيلَ مَعْنَاهُ** : هُمُ الجِنُّ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ، يَقُولُ : لَا يَسْأَمُونَ ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ : إِنَّ الشَّيَاطِينَ يَمُدُّونَ أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الإِنْسِ ، وَلَا تَسْأَمُ مِنْ إِمْدَادِهِمْ مِنَ الشَّرِّ ، لِأَنَّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ لَهُمْ وَسَجِيَّةٌ ، لَا تَفْتُرُ فِيهِ وَلَا تَبْطُلُ عَنْهُ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ، يَقُولُ : لَوْلَا تَلَقَّيْتَهَا ، وَقِيلَ : لَوْلَا أَحْدَثْتَهَا فَأَنْشَأْتَهَا . وَقِيلَ : لَوْلَا اقْتَضَبْتَهَا ، قَالُوا : تُخْرِجُهَا مِنْ نَفْسِكَ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقِيلَ : ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ يَقُولُ : تَلَقَّيْتَهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وقيل : ﴿ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ يَقُولُ : لَوْلَا أَخَذْتَهَا أَنْتَ فَجِئْتَ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ ﴾ أَيْ : مُعْجِزَةٍ وَخَارِقٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ : لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللهِ حَتَّى نَرَاهَا وَنُؤْمِنَ بِهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ﴾ أَيْ : أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ ، فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ ، فَإِنْ بَعَثَ آيَةً قَبِلْتُهَا ، وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِيَّاهَا ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجِزَاتِ ، وَأَبْيَنُ الدَّلَالَاتِ ، وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا ، لَا كَمَا كَانَ يَتَعَمَّدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وَلَكِنْ يَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالْقِرَاءَةِ .

قُلْتُ : هَذَا مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمَأْمُومَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ قِرَاءَةٌ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ الْإِمَامُ لَا الْفَاتِحَةُ وَلَا غَيْرُهَا ، وَقَوْلٌ آخَرُ : يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ فَقَطْ فِي سَكَتَاتِ الْإِمَامِ ، وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : لَا يَجِبُ عَلَى الْمَأْمُومِ قِرَاءَةٌ أَصْلًا فِي السِّرِّيَّةِ وَلَا الْجَهْرِيَّةِ . وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَقَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ ، يَعْنِي : فِي الصَّلَاةِ

المَفْرُوضَةِ ، **وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كُرَيْزٍ قَالَ** : رَأَيْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ وَعَطَاءَ ابْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَتَحَدَّثَانِ ، وَالْقَاصُّ يَقُصُّ ، فَقُلْتُ : أَلَا تَسْتَمِعَانِ إِلَى الذِّكْرِ ، وَتَسْتَوْجِبَانِ الْمَوْعُودَ ؟ قَالَ فَنَظَرَا إِلَيَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَا عَلَى حَدِيثِهِمَا ، قَالَ : فَأَعَدْتُ فَنَظَرَا إِلَيَّ وَأَقْبَلَا عَلَى حَدِيثِهِمَا ، قَالَ : فَأَعَدْتُ الثَّالِثَةَ ، قَالَ فَنَظَرَا إِلَيَّ فَقَالَا : إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ .

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرِهِ كَثِيرًا ، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩]، وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ ، ﴿ وَٱلْآصَالِ ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ، وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ ، لَا يَكُونُ نِدَاءً وَجَهْرًا بَلِيغًا .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالدُّعَاءِ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ** »(١) وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠]، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَبُّوهُ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ ، وَسَبُّوا مَنْ جَاءَ بِهِ ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَجْهَرَ بِهِ ، لِئَلَّا يَنَالَ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَلَا يُخَافِتْ بِهِ عَنْ أَصْحَابِهِ فَلَا

(١) هو عند مسلم في طرق حديث (٢٧٠٤) ، وأصله عند البخاري (٤٢٠٥) .

يُسْمِعُهُمْ ، وَلْيَتَّخِذْ سَبِيلًا بَيْنَ الجَهْرِ وَالإِسْرَارِ(١) وَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ بَلْ المُرَادُ الحَضُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ مِنَ الْعِبَادِ ، بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ، لِئَلَّا يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ ، وَلِهَذَا مَدَحَ المَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ؛ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ الآيَةُ . وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيُتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَلِهَذَا شُرِعَ لَنَا السُّجُودُ هَاهُنَا لَمَّا ذُكِرَ سُجُودُهُمْ لله ﷻ ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ « **أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُولَ فَالأُولَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ** »(٢) ، وَهَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لِتَالِيهَا وَمُسْتَمِعِهَا السُّجُود بِالإِجْمَاعِ .

آخِرُ سُورَةِ الأَعْرَافِ وَلله الحَمْدُ والمِنَّةُ

---

(١) انظر البخاري (٤٧٢٢) .
(٢) مسلم (حديث ٤٣٠) .

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ أَهْلِ العِلْمِ : ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ : الغَنَائمُ **وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ** : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : سُورَةُ الْأَنْفَالِ ؟ قَالَ : نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ[1].

وَعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْأَلُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: الْفَرَسُ مِنَ النَّفَلِ ، وَالسَّلَبُ مِنَ النَّفَلِ . ثُمَّ عَادَ لِمَسْأَلَتِهِ فَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ أَيْضًا . ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ : ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ الَّتِي قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ، مَا هِيَ ؟ قَالَ الْقَاسِمُ : فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ حَتَّى كَادَ يُحْرِجهُ ، فَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : أَتَدْرُونَ مَا مَثَلُ هَذَا ؟ مَثَلُ صُبَيْغِ الَّذِي ضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ[2] .

قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ ، قَالَ : لَا آمُرُكَ وَلَا أَنْهَاكَ ثُمَّ قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : وَالله مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ إِلَّا زَاجِرًا آمِرًا مُحِلًّا مُحَرِّمًا . قَالَ الْقَاسِمُ : فَسُلِّطَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنِ الأَنْفَالِ ، فَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الرَّجُلُ يُنَفَّلُ فَرَسُ الرَّجُلِ وَسِلَاحُهُ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى أَغْضَبَهُ ، فَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ : أَتَدْرُونَ مَا مَثَلُ هَذَا ؟ مَثَلُ صُبَيْغِ الَّذِي ضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَتَّى سَالَتِ الدِّمَاءُ عَلَى عَقِبَيْهِ أَوْ عَلَى رِجْلَيْهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ اِنْتَقَمَ اللهُ لِعُمَرَ مِنْكَ[3]. وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ إِلَى اِبْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفَلَ بِمَا يُنَفِّلُهُ الإِمَامُ لِبَعْضِ الأَشْخَاصِ مِنْ سَلَبٍ أَوْ نَحْوِهِ ، بَعْدَ قَسْمِ أَصْلِ

---

(١) البخاري (٤٦٤٥) .

(٢) ابن جرير وسنده صحيح .

(٣) عبد الرزاق في التفسير ، وسنده صحيح .

المَغْنَم ، وَهُوَ المُتَبَادِرُ إِلَى فَهْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ لَفْظِ النَّفَلِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ** : لَا نَفَلَ يَوْمَ الزَّحْفِ ، إِنَّمَا النَّفَلُ قَبْلَ الْتِقَاءِ الصُّفُوفِ ، **وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الأَنْفَالَ** : بِالْفَيْءِ وَهُوَ مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ أَنْفَالُ السَّرَايَا . وَمَعْنَى هَذَا مَا يُنَفِّلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ السَّرَايَا زِيَادَةً عَلَى قَسْمِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الجَيْشِ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا الزِّيَادَاتُ عَلَى الْقَسْمِ .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ الله قَدْ شَفَانِي اللهُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ ، فَقَالَ : ((**إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ وَلَا لِي ، ضَعْهُ**)) قَالَ : فَوَضَعْتُهُ ثُمَّ رَجَعْتُ فَقُلْتُ : عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا السَّيْفُ مَنْ لَا يُبْلِي بَلَائِي ، قَالَ : فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُونِي مِنْ وَرَائِي ، قَالَ : قُلْتُ : قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيَّ شَيْئًا ؟ قَالَ : كُنْتُ سَأَلْتَنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي وَإِنَّهُ قَدْ وُهِبَ لِي فَهُوَ لَك ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1] وَعَنْ سَعْدٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ : أَصَبْتُ سَيْفًا يَوْمَ بَدْرٍ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ نَفِّلْنِيهِ فَقَالَ : ((**ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**)) مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ عَاوَدْتُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((**ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**)) ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾[2].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّام - رَحِمَهُ اللهُ - فِي كِتَابِ ((الأَمْوَالُ الشَّرْعِيَّةُ وَبَيَانُ جِهَاتِهَا وَمَصَارِفِهَا)) : أَمَّا الأَنْفَالُ فَهِيَ الْمَغَانِمُ ، وَكُلُّ نَيْلٍ نَالَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ ، فَكَانَتِ الأَنْفَالُ الْأُولَى لِرَسُولِ الله ﷺ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ، فَقَسَمَهَا يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى مَا أَرَاهُ اللهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمِّسَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حَدِيثِ سَعْدٍ ، ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ آيَةُ الخُمُسِ فَنَسَخَتِ الْأُولَى ، كَذَا قَالَ ، وَبِنَحْوِهِ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أَيْ : وَاتَّقُوا اللهَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ ، وَلَا تَظَالَمُوا وَلَا تَخَاصَمُوا وَلَا تَشَاجَرُوا ، فَمَا آتَاكُمُ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أَيْ : فِي قَسْمِهِ بَيْنَكُمْ

(١) أبو داود (حديث ٢٧٤٠) وسنده حسن .

(٢) رواه مسلم بنحوه (١٧٤٨) .

عَلَى مَا أَرَادَهُ اللهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَرَقَتْ ، أَيْ : فَزِعَتْ وَخَافَتْ . وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقُّ الْمُؤْمِنِ ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ أَيْ : خَافَ مِنْهُ فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] ، **وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ** : سَمِعْتُ السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَ : هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ أَوْ قَالَ : يَهُمُّ بِمَعْصِيَةٍ ، فَيُقَالُ لَهُ : اتَّقِ اللهَ ، فَيَجِلُ قَلْبُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا عَلَى** : **زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ** ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ . بَلْ قَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ .

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، وَلَا يَلُوذُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْحَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، **وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ جِمَاعُ الْإِيمَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يُنَبِّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، بَعْدَ مَا ذَكَرَ اعْتِقَادَهُمْ ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَيْرِ كُلَّهَا وَهُوَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَهُوَ حَقُّ اللهِ تَعَالَى . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : إِقَامَةُ الصَّلَاةِ : الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا ، وَوُضُوئِهَا ، وَرُكُوعِهَا ، وَسُجُودِهَا ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ : يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرَ الْحُقُوقِ لِلْعِبَادَةِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ . وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِخَلْقِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ الْإِيمَانِ . **وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ ، كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ سَيِّدٌ حَقًّا ، وَفِي الْقَوْمِ سَادَةٌ ، وَفُلَانٌ تَاجِرٌ حَقًّا ، وَفِي الْقَوْمِ تُجَّارٌ ، وَفُلَانٌ شَاعِرٌ حَقًّا ، وَفِي الْقَوْمِ شُعَرَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : مَنَازِلُ وَمَقَامَاتٌ وَدَرَجَاتٌ فِي الْجَنَّاتِ . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : يَغْفِرُ لَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَرَى الَّذِي هُوَ فَوْقَ فَضْلِهِ عَلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَرَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ أَنَّهُ فُضِّلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ** » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ فَقَالَ : « **بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِرِجَالٍ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ** »[1].

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ

---

(١) البخاري (حديث : ٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .

دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ : اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي السَّبَبِ الْجَالِبِ لِهَذِهِ الْكَافِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : شُبِّهَ بِهِ فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ اِتِّقَاؤُهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحُهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ ، وَطَاعَتُهُمْ لله وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ نَحْوَ هَذَا ، **وَمَعْنَى هَذَا** أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ ، وَتَشَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قَسْمِهِ وَقَسْمِ رَسُولِهِ ﷺ ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ التَّامَّةُ لَكُمْ ، وَكَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمُ الْخُرُوجَ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ قِتَالِ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ، وَهُمُ النَّفِيرُ الَّذِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينِهِمْ وَإِحْرَازِ عِيرِهِمْ ، فَكَانَ عَاقِبَةُ كَرَاهَتِكُمْ لِلْقِتَالِ بِأَنْ قَدَّرَهُ لَكُمْ ، وَجَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، رُشْدًا وَهُدًى وَنَصْرًا وَفَتْحًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ عَلَى كُرْهٍ مِنْ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ هُمْ كَارِهُونَ لِلْقِتَالِ ، فَهُمْ يُجَادِلُونَكَ فِيهِ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ . ثُمَّ رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ نَحْوَهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قَالَ : كَذَلِكَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً ، كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقَالُوا : أَخْرَجْتَنَا لِلْعِيرِ وَلَمْ تُعْلِمْنَا قِتَالًا فَنَسْتَعِدُّ لَهُ .

قُلْتُ : رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ طَالِبًا لِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ الَّتِي بَلَغَهُ خَبَرُهَا أَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنَ الشَّامِ فِيهَا أَمْوَالٌ جَزِيلَةٌ لِقُرَيْشٍ ، فَاسْتَنْهَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ مَنْ خَفَّ مِنْهُمْ ، فَخَرَجَ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، وَطَلَبَ نَحْوَ السَّاحِلِ مِنْ عَلَى طَرِيقِ بَدْرٍ ، وَعَلِمَ أَبُو سُفْيَانَ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي طَلَبِهِ ، فَبَعَثَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو نَذِيرًا إِلَى مَكَّةَ فَنَهَضُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ أَلْفٍ مُقَنَّعٍ مَا بَيْنَ التِّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ ، وَتَيَامَنَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ فَنَجَا ، وَجَاءَ النَّفِيرُ فَوَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ ، وَجَمَعَ اللهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ؛ لِمَا يُرِيدُ اللهُ

تَعَالَى مِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَالتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ **وَالْغَرَضُ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ خُرُوجَ النَّفِيرِ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ يَعِدُهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا الْعِيرُ وَإِمَّا النَّفِيرُ ، وَرَغِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْعِيرِ ؛ لأَنَّهُ كَسْبٌ بِلَا قِتَالٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾ ، فِي الْقِتَالِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : كَرَاهِيَةً لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْكَارًا لِمَسِيرِ قُرَيْشٍ حِينَ ذُكِرُوا لَهُمْ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يُحِبُّونَ أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَلَا مَنَعَةَ وَلَا قِتَالَ ، تَكُونُ لَهُمْ وَهِيَ الْعِيرُ ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشَّوْكَةُ وَالْقِتَالُ لِيُظَفِّرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ . وَيُظْهِرَ دِينَهُ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ ، وَيَجْعَلَهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْيَانِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُكُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْعِبَادُ يُحِبُّونَ خِلَافَ ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّامِ نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ . وَقَالَ : « **هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُنَفِّلَكُمُوهَا** » فَانْتَدَبَ النَّاسُ فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْقَى حَرْبًا ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ . وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْرِ النَّاسِ ، حَتَّى أَصَابَ خَبَرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ ، أَنَّ مُحَمَّدًا قَد اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَلِعِيرِكَ فَحَذِرَ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَاسْتَأْجَرَ **ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو** الْغِفَارِيَّ فَبَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ **قُرَيْشًا** فَيَسْتَنْفِرَهُمْ **إِلَى أَمْوَالِهِمْ** ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ فَخَرَجَ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو **سَرِيعًا إِلَى**

---

(١) إسناده حسن

مَكَّةَ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ : « **ذَفِرَان** » فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ ، وَأَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ ؛ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ ﷺ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى « **بَرْكِ الْغِمَادِ** » - يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ - لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ** » وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَدَدَ النَّاسِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارِنَا ، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَامِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ بِلَادِهِمْ ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ ، قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ(١) : وَاللهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **أَجَلْ** » فَقَالَ : فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَك مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا ، إِنَّا لَصُبُرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : « **سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ** » .

---

(١) المشهور أن قائل ذلك هو سعد بن عبادة ، وهذا هو الأصح ، ولكن لا يمنع أن يكون سعد بن عبادة ﷺ قد قاله وقاله أيضا سعد بن معاذ ﷺ .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَنَيِّفٍ ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ ، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا** » قَالَ : فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ - أَلْبَسَهُ - ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ الْتَقَوْا ، فَهَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا . وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيًّا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ وَالْإِخْوَانِ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِدْيَةَ ، فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَاهُ مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَى الْكُفَّارِ ، وَعَسَى أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللهُ فَيَكُونُوا لَنَا عَضُدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : وَاللهِ مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ - قَرِيبٍ لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ فُلَانٍ أَخِيهِ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ، حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَأَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ . فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ وَأَخَذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ عُمَرُ : فَغَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَهُمَا يَبْكِيَانِ فَقُلْتُ : مَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبَكَ ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** » لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ مَا

كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فَأَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ، وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ ، وَهُشِّمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران : ١٦٥] بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ[1].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا ، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ : لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى : ﴿ **فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا** ﴾[المائدة : ٢٤] ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ ، وَعَنْ شِمَالِكَ ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[3] قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ : ((**اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ**)) فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : حَسْبُكَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر : ٤٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أَيْ : يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . **قيل** : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ مُتَتَابِعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ لَكُمْ ، أَيْ : نَجْدَةً لَكُمْ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ : ((**أَقْدِمْ حَيْزُومُ**)) ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِّمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : ((**صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**)) ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ[4].

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (١٧٦٣) .
(٢) البخاري (حديث ٣٩٥٢) .
(٣) البخاري (٣٩٥٣) .
(٤) مسلم (١٧٦٣) .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - قَالَ : جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ ؟ قَالَ : « **مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ** » أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ : وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ[1] .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ لَمَّا شَاوَرَهُ فِي قَتْلِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ : « **إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[2] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : وَمَا جَعَلَ اللهُ بَعْثَ الْمَلَائِكَةِ وَإِعْلَامِهِ إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤- ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠- ١٤١] ، فَهَذِهِ حِكَمٌ شَرَعَ اللهُ جِهَادَ الْكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا ، وَقَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَاقِبُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْقَوَارِعِ الَّتِي تَعُمُّ تِلْكَ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نوحٍ بِالطُّوفَانِ وَعَادًا الْأُولَى بِالدَّبُورِ ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ ، وَقَوْمَ شُعَيْبٍ بِيَوْمِ الظُّلَّةِ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْغَرَقِ فِي الْيَمِّ ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَاةَ ، شَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ وَاسْتَمَرَّ الْحُكْمُ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

---

(١) البخاري (٣٩٩٢) .

(٢) البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ ﴾ [القصص : ٤٣] ، وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ ، وَأَشْفَى لِصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِ ازْدِرَائِهِمْ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِصُدُورِ حِزْبِ الْإِيمَانِ ، فَقَتْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ وَحَوْمَةِ الْوَغَى أَشَدُّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ لَعَنَهُ اللهُ بِالْعَدَسَةِ ، بِحَيْثُ لَمْ يَقْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ ، وَإِنَّمَا غَسَّلُوهُ بِالْمَاءِ قَذْفًا مِنْ بَعِيدٍ ، وَرَجَمُوهُ حَتَّى دَفَنُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ : فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دَمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يُذَكِّرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلْقَائِهِ النُّعَاسَ عَلَيْهِمْ ، أَمَانًا مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . **قَالَ أَبُو طَلْحَةَ** : كُنْتُ مِمَّنْ أَصَابَهُ النُّعَاسُ

يَوْمَ أُحُد ، وَلَقَدْ سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُطُ وَآخُذهُ وَيَسْقُطُ وَآخُذهُ وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ وَهُمْ تَحْتَ الْحَجَفِ . وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمِقْدَادِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ(١) . وَقَالَ قَتَادَةُ : النُّعَاسُ فِي الرَّأْسِ وَالنَّوْمُ فِي الْقَلْبِ .

قُلْتُ : أَمَّا النُّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرُ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا ، وَأَمَّا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى وُقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَجِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ لِتَكُونَ قُلُوبُهُمْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ الله ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ حَدَثٍ أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أَيْ : مِنْ وَسْوَسَةٍ أَوْ خَاطِرٍ سَيِّئٍ ، وَهُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾[الإنسان : ٢١] ، فَهَذَا زِينَةُ الظَّاهِرِ ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[الإنسان : ٢١] أَيْ : مُطَهِّرًا لِمَا كَانَ مِنْ غِلٍّ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَبَاغُضٍ ، وَهُوَ زِينَةُ الْبَاطِنِ وَطَهَارَتُهُ ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : بِالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى مُجَالَدَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ ، وَهُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يُثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَآزِرُوهُمْ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : قَاتِلُوا مَعَهُمْ ، وَقِيلَ : كَثِّرُوا سَوَادَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ أَيْ : ثَبِّتُوا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوُّوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، عَنْ أَمْرِي لَكُمْ بِذَلِكَ ، سَأُلْقِي الرُّعْبَ وَالْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى

(١) إسناده حسن : وقد أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٢٤٢) ، وابن حبان (في موارد الظمآن رقم ١٦٩٠) .

مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَكَذَّبَ رَسُولِي ، ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أَيْ : اِضْرِبُوا الْهَامَ فَفَلِّقُوهَا ، وَاحْتَزُّوا الرِّقَابَ فَقَطِّعُوهَا ، وَقَطِّعُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ . **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى** : ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ، **فَقِيلَ مَعْنَاهُ** : اِضْرِبُوا الرُّءُوسَ ، **وَقِيلَ مَعْنَاهُ** : عَلَى الْأَعْنَاقِ وَهِيَ الرِّقَابُ ، وَاخْتَارَ اِبْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا قَدْ تَدُلُّ عَلَى ضَرْبِ الرِّقَابِ وَفَلْقِ الْهَامِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ **قَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ وَاضْرِبُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ طَرَفٍ وَمَفْصِلٍ مِنْ أَطْرَافِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ، وَالْبَنَانُ : جَمْعُ بَنَانَة ، **وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قَالَ : اِضْرِبْ مِنْهُ الْوَجْهَ وَالْعَيْنَ وَارْمِهِ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ ، فَإِذَا أَخَذْتَهُ حَرُمَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَيْكَ . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : خَالَفُوهُمَا فَسَارُوا فِي شِقٍّ ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ فِي شِقٍّ ، وَمَأْخُوذ أَيْضًا مِنْ شَقِّ الْعَصَا وَهُوَ جَعْلُهَا فِرْقَتَيْنِ ، ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ لِمَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ وَلَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ . أَيْ : ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا ، وَاعْلَمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾ أَيْ : تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ . ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أَيْ : تَفِرُّوا وَتَتْرُكُوا أَصْحَابَكُمْ . ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أَيْ : يَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ قِرْنِهِ مَكِيدَةً لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتْبَعُهُ ، ثُمَّ

يَكُرُّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ . قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : أَنْ يَتَقَدَّمَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَرَى غِرَّةً مِنَ الْعَدُوِّ فَيُصِيبُهَا ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أَيْ : فَرَّ مِنْ هَهُنَا إِلَى فِئَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوِنهُمْ وَيُعَاوِنُونَهُ فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ ، حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَفَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ ، أَوْ إِلَى الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ . **فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ** ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اِجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ** » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « **الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** » ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَقَدْ بَآءَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ . وَقَدْ ذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى أَنَّ الْفِرَارَ إِنَّمَا كَانَ حَرَامًا عَلَى الصَّحَابَةِ ، لِأَنَّهُ كَانَ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَيْهِمْ ، **وَقِيلَ** : عَلَى الْأَنْصَارِ خَاصَّةً ، لِأَنَّهُمْ بَايَعُوا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَهْلُ بَدْرٍ خَاصَّةً . وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ حَرَامًا عَلَى غَيْرِ أَهْلِ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ فِيهِمْ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَقَدِّمِ ، مِنْ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ مِنَ الْمُوبِقَاتِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجَمَاهِيرِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ

(١) البخاري (٢٧٦٦) ، ومسلم (٨٩) .

عَدَدِكُمْ ، أَيْ بَلْ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَلَا بِلُبْسِ اللَّأْمَةِ وَالْعُدَدِ ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَيْضًا فِي شَأْنِ الْقَبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وُجُوهُ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، حِينَ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيشِ بَعْدَ دُعَائِهِ وَتَضَرُّعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ فَرَمَاهُمْ بِهَا ، وَقَالَ : ((**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**))[1] ثُمَّ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَصْدُقُوا الْحَمْلَةَ إِثْرَهَا فَفَعَلُوا ، فَأَوْصَلَ اللهُ تِلْكَ الْحَصْبَاءَ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي بَلَّغَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ ، وَكَبَتَهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ . وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ عُرْوَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَمْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا .

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ أَيْ : لِيُعَرِّفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ ، وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ ، وَهَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ هَذِهِ بِشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ ، أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، مُصَغِّرُ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

---

(١) أورد لها الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – جملة أسانيد لا تخلو من مقال ، وذلك فيما يتعلق بغزوة بدر .

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكُفَّارِ : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ أَيْ : تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَقْضُوا اللهَ وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ** أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ حِينَ الْتَقَى الْقَوْمُ : اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ ، وَآتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ ، فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ . فَكَانَ الْمُسْتَفْتِحُ . وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ أَيْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالتَّكْذِيبِ لِرَسُولِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء : ٨] مَعْنَاهُ : وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، نَعُدْ لَكُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ أَيْ : إِلَى الِاسْتِفْتَاحِ ﴿ نَعُدْ ﴾ أَيْ : إِلَى الْفَتْحِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالنَّصْرِ لَهُ وَتَظْفِيرِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى . ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أَيْ : وَلَوْ جَمَعْتُمْ مِنَ الْجُمُوعِ مَا عَسَى أَنْ تَجْمَعُوا ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمُ الْحِزْبُ النَّبَوِيُّ وَالْجَنَابُ الْمُصْطَفَوِيُّ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَيَزْجُرُهُمْ عَنْ مُخَالَفَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهُ بِالْكَافِرِينَ بِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : تَتْرُكُوا طَاعَتَهُ وَامْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَتَرْكَ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ مَا عَلِمْتُمْ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ . ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ الْمُشْرِكُونَ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ سَمِعُوا وَاسْتَجَابُوا وَلَيْسُوا كَذَلِكَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ﴾ أَيْ : عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿ ٱلْبُكْمُ ﴾ عَنْ فَهْمِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فَهَؤُلَاءِ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ، لأَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مُطِيعَةٌ لله فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِلْعِبَادَةِ فَكَفَرُوا ، وَلِهَذَا شَبَّهَهُمْ بِالْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾[البقرة : ١٧١] ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] **قُلْتُ** : وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي هَذَا ، لأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مَسْلُوبُ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ ، وَالْقَصْدِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، وَلَا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ ، لَوْ فُرِضَ أَنَّ لَهُمْ فَهْمًا ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أَيْ : لَأَفْهَمَهُمْ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَلَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ، فَلَمْ يُفْهِمْهُمْ ، لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أَيْ : أَفْهَمَهُمْ ﴿ لَتَوَلَّواْ ﴾ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَعِنَادًا ، بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عَنْهُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾ أَجِيبُوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لِمَا يُصْلِحُكُمْ . ثُمَّ ذَكَرَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى(١) ﷺ قَالَ : كُنْتُ أُصَلِّي ، فَمَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَانِي ، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ : « **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِينِي ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ». **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيْ : الْحَقُّ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : الْقُرْآنُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْإِسْلَامُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : أَيْ : لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذُّلِّ ، وَقَوَّاكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** :

---

(١) البخاري (٤٦٤٧) .

يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ ، وَبَيْنَ الكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ . وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ . عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ ﷺ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ - رَبِّ الْعَالَمِينَ - إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ** » وَكَانَ يَقُولُ : « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ** » قَالَ : « **وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ** »(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَ** » . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ** »(٢).

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ فِتْنَةً ﴾ أَيْ : اخْتِبَارًا وَمِحْنَةً يَعُمُّ بِهَا الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ ، لَا يَخُصُّ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي ، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ ، بَلْ يَعُمُّهَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ . **عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ** : قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا جَاءَ بِكُمْ ! ضَيَّعْتُمُ الْخَلِيفَةَ الَّذِي قُتِلَ ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ دَمَهُ ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ : إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ﷺ : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا ، حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ(٣).

وَقَالَ السُّدِّيُّ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ خَاصَّةً ، فَأَصَابَتْهُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ فَاقْتَتَلُوا ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ** : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جِدًّا .

---

(١) صحيح : وله عدة شواهد أخرجه النسائي في السنن الكبرى (ج ٤/ ٧٧٣٨) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) .
(٣) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٦٥) .

كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ - وَأَوْمَأَ بِأُصْبُعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ - يَقُولُ : **مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، وَالْمُدَاهِنُ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَأَوْعَرَهَا وَشَرَّهَا ، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا الْمَاءَ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَآذَوْهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا**(١) .

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ ، وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ ، وَفُقَرَاء عَالَة فَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاسْتَشْكَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ ، وَامْتَثَلُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ . وَهَذَا كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ ، قَلِيلِينَ مُسْتَخْفِينَ ، مُضْطَهَدِينَ ، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللهِ ، مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ كُلُّهم أَعْدَاءٌ لَهُمْ لِقِلَّتِهِمْ ، وَعَدَمُ قُوَّتِهِمْ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَآوَاهُمْ إِلَيْهَا ، وَقَيَّضَ لَهُمْ أَهْلَهَا ، آوَوْا وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ ، وَوَاسَوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ . **قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ أَذَلَّ النَّاسِ ذُلًّا ، وَأَشْقَاهُ عَيْشًا ، وَأَجْوَعَهُ بُطُونًا ، وَأَعْرَاهُ جُلُودًا ، وَأَبْيَنُهُ ضَلَالًا مَكْعُومِينَ عَلَى رَأْسِ حَجَرٍ بَيْنَ الأَسَدَيْنِ : فَارِسَ وَالرُّوم ، وَلَا وَاللهِ مَا فِي بِلَادِهِمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ شيءٍ يُحْسَدُونَ عَلَيْهِ ، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ رُدِيَ فِي النَّارِ ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ ، وَاللهِ مَا نَعْلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَانُوا أَشَرَّ مَنْزِلًا مِنْهُمْ ، حَتَّى جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ ،

(١) البخاري (٢٤٩٣) بنحوه مرفوعًا .

فَمَكَّنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَوَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَبِالْإِسْلَامِ أَعْطَى اللهُ مَا رَأَيْتُمْ ، فَاشْكُرُوا اللهَ عَلَى نِعَمِهِ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَزِيدٍ مِنَ اللهِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُعْلِمُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ ، فَأَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ ، وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقَرَّ بِمَا صَنَعَ ، وَفِيهَا فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : « **دَعْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[1] .

قُلْتُ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ ، فَالْأَخْذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَالْخِيَانَةُ تَعُمُّ الذُّنُوبَ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ **قِيلَ** : بِتَرْكِ سُنَّتِهِ ، وارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾ **قِيلَ** : **الْأَمَانَةُ** : **الْأَعْمَالُ الَّتِي ائْتَمَنَ اللهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ** ، يَعْنِي : الْفَرِيضَةُ ، يَقُولُ : ﴿ لَا تَخُونُواْ ﴾ لَا تَنْقُضُوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : اِخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ مِنْهُ لَكُمْ ، إِذْ أَعْطَاكُمُوهَا ؛ لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا ، أَوْ تَشْتَغِلُونَ بِهَا عَنْهُ ، وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

(١) صحيح : وقد تقدم قريبا عند (آية ٩ من سورة الأنفال) .

أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابُهُ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَّاتُهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَدَيْهِ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**ثَلَاثٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ**))(١).

بَلْ حُبُّ رَسُولِ الله ﷺ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالنُّفُوسِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**))(٢).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿ فُرْقَانًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : مَخْرَجًا ، **وَقِيلَ** : نَجَاة ، **وَقِيلَ** : نَصْرًا ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أَيْ : فَصْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنِ ابْنِ إِسْحَاقَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كُلَّه ، فَإِنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ وُفِّقَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ ، وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ وَهُوَ مَحْوُهَا ، وَغَفْرُهَا : سَتْرُهَا عَنِ النَّاسِ ، وَسَبَبًا لِنَيْلِ ثَوَابِ الله الْجَزِيلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ

(١) البخاري (حديث ١٦) ، ومسلم (حديث ٤٣) .

(٢) البخاري (حديث ١٤) .

وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ لِيُقَيِّدُوكَ . الإِثْبَاتُ : هُوَ الْحَبْسُ وَالْوَثَاقُ ، وَهُوَ الْغَالِبُ مِنْ صَنِيعِ مَنْ أَرَادَ غَيْرَهُ بِسُوءٍ .وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] قَالَ : دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ : « **مَا يُبْكِيكِ يَا بُنَيَّةُ ؟** » قَالَتْ : يَا أَبَتِ وَمَالِي لَا أَبْكِي ، وَهَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْحِجْرِ يَتَعَاهَدُونَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةِ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَامُوا إِلَيْكَ فَيَقْتُلُونَكَ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ ، فَقَالَ : « **يَا بُنَيَّةُ ائْتِينِي بِوَضُوءٍ** » فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : إِنَّمَا هُوَ ذَا فَطَأْطَأُوا رُءُوسَهُمْ ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمْ يَرْفَعُوا أَبْصَارَهُمْ ، فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَحَصَبَهُمْ بِهَا ، وَقَالَ : « **شَاهَتِ الْوُجُوهُ** » . فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاةٌ مِنْ حَصَيَاتِهِ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا .

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : فَمَكَرْتُ بِهِمْ بِكَيْدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَّصْتُكَ مِنْهُمْ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَدَعْوَاهُمُ الْبَاطِلِ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ ، وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ ، وَإِلَّا فَقَدْ تُحُدُّوا غَيْرَ مَا مَرَّةٍ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ يَغُرُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ . وَمَعْنَى : ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ ، أَيْ : كُتُبُهُمْ ، اقْتَبَسَهَا ،

(١) حسن : وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٥٧) ، وابن حبان (١٦٩١) .

فَهُوَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَيَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ ، وَهَذَا هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ - ٦] أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ فَإِنَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنْهُ وَيَصْفَحُ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ ، وَهَذَا مِمَّا عِيبُوا بِهِ ، وَكَانَ الْأَوْلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ ، وَلَكِنِ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣] ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْجَهَلَةُ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ** : هُوَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ قَالَ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ؛ فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قَالَ ذَلِكَ سَفَهَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَجَهَلَتُهَا ، فَعَادَ اللهُ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى سَفَهَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَجَهَلَتِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ**(١) : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ ، وَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ . فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ : « **قَدْ قَدْ** » وَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ . وَيَقُولُونَ : غُفْرَانَكَ ، غُفْرَانَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ : النَّبِيُّ ﷺ ، وَالِاسْتِغْفَارُ ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الِاسْتِغْفَارُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ

---

(١) في سنده موسى بن مسعود متكلمٌ فيه وأخرجه الطبري ، وابن أبي حاتم .

فِيهِمْ ﴾ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَ قَوْمًا وَأَنْبِيَاؤُهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَتَّى يُخْرِجَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ يَقُولُ : وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ الدُّخُولُ فِي الْإِيمَانِ ، ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يَعْنِي : يُصَلُّونَ ، يَعْنِي بِهَذَا أَهْلَ مَكَّةَ .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِأَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ بِهِمْ لِبَرَكَةِ مَقَامِ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ أَوْقَعَ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَقُتِلَ صَنَادِيدُهُمْ ، وَأُسِرَ سَرَاتُهُمْ ، وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ ، الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَمْ يَكُنِ الْقَوْمُ يَسْتَغْفِرُونَ وَلَوْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَمَا عُذِّبُوا .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ صُدُورَ الِاسْتِغْفَارِ مِنْهُمْ أَنْفُسِهِمْ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى أَهْلَ الشِّرْكِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أَيْ : وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيْ : الَّذِي بِمَكَّةَ : يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٧ - ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا يُعَامِلُونَهُ بِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ **قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ جِدًّا مِنَ العُلَمَاءِ** : المُكَاءُ : الصَّفِيرِ . وَالتَّصْدِيَةُ : التَّصْفِيق . وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : كَانَتْ قُرَيْشٌ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، تُصَفِّرُ وَتُصَفِّقُ .

قَوْلُهُ : ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَمْ يَحْكِ غَيْرَهُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

هِيَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا خَاصًّا ، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ؛ لِيَصُدُّوا عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الحَقِّ ، فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ ثُمَّ تَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أَيْ : نَدَامَة ، حَيْثُ لَمْ تُجْدِ شَيْئًا ؛ لأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ الله وَظُهُور كَلِمَتِهِمْ عَلَى كَلِمَةِ الحَقِّ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَنَاصِر دِينِهِ ، وَمُعْلِن كَلِمَتِهِ ، وَمُظْهِر دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ ، فَهَذَا الخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بِعَيْنِهِ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ مَا يَسُوؤُهُ ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الخِزْيِ الأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّرْمَدِيِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ **قِيلَ المَعْنَى** : فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ ، **وَقِيلَ** : يَمِيزُ الْمُؤْمِنَ مِن الْكَافِرِ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا

التَّمْيِيزُ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨]، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : ١٤]، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : ٥٩]، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْيِيزُ فِي الدُّنْيَا ، بِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَتَكُونُ اللَّامُ مُعَلِّلَةً ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لِلْكُفَّارِ مِنْ مَالٍ يُنْفِقُونَهُ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، أَيْ : إِنَّمَا أَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أَيْ : مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ ، أَوْ يَعْصِيهُ بِالنُّكُولِ عَنْ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٦ - ١٦٧]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢]، وَنَظِيرَتُهَا فِي بَرَاءَةَ أَيْضًا .

فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكُفَّارِ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَأَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ ، وَبَذْلِهَا فِي ذَلِكَ ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ ﴾ أَيْ : يَجْمَعهُ كُلَّهُ ، وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَابِ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ [النور : ٤٣]أَيْ : مُتَرَاكِمًا مُتَرَاكِبًا ﴿ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا ﴾ أَيْ : عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ

وَالْمُشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ، ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ**))[1]. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا**))[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَعُودُوا ﴾ أَيْ : يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الْأَوَّلِينَ ، أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ أَنَّا نُعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : فِي قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عُمَرَ**[3] – **رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا** – أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ [الحجرات : ٩] . فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تُقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ؟ فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي أُعَيَّرُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أُقَاتِلُ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعَيَّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] إِلَى آخِرِهَا ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ **قَالَ ابْنُ عُمَرَ** : قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ ، إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ ، قَالَ : فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ ؟ قَالَ ابْنُ عُمَر : مَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ ؟ أَمَّا عُثْمَانُ : فَكَانَ اللهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ ، وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُ ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنُهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ ، وَهَذِهِ ابْنَتُهُ أَوْ بِنْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ .

---

(١) البخاري (حديث ٦٩٢١) ، ومسلم (حديث ١٢٠) .

(٢) في صحيح مسلم (حديث ١٢١) ((الإسلام يهدم ما كان قبله والهجرة تهدم ما كان قبلها والحج يهدم ما كان قبله)) .

(٣) البخاري(٤٦٥٠) .

وَعَنْ **سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ** : خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ رَجُلٌ : كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ ؟ فَقَالَ : وَهَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ(١) . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يَعْنِي : لَا يَكُونُ شِرْكٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ : حَتَّى لَا يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ **قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يُخْلِصُ التَّوْحِيدَ لله . **وَقَالَ آخَرُونَ** : أَنْ يُقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** ﷻ))(٢).

وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ ؟ فَقَالَ : ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﷻ))(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ أَيْ : بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَكُفُّوا عَنْهُ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بَوَاطِنَهُمْ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] . وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة:١١] ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُسَامَةَ لَمَّا عَلَا ذَلِكَ الرَّجُلَ بِالسَّيْفِ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِأُسَامَةَ : ((**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟**)) ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا . قَالَ : ((**هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟**)) وَجَعَلَ يَقُولُ وَيُكَرِّرُ عَلَيْهِ : ((**مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟**)) قَالَ أُسَامَةُ : حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ(٤).

---

(١) البخاري (٤٦٥١) .

(٢) البخاري (حديث ٢٥) ، ومسلم (حديث ٢٢) .

(٣) البخاري (حديث ٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) .

(٤) البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (حديث ٩٦) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أَيْ : وَإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ وَسَيِّدُكُمْ ، وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُخَصِّصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ – مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ – بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ . **وَالْغَنِيمَةُ** : هِيَ الْمَالُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِيجَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، **وَالْفَيْءُ** : مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ ، كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا ، أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ ، وَالْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، هَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي طَائِفَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يُطْلِقُ الْفَيْءَ عَلَى مَا تُطْلَقُ عَلَيْهِ الْغَنِيمَةُ ، وَالْغَنِيمَةُ عَلَى الفَيْءِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَخْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطَ وَالْمِخْيَطَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران : ١٦١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا ، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : للهِ نَصِيبٌ مِنَ الْخُمُسِ يُجْعَلُ فِي الْكَعْبَةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ذِكْرُ اللهِ هَهُنَا اسْتِفْتَاحُ كَلَامٍ لِلتَّبَرُّكِ ، وَسَهْمٌ لِرَسُولِهِ ﷺ . ثُمَّ اخْتَلَفَ قَائِلُو هَذَا الْقَوْلِ ، **فَقِيلَ** : كَانَتِ الْغَنِيمَةُ تُخَمَّسُ عَلَى خَمْسَةِ أَخْمَاسٍ ، فَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ مَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا ، وَخُمُسٌ وَاحِدٌ يُقْسَمُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَخْمَاسٍ ، فَرُبُعٌ للهِ وَلِلرَّسُولِ ﷺ فَمَا كَانَ للهِ وَلِلرَّسُولِ فَهُوَ لِقَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْ يَأْخُذِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْخُمُسِ شَيْئًا ، وَالرُّبْعُ الثَّانِي لِلْيَتَامَى ، وَالرُّبْعُ الثَّالِثُ لِلْمَسَاكِينِ ، وَالرُّبْعُ الرَّابِعُ لابنِ السَّبِيلِ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قَالَ : الَّذِي للهِ فَلِنَبِيِّهِ ، وَالَّذِي

لِلرَّسُولِ لِأَزْوَاجِهِ . **وَعَنْ عَطَاءَ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ** : خُمُسُ اللهِ وَالرَّسُولِ وَاحِدٌ ،كَانَ يَحْمِلُ مِنْهُ وَيَصْنَعُ فِيهِ مَا شَاءَ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ، وَهَذَا أَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ يَتَصَرَّفُ فِي الْخُمُسِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهُ بِمَا شَاءَ ، وَيَرُدُّهُ فِي أُمَّتِهِ كَيْفَ شَاءَ . وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْغَنَائِمِ شَيْءٌ يَصْطَفِيهِ لِنَفْسِهِ : عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ أَوْ فَرَسٌ أَوْ سَيْفٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ ، وَعَامِرُ الشَّعْبِيُّ ، وَتَبِعَهُمَا عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ .

وَقَدِ اخْتُلِفَ أَيْضًا فِي الَّذِي كَانَ يَنَالُهُ ﷺ مِنَ الْخُمُسِ ، مَاذَا يُصْنَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ ؟ فَقَالَ قَائِلُونَ : يَكُونُ لِمَنْ يَلِيَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : يُصْرَفُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ هُوَ مَرْدُودٌ عَلَى بَقِيَّةِ الْأَصْنَافِ : ذَوِي الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ سَهْمُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى مَرْدُودَانِ عَلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَذَلِكَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ .

وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى : فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمَ ، وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ؛ لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَازَرُوا بَنِي هَاشِمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشِّعْبِ غَضَبًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَحِمَايَةً لَهُ ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً للهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَكَافِرُهُمْ حَمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ وَأَنَفَةً وَطَاعَةً لِأَبِي طَالِبٍ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنُو نَوْفَلٍ - وَإِنْ كَانُوا بَنِي عَمِّهِمْ - فَلَمْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، بَلْ حَارَبُوهُمْ وَنَابَذُوهُمْ ، وَمَالَئُوا بُطُونَ قُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ الرَّسُولِ . **وَقَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلٍ** : مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ، يَعْنِي : ابْنُ أَبِي الْعَاصِ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ وَتَرَكْتَنَا ، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ : ((**إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ**))[1] وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ : ((**إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ**))[2] .وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ .

---

(١) البخاري (حديث ٣١٤٠) .

(٢)حسن : وهو عند النسائي (٧/ ١٣١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ أَيْ : أَيْتَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ يَخْتَصُّ بِالأَيْتَامِ الْفُقَرَاءِ أَوْ يَعُمُّ الأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ . ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ : هُمُ الْمَحَاوِيجُ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّ خَلَّتَهُمْ وَمَسْكَنَتَهُمْ ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ : هُوَ الْمُسَافِرُ ، أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى مَسَافَةٍ تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلَاةُ ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقُهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ ، ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أَيْ : اِمْتَثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمُسِ فِي الْغَنَائِمِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى رَسُولِهِ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ : ((**وَآمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ**)) - ثُمَّ قَالَ : ((**هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ**)) . الْحَدِيثُ بِطُولِهِ . فَجَعَلَ أَدَاءَ الْخُمُسِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيمَانِ . **وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ** : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ أَيْ : فِي الْقِسْمَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِبَدْرٍ ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانُ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهُ وَحِزْبَهُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي يَوْمِ الْفُرْقَانِ** : إِنَّهُ يَوْمُ بَدْرٍ .

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِذْ أَنْتُمْ نُزُولٌ بِعُدْوَةِ الْوَادِي الدُّنْيَا الْقَرِيبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿ وَهُم ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكُونَ نُزُولٌ

(١) البخاري (حديث ٥٣) ، ومسلم (حديث ١٧) .

﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أَيْ : الْبَعِيدَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ ﴿ وَٱلرَّكْبُ ﴾ أَيْ : الْعِيرُ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَا مَعَهُ مِنَ التِّجَارَةِ ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ ﴾ .

عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةَ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةَ عَدَدِكُمْ مَا لَقِيتُمُوهُمْ ، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ لِيَقْضِيَ اللهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَإِذْلَالِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، مِنْ غَيْرِ مَلَأٍ مِنْكُمْ ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ ، **وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ** : إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : أَيْ لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ ، لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبْرَةِ ، وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ . وَبَسْطُ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ؛ لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَرْفَعُ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا ، وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً ، وَالْبَرَاهِينَ سَاطِعَةً ، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ ، فَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ ، أَيْ يَسْتَمِرُّ فِي الْكُفْرِ مَنِ اسْتَمَرَّ فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، أَنَّهُ مُبْطِلٌ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ ﴾ أَيْ : يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ ﴿ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، **وَقَالَتْ عَائِشَةُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ** : فَهَلَكَ فِيَّ مَنْ هَلَكَ ، أَيْ : قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنَ الْبُهْتَانِ وَالْإِفْكِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِدُعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِكُمْ وَأَنَّكُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ .

---

(١) البخاري (حديث ٣٩٥١) ، ومسلم (حديث ٢٧٦٩) .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : أَرَاهُ اللهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ ، فَكَانَ تَثْبِيتًا لَهُمْ ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أَيْ : لَجَبُنْتُمْ عَنْهُمْ ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أَيْ : مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ أَرَاكَهُمْ قَلِيلًا ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : بِمَا تُجِنُّهُ الضَّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الْأَحْشَاءُ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِهِمْ ، إِذْ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، فَيُجَرِّئُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُطَمِّعُهُمْ فِيهِمْ . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ **عَنْ عِكْرِمَةَ** ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ** : حَضَّضَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . **وَعَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : لِيُلْقِيَ بَيْنَهُمُ الْحَرْبُ لِلنِّقْمَةِ مِمَّنْ أَرَادَ الِانْتِقَامَ مِنْهُ ، وَالْإِنْعَامُ عَلَى مَنْ أَرَادَ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ وِلَايَتِهِ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى أَغْرَى كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخَرِ وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنِهِ لِيَطْمَعَ فِيهِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمُوَاجَهَةِ ، فَلَمَّا الْتَحَمَ الْقِتَالُ وَأَيَّدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ، بَقِيَ حِزْبُ الْكُفَّارِ يَرَى حِزْبَ الْإِيمَانِ ضِعْفَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران : ١٣]، وَهَذَا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ اللِّقَاءِ ، وَطَرِيقَ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ انْتَظَرَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ** » ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ** » .

فَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مُبَارَزَتِهِمْ ، فَلَا يَفِرُّوا وَلَا يُنَكِّلُوا وَلَا يَجْبُنُوا ، وَأَنْ يَذْكُرُوا اللهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسَوْهُ ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، وَيَسْأَلُوهُ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ ، فَمَا أَمَرَهُم اللهُ تَعَالَى بِهِ ائْتَمَرُوا .،وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ انْزَجَرُوا ، وَلَا يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهِمْ أَيْضًا فَيَخْتَلِفُوا ، فَيَكُونَ سَبَبًا لِتَخَاذُلِهِمْ وَفَشَلِهِمْ ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أَيْ : قُوَّتُكُمْ وَحِدَّتُكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِقْبَالِ ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وَقَدْ كَانَ لِلصَّحَابَةِ ﷺ فِي بَابِ الشَّجَاعَةِ وَالِائْتِمَارِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ وَرَسُولُه بِهِ ، وَامْتِثَالِ مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ ، مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِن الْأُمَمِ وَالْقُرُونِ قَبْلَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ بِبَرَكَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ ، فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْأَقَالِيمَ شَرْقًا وَغَرْبًا ، فِي الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جُيُوشِ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ ، مِنَ الرُّومِ ، وَالْفُرْسِ ، وَالتُّرْكِ ، وَالصَّقَالِبَةِ ، وَالْبَرْبَرِ ، وَالْحُبُوشِ ، وَأَصْنَافِ السُّودَانِ ، وَالْقِبْطِ ، وَطَوَائِفِ بَنِي آدَمَ . قَهَرُوا الْجَمِيعَ حَتَّى عَلَتْ كَلِمَةُ اللهِ ، وَظَهَرَ دِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَامْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَحَشَرَنَا فِي

(١) البخاري (٢٩٣٣ ، ٣٠٢٤ ، ٣٠٢٥) ، ومسلم (١٧٤٢) .

زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ .

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴿ بَطَرًا ﴾ ، أَيْ : دَفْعًا لِلْحَقِّ ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وَهُوَ الْمُفَاخَرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ : إِنَّ الْعِيرَ قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا ، فَقَالَ : لَا وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ ، وَنَنْحَرَ الْجُزُرَ ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا ، فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُوا بِهِ الْحِمَامَ ، وَرُكِمُوا فِي أَطْوَاءِ بَدْرٍ مُهَانِينَ أَذِلَّاءَ ، صَغَرَةً أَشْقِيَاءَ ، فِي عَذَابٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيْ : عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ ؛ وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَيْهِ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ قَالُوا : هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، حَسَّنَ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللهُ - مَا جَاءُوا لَهُ ، وَمَا هَمُّوا بِهِ ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَنَفَى عَنْهُمُ الْخَشْيَةَ مِنْ أَنْ يُؤْتَوْا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : إِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ سَيِّدِ بَنِي مُدْلِجٍ ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَكُلٌّ

ذَلِكَ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر : ١٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ **ذُكِرَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ** : لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، قَلَّلَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قِلَّتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَهُمْ ، لَا يَشُكُّونَ فِي ذَلِكَ . ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَعْتَمِدُ عَلَى جَنَابِهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : لَا يُضَامُ مَنِ الْتَجَأَ إِلَيْه ، فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ ، لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا ، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ ، وَيَخْذُلُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ تَوَفِّي الْمَلَائِكَةِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيعًا مُنْكَرًا ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، **عَنْ مُجَاهِدٍ** ﴿ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ : اسْتَاهُهُمْ ، قَالَ : يَوْمُ بَدْرٍ .

وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقْعَةَ بَدْرٍ ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ ، بَلْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وَفِي سُورَةِ الْقِتَالِ مِثْلُهَا وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] أَيْ : بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ ، إِذِ اسْتَصْعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ ، أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا ،

وَذَلِكَ إِذَا بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللهِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ[١] : أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ الْكَافِرُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُنْكَرَةِ يَقُولُ : **أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ إِلَى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، فَتَفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ فَيَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ جَسَدِهِ كَمَا يُخْرَجُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَتَخْرُجِ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَب** ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أَيْ : هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُم الدُّنْيَا جَازَاكُمُ اللهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أَيْ : لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ - وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ** »[٢] . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ، كَمَا فَعَلَ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا ، أَيْ عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللهِ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ ، أَهْلَكَهُمْ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أَيْ : لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، وَلَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

(١) صحيح : وقد تقدم ، أحمد في المسند (٤/ ٢٩٥) .
(٢) مسلم (حديث ٢٥٧٧) .

بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ: كَصُنْعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمِ الَّتِي أَسْدَاهَا إِلَيْهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ، وَكُلَّمَا أَكَّدُوهُ بِالْأَيْمَانِ نَكَثُوهُ ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ: لَا يَخَافُونَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْآثَامِ. ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ ﴾ أَيْ: تَغْلِبُهُمْ وَتَظْفَرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ: ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ: نَكِّلْ بِهِمْ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَمَعْنَاهُ: غَلِّظْ عُقُوبَتَهُمْ، وَأَثْخِنْهُمْ قَتْلًا لِيَخَافَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَصِيرُوا لَهُمْ عِبْرَةً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، **قَالَ السُّدِّيُّ**: يَقُولُ: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُصْنَعُ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿ خِيَانَةً ﴾ أَيْ : نَقْضًا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ المَوَاثِيقِ وَالْعُهُودِ ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَهْدَهُمْ ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أَيْ : أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أَيْ : حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ أَيْ : فَاتُونَا فَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرِ قُدْرَتِنَا ، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا ، فَلَا يُعْجِزُونَنَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤] أَيْ : يَظُنُّونَ . وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور : ٥٧] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧]

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِإِعْدَادِ آلَاتِ الْحَرْبِ لِمُقَاتَلَتِهِمْ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِطَاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمْكَنَكُمْ ﴿ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ . **عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ** : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : « ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ** »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ : لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ**

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٩١٧) .

سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله ، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا ، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ » . وَسُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الْحُمُرِ فَقَالَ : « مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الجَامِعَةَ الفَاذَّةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ »[1] ، وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الرَّمْيَ أَفْضَلُ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ ، وَذَهَبَ الإِمَامُ مَالِكٌ إِلَى أَنَّ الرُّكُوبَ أَفْضَلُ مِنَ الرَّمْيِ ، وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ أَقْوَى لِلْحَدِيثِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَالأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي فَضْلِ ارْتِبَاطِ الْخَيْلِ كَثِيرَةٌ . فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارِقِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : الأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ »[2] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تُرْهِبُونَ ﴾ أَيْ : تُخَوِّفُونَ ﴿ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ ، **وَقِيلَ** : « فَارِسَ » **قِيلَ** : هُمُ الشَّيَاطِينُ الَّتِي فِي الدُّورِ . **قِيلَ** : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَهَذَا أَشْبَهُ الأَقْوَالِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾[التوبة : ١٠١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ ، فَإِنَّهُ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، **وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ**[3] أَنَّ الدِّرْهَمَ يُضَاعَفُ ثَوَابُهُ فِي سَبِيلِ الله إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي

---

(١) البخاري (٢٣٧١) ، وانظر مسلم (٩٨٧) .

(٢) البخاري (٢٨٥٢) .

(٣) البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة : ٢٦١]

۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِذَا خِفْتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، فَإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبِكَ وَمُنَابَذَتِكَ فَقَاتِلْهُمْ ﴿ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ أَيْ : مَالُوا ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ أَيْ : الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أَيْ : فَمِلْ إِلَيْهَا ، وَاقْبَلْ مِنْهُمْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الصُّلْحَ وَوَضْعَ الْحَرْبِ بَيْنَهِمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَ سِنِينَ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنَ الشُّرُوطِ الْأُخَرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : صَالِحْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالصُّلْحِ خَدِيعَةً ؛ لِيَتَقَوَّوْا وَيَسْتَعِدُّوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : كَافِيكَ وَحْدَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ مِمَّا أَيَّدَهُ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَقَالَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ ، وَعَلَى طَاعَتِكَ ، وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَازَرَتِكَ . ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهِمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّسَلْسُلُ فِي الشَّرِّ ، حَتَّى قَطَعَ اللهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران : ١٠٣] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَ الْأَنْصَارَ

(١) البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١) .

فِي شَأْنِ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ قَالَ لَهُمْ : ((**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي**)) كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَزِيزُ الْجَنَابِ ، فَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : إِنَّ الرَّحِمَ لَتُقْطَعُ ، وَإِنَّ النِّعْمَةَ لَتُكْفَرُ ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا قَارَبَ بَيْنَ الْقُلُوبِ لَمْ يُزَحْزِحْهَا شَيْءٌ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهُ - صلواتُ الله وسلامُهُ عَلَيْهِ - وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَمُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَزَةِ الْأَقْرَانِ ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ ، أَيْ : كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ ، وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَتَرَادَفَتْ أَمْدَادُهُمْ ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ : حَسْبُكَ اللهُ وَحَسْبُ مَنْ شَهِدَ مَعَكَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ أَيْ : حُثَّهُمْ وَذَمِّرْ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّضُ عَلَى الْقِتَالِ عِنْدَ صَفِّهِمْ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ ، كَمَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ(١) حِينَ أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فِي عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ : ((**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**)) ، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ : جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَعَمْ**)) فَقَالَ : بَخٍ بَخٍ فَقَالَ : مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ : ((**بَخٍ بَخٍ ؟**)) قَالَ : رَجَاءَ أَنْ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٩٠١) .

أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ : ((**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**)) فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ فَكَسَرَ جِفْنَ سَيْفِهِ ، وَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ أَلْقَى بَقِيَّتَهُنَّ مِنْ يَدِهِ ، وَقَالَ : لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَهُنَّ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ﷺ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَآمِرًا : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بِعَشْرَةٍ ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الْأَمْرُ وَبَقِيَتِ الْبِشَارَةُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ ، ثُمَّ جَاءَ التَّخْفِيفُ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ قَالَ : خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ ، وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ[1] . **وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ** ﷺ : كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ ، ثُمَّ خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فَلَا يَنْبَغِي لِمِائَةٍ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ مِائَتَيْنِ[2] .

وَعَنْهُ[3] **أَيْضًا قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَقُلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَأَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِلَ عِشْرُونَ مِائَتَيْنِ ، وَمِائَةٌ أَلْفًا فَخَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ ، فَنَسَخَهَا بِالْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ الْآيَةُ . فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ لَمْ يَسُغْ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَإِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُهُمْ ، وَجَازَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

---

(١) البخاري (٤٦٥٣) .
(٢) البخاري (٤٦٥٢) .
(٣) سنده حسن .

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : اِسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : « **إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ** » فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ** » فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ نَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ ، قَالَ : فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ . قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]، وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِنَحْوِ ذَلِكَ[2].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ ، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قَالَ : غَنَائِمُ بَدْرٍ قَبْلَ أَنْ يُحِلَّهَا لَهُمْ ، يَقُولُ : لَوْلَا أَنِّي لَا أُعَذِّبُ مَنْ عَصَانِي حَتَّى أَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ ، لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . **وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : سَبَقَ مِنْهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا شَهِدَ بَدْرًا ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ يَعْنِي : فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأُسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ مِنَ الْأُسَارَى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ الْآيَةَ . **وَكَذَا ذَهَبَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ** : ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - وَيُسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** » ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

---

(١) صحيح : وأخرجه أحمد (٣/ ٢٤٣) ويصح لشواهده .
(٢) صحيح : وقد تقدم . مسلم (حديث ١٧٦٣) .
(٣) البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ الآيَةُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأُسَارَى الْفِدَاءَ .

وَقَدِ اسْتَمَرَّ الْحُكْمُ فِي الْأَسْرَى عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْإِمَامَ مُخَيَّرٌ فِيهِمْ ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ كَمَا فَعَلَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ ، وَإِنْ شَاءَ فَادَى بِمَالٍ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَى بَدْرٍ أَوْ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْجَارِيَةِ وَابْنَتِهَا اللَّتَيْنِ كَانَتَا فِي سَبْيِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ حَيْثُ رَدَّهُمَا وَأَخَذَ فِي مُقَابَلَتِهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرَقَّ مَنْ أَسَرَ . هَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ آخَرُ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا : ائْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ . قَالَ : « **لَا وَاللهِ لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا** »(١) ، وَعَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ جَمَاعَةٍ سَمَّاهُمْ قَالُوا : بَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ فَفَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللهَ يَجْزِيكَ ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا ، فَافْتَدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخِيكَ : نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرٍو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ** » قَالَ : مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « **فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ ؟ فَقُلْتَ لَهَا : إِنْ أُصِبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتُهُ لِبَنِيَّ الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللهِ وَقُثَمٍ** » قَالَ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) البخاري (٤٠١٨) .

« لَا ، ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللهُ تَعَالَى مِنْكَ » فَفَدَى نَفْسَه وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَقَدْ رَوَى ابْنُ إِسْحَاقٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِنَحْوِ مِمَّا تَقَدَّمَ(١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، ﴿ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ ، أَيْ : مِنْ قَبْلِ بَدْرٍ ، بِالْكُفْرِ بِهِ ، ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : بِالْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِفِعْلِهِ حَكِيمٌ فِيهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ : خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَاءُوا لِنَصْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَإِلَى أَنْصَارٍ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ ، آوَوْا إِخْوَانَهُمْ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَوَاسَوْهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَنَصَرُوا اللهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ ، فَهَؤُلَاءِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، أَيْ : كُلٌّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالْآخَرِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَلِهَذَا آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِرْثًا مُقَدَّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ ، حَتَّى نَسَخَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ . ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢) ، وَقَالَ بِذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

وَقَـدْ أَثْنَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَـارِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَـابِهِ فَقَالَ :

---

(١) **صحيح بمجموع طرقه** : السند ضعيف لكن له شواهد ، وقد روى من طرق تصح بمجموعها أن الآية نزلت في العباس .

(٢) البخاري (٦٧٤٧) .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التوبة : ١٠٠]، وَقَالَ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٨- ٩] . وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ [الحشر : ٩] ، أَيْ : لَا يَحْسُدُونَهُمْ عَلَى فَضْلِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ عَلَى هِجْرَتِهِمْ ، فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَاتِ تَقْدِيمُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم ﴾ ، قَرَأَ حَمْزَةُ : وِلَايَتِهِمْ بِالْكَسْرِ وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ ، وَهُمَا وَاحِدٌ كَالدَّلَالَةِ وَالدِّلَالَةِ ﴿ مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ هَذَا هُوَ الصِّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ، بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ ، وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالَ . عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ : « **اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ ، فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَعْلِمْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ ، إِلَّا أَنْ**

يُجاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الجِزْيَةِ . فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ الآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ هَؤُلَاءِ الأَعْرَابِ ، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالٍ دِينِيٍّ ، عَلَى عَدُوٍّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرَهُمْ ، لأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أَيْ : مُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ فَلَا تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**))(٢) . وَمَعْنَى قَوْلِه : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أَيْ : إِنْ لَمْ تُجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتُوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِلَّا وَقَعَتْ فِتْنَةٌ فِي النَّاسِ ، وَهُوَ الْتِبَاسُ الأَمْرِ وَاخْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُنْتَشِرٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيُجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ

---

(١) مسلم (١٧٣١) .

(٢) البخاري (٦٧٦٤) ، ومسلم (١٦١٤) .

عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ كَانَتْ ، وَبِالرِّزْقِ الْكَرِيمِ وَهُوَ الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ الشَّرِيفُ ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقَضِي ، وَلَا يُسْأَمُ وَلَا يُمَلُّ لِحُسْنِهِ وَتَنَوُّعِهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[التوبة : ١٠٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[الحشر : ١٠] . وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**))(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي حُكْمِ اللهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ خُصُوصِيَّةُ مَا يُطْلِقُهُ عُلَمَاءُ الْفَرَائِضِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّذِي لَا فَرْضَ لَهُمْ وَلَا هُمْ عَصَبَةٌ ، بَلْ يُدْلُونَ بِوَارِثٍ كَالْخَالَةِ وَالْخَالِ وَالْعَمَّةِ وَأَوْلَادِ الْبَنَاتِ وَأَوْلَادِ الْأَخَوَاتِ وَنَحْوِهِمْ ، كَمَا قَدْ يَزْعُمُهُ بَعْضُهُمْ وَيَحْتَجُّ بِالْآيَةِ وَيَعْتَقِد ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَة ، بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَل جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ عَلَى أَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِلْإِرْثِ بِالْحِلْفِ وَالْإِخَاءِ اللَّذَيْنِ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِمَا أَوَّلًا ، وَعَلَى هَذَا فَتَشْمَلُ ذَوِي الْأَرْحَام بِالِاسْمِ الْخَاصِّ ، وَمَنْ لَمْ يُوَرِّثْهُمْ يَحْتَجُّ بِأَدِلَّةٍ مِنْ أَقْوَاهَا حَدِيثُ : ((**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**))(٢) . قَالُوا : فَلَوْ كَانَ لَهُ حَقٌّ لَكَانَ ذَا فَرْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مُسَمًّى ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ
وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

---

(١) البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٢) في كل طرقه مقال ، لكن عليه عمل العلماء .

تفسير سورة التوبة
وهي مدنية

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ﴾

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ الْبَرَاءُ : آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ : بَرَاءَةٌ[1] ، وَإِنَّمَا لَمْ يُبَسْمِلْ فِي أَوَّلِهَا لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ ، بَلِ اقْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهَمَّ بِالْحَجِّ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، فَكَرِهَ مُخَالَطَتَهُمْ ، وَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةَ ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعْلِمَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحُجُّوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَأَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ « بَرَاءَةَ » فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنْ رَسُولِهِ ﷺ لِكَوْنِهِ عَصَبَةً لَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أَيْ : هَذِهِ بَرَاءَةٌ أَيْ : تَبَرُّؤٌ مِنَ الله وَرَسُولِهِ ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَهُنَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : هَذِهِ الْآيَةُ لِذَوِي الْعُهُودِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ ، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَيُكَمَّلُ لَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ الْآيَة ، وَلِمَا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ

---

(١) البخاري (٤٦٥٤) ، ومسلم (١٦١٨) .

إِلَى مُدَّتِهِ ، وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ وَأَقْوَاهَا ، وَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - .

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِعْلَامٌ ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وَتَقَدُّمٌ ، وَإِنْذَارٌ إِلَى النَّاسِ ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْبَرُهَا جَمِيعًا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أَيْ : بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَغْلَالِ .

عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ(١) **قَالَ** : بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى : أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ . قَالَ حُمَيْدٌ : ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةَ ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، **وفي رواية أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ** : بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى أَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ .

وَيَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ : يَوْمُ النَّحْرِ ، وَإِنَّمَا قِيلَ الْأَكْبَرُ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ : الْحَجُّ الْأَصْغَرُ ، فَنَبَذَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ ، فَلَمْ يَحُجَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُشْرِكٌ(٢) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ بِبَرَاءَةَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَا الْحُلَيْفَةِ

---

(١) البخاري (٤٦٥٥) .
(٢) البخاري (٣١٧٧) .

قَالَ : « **لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي** » فَبَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[1] ﷺ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ - رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ - : سَأَلْنَا عَلِيًّا بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ ؟ يَعْنِي يَوْمَ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فِي الحَجَّةِ قَالَ : بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَلَا يَحُجُّ الْمُشْرِكُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا[2] .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ : يَوْمُ عَرَفَةَ . **وَقَالَ آخَرُون** : أَنَّهُ يَوْمُ النَّحْرِ . وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ العُلَمَاءِ ، وَاخْتَارَهُ ابنُ جَرِيرٍ .

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَسِيحُ فِي الأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ المَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوهِدَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الأَحَادِيثُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُضَ المُعَاهِدُ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهِرْ عَلَى المُسْلِمِينَ أَحَدًا ، أَيْ يُمَالِئُ عَلَيْهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يُوَفَّى لَهُ بِذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَى مُدَّتِهِ . وَلِهَذَا حَرَّضَ تَعَالَى عَلَى الوَفَاءِ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : المُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي المُرَادِ بِالأَشْهُرِ الحُرُمِ هَهُنَا مَا هِيَ؟ فَذَهَبَ اِبْنُ جَرِيرٍ : إِلَى أَنَّهَا المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٣) .
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٧٩) .

أنفسكم ﴾ . قَالَ : آخِرُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ فِي حَقِّهِمُ الْمُحَرَّمُ . وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ حَيْثُ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ الْأَرْبَعَةِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أَيْ : إِذَا انْقَضَتِ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجَّلْنَاهُمْ فِيهَا ، فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، لأَنَّ عَوْدَ الْعَهْدِ عَلَى مَذْكُورٍ أَوْلَى مِنْ مُقَدَّرٍ ، ثُمَّ إِنَّ الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ الْمُحَرَّمَةَ سَيَأْتِي بَيَان حُكْمِهَا فِي آيَةٍ أُخْرَى بَعْدُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَذَا عَامٌّ ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة :١٩١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أَيْ : وَأْسِرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا ، ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أَيْ : لَا تَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ وِجْدَانِكُمْ لَهُمْ ، بَلِ اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَاقِلِهِمْ وَحُصُونِهِمْ ، وَالرَّصْدُ فِي طُرُقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ ، وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَلِهَذَا اعْتَمَدَ الصِّدِّيقُ ﷺ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْثَالِهَا ، حَيْثُ حَرَّمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ ، وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامُ بِأَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ ، وَنَبَّهَ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَدْنَاهَا ، فَإِنَّ أَشْرَفَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ : الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ حَقُّ الله ﷻ ، وَبَعْدَهَا أَدَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**)) .

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ(٢) : ((**أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّـى يَشْهَدُوا أَنْ**

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

(٢) البخاري (٣٩٢ ، ٣٩٣) .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا ، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا ، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ)) .

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ الَّتِي قَالَ فِيهَا الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِم : أَنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكُلَّ عَقْدٍ وَكُلَّ مُدَّةٍ .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَحْلَلْتُ لَكَ اسْتِبَاحَةَ نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ أَيْ : اسْتَأْمَنَكَ ، فَأَجِبْهُ إِلَى طِلْبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ الله : أَيِ الْقُرْآنَ ، تَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ وَتَذْكُرُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، تُقِيمُ بِهِ عَلَيْهِ حُجَّةَ الله ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ أَيْ : وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرُّ الْأَمَانِ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ وَدَارِهِ وَمَأْمَنِهِ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَانَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ، لِيَعْلَمُوا دِينَ الله ، وَتَنْتَشِرَ دَعْوَةَ الله فِي عِبَادِهِ .

وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعْطِي الْأَمَانَ لِمَنْ جَاءَهُ مُسْتَرْشِدًا أَوْ فِي رِسَالَةٍ ، كَمَا جَاءَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَمِكْرَزُ ابْنُ حَفْصٍ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَغَيْرُهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقَضِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَرَأَوْا مِنْ إِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ الله ﷺ مَا بَهَرَهُمْ ، وَمَا لَمْ يُشَاهِدُوهُ عِنْدَ مَلِكٍ وَلَا قَيْصَرٍ فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي أَدَاءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ صُلْحٍ أَوْ مُهَادَنَةٍ أَوْ حَمْلِ جِزْيَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا أُعْطِيَ أَمَانًا مَادَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَحَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَوَطَنِهِ ، لَكِنْ قَالَ الْعُلَمَاءُ :لَا يَجُوزُ أَنْ يُمَكَّنَ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ سَنَةً ، وَيَجُوز أَنْ يُمَكَّنَ مِنْ إِقَامَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِيمَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَنَقَصَ

عَنْ سَنَةٍ ، قَوْلَانِ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

بَيَّنَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَنَظِرَتَهُ إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّيْفُ الْمُرْهَفُ أَيْنَ ثُقِفُوا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ أَيْ : أَمَانٌ ، وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [الفتح : ٢٥] ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ أَيْ : مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاقَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ . اسْتَمَرَّ الْعَقْدُ وَالْهُدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ الْعَهْدَ ، وَمَالَئُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ أَحْلَافِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، فَأَطْلَقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ ، فَسُمُّوا الطُّلَقَاءَ وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ ، وَمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمَا ، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِّ ، وَاللهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ .

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ ، وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ

لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشِرْكِهِمْ بِاللهِ تَعَالَى ، وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلأَنَّهُمْ لَوْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأُدِيلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا ، وَلَا رَاقَبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الإِلُّ : الْقَرَابَةُ ، وَالذِّمَّةُ : الْعَهْدُ ، **وَعَنْ أَبِي مِجْلَز فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ مِثْلَ قَوْلِهِ : جِبْرِيلُ مِيكَائِيلُ إِسْرَافِيلُ ، كَأَنَّهُ يُضِيفُ « جبر » و « ميكا » و « إسراف » إلى « إيل » يَقُولُ : عَبْدُ اللهِ ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا يَرْقُبُونَ اللهَ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ .

ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ اعْتَاضُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ بِمَا الْتَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ ﴿ فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ، وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمَتْ .

وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ﴿ أَيْمَـٰنَهُم ﴾ أَيْ : عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ ﴿ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ أَيْ : عَابُوهُ وَانْتَقَصُوهُ ، وَمِنْ هَهُنَا أُخِذَ قَتْلُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أَيْ : يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ .

أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيجٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ لِأَيْمَانِهِم الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء : ٧٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ حِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ عِيرِهِمْ ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَجْهِهِمْ طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكَبُّرًا ، كَمَا تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ نَقْضُهُمْ الْعَهْدَ وَقِتَالُهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ لِخُزَاعَةَ أَحْلَافِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ وَكَانَ مَا كَانَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطْوَتِي وَعُقُوبَتِي ، فَبِيَدِي الْأَمْرُ وَمَا شِئْتُ كَانَ وَمَا لَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَزِيمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيَانًا لِحِكْمَتِهِ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ . ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِبَادِهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَالشَّرْعِيَّةِ ، فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . وَيَحْكُمُ مَا يُرِيد ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا ، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ نَتْرُكَكُمْ مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا أَهْلُ الْعَـزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أَيْ : بِطَانَةً وَدَخِيلَةً بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ لله وَلِرَسُولِهِ ، فَاكْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ . وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت :١-٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْجِهَادَ بَيَّنَ أَنَّ لَهُ فِيهِ حِكْمَةً ، وَهُوَ اخْتِبَارُ عَبِيدِهِ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، فَيَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ وَمَعَ كَوْنِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَدَّرَهُ وَأَمْضَاهُ .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مَا يَنْبَغِي لِلْمُشْرِكِينَ بِالله أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ ((مَسْجِدَ الله)) فَأَرَادَ بِهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي الْأَرْضِ ، الَّذِي بُنِيَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَسَّسَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أَيْ : بِحَالِهِمْ

وَقَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ : لَوْ سَأَلْتَ النَّصْرَانِيَّ : مَا دِينُكَ ؟ لَقَالَ : نَصْرَانِيٌّ ، وَلَوْ سَأَلْتَ الْيَهُودِيَّ : مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ : يَهُودِيٌّ وَالصَّابِئِيَّ ، لَقَالَ : صَابِئِيٌّ ، وَالْمُشْرِكَ ، لَقَالَ : مُشْرِكٌ ﴿ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ أَيْ : بِشِرْكِهِمْ ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعُمَّارِ الْمَسَاجِدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بِرِّ الْخَلَائِقِ ، ﴿ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء : ٧٩] يَقُولُ : إِنَّ رَبَّكَ سَيَبْعَثُكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَهِيَ الشَّفَاعَةُ ، وَكُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ ، **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ – رَحِمَهُ اللهُ –** : وَعَسَى مِنْ حَقِّ اللهِ .

۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾

خَيَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ الْبَيْتَ ، وَقِيَامِهِمْ عَلَى السِّقَايَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا يَعْمُرُونَ بَيْتَهُ وَيُحْرِمُونَ بِهِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ

زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِمَارَةِ فَسَمَّاهُمُ اللهُ ظَالِمِينَ بِشِرْكِهِمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمُ الْعِمَارَةُ شَيْئًا .

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ(١) **قَالَ** : كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ للهِ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ . وَقَالَ آخَرُ : بَلْ عِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَقَالَ آخَرُ : بَلِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ ، مِمَّا قُلْتُمْ ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ وَقَالَ : لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ . قَالَ فَفَعَلَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءً أَوْ أَبْنَاءً ، وَنَهَى عَنْ مُوَالَاتِهِمْ إِنِ اسْتَحَبُّوا : أَيِ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ آثَرَ أَهْلَهُ وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ **فَقَالَ** : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي : اكْتَسَبْتُمُوهَا وَحَصَّلْتُمُوهَا ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ

(١) مسلم (١٨٧٩) .

كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ أَيْ : تُحِبُّونَهَا لِطِيبِهَا وَحُسْنِهَا . أَيْ : إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أَيْ : فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِكُمْ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَالَ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**)) ، فَقَالَ عُمَرُ : فَأَنْتَ الْآنَ وَاللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**الْآنَ يَا عُمَرُ**))(١). وَأَنَّهُ قَالَ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ ، وَوَلَدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**))(٢) .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ بَرَاءَةَ ، يَذْكُرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ لَا بِعَدَدِهِمْ وَلَا بِعُدَّتِهِمْ ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ ، فَإِنَّ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَعْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ ، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ

(١) البخاري (حديث٦٦٣٢) .
(٢) البخاري (حديث١٤) ، ومسلم بنحوه (٤٤) .

شَاءَ اللهُ تَعَالَى مُفَصَّلا ، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَبِإِمْدَادِهِ ، وَإِنْ قَلَّ الْجَمْعُ ، فَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَقَدْ كَانَتْ وَقْعَةُ حُنَيْنٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ . وَذَلِكَ لَمَّا فَرَغَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا ، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُقَاتِلُوهُ ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّضْرِيِّ وَمَعَهُ ثَقِيفُ بِكَمَالِهَا ، وَبَنُو جُشَمٍ وَبَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، وَأَوْزَاعٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ وَهُمْ قَلِيلٌ ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ وعَوْف بْنِ عَامِرٍ ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعَمُ ، وَجَاءُوا بِقَضِّهِمْ وَقَضِيضِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ ، وَهُوَ عَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمُ الطُّلَقَاءُ فِي أَلْفَيْنِ ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ حُنَيْنٌ ، فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقْعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنَتْ فِيهِ هَوَازِنُ ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ بَادَرُوهُمْ ، وَرَشَقُوا بِالنِّبَالِ ، وَأَصْلَتُوا السُّيُوفَ ، وَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ وَثَبَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمَئِذٍ بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ ، وَالْعَبَّاسُ عَمُّه آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ يُثْقِلَانِهَا لِئَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يُنَوِّه بِاسْمِهِ ﷺ وَيَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ : « **إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ** » وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ : « **أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب** »[1] .

وَثَبَتَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَرِيبٌ مِنْ مِائَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ثَمَانُونَ ، فَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ ، وَالْفَضْلُ بْنَ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سُفْيَانَ ابْن الْحَارِثِ ، وَأَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهم ﷺ ، ثُمَّ أَمَرَ ﷺ عَمَّهُ الْعَبَّاسُ وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ أَنْ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي

---

(١) انظره ، وما قبله ، وما بعده في صحيح مسلم (١٧٧٥) .

شَجَرَةَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّتِي بَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَحْتَهَا عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا عَنْهُ - فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ ، وَيَقُولُ تَارَةً : يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : يَا لَبَّيْكَ ، يَا لَبَّيْكَ ، وَانْعَطَفَ النَّاسُ فَتَرَاجَعُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُطَاوِعهُ بَعِيرُهُ عَلَى الرُّجُوعِ لَبِسَ دِرْعَهُ ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ ، وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ أَمَرَهُمْ ﷺ أَنْ يَصْدُقُوا الْحَمْلَة ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ بَعْد مَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَهُ وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتنِي** » .ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفَمِهِ مَا شَغَلَهُ عَنِ الْقِتَالِ ثُمَّ انْهَزَمُوا فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسْرَى مُجَنْدَلَةٌ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ(١) : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ : فَخَرَجَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى حُنَيْنٍ ، فَسَبَقَ رَسُولَ الله ﷺ إِلَيْهِ ، فَأَعَدُّوا وَتَهَيَّئُوا فِي مَضَايِقِ الْوَادِي وَأَحْنَائِهِ ، وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ حَتَّى انْحَطَّ بِهِمُ الْوَادِي فِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ ، فَلَمَّا انْحَطَّ النَّاسُ ثَارَتْ فِي وُجُوهِهِمُ الْخَيْلُ فَشَدَّتْ عَلَيْهِمْ ، وَانْكَفَأَ النَّاسُ مُنْهَزِمِينَ لَا يُقْبِلُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَانْحَازَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ يَقُولُ : « **أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَيَّ ، أَنَا رَسُولُ الله ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله** » فَلَا شَيْءَ وَرَكِبَتِ الْإِبِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ أَمْرَ النَّاسِ قَالَ : « **يَا عَبَّاسُ ، اُصْرُخْ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ** » فَأَجَابُوهُ : لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ لِيَعْطِفَ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقْذِفُ دِرْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَقَوْسَهُ ثُمَّ يَؤُمُّ الصَّوْتَ ، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْهُمْ مِائَةٌ ، فَاسْتَعْرَضَ النَّاسَ فَاقْتَتَلُوا وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلَ مَا كَانَتْ بِالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ جُعِلَتْ آخِرًا بِالْخَزْرَجِ وَكَانُوا صُبَرَاءَ عِنْدَ الْحَرْبِ ، وَأَشْرَفَ رَسُولُ الله ﷺ فِي رِكَابِه فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ الْقَوْمِ فَقَالَ : « **الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ** » قَالَ : فَوَالله مَا رَاجَعَهُ النَّاسُ إِلَّا وَالْأَسَارَى عِنْدَ

(١) إسناده حسن .

رَسُولِ الله ﷺ مُلْقَوْنَ ، فَقَتَلَ اللهُ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ ، وَانْهَزَمَ مِنْهُمْ مَنِ انْهَزَمَ ، وَأَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ(١) **- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ : يَا أَبَا عُمَارَةَ أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ ؟ فَقَالَ : لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً ، فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمُ انْهَزَمُوا ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْغَنَائِمِ فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَانْهَزَمَ النَّاسُ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « **أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ** »

قُلْتُ : وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّامَّةِ ، أَنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ، وَقَدِ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشُهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا عَلَى بَغْلَةٍ وَلَيْسَتْ سَرِيعَةَ الْجَرْيِ ، وَلَا تَصْلُحَ لِفَرٍّ وَلَا لِكَرٍّ وَلَا لِهَرَبٍ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضُهَا إِلَى وُجُوهِهِمْ ، وَيُنَوِّهُ بِاسْمِهِ لِيَعْرِفَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - وَمَا هَذَا كُلُّهُ إِلَّا ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَيُتِمُّ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ ، وَيُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ** سَكِينَته عَلَى رَسُوله ﴾ أَيْ : طُمَأْنِينَتَهُ وَثَبَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ مَعَهُ ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** »(٢) **وَلِهَذَا** قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَدْ تَابَ اللهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَدِمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجِعْرَانَةِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيَّرَهُمْ بَيْنَ سَبْيِهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ ، فَاخْتَارُوا سَبْيَهُمْ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافِ أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ ، فَرَدَّهُ

---

(١) البخاري (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦) .

(٢) مسلم (٥٢٣) .

عَلَيْهِمْ وَقَسَمَ الْأَمْوَالَ بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، وَنَفَلَ أُنَاسًا مِنَ الطُّلَقَاءِ ، لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَعْطَاهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أُعْطِيَ مِائَةً مَالِكُ بْن عَوْفٍ النَّضْرِيّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ ، فَامْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمُ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى ... وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابُهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ الْمَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ - الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا - بِنَفْيِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَأَنْ لَا يَقْرَبُوهُ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَانَ نُزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ ، وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَامَئِذٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُشْرِكِينَ : أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، فَأَتَمَّ اللهُ ذَلِكَ وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا . **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ(١) . **وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ** ﷺ : أَنِ امْنَعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ دُخُولِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَتْبَعَ نَهْيَهُ قَوْلَ الله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ . **وَقَالَ عَطَاءٌ** : الْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ .

---

(١) إسناده صحيح .

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى نَجَاسَةِ الْمُشْرِكِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِ لِمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ : « **الْمُؤْمِن لَا يَنْجُس** »(١)، وَأَمَّا نَجَاسَةُ بَدَنِهِ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَجِسِ الْبَدَنِ وَالذَّاتِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَحَلَّ طَعَامَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الظَّاهِرِيَّةِ إِلَى نَجَاسَةِ أَبْدَانِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ **قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا : لَتُقْطَعَنَّ عَنَّا الْأَسْوَاق ، وَلَتَهْلِكَنَّ التِّجَارَة ، وَلَيَذْهَبَنَّ عَنَّا مَا كُنَّا نُصِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَرَافِقِ ، فَعَوَّضَهُمُ اللهُ بِمَا قَطَعَ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشِّرْكِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاقِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْجِزْيَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصْلِحُكُمْ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، الْعَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلِهَذَا عَوَّضَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْمَكَاسِبِ بِأَمْوَالِ الْجِزْيَةِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَآبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، لَا لِأَنَّهُ شَرْعُ اللهِ وَدِينُهُ ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بِأَيْدِيهِمْ إِيمَانًا صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بَشَّرُوا بِهِ وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ وَكَفَرُوا بِهِ - وَهُوَ أَشْرَفُ الرُّسُلِ - عُلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُتَمَسِّكِينَ بِشَرْعِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ . بَلْ لِحُظُوظِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، فَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ بِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ وَخَاتَمِهِمْ وَأَكْمَلِهِمْ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ

---

(١) البخاري (٢٨٥) ، ومسلم (٣٧١) .

النَّاسُ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا ، فلما اسْتَقَرَّتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ ، أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ ، وَلِهَذَا تَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ ، وَدَعَا النَّاس إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ ، وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَنَدَبَهُمْ ، فَأَوْعَبُوا مَعَهُ ، وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوٍ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاس مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَدْبٍ وَوَقْتِ قَيْظٍ وَحَرٍّ ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ ، فَبَلَغَ تَبُوكَ فَنَزَلَ بِهَا وَأَقَامَ بِهَا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ اسْتَخَارَ اللهَ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ ، لِضِيقِ الْحَالِ وَضَعْفِ النَّاسِ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أَيْ : إِنْ لَمْ يُسْلِمُوا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أَيْ : عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَغَلَبَةٍ ﴿ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ أَيْ : ذَلِيلُونَ حَقِيرُونَ مُهَانُونَ ، فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِعْزَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ هُمْ أَذِلَّاءُ صَغَرَةٌ أَشْقِيَاءُ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ** »[1] ؛ وَلِهَذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ تِلْكَ الشُّرُوطِ الْمَعْرُوفَةِ فِي إِذْلَالِهِمْ وَتَصْغِيرِهِمْ وَتَحْقِيرِهِمْ ، وَذَلِكَ **مِمَّا رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ الْحُفَّاظُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ** : كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ : « بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ الله عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا ، إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمُ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا ، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَةً وَلَا قِلَايَةً وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ ، وَلَا نُجَدِّدُ مَا خَرِبَ مِنْهَا وَلَا نُحْيِي مِنْهَا مَا كَانَ خُطَطًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ لَا نَمْنَعُ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَأَنْ نُنْزِلَ مَنْ رَأَيْنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نُطْعِمُهُمْ ، وَلَا نَأْوِي فِي كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا ،

---

(١) مسلم (٢١٦٧) .

وَلَا نَكْتُمُ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَا نُعَلِّمَ أَوْلَادنَا الْقُرْآنَ وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا ، وَلَا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ نَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ ، وَلَا نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مُلَابِسِهِمْ فِي قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ ، وَلَا نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ ، وَلَا نَكْتَنِي بِكُنَاهُمْ ، وَلَا نَرْكَبُ السُّرُوجَ وَلَا نَتَقَلَّدُ السُّيُوفَ ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ ، وَلَا نَحْمِلُهُ مَعَنَا ، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِيمنَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا نَبِيعَ الْخُمُورَ ، وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِيمَ رُءُوسِنَا ، وَأَنْ نَلْزَم زِيّنَا حَيْثُمَا كُنَّا ، وَأَنْ نَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا ، وَأَنْ لَا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا ، وَأَنْ لَا نُظْهِرَ صُلُبَنَا وَلَا كُتُبَنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا أَسْوَاقِهِمْ ، وَلَا نَضْرِبُ نَوَاقِيسَنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا ، وَأَنْ لَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا نَخْرُجَ سَعَانِينَ(١) وَلَا بَاعُوثًا(٢) وَلَا نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا ، وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ ، وَلَا نُجَاوِرُهُمْ بِمَوْتَانَا ، وَلَا نَتَّخِذَ مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا نَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ » . قَالَ : فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ وَلَا نَضْرِبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، شَرَطْنَا لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا ، وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ ، فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا شَرَطْنَاهُ لَكُمْ ، وَوَظَّفْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا فَلَا ذِمَّةَ لَنَا ، وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ

---

(١) سعانين :عيد للنصارى .

(٢) الباعوث للنصاري :كالاستسقاء للمسلمين .

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

وَهَذَا إِغْرَاءٌ مِنَ الله تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ المَقَالَةِ الشَّنِيعَةِ وَالْفِرْيَةِ عَلَى الله تَعَالَى ، فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا فِي الْعُزَيْرِ : إِنَّهُ ابْنُ الله ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَأَمَّا ضَلَالُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ فَظَاهِرٌ ، وَلِهَذَا كَذَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أَيْ : لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَاقِهِمْ ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أَيْ : يُشَابِهُونَ ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاسٍ : لَعَنَهُمُ اللهُ ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَضِلُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَيَعْدِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ . **قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وغَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ** ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إِنَّهُمْ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : اسْتَنْصَحُوا الرِّجَالَ وَنَبَذُوا كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ : الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَلَالُ ، وَمَا شَرَعَهُ اتُّبِعَ ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذَ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عِنِ الشُّرَكَاءِ والنُّظَرَاءِ ، والأَعْوانِ ، والأَضْدَادِ ، والأَوْلَادِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَا بُعِثَ بِهِ رَسُول الله ﷺ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ نُورَ الْقَمَرِ

بِنَفْخِهِ ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ وَيَظْهَرَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وَالْكَافِرُ : هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ وَيُغَطِّيهِ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْلِ كَافِرًا ، لأَنَّهُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ ، وَالزَّارِعُ كَافِرًا لأَنَّهُ يُغَطِّي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد : ٢٠]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فَالْهُدَى : هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَدِينُ الْحَقِّ : هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أَيْ : عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا**))(١).

وَعَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَتْهُ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ ، يُعِزُّ عَزِيزًا ، وَيُذِلُّ ذَلِيلًا إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِمَّا يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا**))(٢).

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**يَا عَدِيُّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ**)) . فَقُلْتُ : إِنِّي مِنْ أَهْلِ دِينٍ قَالَ : ((**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**)) ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ ؟**)) قُلْتُ : بَلَى ! قَالَ : ((**فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**)) قَالَ : فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا ، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا ، قَالَ : ((**أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ تَقُولُ : إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟**)) قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا ، قَالَ : ((**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ**)) قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ،**

---

(١) مسلم (٢٨٨٩) .

(٢) **سنده صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤) .

وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » قَالَ عَدِيٌّ : فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَالَهَا (١).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى** » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ الله ﷻ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أَنَّ ذَلِكَ تَامٌّ قَالَ : « **إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ** ﷻ ، **ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، فَيُتَوَفَّى كُلُّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ** » (٢) .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

الْأَحْبَارُ : هُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وَالرُّهْبَانُ : عُبَّادُ النَّصَارَى ، وَالْقِسِّيسُونَ : عُلَمَاؤُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وَالْمَقْصُودُ : التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَعُبَّادِ الضَّلَالِ ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (٣) : « **لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ** » قَالُوا : الْيَهُود وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « فَمَنْ ؟ » ،

---

(١) سنده صحيح .
(٢) مسلم (٢٩٠٧) .
(٣) البخاري (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) .

وَفِي رِوَايَةٍ فَارِس وَالرُّوم ؟ قَالَ : « **فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ ؟** » **وَالحَاصِلُ** : التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، وَمَنَاصِبُهُمْ وَرِيَاسَتُهُمْ فِي النَّاسِ ، يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ ، كَمَا كَانَ لِأَحْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَرَفٌ ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَضَرَائِبُ تَجِيءُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ اِسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ ، فَأَطْفَأَهَا اللهُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ ، وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا وَعَوَّضَهُمُ الذُّلَّ وَالصَّغَارَ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى . ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَهُمْ مَعَ أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَيُلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْجَهَلَةِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَلَيْسُوا كَمَا يَزْعُمُونَ بَلْ هُمْ دُعَاةٌ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَعَلَى الْعُبَّادِ ، وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ ، **كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ** :

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وَأَمَّا الْكَنْزُ : **عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ** : هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى مِنْهُ زَكَاةٌ . **وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ** : مَا أُدِّيَ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرَضِينَ ، وَمَا كَانَ ظَاهِرًا لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ . **وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ**(١) : هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ ، وَكَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِرَاكُ بْنِ مَالِكٍ : نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الْآيَةَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ **أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ**

---

(١) البخاري (١٤٠٤) .

هَذَا الْكَلَامُ تَبْكِيتًا وَتَقْرِيعًا وَتَهَكُّمًا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٨ - ٤٩] ، أَيْ : هَذَا بِذَاكَ ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَلِهَذَا يُقَال : مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَقَدَّمَهُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ عُذِّبَ بِهِ ، وَهَؤُلَاءِ لَمَّا كَانَ جَمْعُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ آثَرُ عِنْدَهُمْ مِنْ رِضَا اللهِ عِنْدَهُمْ عُذِّبُوا بِهَا ، كَمَا كَانَ أَبُو لَهَب - لَعَنَهُ اللهُ - جَاهِدًا فِي عَدَاوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَامْرَأَتُهُ تُعِينُهُ فِي ذَلِكَ كَانَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَى عَذَابِهِ أَيْضًا فِي جِيدِهَا أَيْ عُنُقِهَا ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدِ ﴾ أَيْ : تَجْمَعُ مِنَ الْحَطَبِ فِي النَّارِ وَتُلْقِي عَلَيْهِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي عَذَابِهِ مِمَّنْ هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالُ لَمَّا كَانَتْ أَعَزَّ الْأَمْوَالِ عَلَى أَرْبَابِهَا ، كَانَتْ أَضَرُّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَيُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ - وَنَاهِيكَ بِحَرِّهَا - فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .

عَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : ((**مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُهُ وَيَقُولُ : وَيْلَكَ مَا أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ ، وَلَا يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا ، ثُمَّ يُتْبِعَهَا سَائِرَ جَسَدِهِ**))[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**))[(٢)] وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ : مَرَرْتُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَقُلْتُ : مَا أَنْزَلَكَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ ؟ قَالَ : كُنَّا بِالشَّامِ فَقَرَأْتُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : مَا هَذِهِ فِينَا ، مَا هَذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ : قُلْتُ : إِنَّهَا لَفِينَا وَفِيهِمْ[(٣)] . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ فَذَكَرَهُ وَزَادَ : فَارْتَفَعَ فِي ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْقَوْلُ ، فَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ يَشْكُونِي فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ : أَنْ أَقْبِلْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ رَكِبَنِي

(١) إسناده حسن .
(٢) أخرجه مسلم (٩٨٧) .
(٣) البخاري (٤٦٦٠) .

النَّاسُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي قَبْلَ يَوْمِئِذٍ ، فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَى عُثْمَانَ ، فَقَالَ لِي : تَنَحَّ قَرِيبًا ، قُلْتُ : وَاللهِ مَا أَدَعُ مَا كُنْتُ أَقُولُ .

قُلْتُ : كَانَ مِنْ مَذْهَبِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ تَحْرِيمُ ادِّخَارِ مَا زَادَ عَلَى نَفَقَةِ الْعِيَالِ ، وَكَانَ يُفْتِي بِذَلِكَ ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَيْهِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيُغْلِظ فِي خِلَافِهِ ، فَنَهَاهُ مُعَاوِيَةُ فَلَمْ يَنْتَهِ ، فَخَشِيَ أَنْ يَضُرَّ بِالنَّاسِ فِي هَذَا فَكَتَبَ يَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ إِلَيْهِ ، فَاسْتَقْدَمَهُ عُثْمَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَنْزَلَهُ بِالرَّبَذَةِ وَحْدَهُ ، وَبِهَا مَاتَ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ، وَقَدِ اخْتَبَرَهُ مُعَاوِيَةُ ﷺ وَهُوَ عِنْدَهُ هَلْ يُوَافِقُ عَمَلُهُ قَوْلَهُ ؟ فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ فَفَرَّقَهَا مِنْ يَوْمِهِ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الَّذِي أَتَاهُ بِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ مُعَاوِيَةَ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَى غَيْرِكَ فَأَخْطَأْتُ فَهَاتِ الذَّهَبَ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ إِنَّهَا خَرَجَتْ ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ مَالِي حَاسَبْنَاكَ بِهِ .

وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ(١) : قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَبَيْنَمَا أَنَا فِي حَلْقَةٍ فِيهَا مَلَأٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ أَخْشَنَ الثِّيَابِ ، أَخْشَنَ الْجَسَدِ ، أَخْشَنَ الْوَجْهِ ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : بَشِّرِ الْكَنَّازِينَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيُوضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتِفِهِ ، وَيُوضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ يَتَزَلْزَلَ ، قَالَ : فَوَضَعَ الْقَوْمُ رُءُوسَهُمْ فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَيْهِ شَيْئًا ، قَالَ : فَأَدْبَرَ فَاتَّبَعْتُهُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتَ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَرِهُوا مَا قُلْتَ لَهُمْ ، فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .

وَفِي الصَّحِيحِ(٢) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ : ((**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، يَمُرُّ عَلَيَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ ، إِلَّا دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ**)) ، فَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - هُوَ الَّذِي حَدَا بِأَبِي ذَرٍّ عَلَى الْقَوْلِ بِهَذَا .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟

(١) البخاري (حديث١٤٠٧) .
(٢) البخاري (٦٢٦٨) ومسلم (حديث٩٤) .

فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ(١) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ : ((**أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**)) ثُمَّ قَالَ : ((**أَلَا أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟**)) قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : ((**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟**)) قُلْنَا : بَلَى ، ثُمَّ قَالَ : ((**أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟**)) قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : ((**أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟**)) قُلْنَا : بَلَى ، ثُمَّ قَالَ : ((**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا . ؟**)) قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : ((**أَلَيْسَتِ الْبَلْدَةُ ؟**)) قُلْنَا : بَلَى قَالَ : ((**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ**)) .

وَقَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ : ((**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**)) تَقْرِيرٌ مِنْهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَتَثْبِيتٌ لِلْأَمْرِ عَلَى مَا جَعَلَهُ اللهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ ، وَلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ، وَلَا نَسِيءٍ وَلَا تَبْدِيلٍ ، كَمَا قَالَ فِي تَحْرِيمِ مَكَّةَ : ((**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**))(٢) وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ((**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**)) أَيْ : الْأَمْرُ الْيَوْمَ شَرْعًا كَمَا ابْتَدَأَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .

---

(١) البخاري (حديث٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .
(٢) البخاري (٣١٨٩) ، ومسلم (١٣٥٣) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فَهَذَا مِمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ أَيْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُحَرِّمُهُ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جُمْهُورُهُمْ إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، يُقَالُ لَهُمْ : « الْبَسْلُ » كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ السَّنَةِ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ تَعَمُّقًا وَتَشْدِيدًا ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : « **ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الحَجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ** » فَإِنَّمَا أَضَافَهُ إِلَى مُضَر لِيُبَيِّنَ صِحَّةَ قَوْلِهِمْ فِي رَجَب ، أَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ لَا كَمَا تَظُنُّهُ رَبِيعَةُ مِنْ أَنَّ رَجَبَ الْمُحَرَّمَ هُوَ الشَّهْرُ الَّذِي بَيْنَ شَعْبَانَ وَشَوَّال وَهُوَ رَمَضَانُ الْيَوْمَ ، فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ رَجَبُ مُضَر لَا رَجَبُ رَبِيعَةَ ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْأَشْهُرُ الْمُحَرَّمَةُ أَرْبَعَةً ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ، لِأَجْلِ أَدَاءِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَحَرَّمَ قَبْلَ أَشْهُرِ الْحَجِّ شَهْرًا وَهُوَ ذُو الْقَعْدَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَقْعُدُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ وَحَرَّمَ شَهْرَ ذِي الْحَجَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ يُوقِعُونَ فِيهِ الْحَجَّ وَيَشْتَغِلُونَ بِأَدَاءِ الْمَنَاسِكِ ، وَحَرَّمَ بَعْدَهُ شَهْرًا آخَر وَهُوَ الْمُحَرَّمُ لِيَرْجِعُوا فِيهِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِهِمْ آمِنِينَ ، وَحَرَّمَ رَجَبَ فِي وَسَطِ الْحَوْلِ لِأَجْلِ زِيَارَةَ الْبَيْتِ وَالِاعْتِمَارِ بِهِ لِمَنْ يَقْدمُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَيَزُورهُ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَطَنِهِ فِيهِ آمِنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُسْتَقِيمُ مِنِ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ فِيمَا جَعَلَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَالْحَذْوِ بِهَا عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ كِتَابِ اللهِ الْأَوَّلِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْمُحَرَّمَةِ لِأَنَّهَا آكَدُ وَأَبْلَغُ فِي الْإِثْمِ مِنْ غَيْرِهَا ، كَمَا أَنَّ الْمَعَاصِي فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ تُضَاعَفُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وَكَذَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ تَغْلُظُ فِيهِ الْآثَامُ وَلِهَذَا تَغْلُظُ فِيهِ الدِّيَةُ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَكَذَا فِي حَقِّ مَنْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ أَوْ قَتَلَ ذَا مَحْرَم . **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَعْظَمُ خَطِيئَةً وَوِزْرًا مِنَ الظُّلْمِ فِيمَا سِوَاهَا . وَإِنْ كَانَ الظُّلْمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَظِيمًا ، وَلَكِنَّ اللهَ يُعَظِّمُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، وَقَالَ : إِنَّ اللهَ اصْطَفَى صَفَايَا مِنْ خَلْقِهِ ، اصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ، وَمِنَ النَّاسِ رُسُلًا ، وَاصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ ذِكْرَهُ ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَرْضِ الْمَسَاجِدَ ، وَاصْطَفَى مِنَ الشُّهُورِ رَمَضَانَ وَالْأَشْهُرَ الْحُرُمَ ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ،

وَاصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، فَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَ اللهُ . فَإِنَّمَا يُعَظِّمُ الْأُمُورَ مَا عَظَّمَهَا اللهُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَجْعَلُوا حَرَامَهَا حَلَالًا وَلَا حَلَالَهَا حَرَامًا ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الشِّرْكِ ، فَإِنَّمَا النَّسِيءُ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْ ذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ أَيْ : جَمِيعُهُمْ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

هَذَا مِمَّا ذَمَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللهِ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَةِ ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللهُ ، فَإِنَّهُمْ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَالُوا بِهِ مُدَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمَانِعِ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، فَكَانُوا قَدْ أَحْدَثُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلَ الْمُحَرَّمِ وَتَأْخِيرَهُ إِلَى صَفَرٍ ، فَيُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَيُحَرِّمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيرِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ قَالَ : النَّسِيءُ : أَنَّ جُنَادَةَ بْنَ عَوْفِ بْنِ أُمَيَّةَ الْكِنَانِيَّ كَانَ يُوَافِي الْمَوْسِمَ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا ثُمَامَةَ ، فَيُنَادِي أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لَا يُحَابُ وَلَا يُعَابُ ، أَلَا وَإِنَّ صَفَرَ الْعَامِ الْأَوَّلِ الْعَامَ حَلَالٌ ، فَيُحِلُّهُ لِلنَّاسِ ، فَيُحَرِّمُ صَفَرًا عَامًا وَيُحَرِّمُ الْمُحَرَّمَ عَامًا ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ يَقُولُ : يَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَ عَامًا ، وَعَامًا يُحَرِّمُونَهُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحَمَارَّةِ الْقَيْظِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أَيْ : تَكَاسَلْتُمْ وَمِلْتُمْ إِلَى الْمُقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْخَفْضِ ، وَطِيبِ الثِّمَارِ ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أَيْ : مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا ؟ ، أَرِضًى مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ ؟.

ثُمَّ زَهَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، وَرَغَّبَ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كَمَا أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فِهْرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعُ ؟** »[1] وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ . فَالدُّنْيَا مَا مَضَى مِنْهَا وَمَا بَقِيَ مِنْهَا عِنْدَ اللهِ قَلِيلٌ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ الْوَفَاةُ قَالَ : اِئْتُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أُكَفَّنُ فِيهِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَمَا لِي مِنْ كَبِيرِ مَا أُخَلِّفُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا ؟ ثُمَّ وَلَّى ظَهْرَهُ فَبَكَى وَهُوَ يَقُولُ : أُفٍّ لَكِ مِنْ دَارٍ ، إِنْ كَانَ كَثِيرُكِ لَقَلِيلٌ ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكِ لَقَصِيرٌ ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكِ لَفِي غُرُورٍ .

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ : ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : اسْتَنْفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَثَاقَلُوا عَنْهُ ، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ ، فَكَانَ عَذَابُهُمْ ﴿ وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ أَيْ : لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨]

---

(١) مسلم (حديث ٢٨٥٨) .

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ أَيْ : وَلَا تَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا بِتَوَلِّيكُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَنُكُولِكُمْ وَتَثَاقُلِكُمْ عَنْهُ ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : قَادِرٌ عَلَى الِانْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أَيْ : تَنْصُرُوا رَسُولَهُ ، فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهُ وَحَافِظُهُ ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أَيْ : عَامَ الْهِجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا صَحِبَهُ صَدِيقُهُ وَصِدِّيقُهُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ ، فَلَجَأَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَرْجِعَ الطُّلَّبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ، ثُمَّ يَسِيرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَجْزَعُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيَخْلُصَ إِلَى الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْهُمْ أَذًى ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيَقُولُ : ((**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؟**)) . عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ قَالَ : فَقَالَ : ((**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**))(١) ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : تَأْيِيدُهُ وَنَصْرُهُ عَلَيْهِ ، أَيْ : عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، **وَقِيلَ** : عَلَى أَبِي بَكْرٍ . **قَالُوا** : لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ تَزَلْ مَعَهُ سَكِينَةٌ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي تَجَدُّدُ سَكِينَةٍ خَاصَّةٍ بِتِلْكَ الْحَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أَيْ : الْمَلَائِكَةُ ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا : الشِّرْكَ ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ

(١) البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله ؟ فَقَالَ : ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ ، مَنِيعُ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِبَابِهِ ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخِطَابِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي الضُّحَى مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ : هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةَ . أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوك ، لِقِتَالِ أَعْدَاءِ الله مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَحَتَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، فَقَالَ : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : كُهُولًا وَشُبَّانًا . **وَقِيلَ** : شُبَّانًا وَشُيُوخًا وَأَغْنِيَاءَ وَمَسَاكِينَ ، **وَقِيلَ** : مَشَاغِيلَ وَغَيْرَ مَشَاغِيل ، **وَقِيلَ** : انْفِرُوا نِشَاطًا وَغَيْرَ نِشَاطٍ . **وَقِيلَ** : فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ . **وَقِيلَ** : غَنِيًّا وَفَقِيرًا وَقَوِيًّا وَضَعِيفًا ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْعُمُومِ فِي الْآيَةِ وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

ثُمَّ رَغَّبَ تَعَالَى فِي النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ، وَبَذْلِ الْمُهَجِ فِي مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِأَنَّكُمْ تَغْرَمُونَ فِي النَّفَقَةِ قَلِيلًا ، فَيُغْنِمَكُمُ اللهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**تَكَفَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**))[2] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

---

(١) البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) .
(٢) البخاري (٧٤٦٣) ، ومسلم (١٨٧٦) .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَبِّخًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، وَقَعَدُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ ، مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُو أَعْذَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : غَنِيمَةً قَرِيبَةً ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أَيْ : قَرِيبًا أَيْضًا ﴿ لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ أَيْ : لَكَانُوا جَاءُوا مَعَك لِذَلِكَ ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أَيْ : الْمَسَافَةُ إِلَى الشَّامِ ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أَيْ : لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أَيْ : لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْذَارٌ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ : هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ الَّتِي فِي سُورَةِ النُّورِ ، فَرَخَّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : ٦٢] . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أَيْ : فِي إِبْدَاءِ الْأَعْذَارِ ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لَمَّا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ ، لِتَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِظْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ . وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُعُودِ عَنِ

الْغَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أَيْ : فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ لأَنَّ أُولَئِكَ يَرَوْنَ الْجِهَادَ قُرْبَةً ، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَثَلُوا ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أَيْ : فِي الْقُعُودِ مِمَّنْ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ أَيْ : لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : شَكَّتْ فِي صِحَّةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أَيْ : يَتَحَيَّرُونَ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ ﴾ أَيْ : مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ ﴿ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ أَيْ : لَكَانُوا تَأَهَّبُوا لَهُ ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أَيْ : أَبْغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدَرًا ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أَيْ : أَخَّرَهُمْ ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ أَيْ : قَدَرًا .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَتِهِ لِخُرُوجِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أَيْ : لأَنَّهُمْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أَيْ : وَلَأَسْرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : مُطِيعُونَ لَهُمْ وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ ، فَيُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ شَرٍّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادٍ كَبِيرٍ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : عُيُونٌ يَسْمَعُونَ لَهُمُ الْأَخْبَارَ وَيَنْقُلُونَهَا إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا لَا يَبْقَى لَهُ اخْتِصَاصٌ بِخُرُوجِهِمْ مَعَهُمْ ، بَلْ هَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ فِي الْمُنَاسَبَةِ بِالسِّيَاقِ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَدَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ ، وَمَا يَكُونُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ أَيْ : لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ ، وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ ، وَخِذْلَانِ دِينِكَ وَإِخْمَادِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ، رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا ، فَلَمَّا نَصَرَهُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُه : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ ، فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَغَاظَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ ٱئْذَن لِّي ﴾ فِي الْقُعُودِ ﴿ وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ أَيْ : قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا . رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ مُرْسَلَةٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ فِي جَهَازِهِ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَخِي بَنِي سَلَمَةَ : « **هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامَ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؟** » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ تَأْذَنُ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَرَفَتْ قَوْمِي مَا رَجُلٌ أَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي ، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ

نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَنْهُنَّ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ : « قَدْ أَذِنْتُ لَكَ » . فَفِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ ، فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِتَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَالرَّغْبَةُ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ أَعْظَمُ . وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سَلِمَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا مَحِيصَ وَلَا مَهْرَبَ .

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ ، لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَيْ : فَتْحٍ وَنَصْرٍ وَظَفَرٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : قَدِ احْتَرَزْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ فَأَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ التَّامَّةِ فَقَالَ : ﴿ قُل ﴾ أَيْ : لَهُمْ ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ وَقَدَرِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أَيْ : سَيِّدُنَا وَمَلْجَؤُنَا ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ أَيْ : تَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ شَهَادَةٌ أَوْ ظَفَرٌ بِكُمْ . ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أَيْ : نَنْتَظِرُ بِكُمْ ، ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أَيْ : نَنْتَظِرُ بِكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ، إِمَّا أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِقَارِعَةٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا بِسَبْيٍ أَوْ بِقَتْلٍ ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ قَصْدٌ صَحِيحٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نَفَقَةً ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ « **إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا** »[1] « **وَإِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا** »[2] . فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] وَقَالَ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : بِزَكَاتِهَا وَالنَّفَقَةُ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ تَقْدِيرُهُ : فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ .

---

(١) البخاري (حديث ٤٣) ، ومسلم (٧٨٢) .
(٢) مسلم (حديث ١٠١٥) .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ الْحَسَنِ وَهُوَ الْقَوْلُ الْقَوِيُّ الْحَسَنُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ: وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ حِينَ يُمِيتُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، لِيَكُونَ ذَٰلِكَ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشَدَّ لِعَذَابِهِمْ. عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَٰلِكَ، وَهَٰذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الِاسْتِدْرَاجِ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ.

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلَعِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أَيْ: فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أَيْ: فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلِفِ. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أَيْ: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ، وَحِرْزًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وَهُوَ السَّرَبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفَقُ، ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامٌ، وَلِهَٰذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحُزْنٍ وَغَمٍّ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرٍ وَرِفْعَةٍ، فَلِهَٰذَا كُلَّمَا سُرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَهُمْ ذَٰلِكَ، فَهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أَيْ: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أَيْ: يَعِيبُ عَلَيْكَ ﴿ فِى ﴾ قَسْمِ ﴿ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إِذَا فَرَّقْتَهَا، وَيَتَّهِمُكَ فِي ذَٰلِكَ وَهُمُ الْمُتَّهَمُونَ الْمَأْبُونُونَ، وَهُمْ مَعَ هَٰذَا لَا يُنْكِرُونَ لِلدِّينِ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ؛ وَلِهَٰذَا إِنْ أُعْطُوا مِنَ الزَّكَاةِ رَضُوا ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أَيْ: يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ يَقُولُ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعَنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِأَعْرَابِيَّةٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ ذَهَبًا وَفِضَّةً ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ لَئِنْ كَانَ اللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْدِلَ مَا عَدَلْتَ ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ : « **وَيْلَكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي ؟** » ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللهِ : « **احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ** »[1] ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُعْطِيكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْنَعُكُمُوهُ ، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ** »[2] .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[3] فِي قِصَّةِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ ، فَقَالَ لَهُ : اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ . فَقَالَ : « **لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ** » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ رَآهُ مُقَفِّيًا : « **إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ** » وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَدَبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا ، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا بِمَا آتَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ فِي التَّوْفِيقِ لِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، وَتَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ ، وَالِاقْتِفَاءِ بِآثَارِهِ .

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

---

(١) انظر البخاري (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤) .
(٢) أخرجه مسلم (١٠٣٧) .
(٣) البخاري (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤) .

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اعْتِرَاضَ الْمُنَافِقِينَ الْجَهَلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْزِهِمْ إِيَّاهُ فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ ، بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَكِلْ قَسْمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرَهُ ، فَجَزَّأَهَا لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ . **وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ : هَلْ يَجِبُ اسْتِيعَابُ الدَّفْعِ لَهَا أَوْ إِلَى مَا أَمْكَنَ مِنْهَا ؟** عَلَى قَوْلَيْنِ ، **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُ يَجِبُ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَةٍ . **وَالثَّانِي** : أَنَّهُ لَا يَجِبُ اسْتِيعَابُهَا بَلْ يَجُوزُ الدَّفْعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهَا ، وَيُعْطَى جَمِيعَ الصَّدَقَةِ مَعَ وُجُودِ الْبَاقِينَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْفُقَرَاءَ هَهُنَا عَلَى الْبَقِيَّةِ ، لِأَنَّهُمْ أَحْوَجُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَلِشِدَّةِ فَاقَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ .

وَلْنَذْكُرْ أَحَادِيثَ تَتَعَلَّقُ بِكُلِّ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ ، فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ : فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**))[1] .

وَعَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَلَّبَ فِيهِمَا الْبَصَرَ فَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ : ((**إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ**))[2] .

وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ : فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**)) قَالُوا : فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : ((**الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**))[3] .

وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا : **فَهُمُ الْجُبَاةُ وَالسُّعَاةُ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ** وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرِبَاءِ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ ، لِمَا ثَبَتَ فِي

(١) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه أبو داود (١٦٣٤) وله طرق ، ويشهد له ما بعده .
(٢) صحيح لشواهده : أخرجه أبو داود (١٦٣٣) .
(٣) البخاري (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩) .

صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ انْطَلَقَ هُوَ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ يَسْأَلَانِ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيَسْتَعْمِلَهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ**»[1].

وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى: لِيُسْلِمَ كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ ابْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا. عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، **ومِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِيَحْسُنَ إِسْلَامُهُ وَيَثْبُتَ قَلْبُهُ كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلَقَاءِ وَأَشْرَافِهِمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَقَالَ: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[2]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[3] أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا مِنَ الْيَمَنِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ، وَزَيْدِ الْخَيْرِ وَقَالَ: «**أَتَأَلَّفُهُمْ**». **وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نُظَرَائِهِ، **وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى**: لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ مِمَّنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْ حَوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَمَحَلُّ تَفْصِيلِ هَذَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

وَأَمَّا الرِّقَابُ: رُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّهُمُ الْمُكَاتَبُونَ، **وَقَالَ آخَرُونَ**: لَا بَأْسَ أَنْ تُعْتَقَ الرَّقَبَةُ مِنَ الزَّكَاةِ. أَيْ: أَنَّ الرِّقَابَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ الْمُكَاتَبُ، أَوْ يَشْتَرِي رَقَبَةً فَيُعْتِقَهَا اسْتِقْلَالًا، وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِعْتَاقِ وَفَكِّ الرَّقَبَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يُعْتِقُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ مُعْتِقِهَا حَتَّى الْفَرْجَ بِالْفَرْجِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩]، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ**»[4].

---

(١) مسلم (١٠٧٢).
(٢) البخاري (١٤٧٨).
(٣) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).
(٤) حسن: أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، وقال هذا حديث حسن، وأخرجه أيضا جمع من أهل العلم.

وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ : فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً أَوْ ضَمِنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ ، فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ أَوْ غَرِمَ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ فَهَؤُلَاءِ يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا ، فَقَالَ : أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : « يَا قَبِيصَةُ ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ : سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا »[1].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ » فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِغُرَمَائِهِ : « خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ »[2].

وَأَمَّا ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : فَمِنْهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيوَانِ ، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْحَسَنِ وَإِسْحَاقَ : وَالْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ لِلْحَدِيثِ ، وَكَذَلِكَ ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِيمَنْ أَرَادَ إِنْشَاءَ سَفَرٍ مِنْ بَلَدِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ فَيُعْطَى مِنْ مَالِ الزَّكَاةِ كِفَايَتَهُ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَفَرْضِهِ وَقِسْمَتِهِ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَشْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ

(١) مسلم (حديث ١٠٤٤) .
(٢) مسلم (١٥٥٦) .

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أَيْ : مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَّقَهُ وَمَنْ حَدَّثَهُ فِينَا صَدَّقَهُ ، فَإِذَا جِئْنَاهُ وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَّقَنَا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ حَادَّ اللهَ ﷻ أَيْ : شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ ، وَكَانَ فِي حَدٍّ وَاللهُ وَرَسُولُهُ فِي حَدٍّ ، ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أَيْ : مُهَانًا مُعَذَّبًا وَ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : وَهَذَا هُوَ الذُّلُّ الْعَظِيمُ ، وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ .

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : عَسَى اللهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة : ٨] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ سَيُنَزِّلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَمْ حَسِبَ

ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد : ٢٩-٣٠] ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ : كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَة . الْفَاضِحَةُ ؛ فَاضِحَةُ الْمُنَافِقِينَ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبُ بُطُونًا ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا ، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ . فَقَالَ رَجُلٌ فِي المَسْجِدِ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّك مُنَافِقٌ ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ . فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ : أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الْآيَةَ(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ أَيْ : لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَذَابِ بَعْضِكُمْ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ .

ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَانَ هَؤُلَاءِ ﴿ يَأْمُرُونَ

---

(١) إسناده حسن

بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الله ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : نَسُوا ذِكْرَ الله ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أَيْ : عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ نَسِيَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية : ٣٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ . ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أَيْ : عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي ذُكِرَ عَنْهُمْ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ هُمْ وَالْكُفَّارُ ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ أَيْ : كِفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : طَرَدَهُمْ أَوْ بَعَّدَهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ، وَأَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلَادًا .

وقَوْلُهُ : ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : بدينهم . ﴿ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ أَيْ : فِي الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أَيْ : بَطَلَتْ مَسَاعِيهِمْ ، فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا ، لأَنَّهَا فَاسِدَةٌ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُل لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ . ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شُبِّهْنَا بِهِمْ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ(١) : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، وَبَاعًا بِبَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ

(١) صحيح لغيره : وقد يقدم .

لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله، أَهْلُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: «فَمَنْ ؟».

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ: أَلَمْ تُخْبَرُوا خَبَرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ آمَنَ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام ﴿ وَعَادٍ ﴾ كَيْفَ أُهْلِكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، لَمَّا كَذَّبُوا هُودًا عليه السلام ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كَيْفَ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا عليه السلام وَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ كَيْفَ نَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكَ مَلِكَهُمُ النُّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ بْنِ كُوشٍ الْكَنْعَانِيَّ - لَعَنَهُ اللهُ - ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السلام وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ قَوْمُ لُوطٍ، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾[النجم: ٥٣] أَيْ: الْأُمَّةُ الْمُؤْتَفِكَةُ، وَقِيلَ: أُمُّ قُرَاهُمْ وَهِيَ سَدُومُ، وَالْغَرَضُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللهِ لُوطًا عليه السلام وَإِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ: بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أَيْ: بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ، لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ: بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالدَّمَارِ.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الذَّمِيمَةَ عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ،

فَقَالَ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضَدُونَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ ((**الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدّ بَعْضه بَعْضًا**))[١] وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ . وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : ((**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَر**))[٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : يُطِيعُونَ اللهَ وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْقِهِ ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَمَرَ ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرَ ﴿ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : يُعِزُّ مَنْ أَطَاعَهُ ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي قِسْمَتِهِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لِهَؤُلَاءِ ، وَتَخْصِيصِهِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أَيْ : حَسَنَةَ الْبِنَاءِ ، طَيِّبَةَ الْقَرَارِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٣] : عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ وَآنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**)) .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولُهَا**

---

(١) البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .
(٢) البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .
(٣) البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) .

سِتُّونَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا »[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ[٢] : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نُخْبِرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ».

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ »[٣] ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَكَانٌ يُقَالُ لَهُ : « الْوَسِيلَة » لِقُرْبِهِ مِنَ الْعَرْشِ ، وَهُوَ مَسْكَنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْجَنَّةِ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : رِضَا اللهِ عَنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ! فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا ! وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[٥].

---

(١) البخاري (٤٨٧٩) ، ومسلم (٢٨٣٨) .
(٢) البخاري (٢٧٩٠) .
(٣) البخاري (٦٥٥٥) ، ومسلم (٢٨٣٠) .
(٤) مسلم (حديث ٣٨٤) .
(٥) البخاري (٦٥٤٩) ، ومسلم (٢٨٢٩) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يُخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾. عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْن الفَضْلِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ : حَزِنْتُ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِالْحَرَّةِ مِنْ قَوْمِي فَكَتَبَ إِلَيَّ زَيْدُ بْنُ أَرْقَم وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزْنِي يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَار** » ، وَشَكَّ ابْن الْفَضْلِ فِي أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ . قَالَ ابْنُ الْفَضْلِ : فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقَالَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: « **أَوْفَى الله لَهُ بِأُذُنِهِ** » . قَالَ وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِن الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ وَرَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ لَئِنْ كَانَ صَادِقًا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ : فَهُوَ وَالله صَادِقٌ وَلَأَنْتَ شَرٌّ مِن الْحِمَارِ . ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَجَحَدَهُ الْقَائِلُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَصْدِيقًا لِزَيْدٍ يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الْآيَةُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)] فِي صَحِيحِهِ إِلَى قَوْلِهِ : « **هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ** » ، وَلَعَلَّ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ .

وَالْمَشْهُورُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَلَعَلَّ الرَّاوِي وَهَمَ فِي ذِكْرِ الْآيَةِ وَأَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ غَيْرَهَا فَذَكَرَهَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَرَوَى مُسْلِمٌ[(٢)] عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ : كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ وَبَيْنَ حُذَيْفَةَ

(١) البخاري (٤٩٠٦) ، ومسلم (٢٥٠٦) .
(٢) مسلم (٢٧٧٩) .

بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ ؟ قَالَ : فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ : أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ ، فَقَالَ : كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ ، وَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَعَذَرَ ثَلَاثَةً ، قَالُوا : مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ، وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّةٍ فَمَشَى فَقَالَ : « **إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ فَلَا يَسْبِقُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ** » فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ فَلَعَنَهُمْ يَوْمَئِذٍ . وَعَنْ حُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ : ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ تَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ** »(١). وَلِهَذَا كَانَ حُذَيْفَةُ يُقَالُ لَهُ صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، أَيْ مِنْ تَعْيِينِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَهُمْ هَؤُلَاءِ ، قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا لِلرَّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيُمْنِ سَعَادَتِهِ ، وَلَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ السَّعَادَةُ لَهَدَاهُمُ اللهُ لِمَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺ لِلْأَنْصَارِ : « **أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي** » كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ(٢). وَهَذِهِ الصِّيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا ذَنْبَ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [البروج : ٨] ، وَقَوْلُهُ ﷺ : « **مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ** »(٣) ثُمَّ دَعَاهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ أَيْ : وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِهِمْ ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِالْقَتْلِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ ﴿ وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ أَيْ : بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْهَوَانِ وَالصَّغَارِ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يُسْعِدُهُمْ وَلَا يُنْجِدُهُمْ ، وَلَا يُحَصِّلُ لَهُمْ خَيْرًا ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا .

---

(١) هي عند مسلم أيضا (٢٧٧٩) لكنها على الشك .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) البخاري (١٤٦٨) ، ومسلم (٩٨٣) .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللهَ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، لَئِنْ أَغْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَالِهِ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَمَا وَفَّى بِمَا قَالَ ، وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى ، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعُ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ أَعْقَبَهُمُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَكَذِبِهِمْ ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ الْآيَةُ . يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَالٌ تَصَدَّقُوا مِنْهَا وَشَكَرُوا عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، أَيْ : يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ ، وَكُلَّ سِرٍّ وَنَجْوَى ، وَيَعْلَمُ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَيْبِهِمْ ، وَلَمْزِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ ، إِنْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيلٍ قَالُوا : هَذَا مُرَاءٍ ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ قَالُوا : إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . عَنْ

(١) البخاري (حديث ٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

أَبِي مَسْعُودٍ[1] ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ ، فَقَالُوا : مُرَاءٍ ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا : إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا . فَنَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ ، لأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ ، اِنْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا ، لأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلاسْتِغْفَارِ ، وَأَنَّهُ لَو اسْتَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّة فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَّةِ الِاسْتِغْفَار لَهُمْ ، لأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَسَالِيبِ كَلَامِهَا تَذْكُرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةِ كَلَامِهَا ، وَلَا تُرِيدُ التَّحْدِيدَ بِهَا ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا .

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ ﴾ مَعَهُ ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ ﴾ أَيْ : بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ عِنْدَ طِيبِ الظِّلَالِ وَالثِّمَارِ ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ لَا تَنفِرُوا۟

---

(١) البخاري (١٤١٥) ، ومسلم (١٠١٨) .

فِي ٱلْحَرِّ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِسَبَبِ مُخَالَفَتِكُمْ ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مِمَّا فَرَرْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرِّ ، بَلْ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ** » ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً فَقَالَ : « **إنها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا** »(١).

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا** »(٢) . وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج : ١٥- ١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ١٩- ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] ، **وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ الله فِي الْحَرِّ ؛ لِيَتَّقُوا بِهِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافُ هَذَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : رَدَّكَ اللهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ

(١) البخاري (٣٢٦٥) ، ومسلم (٢٨٤٣) .
(٢) مسلم (٢١٣) ، وانظر البخاري (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) .

﴿ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أَيْ : مَعَكَ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : تَعْزِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَةً ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فَإِنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا ، كَمَا أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا ، كَقَوْلِهِ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ قيل : أَيْ : الرِّجَالُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغُزَاةِ .

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ ، وَأَنْ لَا يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ أَوْ يَدْعُوَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا عَلَيْهِ ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ عُرِفَ نِفَاقُهُ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ . فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ** ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ **وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ** » قَالَ : إِنَّهُ مُنَافِقٌ . قَالَ : فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ آيَةَ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾(١).

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ(٢) عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَفْسِهِ أَيْضًا بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا ، فَأَخْرَجَ أَحْمَدُ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ

---

(١) البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٧٧٤) .
(٢) انظر ما سيأتي من تعليق ،وانظر البخاري (٤٦٧٢) .

أُبَيٍّ دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ ، تَحَوَّلْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي صَدْرِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَعَلَى عَدُوِّ اللهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ الْقَائِلِ يَوْمَ كَذَا :كَذَا وَكَذَا - يُعَدِّد أَيَّامَهُ - ؟ قَالَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَبَسَّمُ ، حَتَّى إِذَا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ : ((**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَر ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ قَدْ قِيلَ لِي** : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . **لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ**)) ، قَالَ : ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ : وَمَشَى مَعَهُ وَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ ، حَتَّى فَرَغَ مِنْهُ ، قَالَ : فَعَجِبْتُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم . قَالَ فَوَاللهِ مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ الْآيَةُ . فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ ﷻ .

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فَذَكَرَ مِثْلَهُ(١) ، وَقَالَ : ((**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَر**)) فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ : ((**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**)) قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ انْصَرَفَ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ الْآيَةُ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : أَتَى النَّبِيّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَمَا أُدْخِلَ فِي قَبْرِهِ ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ ، وَوُضِعَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَه ، وَاللهُ أَعْلَمُ(٢).

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّمَا كَسَاهُ قَمِيصَهُ لِأَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا قَدِمَ الْعَبَّاسُ طُلِبَ لَهُ قَمِيصٌ ، فَلَمْ يُوجَدْ عَلَى تَفْصِيلِهِ إِلَّا ثَوْبَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ لِأَنَّهُ كَانَ ضَخْمًا طَوِيلًا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُكَافَأَةً لَهُ فَاللهُ أَعْلَمُ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَيْهِ ، لَا يُصَلِّي عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَلَا يَقُومُ عَلَى قَبْرِهِ .

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دُعِيَ إِلَى جِنَازَةٍ سَأَلَ عَنْهَا ، فَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا قَامَ فَصَلَّى عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا غَيْرُ ذَلِكَ قَالَ لِأَهْلِهَا : ((**شَأْنُكُمْ بِهَا**)) وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ(٣).

---

(١) البخاري (٤٦٧١) .

(٢) البخاري (٥٧٩٥) .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩) ونحوه عند البخاري (٢٢٨٩) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ .

وَلَمَّا نَهَى اللهُ ﷻ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ لِلاسْتِغْفَارِ لَهُمْ ، كَانَ هَذَا الصَّنِيعُ مِنْ أَكْبَرِ الْقُرُبَاتِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَشُرِعَ ذَلِكَ ، وَفِي فِعْلِهِ الْأَجْرُ الْجَزِيلُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ(١) ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَنْ شَهِدَ الْجِنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ** » قِيلَ : وَمَا الْقِيرَاطَانِ ؟ قَالَ : « **أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ** »(٢) وَأَمَّا الْقِيَامُ عِنْدَ قَبْرِ الْمُؤْمِنِ إِذَا مَاتَ ، فَعَنْ عُثْمَانَ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الرَّجُلِ وَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « **اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ** »(٣) .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ(٤) ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا وَذَامًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ ، النَّاكِلِينَ عَنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَوُجُودِ السَّعَةِ وَالطَّوْلِ ، وَاسْتَأْذَنُوا الرَّسُولَ فِي الْقُعُودِ وَقَالُوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَارِ وَالْقُعُودِ فِي الْبَلَدِ مَعَ النِّسَاءِ ، وَهُنَّ الْخَوَالِفُ بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ ، فَإِذَا وَقَعَ الْحَرْبُ كَانُوا أَجْبَنَ النَّاسِ ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ كَلَامًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ

---

(١) البخاري (١٣٢٥) ، ومسلم (٩٤٥) .
(٢) هذه الزيادة عند مسلم في طرق حديث (٩٤٥) .
(٣) حسن : أخرجه أبو داود (٣/ ٥٥٠) .
(٤) راجع تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة الكريمة .

سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب : ١٩] أَيْ : عَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْكَلَامِ الْحَادِّ الْقَوِيِّ فِي الْأَمْنِ ، وَفِي الْحَرْبِ أَجْبَنُ شَيْءٍ ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً وَفِي الْحَرْبِ أَشْبَاهُ النِّسَاءِ الْعَوَارِكِ ؟

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فَيَجْتَنِبُوهُ .

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذَنْبَ الْمُنَافِقِينَ ، وَبَيَّنَ ثَنَاءَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ وَقَالَ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ ذَوِي الْأَعْذَارِ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ ، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أَيْ : وَقَعَدَ آخَرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

عَنِ المَجِيءِ لِلاعْتِذَارِ ، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الْأَعْذَارَ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا عَنِ الْقِتَالِ ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّخْصِ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ ، وَهُوَ : الضَّعْفُ فِي التَّرْكِيبِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْجِلَادُ فِي الْجِهَادِ ، وَمِنْهُ الْعَمَى وَالْعَرَجُ وَنَحْوُهُمَا ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِضٌ بِسَبَبِ مَرَضٍ عَنَّ لَهُ فِي بَدَنِهِ شَغَلَهُ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّجْهِيزِ لِلْحَرْبِ ، فَلَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ حَرَجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ قُعُودِهِمْ ، وَلَمْ يُرْجِفُوا بِالنَّاسِ وَلَمْ يُثَبِّطُوهُمْ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا ، مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا ، وَلَا سِرْتُمْ سَيْرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ**)) قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ : ((**نَعَمْ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**)) .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**))[2].

ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلَامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُودِ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، وَأَنَّبَهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاءِ الْخَوَالِفِ فِي الرِّحَالِ ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) البخاري (حديث ٢٨٣٩) ، ونحوه عند مسلم (١٩١١) من حديث جابر ﷺ مرفوعًا .

(٢) مسلم (١٩١١) .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ: لَنْ نُصَدِّقَكُمْ ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أَيْ: قَدْ أَعْلَمَنَا اللهُ أَحْوَالَكُمْ ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أَيْ: سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: فَيُخْبِرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ فَلَا تُؤَنِّبُوهُمْ ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ احْتِقَارًا لَهُمْ ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أَيْ: خُبَثَاءُ نَجِسٌ بَوَاطِنُهُمْ وَاعْتِقَادَاتُهُمْ ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ فِي آخِرَتِهِمْ ﴿ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ: مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ بِحَلِفِهِمْ لَهُمْ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَيْ: الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْفِسْقَ هُوَ: الْخُرُوجُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْفَأْرَةُ فُوَيْسِقَةً: لِخُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ، وَيُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ

ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الأَعْرَابِ كُفَّارًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِين ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ أَعْظَمُ مَنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدّ ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أَيْ أَحْرَى ﴿ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ وَلَمَّا كَانَتِ الْغِلْظَةُ وَالجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْبَوَادِي ، لَمْ يَبْعَثِ اللهُ مِنْهُمْ رَسُولًا ، وَإِنَّمَا كَانَت الْبَعْثَةُ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وَلَمَّا أَهْدَى ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ تِلْكَ الْهَدِيَّة لِرَسُولِ الله ﷺ فَرَدَّ عَلَيْهِ أَضْعَافَهَا حَتَّى رَضِيَ قَالَ : « **لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ ، أَوْ ثَقَفِيٍّ ، أَوْ أَنْصَارِيٍّ ، أَوْ دَوْسِيٍّ** »(١). لأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمُدُنَ : مَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَالمَدِينَةَ وَالْيَمَنَ ، فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ ، لِمَا فِي طِبَاعِ الْأَعْرَابِ مِنَ الجَفَاءِ .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَّ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا : أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالُوا : لَكِنَّا وَالله مَا نُقَبِّلُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ** » وَفِي رِوَايَةٍ « **مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْلِمَهُ الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ ، حَكِيمٌ : فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالجَهْلِ ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ** ﴾ [الأنبياء : ٢٣] لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ . وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ أَيْ : فِي سَبِيلِ الله ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أَيْ : غَرَامَةً وَخَسَارَةً ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ أَيْ : يَنْتَظِرُ بِكُمُ الحَوَادِثُ وَالآفَاتُ ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّوْءُ دَائِرٌ عَلَيْهِمْ ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِدُعَـاءِ عِبَادِهِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الخِذْلَانَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ هَذَا هُوَ الْقِسْمُ المَمْدُوحُ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَهُمُ الَّذِينَ

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي (٣٩٤٥ ، ٣٩٤٦) ، وفي سنده خلاف غير ضارٍّ إن شاء الله .

(٢) البخاري (٥٩٩٨) ، ومسلم (٢٣١٧) .

يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْدَ اللهِ ، وَيَبْتَغُونَ دُعَاءَ الرَّسُولِ لَهُمْ ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أَيْ : أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ . **قَالَ الشَّعْبِيُّ** : السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، فَيَا وَيْلَ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ ، وَلَا سِيَّمَا سَيِّدَ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرَهِمْ وَأَفْضَلَهِمْ ، أَعْنِي : الصِّدِّيقَ الْأَكْبَرَ وَالْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ أَبَا بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ ﷺ ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يُعَادُونَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ ، وَيُبْغِضُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ . عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عُقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ ، وَقُلُوبَهُمْ مَنْكُوسَةٌ فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ إِذْ يَسُبُّونَ مَنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ؟ وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ عَمَّنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَيُوَالُونَ مَنْ يُوَالِي اللهُ ، وَيُعَادُونَ مَنْ يُعَادِي اللهَ ، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ ، وَيَقْتَدُونَ وَلَا يَبْتَدُونَ ، وَلِهَذَا هُمْ حِزْبُ اللهِ الْمُفْلِحُونَ وَعِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقِينَ ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ ﴿ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أَيْ : مُرِّنُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ يُقَال : شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ ، وَيُقَالُ : تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى الله ، أَيْ : عَتَا وَتَجَبَّرَ ، ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾[محمد : ٣٠] ؛ لأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا ، لَا أَنَّهُ يَعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى التَّعْيِينِ ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نِفَاقًا ، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً . ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ يَعْنِي : الْقَتْلَ وَالسَّبْيَ ، وَقِيلَ : بِالْجُوعِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، وَقِيلَ : عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابٌ فِي الْقَبْرِ ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ النَّارِ .

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشَكًّا ، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الرَّاحَةِ ، مَعَ إِيمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ ،فَقَالَ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : أَقَرُّوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ أُخَرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ الله وَغُفْرَانِهِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ مُعَيَّنِينَ ، إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُخَلِّطِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ .

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ[1] قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَنَا : « **أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي ، فَانْتَهَيَا بِي إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ : شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ ، فَوَقَعُوا فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ**

(١) البخاري (٤٦٧٤) .

فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ ، وَهَذَا مَنْزِلُكَ ، قَالَا : وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ)) .

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضُهُم الضَّمِيرَ فِي أَمْوَالِهِمْ إِلَى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ وَلِهَذَا اعْتَقَدَ بَعْضُ مَانِعِي الزَّكَاةِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ ﷺ ، وَلِهَذَا احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الْآيَةُ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدَّوْا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، حَتَّى قَالَ الصِّدِّيقُ : وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا - وَفِي رِوَايَةٍ عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى مَنْعِهِ[(١)].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : اُدْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِصَدَقَةِ قَوْمٍ صَلَّى عَلَيْهِمْ ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ : ((**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**))[(٢)]. ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : رَحْمَةٌ لَهُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : وَقَارٌ . ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : لِدُعَائِكَ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْكَ وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ اللَّتَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَحُطُّ الذُّنُوبَ وَيُمَحِّصُهَا وَيَمْحَقُهَا .

---

(١) البخاري (١٤٠٠ ، ١٤٥٦) وفي غير موضع .
(٢) البخاري (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨) .

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ حَلَالٍ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ مِثْلَ أُحُدٍ، كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1].

وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قَالَ **مُجَاهِدٌ**: هَذَا وَعِيدٌ، يَعْنِي مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِرَه، بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ سَتُعْرَضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩]، وَقَالَ: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ١٠]، وَقَدْ يُظْهِرُ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا. **قَالَ الْبُخَارِيُّ**[2]: قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: إِذَا أَعْجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَقُلْ: ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وَعَنْ أَنَسٍ[3] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**».

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

---

(١) البخاري (١٤١٠).
(٢) أورده البخاري معلقا في كتاب التوحيد باب (٤٦).
(٣) رجاله ثقات: وأخرجه أحمد (٣/ ١٢٠).

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، أَيْ : عَنِ التَّوْبَةِ ، وَهُمْ مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ ، قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الدَّعَةِ وَالْحِفْظِ وَطِيبِ الثِّمَارِ وَالظِّلَالِ ، لَا شَكًّا وَنِفَاقًا ، فَكَانَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ، رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي ، كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورُونَ ، فَنَزَلَتْ تَوْبَةُ أُولَئِكَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَأُرْجِيءَ هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الْآتِيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ الآيَةُ . ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : هُمْ تَحْتَ عَفْوِ الله ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَاكَ ، وَلَكِنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ(١) أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهَا رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ يُقَالُ لَهُ : أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ ، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَأَ عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَهُ شَرَفٌ فِي الْخَزْرَجِ كَبِيرٌ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ ، وَصَارَتْ لِلْإِسْلَامِ كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ ، وَأَظْهَرَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ شَرِقَ اللَّعِينُ أَبُو عَامِرٍ بِرِيقِهِ ، وَبَارَزَ

---

(١) لم أقف على سندٍ صحيح بهذا .

بِالْعَدَاوَةِ وَظَاهَرَ بِهَا ، وَخَرَجَ فَارًّا إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ يُمَالِئُهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، وَقَدِمُوا عَامَ أُحُدٍ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ ، وَامْتَحَنَهُمُ اللهُ ﷻ وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

وَكَانَ هَذَا الْفَاسِقُ قَدْ حَفَرَ حَفَائِرَ فِيمَا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأُصِيبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَجُرِحَ وَجْهُهُ ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ الْيُمْنَى السُّفْلَى ، وَشُجَّ رَأْسُهُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَتَقَدَّمَ أَبُو عَامِرٍ فِي أَوَّلِ الْمُبَارَزَةِ إِلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَالَهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَمُوَافَقَتِهِ ، فَلَمَّا عَرَفُوا كَلَامَهُ قَالُوا : لَا أَنْعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ يَا عَدُوَّ اللهِ ، وَنَالُوا مِنْهُ وَسَبُّوهُ فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ دَعَاهُ إِلَى اللهِ قَبْلَ فِرَارِهِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ وَتَمَرَّدَ ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَمُوتَ بَعِيدًا طَرِيدًا فَنَالَتْهُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ أُحُدٍ وَرَأَى أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ فِي ارْتِفَاعٍ وَظُهُورٍ ، ذَهَبَ إِلَى هِرَقْل مَلِكِ الرُّومِ يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَعَدَهُ وَمَنَّاهُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ ، وَكَتَبَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَيَغْلِبُهُ وَيَرُدُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ مَعْقِلًا يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَنْ يَقْدُمُ مِنْ عِنْدِهِ لِأَدَاءِ كُتُبِهِ ، وَيَكُونَ مَرْصَدًا لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَشَرَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ قُبَاءٍ فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ ، وَفَرَغُوا مِنْهُ قَبْلَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى تَبُوك ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ فِيهِ عَلَى تَقْرِيرِهِ وَإِثْبَاتِهِ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ ، فَعَصَمَهُ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ : ((**إِنَّا عَلَى سَفَرٍ ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ**)) فَلَمَّا قَفَلَ ﷺ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوك ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ الْيَوْمِ ، نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الْكُفْرِ ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ مَسْجِد قُبَاءِ الَّذِي أُسِّسَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى . فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ قَبْلَ مَقْدِمِهِ الْمَدِينَةَ .

وَرُوِىَ مِنْ طُرِقٍ مُرْسَلَةٍ : أَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ - يَعْنِي مِنْ تَبُوك - حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ - بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ - وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوك ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِينَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ : « **إِنِّي عَلَى جُنَاحِ سَفَرٍ وَحَالِ شُغْلٍ** » - أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ - « **وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ** » فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ أَتَاهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ ، فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ مَالِكَ بْنَ الدَّخْشَمِ ، أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَمَعْنَ ابْنِ عَدِيٍّ أَوْ أَخَاهُ عَامِرَ بْنَ عَدِيٍّ أَخَا بَنِي عَجْلَانَ ، فَقَالَ : « **انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ** » فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدَّخْشَمِ . فَقَالَ مَالِكٌ لِمَعْنٍ : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكَ بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي ، فَدَخَلَ أَهْلَهُ فَأَخَذَ سَعَفًا مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا ، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتَّى دَخَلَا الْمَسْجِدَ وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ بَنَوْهُ ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : مَا أَرَدْنَا بِبُنْيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرِفْقًا بِالنَّاسِ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَوْا ، وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَكُفْرًا بِالله وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الرَّاهِبُ لَعَنَهُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نَهْيٌ لَهُ ﷺ وَالأُمَّةُ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ ، عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ أَيْ : يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَدًا . ثُمَّ حَثَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِمَسْجِدِ قُبَاءِ الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ بِنَائِهِ عَلَى التَّقْوَى ، وَهِيَ طَاعَةُ الله وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْقِلًا وَمَوْئِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَفِي الصَّحِيحِ(١)

(١) البخاري (١١٩١) ، ومسلم (١٣٩٩) .

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاءٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا .

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُعَلَّى[١] **الْأَنْصَارِيِّ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ : ((**مَا هَذَا الَّذِي أَثْنَى اللهُ عَلَيْكُمْ** : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ ؟)) الْآيَةُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَغْسِلُ الْأَدْبَارَ بِالْمَاءِ . **وَعَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ** : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قَالَ : كَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ . وَقَدْ صَرَّحَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِأَنَّهُ مَسْجِدُ قُبَاء ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[٢] أَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي فِي جَوْفِ الْمَدِينَةِ ، هُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى . وَهَذَا صَحِيحٌ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ هَذَا ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى . **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ** : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي بَيْتٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ؟ قَالَ : فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ قَالَ : ((**هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا**))[٣] ، وَقَدْ قَالَ بِأَنَّهُ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمُؤَسَّسَةِ مِنْ أَوَّلِ بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعِبَادِ الْعَامِلِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، وَالتَّنَزُّهِ عَنْ مُلَابَسَةِ الْقَاذُورَاتِ . **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ إِنَّ الطُّهُورَ بِالْمَاءِ لَحَسَنٌ ، وَلَكِنَّهُمُ الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوبِ ، **وَقَالَ الْأَعْمَشُ** : التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالتَّطَهُّرُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَهْلِ قُبَاء : ((**قَدْ أَثْنَى اللهُ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ** ؟)) ، فَقَالُوا : نَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ[٤].

---

(١)صحيح لشواهده : وإن كان في كل طريق من طرقه مقال ، لكن له شواهد ، وانظر مسند أحمد (٦/ ٣،٦/ ٤٢٢) .

(٢)صحيح : وسيأتي إن شاء الله .

(٣) أخرجه مسلم (١٣٩٨) .

(٤)صحيح لشواهده : وتقدمت الإشارة إليه .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ ، فَإِنَّمَا يَبْنِي هَؤُلَاءِ بُنْيَانَهُمْ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، أَيْ : طَرَفِ حَفِيرَةٍ مُنْثَالَةٍ ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : شَكًّا وَنِفَاقًا ، بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ ، أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، كَمَا أُشْرِبَ عَابِدُو الْعِجْلِ حُبَّهُ ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : بِمَوْتِهِمْ . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي مُجَازَتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، إِذْ بَذَلُوهَا فِي سَبِيلِهِ بِالْجَنَّةِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ ، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعِوَضَ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عَبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ : بَايَعَهُمْ وَاللهِ فَأَغْلَى ثَمَنَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ قَتَلُوا أَوْ قُتِلُوا أَوِ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**وَتَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ ، بِأَنْ**

يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْوَعْدِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الْكِبَارِ ، وَهِيَ : التَّوْرَاةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى ، وَالإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى عِيسَى ، وَالْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢]، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أَيْ : فَلْيَسْتَبْشِرْ مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْدِ ، وَوَفَّى بِهَذَا الْعَهْدِ ، بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هَذَا نَعْتُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا ، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ أَيْ : الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ : الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ .

فَمِنْ أَخَصِّ الْأَقْوَالِ : الْحَمْدُ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ : الصِّيَامُ ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَاذِّ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسِّيَاحَةِ هَهُنَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أَيْ : صَائِمَاتٌ ، وَكَذَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ ، وَهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلْقَ الله ، وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَةِ الله بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وَيَجِبُ تَرْكُهُ ، وَهُوَ حِفْظُ حُدُودِ الله فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ ، عِلْمًا

---

(١) البخاري (٣١٢٣) ، ومسلم (١٨٧٦) .

وَعَمَلًا ، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ وَنُصْحِ الْخَلْقِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأَنَّ الإِيمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ ، وَالسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ لِمَنِ اتَّصَفَ بِهِ .

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : السَّائِحُونَ هُنَا هُمْ : الصَّائِمُونَ ، وَهَذَا أَصَحُّ الأَقْوَالِ وَأَشْهَرُهَا ، **وقِيلَ** : أَنَّ السِّيَاحَةَ : الْجِهَادُ ، **وَقِيلَ** : هُمْ طَلَبَةُ الْعِلْمِ ، **وقَيلَ** : هُمُ الْمُهَاجِرُونَ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السِّيَاحَةِ مَا قَدْ يَفْهَمَهُ بَعْضُ مَنْ يَتَعَبَّدُ بِمُجَرَّدِ السِّيَاحَةِ فِي الأَرْضِ ، وَالتَّفَرُّدُ فِي شَوَاهِقِ الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْبَرَارِي ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْفِتَنِ وَالزَّلَازِلِ فِي الدِّينِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَغَفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ** »[1].

وَقَوْله : ﴿ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : الْقَائِمُونَ بِطَاعَةِ اللهِ ، **وَعَنْهُ رِوَايَةٌ** ﴿ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ** : لِفَرَائِضِ اللهِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ** : الْقَائِمُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ، فَقَالَ : « **أَيْ عَمِّ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** ﷻ » . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَقَالَ : أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ** » فَنَزَلَتْ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

(١) البخاري (حديث ١٩) .

أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قَالَ : وَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1] [القصص : ٥٦]

وَعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ[2] **عَنْ أَبِيهِ قَالَ** : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي سَفَرٍ ، فَنَزَلَ بِنَا وَنَحْنُ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ رَاكِبٍ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَفَدَاهُ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَكَ ؟ قَالَ : ((**إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِي الاسْتِغْفَارِ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ ، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ : نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا لِتُذَكِّرَكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ بَعْدَ ثَلَاثٍ فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَشْرِبَةِ فِي الْأَوْعِيَةِ فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وِعَاءٍ شِئْتُمْ ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . **وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حِينَ يَلْقَى أَبَاهُ وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتَرَةُ وَالْغَبَرَةُ ، فَيَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، إِنِّي كُنْتُ أَعْصِيكَ وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ؟ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدُ ؟ فَيُقَالُ : انْظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ أَيْ : قَدْ مُسِخَ ضَبْعًا ، ثُمَّ يُسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقَى فِي النَّارِ[3].

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ** : الْأَوَّاهُ : الدَّعَّاءُ . **وَقِيلَ** : هُوَ الرَّحِيمُ : أَيْ : بِعِبَادِ اللهِ . **وَقِيلَ** : الْمُوقِنُ . **وَقِيلَ** : التَّوَّابُ . **وَقِيلَ** : الْمُسَبِّحُ ، **وَقِيلَ** : لَا يُحَافِظُ عَلَى سُبْحَةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّاهٌ ، **وَقِيلَ** : الْأَوَّاهُ : الْحَفِيظُ الْوَجِلُ ، يُذْنِبُ الذَّنْبَ سِرًّا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ سِرًّا . **وَقِيلَ** : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ قَالَ : فَقِيهٌ .

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ الدَّعَّاءُ ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ عَنْ

(١) صحيح : انظر مسند أحمد (٥/ ٤٣٣) ، والبخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (٢٤) .
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥) ، وانظر مسلم (٩٧٦) .
(٣) انظر البخاري (٣٣٥٠) .

مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاه ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ كَثِيرُ الدُّعَاءِ ، حَلِيمًا عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَالَهُ مَكْرُوهًا ، وَلِهَذَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ مَعَ شِدَّةِ أَذَاهُ لَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦ - ٤٧] فَحَلُمَ عَنْهُ مَعَ أَذَاهُ لَهُ ، وَدَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ الْعَادِلِ : إِنَّهُ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧] . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : وَمَا كَانَ اللهُ لِيَقْضِيَ عَلَيْكُمْ فِي اسْتِغْفَارِكُمْ لِمَوْتَاكُمُ الْمُشْرِكِينَ بِالضَّلَالِ ، بَعْدَ إِذْ رَزَقَكُمُ الْهِدَايَةَ وَوَفَّقَكُمْ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَتَتْرُكُوا ، فَأَمَّا قَبْلَ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ كَرَاهَةَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ، فَلَمْ تُضَيِّعُوا نَهْيَهُ إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْكُمُ عَلَيْكُمْ بِالضَّلَالِ ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا يَكُونَانِ مِنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ وَلَمْ يُنْهَ فَغَيْرُ كَائِنٍ مُطِيعًا كَانَ أَوْ عَاصِيًا فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : هَذَا تَحْرِيضٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ ، وَأَنَّهُمْ يَثِقُونَ بِنَصْرِ اللهِ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ .

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي شَأْنِ الْعُسْرَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ ، وَحَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ ، وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْصِرَ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ ، وَيَجْعَلَ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ : يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا فَقَالَ : ((تُحِبُّ ذَلِكَ ؟)) قَالَ : نَعَمْ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى سَالَتِ السَّمَاءُ ، فَأَهْطَلَتْ ثُمَّ سَكَنَتْ ، فَمَلَئُوا مَا مَعَهُمْ ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتِ الْعَسْكَرَ(١).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّفَقَةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ ، وَيَشُكُّ فِي دِينِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيَرْتَابُ لِلَّذِي نَالَهُمْ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالشِّدَّةِ فِي سَفَرِهِمْ وَغَزْوِهِمْ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ رَزَقَهُمُ الْإِنَابَةَ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ(٢) يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ

---

(١) إسناده صحيح .

(٢) أحمد (٣/ ٤٥٦) ، والبخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَر ، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ ، لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ – يُرِيدُ الدِّيوَانَ – قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى عَلَيْهِ ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ ﷻ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزَاةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ، فَأَرْجِع وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ، فَأَقُول لِنَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، وَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَمَا فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَلْحَقَهُمْ – وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ – ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ يُحْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ اللهُ ﷻ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوك ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوك « **مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟** » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللهِ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَمَا قُلْتَ ، وَاللهِ يَا رَسُول اللهِ مَا عِلْمنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا . فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ . قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوك حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ

الْكَذِبَ وَأَقُولُ : بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا ؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ وَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ - وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا - فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى حَتَّى جِئْتُهُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : « **تَعَالَ** » فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : « **مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟** » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجَ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثِ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ بِصِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ ﷻ، لا وَاللهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَفْرَغَ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ** » فَقُمْتُ ، وَقَامَ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ ، وَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ . قَالَ : فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، قَالَ : ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ مَعِي هَذَا أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْت : فَمَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا ، لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، قَالَ : فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي ، فَقَالَ : وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي

بُيُوتِهَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ ، فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَأُسَلِّمُ ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، فَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ اللهَ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ قَالَ : فَسَكَتَ ، قَالَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ ، فَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا أَنَا بِنَبَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُول : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِك . قَالَ : فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ، قَالَ : فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي يَقُولُ : يَأْمُرُكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ : فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَل ؟ فَقَالَ : بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا ، قَالَ : وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ ، قَالَ : فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالًا شَيْخٌ ضَعِيفٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « **لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَكِ** » قَالَتْ : وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، قَالَ : فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ، قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا أَدْرِي مَا يَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ

شَابٌّ ، قَالَ : فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينِ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا ، قَالَ : ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الصُّبْحِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى : قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَارِخًا أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَبْشِرْ يَا كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللهِ ﷻ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا ، فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبِشَارَتِهِ لِي ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ أَؤُمُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِتَوْبَةِ اللهِ ، يَقُولُونَ : لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي ، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، قَالَ : فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**» قَالَ : قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ قَالَ : «**لَا ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، حَتَّى يُعْرَفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ قَالَ : «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**» . قَالَ : فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا نَجَّانِي اللهُ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ تَعَالَى ، وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ ﷻ فِيمَا بَقِيَ . قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إِلَى قَوْله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ . قَالَ كَعْبٌ : فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوهُ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ قَالَ : وَكُنَّا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفْنَا عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا بِتَخَلُّفِنَا عَنِ الْغَزْوِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ .

هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ رَوَاهُ صَاحِبَا الصَّحِيحِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِنَحْوِهِ ، فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَبْسَطِهَا ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَقَوْلُهُ : فَسَمَّوْا رَجُلَيْنِ شَهِدَا بَدْرًا ، قِيلَ : إِنَّهُ خَطَأٌ مِنَ الزُّهْرِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ شُهُودُ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ بَدْرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَّجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الضِّيقِ وَالْكَرْبِ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةٍ بِأَيَّامِهَا ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، أَيْ مَعَ سَعَتِهَا فَسُدِّدَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ ، فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتَكَانُوا لِأَمْرِ اللهِ ، وَثَبَتُوا حَتَّى فَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي تَخَلُّفِهِمْ ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، فَعُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةُ ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ عَاقِبَةُ صِدْقِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ وَتَوْبَةً عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ :

أُصْدُقُوا وَالْزَمُوا الصِّدْقَ ، تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ ، وَتَنْجُوا مِنَ المَهَالِكِ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا .

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا**))[1].

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَرَغْبَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَاسَاتِهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ المَشَقَّةِ ، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الأَجْرِ لِأَنَّهُمْ ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وَهُوَ : الْعَطَشُ ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وَهُوَ : التَّعَبُ ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وَهِيَ : المَجَاعَةُ ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أَيْ : يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهِبُ عَدُوَّهُمْ ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ مِنْهُ ظَفَرًا وَغَلَبَةً عَلَيْهِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِمْ ، أَعْمَالًا صَالِحَةً وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[الكهف : ٣٠]

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ

(١) البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ هَؤُلَاءِ الْغُزَاةُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أَيْ : قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أَيْ : فِي السَّيْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هَهُنَا بِهِ لأَنَّ هَذِهِ أَفْعَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ النَّفَقَاتِ الْجَلِيلَةَ وَالْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ[1] : جَاءَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ حَتَّى جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، قَالَ : فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ : ((**مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**)) يُرَدِّدُهَا مِرَارًا .

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ الْآيَةَ : مَا ازْدَادَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ بُعْدًا إِلَّا ازْدَادُوا قُرْبًا مِنَ اللهِ .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ النَّفِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ . قَالَ فَنُسِخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ نَفِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا وَشِرْذِمَةٍ مِنْ

---

(١) إسناده ضعيف : ولمعناه شواهد ، أما الحديث فأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٦٣) وفي فضائل الصحابة (٧٣٨) والترمذي (٣٧٠١) وغيرهم ، وانظر الشواهد لهذا الحديث في كتاب الصحيح المسند من فضائل الصحابة .

كُلِّ قَبِيلَةٍ ، إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ ، لِيَتَفَقَّهَ الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا النَّفِيرِ الْمُعَيَّنِ ، وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ ، وَإِمَّا لِلْجِهَادِ فَإِنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْأَحْيَاءِ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُمْ وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ وَهَجَرَ وَخَيْبَرَ وَحَضْرَمَوْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَدَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّومِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَبَلَغَ تَبُوكَ ثُمَّ رَجَعَ لِأَجْلِ جَهْدِ النَّاسِ وَجَدْبِ الْبِلَادِ وَضِيقِ الْحَالِ ، وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ مِنْ هِجْرَتِهِ عليه السلام .

ثُمَّ اشْتَغَلَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ ، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَعْدَ حَجَّتِهِ بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا ، فَاخْتَارَهُ اللهُ لِمَا عِنْدَهُ ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَزِيرُهُ وَصَدِيقُهُ وَخَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ، وَقَدْ مَالَ الدِّينُ مَيْلَةً كَادَ أَنْ يَنْجَفِلَ ، فَثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ ، فَوَطَّدَ الْقَوَاعِدَ وَثَبَّتَ الدَّعَائِمَ وَرَدَّ شَارِدَ الدِّينِ وَهُوَ رَاغِمٌ ، وَرَدَّ أَهْلَ الرِّدَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخَذَ الزَّكَاةَ مِمَّنْ مَنَعَهَا مِنَ الطُّغَامِ وَبَيَّنَ الْحَقَّ لِمَنْ جَهِلَهُ . وَأَدَّى عَنِ الرَّسُولِ مَا حَمَلَهُ ، ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيزِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الرُّومِ عَبَدَةِ الصُّلْبَانِ ، وَإِلَى الْفُرْسِ عَبَدَةِ النِّيرَانِ ، فَفَتَحَ اللهُ بِبَرَكَةِ سِفَارَتِهِ الْبِلَادَ ، وَأَرْغَمَ أَنْفَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنَ الْعِبَادِ ، وَأَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ، وَكَانَ تَمَامُ الْأَمْرِ عَلَى يَدَيْ وَصِيِّهِ مِنْ بَعْدِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ

الْفَارُوقُ الْأَوَّابُ شَهِيدُ الْمِحْرَابِ أَبِي حَفْص عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ ، فَأَرْغَمَ اللهُ بِهِ أُنوفَ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ ، وَقَمَعَ الطُّغَاةَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْمَمَالِكِ شَرْقًا وَغَرْبًا . وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بُعْدًا وَقُرْبًا . فَفَرَّقَهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ وَالسَّبِيلِ الْمَرْضِيِّ . ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا ، وَقَدْ عَاشَ حَمِيدًا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ شَهِيدُ الدَّارِ فَكَسَى الْإِسْلَامَ رِيَاسَةً حُلَّةً سَابِغَةً ، وَامْتَدَّتِ الدَّعْوَةُ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ حُجَّةَ اللهِ الْبَالِغَةَ . فَظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَعَلَتْ كَلِمَةُ اللهِ وَظَهَرَ دِينُهُ ، وَبَلَغَتِ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ غَايَةَ مَآرِبِهَا ، وَكُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعُتَاةِ الْفُجَّارِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أَيْ : وَلْيَجِدِ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلْظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غَلِيظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ .

وَهَكَذَا الْأَمْرُ لَمَّا كَانَتِ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَالْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، لَمْ يَزَالُوا ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَلَمْ تَزَلِ الْفُتُوحَاتُ كَثِيرَةً ، وَلَمْ تَزَلِ الْأَعْدَاءُ فِي سَفَالٍ وَخَسَارٍ ، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ وَالِاخْتِلَافَاتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ طَمِعَ الْأَعْدَاءُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا فَلَمْ يُمَانَعُوا لِشَغْلِ الْمُلُوكِ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ فَأَخَذُوا مِنَ الْأَطْرَافِ بُلْدَانًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا حَتَّى اسْتَحْوَذُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَللهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، فَكُلَّمَا قَامَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ وَأَطَاعَ أَوَامِرَ اللهِ

وَتَوَكَّلَ عَلَى الله فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ، وَاسْتَرْجَعَ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِحَسَبِهِ وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ وِلَايَةِ الله، وَاللهُ الْمَسْئُولُ الْمَأْمُولُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِي كَلِمَتَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أَيْ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ **وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ. بَلْ قَدْ حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ**. وَقَدْ بَسَطْتُ الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ - رَحِمَهُ الله -. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أَيْ: زَادَتْهُمْ شَكًّا إِلَى شَكِّهِمْ، وَرَيْبًا إِلَى رَيْبِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَقَائِهِمْ، أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، كَمَا أَنَّ سَيِّئَ الْمِزَاجِ لَوْ غُذِّيَ بِمَا غُذِّيَ بِهِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَلَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أَيْ : يُخْتَبَرُونَ ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِم السَّالِفَةِ ، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ . قَالَ مُجَاهِدٌ : يُخْتَبَرُونَ بِالسَّنَةِ وَالْجُوعِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : بِالْغَزْوِ فِي السَّنَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ هَذَا أَيْضًا إِخْبَارٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : تَلَفَّتُوا ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ أَيْ : تَوَلَّوْا عَنِ الْحَقِّ وَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، وَهَذَا حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَثْبُتُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : ٤٩-٥١] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج : ٣٦-٣٧] أَيْ : مَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَتَفَلَّلُونَ عَنْكَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، هُرُوبًا مِنَ الْحَقِّ وَذَهَابًا إِلَى الْبَاطِلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] أَيْ : لَا يَفْهَمُونَ عَنِ اللهِ خِطَابَهُ ، وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا يُرِيدُونَهُ ، بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَنُفُورٍ مِنْهُ ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ .

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ :

مِنْكُمْ وَبِلُغَتِكُمْ ، كَمَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِب ﷺ لِلنَّجَاشِيِّ ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِرَسُولِ كِسْرَى : إِنَّ اللهَ بَعَثَ فِينَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِفَتَهُ ، وَمَدْخَلَهُ ، وَمَخْرَجَهُ ، وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أَيْ : يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءَ الَّذِي يُعْنِتَ أُمَّتَهُ وَيَشُقَّ عَلَيْهَا . ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أَيْ : عَلَى هِدَايَتِكُمْ ، وَوُصُولِ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْأُخْرَوِيِّ إِلَيْكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾[الشعراء : ٢١٥-٢١٧]

وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أَيْ : تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : اللهُ كَافِيَّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[المزمل : ٩]

﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ ، مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَعِلْمِهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدَرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ[1] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - بِجَمْعِ الْقُرْآنِ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَجَمَعَهُ ، وَكَانَ عُمَرُ يَحْضُرهُمْ وَهُمْ يَكْتُبُونَ ذَلِكَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ زَيْدًا قَالَ : فَوَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ بَرَاءَةَ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ تَذَكَّرُوا ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، كَمَا قَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ حِينَ ابْتَدَأَهُمْ بِهَا وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةَ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) انظر البخاري (٤٦٧٩) .

تفسيرُ سورةِ يُونسَ عليه السلام
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ الْمُبِينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الْآيَةُ. يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ إِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْبَشَرِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِينَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾، وَقَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ لِقَوْمِهِمَا: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣]

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهَا: سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ. **وَقِيلَ أَيْضًا**: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾. **وَقِيلَ**: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ؛ صَلَاتُهُمْ وَصَوْمُهُمْ وَصَدَقَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ، **وَقِيلَ**: سَلَفُ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ إِنَّهَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي قَدَّمُوهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جِنْسِهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: ظَاهِرٌ، وَهُمُ الْكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، قِيلَ : كَهَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَقِيلَ : كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ : ٣] ، وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ ، وَلَا تُغْلِطُهُ الْمَسَائِلُ ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ ، وَلَا يُلْهِيهِ تَدْبِيرُ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ ، فِي الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْعُمْرَانِ وَالْقِفَارِ ، ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] . ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْده لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٦ - ٨٧] وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ

حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، مِنْ سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص : ٥٧- ٥٨] ، ﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٣-٤٤]

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، أَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جِرْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً ، وَجَعَلَ شُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا ، هَذَا فَنٌّ وَهَذَا فَنٌّ آخَر ، فَفَاوَتَ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَشْتَبِهَا ، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا ثُمَّ يَتَزَايَدُ نُورُهُ وَجِرْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ ، وَيَكْمُلَ إِبْدَارُهُ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالَتِهِ الْأُولَى فِي تَمَامِ شَهْرٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٩ - ٤٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ ﴾ أَيْ : الْقَمَرَ ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَبِسَيْرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ .

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ وَحُجَّةٌ بَالِغَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[ص : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[المؤمنون : ١١٥-١١٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[الأعراف : ٥٤] ، وَقَالَ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾[يس:٤٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يوسف : ١٠٥] ، وَقَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ : ٩] وَقَالَ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران:١٩٠] أَيْ : الْعُقُولُ :وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : عِقَابَ اللهِ وَسَخَطَهُ وَعَذَابَهُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝

يقولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَرْجُونَ فِي لِقَائِهِ شَيْئًا ، وَرَضُوا بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا نُفُوسُهُمْ . قَالَ الْحَسَنُ : وَاللهِ مَا زَيَّنُوهَا وَلَا رَفَعُوهَا حَتَّى رَضُوا بِهَا ، وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا ، وَالشَّرْعِيَّةِ فَلَا يَأْتَمِرُونَ بِهَا ، فَإِنَّ مَأْوَاهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ النَّارُ ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا وَالْإِجْرَام ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَامْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هَهُنَا سَبَبِيَّةً فَتَقْدِيرُهُ ، أَيْ : بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الْجَنَّةِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلاسْتِعَانَةِ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ قَالَ : يَكُونُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : هَذَا حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ . **وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ :** ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾ إِذَا مَرَّ بِهِمُ الطَّيْرُ يَشْتَهُونَهُ قَالُوا : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَذَلِكَ دَعْوَاهُمْ فَيَأْتِيهِم الْمَلَكُ بِمَا يَشْتَهُونَهُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ قَالَ : فَإِذَا أَكَلُوا حَمِدُوا اللهَ رَبَّهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا شَبَهٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ . وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥ - ٢٦]، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا ، الْمَعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف : ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَطُولُ بَسْطُهَا ، وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ**

النَّفَسَ »[1] وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ تَزَايُدِ نِعَمِ الله عَلَيْهِمْ ، فَتُكَرَّرُ وَتُعَادُ وَتَزْدَادُ ، فَلَيْسَ لَهَا انْقِضَاءٌ وَلَا أَمَدٌ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ ، أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ فِي حَالِ ضَجَرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ بِالشَّرِّ إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَالْحَالَةُ هَذِهِ لُطْفًا وَرَحْمَةً ، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أَيْ : لَوِ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ الله سَاعَةً فِيهَا إِجَابَة ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ** »[2] وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴾[الإسراء : ١١] . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ** : هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لِوَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ : اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنْهُ . فَلَوْ يُعَجِّلْ لَهُمُ الاسْتِجَابَةُ فِي ذَلِكَ كَمَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَضَجَرِهِ وَقَلَقِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[فصلت : ٥١] أَيْ : كَثِيرٌ وَهُمَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

(١) مسلم (٢٨٣٥) .
(٢) مسلم (حديث ٣٠٠٩) .

قَلِقَ لَهَا وَجَزِعَ مِنْهَا وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَدَعَا اللهَ فِي كَشْفِهَا وَرَفْعِهَا عَنْهُ فِي حَالِ اضْطِجَاعِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، فَإِذَا فَرَّجَ اللهُ شِدَّتَهُ وَكَشَفَ كُرْبَتَهُ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ثُمَّ ذَمَّ تَعَالَى مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ فَقَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللهُ الْهِدَايَةَ وَالسَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ ، فَإِنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[هود :١١] وَكَقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ** »[1].

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ؛ لِيَنْظُرَ طَاعَتَهُمْ لَهُ وَاتِّبَاعَهُمْ رَسُولَهُ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ** »[2].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) .
(٢) مسلم (٢٧٤٢) .

عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَاحِدِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ أَنَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ كِتَابَ الله وَحُجَّتَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ : ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ أَيْ : رُدَّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ إِلَى وَضْعٍ آخَرَ ،قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ وَرَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ الله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذَا إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ الله لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي لَسْتُ أَتَقَوَّلُهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا افْتَرَيْتُهُ أَنَّكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانَتِي مُنْذُ نَشَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَى حِين بَعَثَنِي الله ﷻ ، لَا تَنْتَقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَغْمِصُونِي بِهِ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَعْرِفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؟ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ فِيمَا سَأَلَهُ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ هِرَقْلُ لِأَبِي سُفْيَانَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ ، فَقُلْتُ : لَا ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ إِذْ ذَاكَ رَأْسُ الْكَفَرَةِ وَزَعِيمُ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَعَ هَذَا اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ ، وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ ، فَقَالَ لَهُ هِرَقْلُ : فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبَ عَلَى الله(١) ، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ : بَعَثَ اللهُ فِينَا رَسُولًا نَعْرِفُ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ(٢) .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) انظر مسند أحمد(٥/ ٢٩٠) ، فنحوه هنالبسندٍ حسن .

يَقُولُ تَعَالَى : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدُّ إِجْرَامًا ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ وَتَقَوَّلَ عَلَى الله ، وَزَعَمَ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْبِيَاءِ فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ ؟ فَإِنَّهُ مَنْ قَالَ هَذِهِ المَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَلَا بُدَّ أَنَّ اللهَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى بِرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ ، فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَرَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الضُّحَى وَبَيْنَ نِصْفِ اللَّيْلِ فِي حِنْدِسِ الظَّلْمَاءِ ، فَمِنْ شِيَمِ كُلٍّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالِهِ وَكَلَامِهِ يَسْتَدِلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذِبِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَسِجَاحَ وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِي ، **قَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامَ** : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ ، قَالَ : فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**))(١) .

وَأَمَّا مُسَيْلِمَةُ فَمَنْ شَاهَدَهُ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ عَلِمَ أَمْرَهُ لَا مَحَالَةَ ، بِأَقْوَالِهِ الرَّكِيكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِفَصِيحَةٍ ، وَأَفْعَاله غَيْرِ الحَسَنَةِ بَلِ القَبِيحَةِ ، وَقُرْآنه الَّذِي يُخَلَّدُ بِهِ فِي النَّارِ يَوْمَ الحَسْرَةِ وَالفَضِيحَةِ ، وَكَمْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إِلَى آخِرِهَا ، وَبَيْنَ قَوْلِ مُسَيْلِمَةَ - قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ - : يَا ضُفْدَعِ بِنْت ضُفْدَعِينَ نِقِّي كَمَا تَنِقِّينَ ، لَا المَاءُ تُكَدِّرِينَ وَلَا الشَّارِبُ تَمْنَعِينَ . وَقَوْلُهُ - قَبَّحَهُ اللهُ -: لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الْحُبْلَى إِذْ أَخْرَجَ مِنْهَا نَسَمَةً تَسْعَى مِنْ بَيْنِ صِفَاقٍ وَحَشَى . وَقَوْلُهُ - خَلَّدَهُ اللهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ فَعَلَ - : الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ لَهُ خُرْطُومٌ طَوِيلٌ ، وَقَوْلُهُ - أَبْعَدَهُ الله عَنْ رَحْمَتِهِ -: وَالعَاجِنَاتُ عَجْنًا ، وَالخَابِزَاتُ خَبْزًا ، وَاللَّاقِمَاتُ لَقْمًا إِهَالَةً وَسَمْنًا إِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخُرَافَاتِ وَالهَذَيَانَاتِ الَّتِي يَأْنَفُ الصِّبْيَانُ أَنْ يَلْفِظُوا بِهَا ، إِلَّا عَلَى وَجْهِ السُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَلِهَذَا أَرْغَمَ الله أَنْفَهُ ، وَشَرِبَ يَوْمَ الحَدِيقَةِ حَتْفَهُ ،

---

(١) إسناده منقطع ، ولكن صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي (مع التحفة ٧/ ١٨٧) وأحمد (٥/ ٤٥١) وغيرهما وانظر شواهده في المنتخب (٤٩٥) .

وَمُزِّقَ شَمْلُهُ وَلَعَنَهُ صَحْبُهُ وَأَهْلُهُ . وَقَدِمُوا عَلَى الصِّدِّيقِ تَائِبِينَ ، وَجَاءُوا فِي دِينِ الله رَاغِبِينَ ، فَسَأَلَهُم الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَرَضِيَ عَنْهُ - أَنْ يَقْرَءُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ - لَعَنَهُ الله - فَسَأَلُوهُ أَنْ يُعْفِيَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَأَبَى عَلَيْهِمْ ، إِلَّا أَنْ يَقْرَءُوا شَيْئًا مِنْهُ ؛ لِيَسْمَعَهُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّاسِ ، فَيَعْرِفُوا فَضْلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ ، فَقَرَءُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَأَشْبَاهِهِ ، فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ لَهُم الصِّدِّيقُ ﷺ : وَيْحَكُمْ أَيْنَ كَانَ يَذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ ؟ وَالله إِنَّ هَذَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ . وَذَكَرُوا أَنَّ عَمْرَو بْنَ العَاصِ وَفَدَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ عَمْرو لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ ، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ : وَيْحَكَ يَا عَمْرو مَاذَا أُنْزِلَ عَلَى صَاحِبِكُم - يَعْنِي رَسُول الله ﷺ فِي هَذِهِ المُدَّةِ - فَقَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ أَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ سُورَةً عَظِيمَةً قَصِيرَةً فَقَالَ : وَمَا هِيَ فَقَالَ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَفَكَّرَ مُسَيْلِمَةُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : وَأَنَا قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ مِثْلُهُ ، فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَقَالَ : يَا وَبْرُ يَا وَبْرُ إِنَّمَا أَنْتَ أُذُنَانِ وَصَدْرُ وَسَائِرُكَ حَقْرٌ فَقْرُ . كَيْف تَرَى يَا عَمْرو ؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرو : وَالله إِنَّك لَتَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّك تَكْذِبُ . فَإِذَا كَانَ هَذَا مِنْ مُشْرِكٍ فِي حَالِ شِرْكِهِ لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ حَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِدْقُهُ ، وَحَالُ مُسَيْلِمَة - لَعَنَهُ الله - وَكَذِبُهُ ، فَكَيْفَ بِأُولِي البَصَائِرِ وَالنُّهَى ، وَأَصْحَابِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ المُسْتَقِيمَةِ وَالحِجَا ؟! ، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، **وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الكَرِيمَةِ** ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْرَهُ ، ظَانِّينَ أَنَّ تِلْكَ الآلِهَةِ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ الله ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : مَعْنَاهُ أَتُخْبِرُونَ اللهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ؟ ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ حَادِثٌ فِي النَّاسِ ، كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الإِسْلَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآيَةُ . أَيْ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الله تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْد قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَّلَ الخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ لَقَضَى بَيْنَهم فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَأَسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْنَتَ الْكَافِرِينَ .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أَيْ : وَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الكَفَرَةُ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعَانِدُونَ : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى اللهُ ثَمُودَ النَّاقَةَ ، أَوْ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، أَوْ يُزِيحَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[الفرقان : ١٠-١١] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[الإسراء : ٥٩] . يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ سُنَّتِي فِي خَلْقِي أَنِّي إِذَا آتَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ . وَلِهَذَا لَمَّا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عُذِّبُوا وَبَيْنَ إِنْظَارِهِمْ ، اِخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ ، كَمَا حَلُمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَادًا لِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : الْأَمْرُ كُلُّهُ لله ، وَهُوَ يَعْلَمُ

الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ ، فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللهِ فِيَّ وَفِيكُمْ .

هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا ، حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ اثْنَتَيْنِ ، فِرْقَةً مِنْ وَرَاءِ الجَبَلِ ، وَفِرْقَةً مِنْ دُونِهِ . وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَادًا وَتَثْبِيتًا لَأَجَابَهُمْ ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ أَحَدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦- ٩٧] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام :١١١] وَلِمَا فِيهِمْ مِنَ الْمُكَابَرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ ، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِهِمْ ، لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعَنُّتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، لِكَثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَذَاقَ النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ، كَالرَّخَاءِ بَعْدَ الشِّدَّةِ ، وَالخِصْبِ بَعْدَ الجَدْبِ ، وَالمَطَرِ بَعْدَ القَحْطِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : اسْتِهْزَاءٌ وَتَكْذِيبٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أَيْ : أَشَدُّ اسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا ، حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذَّبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مُهْلَةٍ ، ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ ، وَالْكَاتِبُونَ الْكِرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ وَيُحْصُونَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُعْرِضُونَهُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُجَازِيهِ عَلَى الجَلِيلِ وَالحَقِيرِ ، وَالنَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أَيْ : يَحْفَظُكُمْ وَيَكْلَؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ أَيْ : بِسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ رَافِقِينَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ﴿ جَآءَتْهَا ﴾ أَيْ : تِلْكَ السُّفُنُ ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أَيْ : شَدِيدَةٌ ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيْ : اغْتَلَمَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ ﴿ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أَيْ : هَلَكُوا ﴿ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا ، بَلْ يُفْرِدُونَهُ بِالدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الحَالُ ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أَيْ : لَا نُشْرِكُ بِكَ أَحَدًا ، وَلَنُفْرِدَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ هُنَاكَ كَمَا أَفْرَدْنَاكَ بِالدُّعَاءِ هَهُنَا ، **قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ تِلْكَ الْوَرْطَةِ ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَذُوقُ وَبَالَ هَذَا الْبَغْيِ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ ، وَلَا تَضُرُّونَ بِهِ أَحَدًا غَيْرَكُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ مِنْ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ** »(١).

---

(١) **صحيح الإسناد** : أحمد في المسند (٥/ ٣٦) بإسناد صحيح ، وأخرجه أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذي (٢٠١١) وابن ماجه (٤٢١١) ..

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ الْحَقِيرَةِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : مَصِيرُكُمْ وَمَآلُكُمْ ﴿ فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : فَنُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَنُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَثَلًا لِزَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا ، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ الْأَرْضِ بِمَاءٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا ، وَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنْ أَبٍّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أَيْ : زِينَتَهَا الْفَانِيَةَ ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَاهَا مِنْ زُهُورٍ نَضِرَةٍ ، مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ ﴾ الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ﴿ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أَيْ : عَلَى جِذَاذِهَا وَحَصَادِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ ، فَأَيْبَسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَتْلَفَتْ ثِمَارَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا ﴾ أَيْ : يَابِسًا بَعْدَ الْخُضْرَةِ وَالنَّضَارَةِ ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أَيْ : كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كَأَنْ لَمْ تُنَعَّمْ ، وَهَكَذَا الْأُمُورُ بَعْدَ زَوَالِهَا ، كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ[1] : « **يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا**

---

(١) مسلم (٢٨٠٧) .

قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا » وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُهْلَكِينَ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾[الأعراف : ٩١ - ٩٢]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا ، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا وَتَمَكُّنِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا وَتَفَلُّتِهَا عَنْهُمْ ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا ، وَالطَّلَبُ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا ، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[الكهف : ٤٥] ، وَكَذَا فِي سُورَةِ « الزُّمَرِ » وَ« الْحَدِيدِ » يَضْرِبُ اللهُ بِذَلِكَ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ .

وقولُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ الآيَةُ . لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا ، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا وَسَمَّاهَا دَارَ السَّلَامِ ، أَيْ : مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَبَاتِ فَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّ لَهُ الْحُسْنَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[الرحمن : ٦٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ يَشْمَلُ تَضْعِيفَ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَزِيَادَةٍ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ، وَيَشْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللهُ فِي الْجِنَانِ مِن الْقُصُورِ وَالْحُورِ وَالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطُوه ، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ تَفْسِيرَ الزِّيَادَةِ : بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَنْ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَابِعِينَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَمِنْ ذَلِكَ عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ ، وَقَالَ : « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ الله مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ ، أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُزَحْزِحْنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَالله مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ** »(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أَيْ : قَتَامٌ وَسَوَادٌ فِي عَرَصَاتِ المَحْشَرِ ، كَمَا يَعْتَرِي وُجُوهَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ مِنَ الْقَتَرَةِ وَالْغَبَرَةِ ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أَيْ : هَوَانٌ وَصَغَارٌ أَيْ : لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ ، بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١١] أَيْ : نَضْرَةً فِي وُجُوهِهِمْ وَسُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ ، جَعَلَنَا الله مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ آمِينَ .

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ وَيَزْدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى عَدْلَهُ فِيهِمْ ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ أَيْ : تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ذِلَّةٌ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا كَمَا قَالَ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى : ٤٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أَيْ : مَانِعٍ وَلَا وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٠-١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الْآيَةُ . إِخْبَارٌ عَنْ سَوَادِ وُجُوهِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ

---

(١) إسناده صحيح : لكنه معلول وقد رواه أحمد (٤/ ٣٣٣) ، ومسلم (١٨١) ، لكنه أُعِلَّ بالوقف على عبد الرحمن بن أبي ليلى من قوله ، وانظر علل الدارقطني .

يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أَيْ : أَهْلَ الْأَرْضِ كُلهمْ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسٍ ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] ، ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : اِلْزَمُوا أَنْتُمْ وَهُمْ مَكَانًا مُعَيَّنًا ، امْتَازُوا فِيهِ عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : ٥٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : ١٤] وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، إِخْبَارًا عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ [البقرة : ١٦٦] ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارًا عَنْ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا رَاجَعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادِّعَائِهِمْ عِبَادَتَهمْ ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ . أَيْ : مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بِهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ ، وَاللهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا وَلَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا ، وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، وَفِي هَذَا تَبْكِيتٌ عَظِيمٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، مِمَّنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِذَلِكَ ، وَلَا رَضِيَ بِهِ ، وَلَا أَرَادَهُ بَلْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ الْحَيِّ الْقَيُّومِ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ ، الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، نَاهِيًا عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[النحل : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٢٥] وَالْمُشْرِكُونَ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ ، قَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي كِتَابِهِ ، وَبَيَّنَ أَحْوَالَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ أَتَمَّ رَدٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ . أَيْ : فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْتَبَرُ كُلُّ نَفْسٍ وَتَعْلَمُ مَا أَسْلَفَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[القيامة : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : وَرَجَعَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ ، فَفَصَّلَهَا وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

يَحْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الإِلَهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَنْ ذَا الَّذِي يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْمَطَرِ ، فَيَشُقُّ الْأَرْضَ شَقًّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس : ٢٧- ٣١] ، ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ

وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا وَلَسَلَبَكُمْ إِيَّاهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[الملك : ٢٣] . وَقَالَ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾[الأنعام : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أَيْ : بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَمِنَّتِهِ الْعَمِيمَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[الرحمن : ٢٩] فَالْمُلْكُ كُلُّهُ الْعُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَلَائِكَةٍ وَإِنْسٍ وَجَانٍّ فَقِيرُونَ إِلَيْهِ ، عَبِيدٌ لَهُ خَاضِعُونَ لَدَيْهِ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِآرَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَهَذَا الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُم الْحَقُّ ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ أَيْ : فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ ، فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ : أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ

أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وَهَذَا إِبْطَالٌ لِدَعْوَاهُمْ فِيمَا أَشْرَكُوا بِالله غَيْرَهُ وَعَبَدُوا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أَيْ : مَنْ بَدَأَ خَلْقَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ يُنْشِئُ مَا فِيهِمَا مِنَ الخَلَائِقِ ، وَيُفَرِّقُ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُبْدِلُهُمَا بِفَنَاءِ مَا فِيهِمَا ، ثُمَّ يُعِيدُ الْخَلْقَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا ، وَيَسْتَقِلُّ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ إِلَى الْبَاطِلِ .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَكُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ ضَالٍّ ، وَإِنَّمَا يَهْدِي الْحَيَارَى وَالضُّلَّالَ ، وَيُقَلِّبُ الْقُلُوبَ مِن الْغَيِّ إِلَى الرُّشْدِ ، اللهُ الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أَيْ : أَفَيَتَّبِعُ الْعَبْدُ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَيُبَصِّرُ بَعْدَ الْعَمَى ، أَمْ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يُهْدَى لِعَمَاهُ وَبَكَمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم :٤٢] ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات :٩٥-٩٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : مَا بَالكُمْ أَنْ يَذْهَبَ بِعُقُولِكُمْ ؟! كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ الله وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهَذَا ، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا ؟ وَهَلَّا أَفْرَدْتُم الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ المَالِكُ الحَاكِمُ الْهَادِي مِنَ الضَّلَالَةِ ، بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالإِنَابَةَ ؟. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينِهِمْ هَذَا دَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُمْ أَيْ : تَوَهُّمٌ وَتَخَيُّلٌ ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

هَذَا بَيَانٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لِأَنَّهُ بِفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ، وَحَلَاوَتِهِ وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَعَانِي الْعَزِيزَةِ الْغَزِيرَةِ النَّافِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، فَكَلَامُهُ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: مِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامُ الْبَشَرِ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ: مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، وَمُبَيِّنًا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَالتَّبْدِيلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ: وَبَيَانُ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا، حَقًّا لَا مِرْيَةَ فِيهِ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ: إِنِ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَقُلْتُمْ كَذِبًا مُبِينًا إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدْ جَاءَ فِيمَا زَعَمْتُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَأْتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أَيْ: مِنْ جِنْسِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍّ، وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّالِثُ فِي التَّحَدِّي، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ، أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَلْيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ، وَلْيَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاءُوا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ

وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ ، فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] ثُمَّ تَنَازَلَ إِلَى سُورَةٍ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وَكَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْهُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ أَبَدًا فَقَالَ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة : ٢٤] . هَذَا وَقَدْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ مِنْ سَجَايَاهُمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَمُعَلَّقَاتِهِمْ إِلَيْهَا الْمُنْتَهَى فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلَكِنْ جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، وَلِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، بِمَا عَرَفَ مِنْ بَلَاغَةِ هَذَا الْكَلَامِ وَحَلَاوَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَطَلَاوَتِهِ وَإِفَادَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ ، فَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ ، وَأَفْهَمهُمْ لَهُ وَأَتْبَعهُمْ لَهُ ، وَأَشْهَرُهُمْ لَهُ انْقِيَادًا كَمَا عَرَفَ السَّحَرَةُ لِعِلْمِهِمْ بِفُنُونِ السِّحْرِ ، أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى ﷺ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ مُؤَيَّدٍ مُسَدَّدٍ مُرْسَلٍ مِنَ اللهِ ، وَأَنَّ هَذَا لَا يُسْتَطَاعُ لِبَشَرٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَكَذَلِكَ عِيسَى ﷺ بُعِثَ فِي زَمَانِ عُلَمَاءِ الطِّبِّ وَمُعَالَجَةِ الْمَرْضَى ، فَكَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَمِثْل هَذَا لَا مَدْخَلَ لِلْعِلَاجِ وَالدَّوَاءِ فِيهِ ، فَعَرَفَ مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يَقُولُ بَلْ كَذَّبَ هَؤُلَاءِ بِالْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يُحَصِّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، إِلَى حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَانْظُرْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَجَهْلًا ، فَاحْذَرُوا

(١) البخاري (حديث ٤٩٨١) ، ومسلم (١٥٢) .

أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بُعِثْتَ إِلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَيَتْبَعُكَ وَيَنْتَفِعُ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ بَلْ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ وَيُبْعَثُ عَلَيْهِ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ فَيَهْدِيهِ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ فَيُضِلُّهُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، بَلْ يُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ - لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلِهِمْ ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : ١-٢] إِلَى آخِرِهَا ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ وَأَتْبَاعُهُ لِقَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة : ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ الْحَسَنَ ، وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الْفَصِيحَةَ النَّافِعَةَ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانِ ، وَفِي هَذَا كِفَايَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِر عَلَى إِسْمَاعِ الْأَصَمِّ وَهُوَ الْأَطْرَشُ ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، وَإِلَى مَا أَعْطَاكَ اللهُ مِنَ التُّؤَدَةِ ، وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ ، وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، وَالدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوءَتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ، وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ يَنْظُرُونَ

إِلَيْكَ بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ [الفرقان : ٤١]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مَنْ هَدَى ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا ، وَأَضَلَّ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرِينَ ، فَهُوَ الحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وَفِي الحَدِيثِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ﷻ : ((**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا - إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**))(1).

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشْرِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يُوَافُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : ٥٥] ، وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِقْصَارِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ - ١١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : يَعْرِفُ الْأَبْنَاءُ الْآبَاءَ ، وَالْقَرَابَاتُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون : ١٠١]

---

(1) مسلم (٢٥٧٧) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥] لأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَلَا خَسَارَةَ أَعْظَمُ مِنْ خَسَارَةِ مَنْ فُرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ أَيْ : نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِكَ لِتَقَرَّ عَيْنُكَ مِنْهُمْ ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : مَصِيرُهُمْ وَمُنْقَلَبُهُمْ ، وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ بَعْدَكَ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ الْآيَةُ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩]، فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا ، وَكِتَابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَحَفَظَتُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهُودٌ أَيْضًا ، أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرُ الْأُمَمِ فِي الخَلْقِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ وَيُقْضَى لَهُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :

« نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ »(١) فَأُمَّتُهُ إِنَّمَا حَازَتْ قَصَبُ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ ، وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِيهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ [الشورى : ١٨] أَيْ : كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا وَقْتَهَا عَيْنًا ؛ وَلِهَذَا أَرْشَدَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : لَا أَقُولُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَنِي اللهُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ ، وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يُطْلِعنِي عَلَى وَقْتِهَا وَلَكِنْ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيْ : لِكُلِّ قَرْنٍ مُدَّةٌ مِنَ الْعُمْرِ مُقَدَّرَةٌ فَإِذَا انْقَضَى أَجَلُهُمْ ﴿ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون : ١١] . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أَيْ : لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة : ١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥]

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ : هَذَا تَبْكِيتًا وَتَقْرِيعًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦]

۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ

(١) مسلم (٨٥٥ ، ٨٥٦) ، وكذا فانظر البخاري (٣٤٨٦)

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَيَسْتَخْبِرُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ أَيْ : الْمِيعَادُ وَالْقِيَامَةُ مِنَ الْأَجْدَاثِ بَعْدَ صَيْرُورَةِ الْأَجْسَامِ تُرَابًا ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ صَيْرُورَتُكُمْ تُرَابًا بِمُعْجِزِ اللهَ عَنْ إِعَادَتِكُمْ ، كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا آيَتَانِ أُخْرَيَانِ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يُقْسِمَ بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمَعَادَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : ٣]، وَفِي التَّغَابُنِ : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يَوَدُّ الْكَافِرُ لَوِ افْتَدَى مِنْ عَذَابِ اللهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَيْ : بِالْحَقِّ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ ، وَتَمَزَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْقِفَارِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يَقُول تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقُـرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : زَاجِرٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : مِن الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ وَدَنَسٍ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أَيْ : يَحْصُلُ بِهِ الْهِدَايَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَالْمُصَدِّقِينَ الْمُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤]

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا ، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الذَّاهِبَةِ لَا مَحَالَةَ .

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَايَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام : ١٣٦] . عَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ(١) قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا رَثُّ الْهَيْئَةِ فَقَالَ : « هَلْ لَكَ مَالٌ ؟ » قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : « مِنْ أَيِّ الْمَالِ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِن الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ ، فَقَالَ : « إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ » وَقَالَ : « هَلْ تُنْتَجُ إِبِلُكَ صِحَاحًا آذَانُهَا فَتَعْمِدُ إِلَى مُوسى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا فَتَقُولُ : هَذِهِ بُحُرٌ ، وَتَشُقُّ جُلُودَهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ صُرُمٌ ، وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ ؟ » قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : « فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللهُ لَكَ حِلٌّ ، سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ » وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٣) ..

وَقَدْ أَنْكَرَ الله تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ الله ، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أَيْ : مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يُصْنَعَ بِهِمْ يَوْمَ مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا . **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بَلْ يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا . وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ : أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ ، وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ وَلَحْظَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ حَرَكَةَ الْأَشْجَارِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْجَمَادَاتِ ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ السَّارِحَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ، وَإِذَا كَانَ هَذَا عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَكَيْفَ عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ الْمُكَلَّفِينَ الْمَأْمُورِينَ بِالْعِبَادَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٧-٢١٩] ، وَلِهَذَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ رَاءُونَ سَامِعُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَنِ الْإِحْسَانِ : ((**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**))(١).

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبُّهُمْ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ لله وَلِيًّا فَـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَوْلِيَاءُ الله الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ الله .

وَعِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ قَالَ : ((**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ**))(٢) ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِالْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ(٣) ﷺ ((**أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ بِيضُ الثِّيَابِ فَقَالُوا : أُخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السِّقَاءِ**)) ، وَأَمَّا بُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٣] ، وَقَالَ

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

(٢) أورده الحافظ ابن كثير من عدة طرق ، ونراها بمجموعها تصح ، وإن لم يخلو طريق منها من مقال ، وهذا التفسير قال به عدد كبير من أهل العلم ، والله تعالى أعلم .

(٣) **صحيح** : تقدم ، وسيأتي أيضا إن شاء الله .

تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد:١٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُخْلَفُ وَلَا يُغَيَّرُ ، بَلْ هُوَ مُقَرَّرٌ مُثْبَتٌ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَاسْتَعِنْ بِالله عَلَيْهِمْ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَـ ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمِ بِأَحْوَالِهِمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا ، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظُنُونَهُمْ وَتَخَرُّصَهُمْ وَكَذِبَهُمْ وَإِفْكَهُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ، أَيْ : يَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلِّهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ : مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعْيِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَيِّرِهَا .

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا

كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنِ ادَّعَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا ﴿ سُبْحَانَهُۥ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَكُلِّ شَيْءٍ فَقِيرٍ إِلَيْهِ ﴿ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِمَّا خَلَقَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ ، عَبْدٌ لَهُ ؟ ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إِنْكَارٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥]

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرِينَ ، مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، بِأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ مَتَٰعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مُدَّةٌ قَرِيبَةٌ ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أَيْ : الْمُوجِعُ الْمُؤْلِمُ ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ .

۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوٓا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْهُمْ وَاقْصُصْ

﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَك وَيُخَالِفُونَك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أَيْ : خَبَرُهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ وَدَمَّرَهُمْ بِالْغَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرِهِمْ ، لِيُحَذِّرَ هَؤُلَاءِ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الهَلَاكِ وَالدَّمَارِ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أَيْ : عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿ مَّقَامِى ﴾ أَيْ : فِيكُمْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيْ : فَإِنِّي لَا أُبَالِي وَلَا أَكُفُّ عَنْكُمْ سَوَاءٌ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أَيْ : فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُم الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ صَنَمٍ وَوَثَنٍ ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أَيْ : وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا ، بَلْ افْصِلُوا حَالَكُمْ مَعِي ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُّونَ ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أَيْ : وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً ، أَيْ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ فَافْعَلُوا فَإِنِّي لَا أُبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ، كَمَا قَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ [هود : ٥٤- ٥٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أَيْ : كَذَّبْتُمْ وَأَدْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَأَنَا مُمْتَثِلٌ مَا أُمِرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لله ﷻ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ ، فَهَذَا نُوحٌ يَقُولُ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل :٩١]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣١-١٣٢]، وَقَالَ يُوسُفُ : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١]، وَقَالَ مُوسَى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤]، وَقَالَ السَّحَرَةُ :

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[الأعراف : ١٢٦] وَقَالَتْ بِلْقِيسُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[النمل : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾[المائدة : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾[المائدة : ١١١] وَقَالَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَسَيِّدُ الْبَشَرِ ﷺ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣][1] أَيْ : مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ : « **نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ** »[2] . أَيْ : وَهُوَ عِبَادَةُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُنَا وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِه : « **أَوْلَادُ عَلَّاتٍ** » ، وَهُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أُمَّهَاتٍ شَتَّى وَالْأَبُ وَاحِدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ أَيْ : عَلَى دِينِهِ ﴿ فِي ٱلۡفُلۡكِ ﴾ ، وَهِيَ السَّفِينَةُ ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْضِ ﴿ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ .

ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ ﴾ أَيْ : فَمَا كَانَتِ الْأُمَمُ لِتُؤْمِنَ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ أَوْ مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [الأنعام : ١١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ فَمَا آمَنُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمِ الْمُتَقَدِّمِ ، هَكَذَا يَطْبَعُ الله عَلَى قُلُوبِ مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ

---

(١) مسلم (حديث ٧٧١) .
(٢) البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

بَعْدَهُمْ ، وَيَخْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .

وَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَ الأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ لِلرُّسُلِ ، وَأَنْجَى مَنْ آمَنَ بِهِمْ ، وَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﷺ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ زَمَانِ آدَمَ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ أَحْدَثَ النَّاسُ عِبَادَةَ الأَصْنَامِ فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا ﷺ وَلِهَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « **أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ** »[1].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] ، وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ عَظِيمٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ ، الَّذِينَ كَذَّبُوا سَيِّدَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ أَصَابَ مَنْ كَذَّبَ بِتِلْكَ الرُّسُلِ ، مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَمَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ وَقَدِ ارْتَكَبُوا أَكْبَرَ مِنْ أُولَئِكَ ؟.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرُّسُلِ ﴿ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أَيْ قَوْمِهِ ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : حُجَجِنَا وَبَرَاهِينِنَا ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالانْقِيَادِ لَهُ ، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ كَأَنَّهُمْ قَبَّحَهُمُ اللهُ أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤]

﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ ﴿ مُوسَى ﴾ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أَيْ : تُثْنِينَا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾

(١) البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) .

أَيْ : الدِّينُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ﴾ أَيْ : لَكَ وَلِهَارُونَ ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أَيْ : الْعَظَمَةُ وَالرِّيَاسَةُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ الله تَعَالَى قِصَّةَ مُوسَى ﷺ مَعَ فِرْعَوْنَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ؛ لأَنَّهَا مِنْ أَعْجَبِ الْقَصَصِ ، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ حَذِرَ مِنْ مُوسَى كُلَّ الحَذَرِ ، فَسَخَّرَهُ الْقَدَرُ أَنْ رُبِّيَ هَذَا الَّذِي يَحْذَرُ مِنْهُ عَلَى فِرَاشِهِ وَمَائِدَتِهِ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ ، ثُمَّ تَرَعْرَعَ وَعَقَدَ الله لَهُ سَبَبًا أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَرَزَقَهُ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَالتَّكْلِيمَ وَبَعَثَهُ إِلَيْهِ ، لِيَدْعُوَهُ إِلَى الله تَعَالَى لِيَعْبُدَهُ وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ ، هَذَا مَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنْ عَظَمَةِ الْمَمْلَكَةِ وَالسُّلْطَانِ ، فَجَاءَهُ بِرِسَالَةِ الله تَعَالَى ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ سِوَى أَخِيهِ هَارُونَ ﷺ ، فَتَمَرَّدَ فِرْعَوْنُ وَاسْتَكْبَرَ وَأَخَذَتْهُ الحَمِيَّةُ وَالنَّفْسُ الخَبِيثَةُ الأَبِيَّةُ ، وَلَوَى رَأْسَهُ وَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَتَجَهَّمَ عَلَى الله وَعَتَا وَبَغَى ، وَأَهَانَ حِزْبَ الإِيمَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل ، وَالله تَعَالَى يَحْفَظُ رَسُولَهُ مُوسَى ﷺ وَأَخَاهُ هَارُونَ وَيَحُوطُهُمَا بِعِنَايَتِهِ وَيَحْرُسُهُمَا بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ ، وَلَمْ تَزَلِ المُحَاجَّةُ وَالمُجَادَلَةُ وَالآيَاتُ تَقُومُ عَلَى يَدِ مُوسَى شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَمَرَّةً بَعْد مَرَّةٍ ، مِمَّا يُبْهِرُ الْعُقُولَ وَيُدْهِشُ الأَلْبَابَ ، مِمَّا لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ وَلَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَنْ هُوَ مُؤَيَّدٌ مِنَ الله ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾[الزخرف : ٤٨] ، وَصَمَّمَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ - قَبَّحَهُمُ الله - عَلَى التَّكْذِيبِ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالجَحْدِ وَالْعِنَادِ وَالمُكَابَرَةِ ، حَتَّى أَحَلَّ الله بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ أَجْمَعِينَ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام : ٤٥]

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ قِصَّةَ السَّحَرَةِ مَعَ مُوسَى ﷺ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفِي سُورَةِ طَه ، وَفِي الشُّعَرَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ

فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - أَرَادَ أَنْ يَتَهَرَّجَ عَلَى النَّاسِ ، وَيُعَارِضُ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى ﷺ مِنَ الحَقِّ المُبِينِ بِزَخَارِفِ السَّحَرَةِ وَالمُشَعْوِذِينَ ، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِ النِّظَامُ ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْ ذَلِكَ المَرَامُ ، وَظَهَرَتِ البَرَاهِينُ الإِلَهِيَّةُ فِي ذَلِكَ المَحْفِلِ العَامِّ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٦- ٤٨] فَظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَنْتَصِرُ بِالسُّحَّارِ ، عَلَى رَسُولِ عَالِمِ الأَسْرَارِ ، فَخَابَ وَخَسِرَ الجَنَّةَ وَاسْتَوْجَبَ النَّارَ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اصْطَفُّوا ، وَقَدْ وُعِدُوا مِنْ فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالعَطَاءِ الجَزِيلِ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ [طه :٦٥- ٦٦]، فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُونَ البُدَاءَةُ مِنْهُمْ لِيَرَى النَّاسُ مَا صَنَعُوا ، ثُمَّ يَأْتِيَ بِالحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْمَغَ بَاطِلَهُمْ . وَلِهَذَا لَمَّا أَلْقَوْا ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦]﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٧- ٦٩] ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا أَلْقَوْا : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى ﷺ مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ وَالحُجَجِ القَاطِعَاتِ ، وَالبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ ، إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، مِنَ الذُّرِّيَّةِ وَهُمُ الشَّبَابُ عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَئِهِ ، أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالعُتُوِّ ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ وَمَهَابَةٌ تَخَافُ رَعِيَّتُهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ : هُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَى مِنْ طُولِ الزَّمَانِ وَمَاتَ آبَاؤُهُمْ ، وَاخْتَارَ ابْنُ

جَرِيرٍ قَوْلَ مُجَاهِدٍ فِي الذُّرِّيَّةِ : أَنَّهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، لِعَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورِينَ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِالذُّرِّيَّةِ الْأَحْدَاثَ وَالشَّبَابَ وَأَنَّهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَالْمَعْرُوفُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام وَاسْتَبْشَرُوا بِهِ ، وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ ، وَالْبِشَارَةَ بِهِ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُنْقِذُهُمْ بِهِ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ هَذَا فِرْعَوْنَ حَذِرَ كُلَّ الْحَذَرِ فَلَمْ يُجْدِ عَنْهُ شَيْئًا ، وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى آذَاهُمْ فِرْعَوْنُ أَشَدَّ الْأَذَى، وَ ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] . وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَكَيْفَ يَكُونُ الْمُرَادُ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ؟!

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ أَيْ : وَأَشْرَافِ قَوْمِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ يُخَافُ مِنْهُ أَنْ يَفْتِنَ عَنِ الْإِيمَانِ سِوَى قَارُونَ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُ كَانَ طَاوِيًا إِلَى فِرْعَوْنَ مُتَّصِلًا بِهِ مُتَعَلِّقًا بِحِبَالِهِ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ عَائِدٌ إِلَى فِرْعَوْنَ وَعِظَمُ الْمُلْكِ مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِهِ ، أَوْ بِحَذْفِ آلِ فِرْعَوْنَ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ فَقَدْ أَبْعَدَ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مُؤْمِنٌ قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّ اللهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣] ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : ٢٩] ، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي كُلِّ صَلَوَاتِهِمْ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وَقَدِ امْتَثَلَ بَنُو إِسْرَائِيل ذَلِكَ فقالوا : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا ، فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا ؛ لأَنَّهُمْ عَلَى الحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى البَاطِلِ ، فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ ، قَالَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ . وَبِنَحْوِهِ قَالَ آخَرُونَ : لَا تُعَذِّبنَا بِأَيْدِي آلِ فِرْعَوْنَ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ ، فَيَقُولُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ مَا عُذِّبُوا ، وَلَا سُلِّطْنَا عَلَيْهِمْ فَيُفْتَنُوا بِنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أَيْ : خَلِّصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَفَرُوا الحَقَّ وَسَتَرُوهُ ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى سَبَبَ إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَكَيْفِيَّةَ خَلَاصِهِمْ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – أَنْ يَتَبَوَّآ أَيْ يَتَّخِذَا لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ، وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ **فَقِيلَ** : قَالَ أُمِرُوا أَنْ يَتَّخِذُوهَا مَسَاجِدَ ، **وقيل** : كَانُوا خَائِفِينَ فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَكَأَنَّ هَذَا – وَاللهُ أَعْلَم – لَمَّا اشْتَدَّ بِهِمُ البَلَاءُ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ ، أُمِرُوا بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[البقرة : ١٥٣] ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِالثَّوَابِ وَالنَّصْرِ القَرِيبِ ، **قِيلَ** : أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ ، وَأُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهم قِبَلَ القِبْلَةِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَمَّا خَافَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُقْتَلُوا فِي الكَنَائِسِ الجَامِعَةِ ، أُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الكَعْبَةِ يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أَيْ : يُقَابِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، لَمَّا أَبَوْا قَبُولَ الْحَقِّ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ مُعَانِدِينَ جَاحِدِينَ ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَتَكَبُّرًا وَعُتُوًّا قَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ أَيْ : مِنْ أَثَاثِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أَيْ : جَزِيلَةً كَثِيرَةً ﴿ فِي ﴾ هَذِهِ ﴿ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ ، أَيْ : أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَرْسَلْتَنِي بِهِ إِلَيْهِمُ اسْتِدْرَاجًا مِنْكَ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ ، أَيْ : لِيَفْتَتِنَ بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ لِيَظُنَّ مَنْ أَغْوَيْتَهُ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْطَيْتَهُمْ هَذَا لِحُبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَائِكَ بِهِمْ ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : أَهْلِكْهَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : جَعَلَهَا اللهُ حِجَارَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : أَيِ اطْبَعْ عَلَيْهَا ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ كَانَتْ مِنْ مُوسَى عليه السلام غَضَبًا لله وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا يَجِيءُ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، كَمَا دَعَا نُوحٌ عليه السلام فَقَالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦-٢٧] ، وَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الَّتِي أَمَّنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : دَعَا مُوسَى وَأَمَّنَ هَارُونُ ، أَيْ : قَدْ أَجَبْنَاكُمَا فِيمَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ . **وَقَدْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ** مَنْ يَقُولُ : إِنَّ تَأْمِينَ الْمَأْمُومِ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ قِرَاءَتِهَا ، لِأَنَّ مُوسَى دَعَا وَهَارُونُ أَمَّنَ ، **وَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : كَمَا أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فَامْضِيَا لِأَمْرِي وَهِيَ الِاسْتِقَامَةُ .

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ فِي صُحْبَةِ مُوسَى عليه السلام وَهُمْ فِيمَا قِيلَ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ سِوَى الذُّرِّيَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا اِسْتَعَارُوا مِن الْقِبْطِ حُلِيًّا كَثِيرًا فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ ، فَاشْتَدَّ حَنَق فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقَالِيمِهِ ، فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أُبَّهَةٍ عَظِيمَةٍ وَجُيُوشٍ هَائِلَةٍ لِمَا يُرِيدُهُ الله تَعَالَى بِهِمْ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَسُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ ، فَلَحِقُوهُمْ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١]، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا اِنْتَهَوْا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَتَقَاتَلَ الْجَمْعَانِ ، وَأَلَحَّ أَصْحَابُ مُوسَى عليه السلام عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ : كَيْفَ الْمَخْلَصُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْلُكَ هَهُنَا ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢]فَعِنْدَ مَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ ، فَأَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ، فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء : ٦٣]أَيْ : كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، وَصَارَ اِثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا ، لِكُلِّ سِبْطٍ وَاحِدٌ ، وَأَمَرَ الله الرِّيحَ فَنَشَّفَتْ أَرْضَهُ ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه : ٧٧]وَتَخَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطُّرُقِ كَهَيْئَةِ الشَّبَابِيكِ لِيَرَى كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ ؛ لِئَلَّا يَظُنُّوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا ، وَجَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ اِنْتَهَى فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلَى حَافَّتِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَهُوَ فِي مِائَة أَلْفِ أَدْهَمَ سِوَى بَقِيَّةِ الْأَلْوَانِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَالَهُ وَأَحْجَمَ وَهَابَ وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ ، وَهَيْهَاتَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ، نَفَذَ الْقَدَرُ وَاسْتُجِيبَتِ الدَّعْوَةُ . وَجَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى فَرَسٍ وَدِيقٍ حَائِلٍ ، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانِ فِرْعَوْن فَحَمْحَمَ إِلَيْهَا ، وَاقْتَحَمَ جِبْرِيلُ الْبَحْرَ فَاقْتَحَمَ الْحِصَانُ وَرَاءَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْنُ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ

شَيْئًا ، فَتَجَلَّدَ لِأُمَرَائِهِ وَقَالَ لَهُمْ : لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقَّ بِالْبَحْرِ مِنَّا ، فَاقْتَحَمُوا كُلُّهمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقَتِهِمْ لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَامَلُوا وَهَمَّ أَوَّلُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ ، أَمَرَ اللهُ - الْقَدِيرُ - الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتَخْفِضُهُمْ وَتَرَاكَمَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ وَغَشِيَتْهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : وَهُوَ كَذَلِكَ ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فَآمَنَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدۡ خَلَتۡ فِى عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤- ٨٥]

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ أَيْ أَهَذَا الْوَقْتُ تَقُولُ ، وَقَدْ عَصَيْتُ اللهَ قَبْلَ هَذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَرْضِ ، الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : ٤١] وَهَذَا الَّذِي حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا فِي حَالِهِ ذَلِكَ ، مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ الَّتِي أَعْلَمَ اللهُ بِهَا رَسُولَهُ ﷺ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قَالَ لِي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ** : إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلَا رُوحٍ ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ لِيَتَحَقَّقُوا مَوْتَهُ وَهَلَاكَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أَيْ : نَرْفَعُكَ عَلَى نَشَزٍ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : بِجَسَدِكَ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ** : بِجِسْمٍ لَا رُوحَ فِيهِ ، **وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ** : سَوِيًّا صَحِيحًا ، أَيْ : لَمْ يَتَمَزَّقْ لِيَتَحَقَّقُوهُ وَيَعْرِفُوهُ ، **وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ** : بِدِرْعِكَ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا

(١) **إسناده صحيح** : لكنه أُعِلَّ بالوقف وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٤٠) .

مُنَافَاةَ بَيْنَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أَيْ : لِتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِكَ وَهَلَاكِكَ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ بِيَدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ ((لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ)) أَيْ : لَا يَتَّعِظُونَ بِهَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ، وَقَدْ كَانَ إِهْلَاكُهُمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ : ((**مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ ؟**)) فَقَالُوا : هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : ((**أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ ، فَصُومُوهُ**))(١).

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ قِيلَ : هُوَ بِلَادُ مِصْرَ وَالشَّامِ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَنَوَاحِيهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ اسْتَقَرَّتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُوسَوِيَّةِ عَلَى بِلَادِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٧ - ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : الْحَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا ، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أَيْ : مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، أَيْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا ، وَقَدْ

(١) البخاري (٤٦٨٠) ، ومسلم (١١٣٠) .

بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمُ اللَّبْسَ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ : « **إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً** »[1] ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

وَهَذَا فِيهِ تَثْبِيتٌ لِلْأُمَّةِ ، وَإِعْلَامٌ لَهُمْ أَنَّ صِفَةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ مَوْجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . ثُمَّ مَعَ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، يَلْبِسُونَ ذَلِكَ وَيُحَرِّفُونَهُ وَيُبَدِّلُونَهُ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أَيْ : لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا يَنْفَعُهُمْ ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وغيرهما .

عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ(١) : « **عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ** » ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أَتْبَاعِ مُوسَى ﷺ ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أُمَّتِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - كَثْرَةً سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ الشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ .

وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَى ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ وَهُمْ أَهْلُ نِينَوَى ، وَمَا كَانَ إِيمَانُهُمْ إِلَّا خَوْفًا مِنْ وُصُولِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُم بَعْدَ مَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، فَعِنْدَهَا جَأَرُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغَاثُوا بِهِ وَتَضَرَّعُوا لَهُ وَاسْتَكَانُوا وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ ، وَسَأَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللهُ وَكَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَأُخِّرُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ هَلْ كُشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ الْأُخْرَوِيُّ مَعَ الدُّنْيَوِيِّ ، أَوْ إِنَّمَا كُشِفَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا هُوَ مُقَيَّدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَالثَّانِي : فِيهِمَا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٤٧ - ١٤٨] فَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ ، وَالْإِيمَانُ مُنْقِذٌ مِنَ الْعَذَابِ الْأُخْرَوِيِّ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَاللهُ أَعْلَمُ .

(١) البخاري (٥٧٠٥) بنحوه ، وكذا مسلم (٢٢٠) .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا مُحَمَّدُ لَأَذِنَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ فَآمَنُوا كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أَيْ: تُلْزِمُهُمْ وَتُلْجِئُهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ بَلِ اللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ، الْمُضِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾، وَهُوَ الْخَبَالُ وَالضَّلَالُ ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: حُجَجَ الله وَأَدِلَّتَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آلَائِهِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ

الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ لِذَوِي الْأَلْبَابِ ، مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ كَوَاكِبَ نَيِّرَاتٍ ، ثَوَابِتَ وَسَيَّارَاتٍ ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاخْتِلَافِهِمَا ، وَإِيلَاجِ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ حَتَّى يَطُولَ هَذَا وَيَقْصُرَ هَذَا ، ثُمَّ يَقْصُرُ هَذَا وَيَطُولُ هَذَا ، وَارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَاتِّسَاعِهَا وَحُسْنِهَا وَزِينَتِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْهَا مِنْ مَطَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَأَخْرَجَ فِيهَا مِنْ أَفَانِينَ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْأَزَاهِيرِ وَصُنُوفِ النَّبَاتِ ، وَمَا ذَرَأَ فِيهَا مِنْ دَوَابٍّ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَنَافِعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَسُهُولٍ وَقِفَارٍ وَعُمْرَانٍ وَخَرَابٍ ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَمْوَاجِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلسَّالِكِينَ يَحْمِلُ سُفُنَهُمْ وَيَجْرِي بِهَا بِرِفْقٍ بِتَسْخِيرِ الْقَدِيرِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي الْآيَاتُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ وَالرُّسُلُ ، بِآيَاتِهَا وَحُجَجِهَا وَبَرَاهِينِهَا الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهَا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ٩٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهِمْ ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : وَنُهْلِكُ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ .
﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : حَقًّا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وَكَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي** »(١).

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن

(١) البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (حديث ٢٧٥١) .

دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ ، الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَتُكُم الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَقًّا فَأَنَا لَا أَعْبُدُهَا فَادْعُوهَا فَلْتَضُرَّنِي ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ ﴿ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : مُنْحَرِفًا عَنِ الشِّرْكِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الْآيَةُ . فِيهِ بَيَانٌ ؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضُّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى مِنَ الشِّرْكِ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله هُوَ الحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الاتِّبَاعِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أَيْ : وَمَا أَنَا مُوَكَّلٌ بِكُمْ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ وَالهِدَايَةُ عَلَى الله تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ أَيْ : تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ مِنَ النَّاسِ ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : يَفْتَحُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أَيْ : خَيْرُ الْفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونس وَلله الحَمْدُ والمِنَّةُ

تفسير سورة هود

وهي مكية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ ! قَالَ : ((**شَيَّبَتْنِي هُودٌ ، وَالْوَاقِعَةُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**))[1]. وَفِي رِوَايَةٍ : ((**هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**)) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أَيْ : هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي لَفْظِهَا ، مُفَصَّلَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، فَهُوَ كَامِلٌ صُورَةً ومَعَنًى . ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ الله ، الحَكِيم فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، الخَبِيرِ بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أَيْ : نَزَلَ هَذَا القُرْآنُ المُحْكَمُ المُفَصَّلُ لِعِبَادَةِ الله وَحْدهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أَيْ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ ، وَبَشِيرٌ بِالثَّوَابِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ ،كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صَعِدَ الصَّفَا فَدَعَا بُطُونَ قُرَيْشٍ ، الأَقْرَب ثُمَّ الأَقْرَبَ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ : ((**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟**)) فَقَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ

---

(١) الترمذي حديث (٣٢٩٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه ، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٣) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

كَذِبًا ، قَالَ : « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أَيْ : وَآمُرُكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى الله ﷻ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧]. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِسَعْدٍ : « **وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَوَامِرِ الله تَعَالَى وَكَذَّبَ رُسُله ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَيْ : مَعَادُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهِيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبٍ .

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا السَّمَاءَ بِفُرُوجِهِمْ وَحَالَ وِقَاعِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ . **وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ** ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ الْآيَةَ . قُلْتُ : يَا أَبَا الْعَبَّاسِ مَا تَثْنُونِي صُدُورَهُمْ ؟ قَالَ : الرَّجُلُ كَانَ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحْيِي أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحْيِي ، فَنَزَلَتْ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لَهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ ، فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ(٣).

---

(١) البخاري (٤٧٧٠) ، ومسلم (٢٠٨) .

(٢) البخاري (١٢٩٥) ، ومسلم (١٦٢٨) .

(٣) البخاري (٤٦٨٢) .

وَذُكِرَ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ يُغَطُّونَ رُءُوسَهُمْ . رُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ قَالُوا : يَعْنِي بِهِ الشَّكَّ فِي الله ، وَعَمَلَ السَّيِّئَاتِ ، أَيْ : أَنَّهُمْ كَانُوا يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ إِذَا قَالُوا شَيْئًا أَوْ عَمِلُوهُ ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله بِذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ عِنْدَ مَنَامِهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ مِنَ الْقَوْلِ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّيَّاتِ وَالضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ المَشْهُورَةِ :

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

فَقَدِ اعْتَرَفَ هَذَا الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ بِوُجُودِ الصَّانِعِ وَعِلْمِهِ بِالجُزْئِيَّاتِ وَبِالمَعَادِ وَبِالجَزَاءِ وَبِكِتَابَةِ الْأَعْمَالِ فِي الصُّحُفِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الله أَوْلَى لِقَوْلِهِ ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ » بِرَفْعِ الصُّدُورِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ ، وَهُوَ قَرِيبُ المَعْنَى .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ المَخْلُوقَاتِ مِنْ سَائِرِ دَوَابِّ الْأَرْضِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا بَحْرِيِّهَا وَبَرِّيِّهَا ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، أَيْ : يَعْلَمُ أَيْنَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَيْنَ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ وَكْرِهَا ، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُهَا ، وَقِيلَ : حَيْثُ تَمُوتُ ، وَقِيلَ : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ فِي الرَّحِمِ . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ فِي الصُّلْبِ كَالَّتِي فِي الْأَنْعَامِ ، وَبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ عِنْدَ الله مُبِينٌ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨]، وَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض فِي سِتَّةِ أَيَّام ، وَأَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى المَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ[1] قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اِقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم** » . قَالُوا : قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا قَالَ : « **اِقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ** » قَالُوا : قَدْ قَبِلْنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ ؟ قَالَ : « **كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ** » . قَالَ : فَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ : يَا عِمْرَانُ انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا ، قَالَ : فَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهَا فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي ، وَهَذَا الحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي صَحِيحَيْ الْبُخَارِيِّ[2] وَمُسْلِمٍ بِأَلْفَاظٍ كَثِيرَةٍ ، فَمِنْهَا قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ فَقَالَ : « **كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ** » وَفِي رِوَايَةٍ « **غَيْرَه** »[3] ، « **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** » .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ** »[4]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ ﷻ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** » . وَقَالَ : « **يَدُ الله مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** » ، وَقَالَ : « **أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ وَكَانَ**

---

(١) صحيح : أحمد في المسند (٤/ ٤٣١) .
(٢) البخاري (٧٤١٨) .
(٣) البخاري (٣١٩١) .
(٤) مسلم بنحوه (٢٦٥٣) .

عَرْشُهُ عَلَى الماءِ وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أَيْ : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِنَفْعِ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَخْلُق ذَلِكَ عَبَثًا كَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥-١١٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ، أَيْ : لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ « أَكْثَرُ عَمَلًا » بَلْ « أَحْسَنُ عَمَلًا » وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُون خَالِصًا لله ﷻ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَبِطَ وَبَطَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى : وَلَئِنْ أَخْبَرْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦١] ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبُدَاءَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وُقُوعِ الْبَعْثِ ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرْتَهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ تَعَالَى وَلَئِنْ أَخَّرْنَا الْعَذَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَحْصُورٍ ، وَأَوْعَدْنَاهُمْ إِلَى مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ، لَيَقُولُنَّ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْجَالًا : ﴿ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا ، فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلِفَتِ التَّكْذِيبَ وَالشَّكَّ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِيصٌ عَنْهُ وَلَا مَحِيدٌ . وَالْأُمَّةُ تُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَيُرَادُ بِهَا

---

(١) البخاري (حديث ٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .

الْأَمَدُ ، كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ ، وَقَوْلِهِ فِي يُوسُفَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[يوسف : ٤٥] ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْإِمَامِ الْمُقْتَدَى بِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل : ١٢٠] ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْمِلَّةِ وَالدِّينِ ، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف : ٢٣] ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْجَمَاعَةِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل : ٣٦] ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْأُمَّةِ هَهُنَا : الَّذِينَ يُبْعَثُ فِيهِمُ الرَّسُولُ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ** »(١) وَأَمَّا أُمَّةُ الِاتِّبَاعِ : فَهُمُ الْمُصَدِّقُونَ لِلرُّسُلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وَفِي الصَّحِيحِ : « **فَأَقُولُ أُمَّتِي ! أُمَّتِي** »(٢) ، وَتُسْتَعْمَلُ الْأُمَّةُ فِي الْفِرْقَةِ وَالطَّائِفَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾[آل عمران : ١١٣]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ، حَصَلَ لَهُ يَأْسٌ وَقُنُوطٌ مِنَ الْخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ، وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَاضِي الْحَالِ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرْجُ بَعْدَ

(١) مسلم (حديث ١٥٣) .
(٢) البخاري (٧٥١٠) .

ذَلِكَ فَرَجًا ، وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ﴾ أَيْ : يَقُولُ مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٌ وَلَا سُوءٌ ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أَيْ : فَرِحٌ بِمَا فِي يَدِهِ ، بَطِرٌ فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَيْ : عَلَى الشَّدَائِدِ وَالمَكَارِهِ ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أَيْ : فِي الرَّخَاءِ وَالْعَافِيَةِ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَّاءِ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرَّخَاءِ ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ وَلَا حَزَنٌ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا ، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**))(1) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ**))(2) ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩- ٢٢]

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَعَنَّتُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِم (٢٩٩٩) ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا له ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) .

كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان : ٧ - ٨] . فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ لَا يَضِيقَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ صَدْرُهُ وَلَا يَصُدَّنهُ ذَلِكَ وَلَا يُثْنِيَنَّهُ عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى الله ﷻ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] . وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ ﴾ أَيْ : لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَلَك أُسْوَةٌ بِإِخْوَانِكَ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَكَ ، فَإِنَّهُمْ كُذِّبُوا وَأُوذُوا فَصَبَرُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُ الله ﷻ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، لأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُشْبِهُ كَلَامَ المَخْلُوقِينَ ، كَمَا أَنَّ صِفَاتَهُ لَا تُشْبِهُ صِفَاتَ المُحْدَثَاتِ . وَذَاتُهُ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾ أَيْ : فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارَضَةِ مَا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله مُتَضَمِّنٌ عِلْمَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ أَهْلَ الرِّيَاءِ يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ، يَقُولُ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا الْتِمَاسَ الدُّنْيَا ، صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا الْتِمَاسُ الدُّنْيَا ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أُوَفِّيهِ الَّذِي الْتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ المَثَابَةِ ، وَحَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لِالْتِمَاسِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ .

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَنِيَّتَهُ وَسَدَمَهُ جَازَاهُ الله بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى

بِهَا جَزَاءً وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠]

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَةِ الله تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ ، مِنَ الاعْتِرَافِ لَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم : ٣٠] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟** »(١) الْحَدِيثُ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حَمَارٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : « **يَقُولُ الله تَعَالَى : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ الله ، وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُكَمَّلَةِ الْمُعَظَّمَةِ ، الْمُخْتَتَمَةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أَنَّهُ جِبْرِيلُ ؑ وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا - بَلَّغَ رِسَالَةَ الله تَعَالَى ، فَجِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَمُحَمَّدٌ إِلَى الْأُمَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَهُ مِنَ الْفِطْرَةِ مَا يَشْهَدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ

---

(١)صحيح : وقد تقدم .
(٢)صحيح : وقد تقدم

حَيْثُ الجُمْلَةِ ، وَالتَّفَاصِيلُ تُؤْخَذُ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَالفِطْرَةُ تُصَدِّقُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بَلَّغَهُ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَلَّغَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺإِلَى أُمَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ إِمَامًا لَهُمْ ، وَقُدْوَةً يَقْتَدُونَ بِهَا ، وَرَحْمَةً مِنَ اللهِ بِهِمْ ، فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ أَيْ : وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مُشْرِكِهِمْ وَكَافِرِهِمْ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مِمَّنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ ، وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي ، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ** »[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ . أَيْ : الْقُرْآنُ حَقٌّ مِنَ اللهِ لَا مِرْيَةَ وَلَا شَكَّ فِيهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [السجدة : ١-٢]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

(١) مسلم (١٥٣) بنحوه .

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى حَالَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ ، وَفَضِيحَتَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ ، **عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ**(١) قَالَ : كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ قَالَ : كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُول : « **إِنَّ اللهَ ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرَهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ** : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ».

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمُوَصِّلَةِ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَيُجَنِّبُونَهُمُ الْجَنَّةَ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ ﴿ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : جَاحِدُونَ بِهَا ، مُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا وَكَوْنِهَا .

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** »(٢) ،

---

(١) أحمد في المسند (٢/ ٧٤) ، والبخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .
(٢) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الْآيَةُ . أَيْ : يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ، بَلْ كَانُوا صُمًّا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ ، عُمْيًا عَنِ اتِّبَاعِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ حِينَ دُخُولِهِمُ النَّارَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل : ٨٨] ، وَلِهَذَا يُعَذَّبُونَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ تَرَكُوهُ ، وَعَلَى كُلِّ نَهْيٍ ارْتَكَبُوهُ ، وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ : أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِفُرُوعِ الشَّرَائِعِ ، أَمْرُهَا وَنَهْيُهَا ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ .

قَوْلُهُ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لأَنَّهُمْ أُدْخِلُوا نَارًا حَامِيَةً ، فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ، فَلَمْ تُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا ، بَلْ ضَرَّتْهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى خُسْرِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِهِمْ أَنَّهُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لأَنَّهُمُ اسْتَبْدَلُوا الدَّرَكَاتِ عَنِ الدَّرَجَاتِ ، وَاعْتَاضُوا عَنْ نَعِيمِ الجِنَانِ بِحَمِيمٍ آنٍ ، وَعَنْ شُرْبِ الرَّحِيقِ المَخْتُومِ بِسَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، وَعَنِ الحُورِ العِينِ بِطَعَامٍ مِنْ غِسْلِينٍ ، وَعَنِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ بِالْهَاوِيَةِ ، وَعَنْ قُرْبِ الرَّحْمَنِ وَرُؤْيَتِهِ بِغَضَبِ الدَّيَّانِ وَعُقُوبَتِهِ ، فَلَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ ، وَهُم الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَآمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، مِنَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَبِهَذَا وَرِثُوا الْجَنَّاتِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْغُرَفِ الْعَالِيَاتِ ، وَالسُّرَرِ الْمَصْفُوفَاتِ ، وَالْقُطُوفِ الدَّانِيَاتِ ، وَالْفُرُشِ الْمُرْتَفِعَاتِ ، وَالْحِسَانِ الْخَيْرَاتِ ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُتَنَوِّعَاتِ ، وَالْمَآكِلِ الْمُشْتَهَيَاتِ ، وَالْمَشَارِبِ الْمُسْتَلَذَّاتِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ لَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَهْرَمُونَ ، وَلَا يَمْرَضُونَ ، وَلَا يَنَامُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَبْصُقُونَ ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَشْحُ مِسْكٍ يَعْرَقُونَ .

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِالشَّقَاءِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ بِالسَّعَادَةِ ، فَأُولَئِكَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ ، أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ الْحُجَجِ فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[الأنفال : ٢٣] . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَفَطِنٌ ذَكِيٌّ لَبِيبٌ بَصِيرٌ بِالْحَقِّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ فَيَتَّبِعُ الْخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّبْهَةِ فَلَا يُرَوَّجُ عَلَيْهِ بَاطِلٌ فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ فَتُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[الحشر : ٢٠]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ﷺ وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةَ الْأَصْنَامِ ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرُ النِّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، إِنْ أَنْتُمْ عَبَدْتُمْ غَيْرَ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : إِنِ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذَّبَكُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا شَاقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ وَالْمَلَأُ : هُمُ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أَيْ : لَسْتَ بِمَلَكٍ وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا ، ثُمَّ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ، كَالْبَاعَةِ وَالحَاكَةِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعْكَ الْأَشْرَافُ وَلَا الرُّؤَسَاءُ مِنَّا ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَرَوٍّ مِنْهُمْ وَلَا فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتُهُمْ أَجَابُوكَ فَاتَّبَعُوكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أَيْ : فِي أَوَّلِ بَادِئَ الرَّأْيِ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا فَضِيلَةً فِي خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ وَلَا رِزْقٍ وَلَا حَالٍ ، لَمَّا دَخَلْتُمْ فِي دِينِكُمْ هَذَا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تَدَّعُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ إِذْ صِرْتُمْ إِلَيْهَا . هَذَا اعْتِرَاضُ الْكَافِرِينَ عَلَى نُوحٍ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ ، وَعَقْلِهِمْ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَارٍ عَلَى الحَقِّ رَذَالَةُ مَنِ اتَّبَعَهُ ، فَإِنَّ الحَقَّ فِي نَفْسِهِ صَحِيحٌ سَوَاءٌ اتَّبَعَهُ الْأَشْرَافُ أَوِ الْأَرَاذِلُ ، بَلِ الحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أَتْبَاعَ الحَقِّ هُمُ الْأَشْرَافُ وَلَوْ كَانُوا فُقَرَاءَ ، وَالَّذِينَ يَأْبَوْنَهُ هُمُ الْأَرَاذِلُ وَلَوْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ ، ثُمَّ الْوَاقِعُ غَالِبًا أَنَّ مَا يَتَّبِعُ الحَقَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ . وَالْغَالِبُ على الْأَشْرَافِ وَالْكُبَرَاءِ مُخَالَفَتُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، وَلَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ عَنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَوْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ قَالَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ . فَقَالَ هِرَقْلُ : هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ لَيْسَ بِمَذَمَّةٍ وَلَا عَيْبٍ ، لأَنَّ الحَقَّ إِذَا وَضَحَ لَا

يَبْقَى لِلرَّأْيِ وَلَا لِلْفِكْرِ مَجَالٌ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ - وَالحَالَةُ هَذِهِ - لِكُلِّ ذِي زَكَاءٍ وَذَكَاءٍ ، بَلْ لَا يُفَكِّرُ هَهُنَا إِلَّا غَبِيٌّ أَوْ عَيِيٌّ ، وَالرُّسُلُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - إِنَّمَا جَاءُوا بِأَمْرٍ جَلِيٍّ وَاضِحٍ . ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ عُمْيٌ عَنِ الحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ ، بَلْ هُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ يَعْمَهُونَ ، وَهُمُ الْأَفَّاكُونَ الْكَاذِبُونَ الْأَقَلُّونَ الْأَرْذَلُونَ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ : عَلَى يَقِينٍ وَأَمْرٍ جَلِيٍّ وَنُبُوَّةٍ صَادِقَةٍ ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ الله بِهِ وَبِهِمْ ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا ، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدْرَهَا ، بَلْ بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَرَدِّهَا ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أَيْ : نَغْصِبُكُمْ بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ .

وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ لِقَوْمِهِ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نُصْحِي لَكُمْ مَالًا أُجْرَةً آخُذُهَا مِنْكُمْ ، إِنَّمَا أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ الله ﷻ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ ، احْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ ، كَمَا سَأَلَ أَمْثَالُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضُّعَفَاءِ وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ [الأنعام : ٥٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣]

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ الله ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، بِإِذْنِ الله لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا ، بَلْ هُوَ يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ ، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ الله ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَلْ هُوَ بَشَرٌ مُرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْقِرُونَهُمْ وَتَزْدَرُونَهُمْ إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ الله ثَوَابٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ - فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَوْ قَطَعَ لَهُمْ أَحَدٌ بِشَرٍّ بَعْدَ مَا آمَنُوا لَكَانَ ظَالِمًا ، قَائِلًا مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ الله وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ - . ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ أَيْ : حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَحْنُ لَا نَتَّبِعُكَ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أَيْ : مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، اُدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعَجِّلُهَا لَكُمُ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاغِي لَكُمْ وَإِنْذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَيْ : إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ مَالِكُ أَزِمَّةِ الْأُمُورِ ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ ،

الَّذِي لَا يَجُوزُ لَهُ الخَلْقُ ، وَلَهُ الأَمْرُ وَهُوَ المُبْدِئُ المُعِيدُ ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ فِي وَسَطِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُؤَكِّدٌ لَهَا مُقَرِّرٌ لَهَا ، يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْجَاحِدُونَ : اِفْتَرَى هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أَيْ : فَإِثْمُ ذَلِكَ عَلَيَّ ﴿ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرًى ، لأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ لَمَّا اسْتَعْجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللهِ بِهِمْ وَعَذَابَهُ لَهُمْ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يُهِمَّنَّكَ أَمْرُهُمْ .

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ يَعْنِي : السَّفِينَةَ ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أَيْ : بِمَرْأًى مِنَّا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أَيْ : تَعْلِيمِنَا لَكَ مَا تَصْنَعُهُ ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ أَيْ : يَهْزَءُونَ بِهِ ، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنكُمْ ﴾ الْآيَة . وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أَيْ : يُهِينُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أَيْ : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هَذِهِ مُوَاعَدَةٌ مِنَ الله تَعَالَى لِنُوحٍ عليه السلام إِذَا جَاءَ أَمْرُ الله مِنَ الْأَمْطَارِ الْمُتَتَابِعَةِ وَالْهَتَّانِ الَّذِي لَا يُقْلِعُ وَلَا يَفْتُرُ بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١١ - ١٤]، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ التَّنُّورُ : وَجْهُ الْأَرْضِ ، أَيْ صَارَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا تَفُورُ ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَانِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ صَارَتْ تَفُورُ مَاءً ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْخَلَفِ .

فَحِينَئِذٍ أَمَرَ اللهُ نُوحًا عليه السلام أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ ، قِيلَ : وَغَيْرُهَا مِنَ النَّبَاتَاتِ اثْنَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أَيْ : وَاحْمِلْ فِيهَا أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالله ، فَكَانَ مِنْهُم ابْنُهُ « يَام » الَّذِي انْعَزَلَ وَحْدَهُ وَامْرَأَةِ نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِالله وَرَسُولِهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أَيْ : مِنْ قَوْمِكَ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أَيْ : نَزْرٌ يَسِيرٌ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ وَالْمُقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ

بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أُمِرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ أَيْ : بِسْمِ اللهِ يَكُونُ جَرْيُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَبِسْمِ اللهِ يَكُونُ مُنْتَهَى سَيْرُهَا وَهُوَ رُسُوُّهَا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[المؤمنون : ٢٨- ٢٩] ، وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ التَّسْمِيَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ عِنْدَ الرُّكُوبِ عَلَى السَّفِينَةِ وَعَلَى الدَّابَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[الزخرف : ١٢-١٤] . وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّدْبِ إِلَيْهِ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مُنَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الِانْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] ، وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الرعد : ٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَقْرِنُ فِيهَا بَيْنَ رَحْمَتِهِ وَانْتِقَامِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ أَيْ : السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَتْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ ، وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا بِخَمْسَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَقِيلَ : بِثَمَانِينَ مِيلًا ، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، سَائِرَةٌ بِإِذْنِ اللهِ وَتَحْتَ كَنَفِهِ وَعِنَايَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ وَامْتِنَانِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[الحاقة : ١١- ١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر : ١٣- ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ الْآيَةُ . وَكَانَ كَافِرًا ، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْدَ رُكُوبِ السَّفِينَةِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَرْكَبَ مَعَهُمْ ، وَلَا يَغْرَقَ مِثْلَمَا يَغْرَقُ الْكَافِرُونَ ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ

يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ اعْتَقَدَ بِجَهْلِهِ أَنْ الطُّوفَانَ لَا يَبْلُغُ إِلَى رُءُوسِ الجِبَالِ ، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ ﷺ: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ شَيْءٌ يَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الله ، **وَقِيلَ** : إِنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ ، كَمَا يُقَالُ : طَاعِمٌ وَكَاسٍ بِمَعْنَى مَطْعُومٌ وَمَكْسُوٌّ ﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾ .

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهِمْ إِلَّا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، أَمَرَ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا ، وَأَمَرَ السَّمَاءَ أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الْمَطَرِ ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ أَيْ : شَرَعَ فِي النَّقْصِ ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ أَيْ : فُرِغَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِالله ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَيَّارٌ ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ ﴾ السَّفِينَةُ بِمَنْ فِيهَا ﴿ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ جَبَلٌ بِالجَزِيرَةِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : قَدْ أَبْقَى اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ ﷺ عَلَى الْجُودِيِّ مِنْ أَرْضِ الجَزِيرَةِ ، عِبْرَةً وَآيَةً حَتَّى رَآهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَكَمْ مِنْ سَفِينَةٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَهَا فَهَلَكَتْ وَصَارَتْ رَمَادًا . **وَقِيلَ** : الْجُودِيُّ : جَبَلٌ بِالْمَوْصِلِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الطُّورُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مَعَهُمْ أَهْلُوهُمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا مِائَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، وَأَنَّ اللهَ وَجَّهَ السَّفِينَةَ إِلَى مَكَّةَ فَطَافَتْ بِالْبَيْتِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ وَجَّهَهَا اللهُ إِلَى الجُودِيِّ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ ، فَبَعَثَ نُوحٌ الْغُرَابَ لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَرْضِ فَذَهَبَ فَوَقَعَ عَلَى الجِيَفِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ ، فَبَعَثَ الحَمَامَةَ فَأَتَتْهُ بِوَرَقِ الزَّيْتُونِ فَلَطَّخَتْ رِجْلَيْهَا بِالطِّينِ ، فَعَرَفَ نُوحٌ ﷺ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ نَضَبَ فَهَبَطَ إِلَى أَسْفَلِ الجُودِيِّ ، فَابْتَنَى قَرْيَةً وَسَمَّاهَا ثَمَانِينَ ، فَأَصْبَحُوا ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ تَبَلْبَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى ثَمَانِينَ لُغَةً إِحْدَاهَا اللِّسَانُ الْعَرَبِيّ ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَفْقَهُ كَلَامَ بَعْضٍ ، فَكَانَ نُوحٌ ﷺ يُعَبِّرُ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أَيْ : هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ مِنْ نُوحٍ ﷺ عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أَيْ : وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُخْلَفُ ، فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ؟ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَعَدْتُ إِنْجَاءَهُمْ ، لِأَنِّي إِنَّمَا وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فَكَانَ هَذَا الْوَلَدُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ ، لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيُّ اللهِ نُوحًا ﷺ ، **وَقَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ** عَلَى تَخْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْنَ زَنْيَةٍ ، وَيُحْكَى الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ابْنَ امْرَأَتِهِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ **وَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ ، فَمِمَّنْ قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ، احْتَجَّ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ . **وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ** : ابْنُ امْرَأَتِهِ وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ مَا أَرَادَ الْحَسَنُ أَوْ أَرَادَ أَنَّهُ نُسِبَ إِلَيْهِ مَجَازًا لِكَوْنِهِ كَانَ رَبِيبًا عِنْدَهُ - فَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : مَا زَنَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ[1] قَالَ : وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ وَعَدْتُكَ نَجَاتَهُمْ ، **وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ** ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَغْيَرُ مِنْ أَنْ يُمَكِّنَ امْرَأَةَ نَبِيٍّ مِنَ الْفَاحِشَةِ ، وَلِهَذَا غَضِبَ اللهُ عَلَى الَّذِينَ رَمَوْا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ ،

---

(١) صحيح : وله طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وَأَنْكَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهَذَا وَأَشَاعُوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] **وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : هُوَ ابْنُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَالَفَهُ فِي الْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ **قَالَ عِكْرِمَةُ** : فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ : إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ ، وَالْخِيَانَةُ تَكُون عَلَى غَيْرِ بَابٍ .

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ قَتَّةَ قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ - وَهُوَ إِلَى جَنْبِ الْكَعْبَةِ - عَنْ قَوْلِ الله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قَالَ : أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالزِّنَا ، وَلَكِنْ كَانَتْ هَذِهِ تُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَكَانَتْ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى الْأَضْيَافِ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ** : وَأَخْبَرَنِي عَمَّارُ الذَّهَبِيُّ أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : كَانَ ابْنُ نُوحٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَكْذِبُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ . قَالَ : وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَا فَجَرَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ . وَهُوَ اِخْتِيَارُ أَبِي جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ ، **وَهُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ** .

قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ ﷺ حِين أَرْسَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ ، مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : دَخَلَ فِي هَذَا السَّلَامِ كُل مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَذَلِكَ فِي الْعَذَابِ وَالْمَتَاعِ كُلّ كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَأَشْبَاهُهَا ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْ أَخْبَارِ

الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : نُعْلِمَكَ بِهَا وَحْيًا مِنَّا إِلَيْكَ ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا مِنْهُ ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَك ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بِعِنَايَتِنَا وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَك وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَاخْتَلَقُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أُجْرَةً عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللهِ ، إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللهِ الَّذِي فَطَرَهُ ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةٍ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ ، وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحَفِظَ شَأْنَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ

أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَلَى مَا تَدَّعِيهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أَيْ : بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ أَتْرُكُوهُمْ نَتْرُكُهُمْ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بِمُصَدِّقِينَ ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ يَقُولُونَ : مَا نَظُنُّ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْآلِهَةِ أَصَابَكَ بِجُنُونٍ وَخَبَلٍ فِي عَقْلِكَ ، بِسَبَبِ نَهْيِكَ عَنْ عِبَادَتِهَا وَعَيْبِكَ لَهَا ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَقُول : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ وَآلِهَتُكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أَيْ : طَرْفَةَ عَيْنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أَيْ : تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ ، فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْمَقَامُ حُجَّةً بَالِغَةً وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تُوَالِي وَلَا تُعَادِي ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ : اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَلَهُ التَّصَرُّفُ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا تَحْتَ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الحُجَّةُ بِإِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ ، بَلْ يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ : شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَنَجَّى هُودًا وَأَتْبَاعَهُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ، بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كَفَرُوا بِهَا ، وَعَصَوْا رُسُلَ اللهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ ، فَعَادٌ كَفَرُوا بِهُودٍ فَنَزَلَ كُفْرُهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ تَرَكُوا اتِّبَاعَ رَسُولِهِمُ الرَّشِيدِ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، فَلِهَذَا أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً مِنَ اللهِ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا ، وَيُنَادَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : مَا بُعِثَ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إِلَّا لُعِنُوا عَلَى لِسَانِهِ .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالمَدِينَةِ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ ، فَبَعَثَ اللهُ مِنْهُمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أَيْ : ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنْهَا ، خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أَيْ : جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغِلُّونَهَا ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦]

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ ﷺ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أَيْ: كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُنَا ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أَيْ: شَكٌّ كَثِيرٌ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَى يَقِينٍ وَبُرْهَانٍ ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الحَقِّ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أَيْ: خَسَارَةٍ.

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهَا فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ(١) بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، فَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ

(١) الآيات: (٧٣ - ٧٩).

أن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾ وَهُمُ المَلَائِكَةُ ﴿ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ **قِيلَ** : تُبَشِّرُهُ بِإِسْحَاقَ ، **وَقِيلَ** : بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَيَشْهَدُ لِلأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ أَيْ : عَلَيْكُمْ . **قَالَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ** : هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ ؛ لأَنَّ الرَّفْعَ يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالدَّوَامِ ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ ، وَهُوَ عِجْلُ فَتَى البَقَرِ ، حَنِيذٌ : مَشْوِيٌّ عَلَى الرَّضْفِ وَهِيَ الحِجَارَةُ الْمُحْمَاةُ . كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٦- ٢٧] ، وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آدَابَ الضِّيَافَةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ تَنَكَّرَهُمْ ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ المَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ ، فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ فَارِغِينَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ المَلَائِكَةِ : ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ أَيْ : قَالُوا لَا تَخَفْ مِنَّا إِنَّا مَلَائِكَةٌ ، أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لِنُهْلِكَهُمْ ، فَضَحِكَتْ سَارَةُ اسْتِبْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ وَغِلَظِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبِشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَاسِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ضَحِكَتْ وَعَجِبَتْ أَنَّ قَوْمًا يَأْتِيهِمِ الْعَذَابُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ . **وَقِيلَ** : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ أَيْ : حَاضَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أَيْ : بِوَلَدٍ لَهَا يَكُونُ لَهُ

وَلَدٌ وَعَقِبٌ وَنَسْلٌ ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ إِسْحَاقَ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣]، وَمِنْ هَهُنَا اسْتَدَلَّ مَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقَ لأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ ، وَأَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ ، وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ بَعْدُ يَعْقُوبُ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ ، وَوَعْدُ اللهِ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالحَالَةُ هَذِهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الاسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ وَللهِ الحَمْدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ الْآيَةُ . حَكَى قَوْلَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا حَكَى فِعْلَهَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، فَإِنَّهَا : ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ ، وَفِي الذَّارِيَاتِ ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات ٢٩] كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النِّسَاءِ فِي أَقْوَالِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ عِنْدَ التَّعَجُّبِ . ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا : لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا ، وَإِنْ كُنْتِ عَجُوزًا عَقِيمًا ، وَبَعْلُكِ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَإِنَّ اللهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

قَوْلُهُ : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، مَحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُمْ قَالُوا : قَدْ عَلِمْنَا السَّلَامَ عَلَيْكَ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** »(١).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ

(١) البخاري (٣٣٧٠) ، ومسلم (٤٠٧) .

رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، وَهُوَ مَا أَوْجَسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا، وَبَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، أَخَذَ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ مَدْحٌ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الْآيَة. أَيْ: إِنَّهُ قَدْ نَفَذَ فِيهِمُ الْقَضَاءُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ وَحُلُولِ الْبَأْسِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدُومِ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَعْدَ مَا أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيمَ بِهَلَاكِهِمْ وَفَارَقُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِ اللهِ قَوْمَ لُوطٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَانْطَلَقُوا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَوْا لُوطًا ﷺ وَهُوَ عَلَى مَا قِيلَ فِي أَرْضٍ لَهُ، وَقِيلَ: فِي مَنْزِلِهِ، وَوَرَدُوا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ تَكُونُ عَلَى هَيْئَةِ شُبَّانٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ اِبْتِلَاءً مِنَ اللهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَسَاءَهُ شَأْنُهُمْ وَضَاقَتْ نَفْسُهُ بِسَبَبِهِمْ، وَخَشِيَ إِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ أَنْ يُضَيِّفَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَنَالَهُمْ بِسُوءٍ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ**: شَدِيدٌ بَلَاؤُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُدَافِعُ عَنْهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ هَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى

أُخِذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحَالِ ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يُرْشِدُهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ ، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦] ، وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٠] أَيْ : أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ ضِيَافَةِ الرِّجَالِ ﴿ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧١ - ٧٢] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ لَمْ يَكُنَّ بَنَاتُهُ ، لَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِهِ وَكُلُّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ . **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَزَوَّجُوا النِّسَاءَ وَلَمْ يَعْرِضْ عَلَيْهِمْ سِفَاحًا . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ لِذَلِكَ بِمَا فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجه أُمَّهَاتهمْ وَهُوَ أَب لَهُمْ**) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ أَيْ : اقْبَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَى نِسَائِكُمْ ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أَيْ : فِيهِ خَيْرٌ يَقْبَلُ مَا آمُرُهُ بِهِ وَيَتْرُكُ مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ ؟ ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أَيْ : إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءَنَا لَا أَرَبَ لَنَا فِيهِنَّ وَلَا نَشْتَهِيهِنَّ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ إِلَّا فِي الذُّكُورِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ فِي تَكْرَارِ الْقَوْلِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ؟ **قَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إِنَّمَا نُرِيدُ الرِّجَالَ .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ لُوطًا عليه السلام إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الْآيَة . أَيْ : لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ ، وَفَعَلْتُ بِكُمُ الْأَفَاعِيلَ بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي . عَنْ أَبِي

هُرَيْرَة أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**رَحْمَةُ الله عَلَى لُوطٍ ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**))(١) فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ المَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ الله إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَيْهِ . ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ وَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَأَنْ يَتَّبِعَ أَدْبَارَهُمْ أَيْ : يَكُونَ سَاقَةً لِأَهْلِهِ ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعْتَ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَلَا تَهُولَنَّكُمْ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْمُزْعِجَةُ ، وَلَكِنِ اسْتَمِرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ **قَالَ الْأَكْثَرُونَ** : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمُثْبَتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ تَقْدِيرُهُ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ ، وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَنَصَبَ هَؤُلَاءِ (اِمْرَأَتَكَ) لِأَنَّهُ مُثْبَتٌ فَوَجَبَ نَصْبُهُ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ تَبْشِيرًا لَهُ ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : أَهْلِكُوهُمُ السَّاعَةَ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . هَذَا وَقَوْمُ لُوطٍ وُقُوفٌ عَلَى الْبَابِ عُكُوفٌ ، قَدْ جَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَلُوطٌ وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ يُدَافِعُهُمْ وَيَرْدَعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ بَلْ يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عليه السلام فَضَرَبَ وُجُوهَهُمْ بِجَنَاحِهِ فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ ، فَرَجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيقَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[القمر : ٣٧]

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا ﴾ وَهِيَ سَدُومُ ﴿ سَافِلَهَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾[النجم : ٥٤] أَيْ : أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ، وَهِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ : حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : أَيْ : مِنْ (سَنْكٍ) وَهُوَ الحَجَرُ ، و (كل) وَهُوَ الطِّين ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾[الذاريات : ٣٣] أَيْ : مُسْتَحْجِرَةً قَوِيَّةً شَدِيدَةً ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مَشْوِيَّةً ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : سِجِّيلٍ : الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ سِجِّيل

(١) إسناده حسن : وأخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٣٢) وأصله في البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١) ولفظه (... وَيَرْحَمُ الله لوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلى ركنٍ شديدٍ) .

وَسِجِّين اللَّام وَالنُّون أُخْتَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : مَنْضُودَةٌ فِي السَّمَاءِ أَيْ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أَيْ : يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فِي نُزُولِهَا عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَيْ : مُعَلَّمَةً مَخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِهَا ، كُلُّ حَجَرٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ اِسْمَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أَيْ : وَمَا هَذِهِ النِّقْمَةُ مِمَّنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ بِبَعِيدٍ عَنْهُ ، **وَذَهَبَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلٍ عَنْهُ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى** : أَنَّ اللَّائِطَ يُقْتَلُ سَوَاءً كَانَ مُحْصَنًا أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ ، **وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى** : أَنَّهُ يُلْقَى مِنْ شَاهِقٍ وَيُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ ، كَمَا فَعَلَ اللهُ بِقَوْمِ لُوط ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ وَهُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّام قَرِيبًا مِنْ مَعَانٍ . بِلَادًا تُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا مَدْيَنُ ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أَيْ : فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُسْلَبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ بِانْتِهَاكِكُمْ مَحَارِمَ اللهِ ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

يَنْهَاهُمْ أَوَّلًا عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِذَا أَعْطَوْا النَّاسَ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْكَيْلِ

وَالْوَزْنِ بِالْقِسْطِ ، آخِذِينَ وَمُعْطِينَ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعُتُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ **قِيلَ الْمُرَادُ** : رِزْقُ الله خَيْرٌ لَكُمْ . أي : مَنْ بَخْسِكُم النَّاس ، **وَقِيلَ** : وَصِيَّةُ الله خَيْرٌ لَكُمْ ، **وَقِيلَ** : طَاعَةُ الله ، **وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْنُ جَرِير** ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالمِيزَانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ . **قُلْتُ** : وَيُشْبِهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾[المائدة : ١٠٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أَيْ : بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيظٍ ، أَي اِفْعَلُوا ذَلِكَ لله ﷻ ، لَا تَفْعَلُوهُ لِيَرَاكُمُ النَّاسُ بَلْ لله ﷻ .

قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّم - قَبَّحَهُمُ اللهُ -: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾ **قِيلَ الْمُرَادُ** : قِرَاءَتُكَ ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أَيْ : الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾ فَنَتْرُكَ التَّطْفِيفَ عَنْ قَوْلِكَ ، وَهِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نُرِيدُ ، **قَالَ الحَسَنُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أي : وَالله إِنَّ صَلَاتَهُ لَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ، ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْم** : يَقُولُونَ ذَلِكَ أَعْدَاءُ الله عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ ، قَبَّحَهُمُ اللهُ وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَدْ فَعَلَ .

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ : ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ يَا قَوْم ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ **قِيلَ** : أَرَادَ النُّبُوَّةَ ، **وَقِيلَ** : أَرَادَ الرِّزْقَ الحَلَالَ وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ ، **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ** : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾

أَيْ : لَا أَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّيْءِ وَأُخَالِفُ أَنَا فِي السِّرِّ فَأَفْعَلُهُ خُفْيَةً عَنْكُمْ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ يَقُولُ : لَمْ أَكُنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ أَمْرٍ وَأَرْتَكِبُهُ ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أَيْ : فِيمَا آمُرُكُمْ وَأَنْهَاكُمْ ، إِنَّمَا أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ جَهْدِي وَطَاقَتِي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أَيْ : فِي إِصَابَةِ الحَقِّ فِيمَا أُرِيدُهُ ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أَيْ : أَرْجِعُ .

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ[1] : أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ نَاسًا مِنْ قَوْمِي فِي تُهْمَةٍ فَحَبَسَهُمْ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ عَلَامَ تَحْبِسُ جِيرَانِي ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ : إِنَّ نَاسًا لَيَقُولُونَ إِنَّك تَنْهَى عَنِ الشَّيْءِ وَتَسْتَخْلِي بِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَا تَقُولُ ؟** » قَالَ : فَجَعَلْتُ أُعْرِض بَيْنَهُمَا كَلَامًا مَخَافَةَ أَنْ يَسْمَعُهَا ، فَيَدْعُو عَلَى قَوْمِي دَعْوَةً لَا يُفْلِحُونَ بَعْدَهَا أَبَدًا ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى فَهِمَهَا فَقَالَ : « **قَدْ قَالُوهَا ؟** » أَوْ « **قَائِلِهَا مِنْهُمْ ، وَالله لَوْ فَعَلْتُ لَكَانَ عَلَيَّ وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ خَلُّوا عَنْ جِيرَانِهِ** » مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ رسولِ الله ﷺ : « **إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِين ، لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ** »[2]. وَمَعْنَاهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مَهْمَا بَلَغَكُمْ عَنِّي مِنْ خَيْرٍ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَكْرُوهٍ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ ، **عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ** : جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَتْ : تَنْهَى عَنِ الْوَاصِلَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : فَعَلَهُ بَعْضُ نِسَائِكَ ، فَقَالَ : مَا حَفِظْتُ وَصِيَّةَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ إِذًا ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٥/ ٢) .

(٢) إسناده صحيح : وأخرجه أحمد (٣/ ٤٩٧) ، (٥/ ٤٢٥) .

يَقُولُ لَهُمْ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ أَيْ : لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتِي وَبُغْضِي عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ ، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ هُودٍ وَقَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ يَقُولُ : وَيَحْمِلَنَّكُمْ فِرَاقِي ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : عَدَاوَتِي عَلَى أَنْ تَتَمَادَوْا فِي الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ فَيُصِيبَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا أَصَابَهُمْ . **وَعَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى الْكِنْدِيِّ قَالَ** : كُنْتُ مَعَ مَوْلَايَ أُمْسِكُ دَابَّتَهُ ، وَقَدْ أَحَاطَ النَّاسُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ إِذْ أَشْرَفَ عَلَيْنَا مِنْ دَارِهِ فَقَالَ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ يَا قَوْمِ لَا تَقْتُلُونِي إِنَّكُمْ إِنْ قَتَلْتُمُونِي كُنْتُمْ هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ فِي الزَّمَانِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي إِنَّمَا هَلَكُوا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ بِالْأَمْسِ ، **وَقِيلَ** : فِي الْمَكَانِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَانِ ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ﴾ رَبَّكُمْ مِنْ سَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَابَ .

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

يَقُولُونَ : ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ مَا نَفْهَمُ ﴿ كَثِيرًا ﴾ مِنْ قَوْلِكَ ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : كَانَ يُقَالُ لَهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قَالَ : أَنْتَ وَاحِدٌ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : يَعْنُونَ ذَلِيلًا ؛ لِأَنَّ عَشِيرَتَكَ لَيْسُوا عَلَى دِينِكَ ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ أَيْ : قَوْمُكَ ، لَوْلَا مَعَزَّتُهُمْ عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاكَ ، **قِيلَ** : بِالْحِجَارَةِ ، **وَقِيلَ** : لَسَبَبْنَاكَ ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ مَعَزَّةٌ .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يَقُولُ : أَتَتْرُكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي ، وَلَا تَتْرُكُونِي إِعْظَامًا لِجَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، أَنْ تَنَالُوا نَبِيَّهُ بِمُسَاءَةٍ وَقَدِ اتَّخَذْتُمُ

كِتَابَ الله ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أَيْ : نَبَذْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ ، وَلَا تُطِيعُونَهُ وَلَا تُعَظِّمُونَهُ ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أَيْ : هُوَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا .

وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لَمَّا يَئِسَ نَبِيُّ الله شُعَيْبٌ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ ، قَالَ يَا قَوْمِ : ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ : طَرِيقَتِكُمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ﴿ إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ عَلَى طَرِيقَتِي فـ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ أَيْ : مِنِّي وَمِنْكُمْ ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ ﴾ أَيْ : اِنْتَظِرُوا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وَهُمْ قَوْمُهُ ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أَيْ : هَامِدِينَ لَا حَرَاكَ بِهِمْ ، وَذُكِرَ هَاهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ ، وَفِي الْأَعْرَافِ : رَجْفَةٌ ، وَفِي الشُّعَرَاءِ : عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَذَابِهِمْ هَذِهِ النِّقَمُ كُلُّهَا ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ مَا يُنَاسِبُهُ ، فَفِي الْأَعْرَاف لَمَّا قَالُوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾[الأعراف : ٨٨] نَاسَبَ أَنْ يُذْكَرَ هُنَاكَ الرَّجْفَةُ ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا ، وَأَرَادُوا إِخْرَاجَ نَبِيِّهِمْ مِنْهَا ، وَهَهُنَا لَمَّا أَسَاءُوا الْأَدَبَ فِي مَقَالَتِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ ، ذُكِرَ الصَّيْحَةُ الَّتِي اسْتَلْبَثَتْهُمْ وَأَخْمَدَتْهُمْ ، وَفِي الشُّعَرَاءِ لَمَّا قَالُوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] قَالَ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ، وَهَذَا مِنَ الْأَسْرَارِ الدَّقِيقَةِ وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ كَثِيرًا دَائِمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أَيْ : يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ

كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، وَكَانُوا جِيرَانَهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّارِ ، وَشَبِيهًا بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَقَطْعِ الطُّرُقِ ، وَكَانُوا عَرَبًا مِثْلَهُمْ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِرْسَالِ مُوسَى ﷺ بِآيَاتِهِ وَدَلَالَاتِهِ الْبَاهِرَةِ القاطعةِ ، إِلَى فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - وهو مَلِكُ دِيَارِ مِصْرَ عَلَى أُمَّةِ الْقِبْطِ وَمَلَئِهِ ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ : مَنْهَجَهُ وَمَسْلَكَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى ، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ ، وَكَمَا أَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ مُقَدَّمُهُمْ وَرَئِيسُهُمْ ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ، فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاضِ رِدَاهَا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل : ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢١- ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمَتْبُوعِينَ يَكُونُونَ مَوْفُورِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكَفَرَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب : ٦٧ - ٦٨]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : أَتْبَعْنَاهُمْ زِيَادَةً عَلَى عَذَابِ النَّارِ لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾[القصص :٤١ - ٤٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر : ٤٦]

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أُمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أَيْ : أَخْبَارُهُمْ ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ ﴾ أَيْ : عَامِرٌ ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أَيْ : هَالِكٌ دَاثِرٌ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ﴾ أَوْثَانُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ الله بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أَيْ : غَيْرَ تَخْسِيرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْآلِهَةِ وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا ، فَبِهَذَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ الْقُرُونَ الظَّالِمَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِرُسُلِنَا ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِأَشْبَاهِهِمْ ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** »(١) ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ الْآيَةَ .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا

(١) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ لَآيَةً ﴾ أَيْ : عِظَةً وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْقِ مَوْعُودِنَا فِي الْآخِرَةِ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[غافر : ٥١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[إبراهيم : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ أَيْ : أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف : ٤٧] ، ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أَيْ : عَظِيمٌ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ ، وَتُحْشَرُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ وَالدَّوَابِّ ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أَيْ : مَا نُؤَخِّرُ إِقَامَةَ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللهِ فِي وُجُودِ أُنَاسٍ مَعْدُودِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَضَرَبَ مُدَّةً مُعَيَّنَةً إِذَا انْقَطَعَتْ وَتَكَامَلَ وُجُودُ أُولَئِكَ الْمُقَدَّرِ خُرُوجُهُمْ قَامَتِ السَّاعَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أَيْ : لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْتَقَصُ مِنْهَا ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَيْ : يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[النبأ : ٣٨] ، وَقَالَ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾[طه : ١٠٨] . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : « **وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ** »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أَيْ : فَمِنْ أَهْلِ الْجَمْعِ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[الشورى : ٧] . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَحَالَ السُّعَدَاءِ فَقَالَ :

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا

(١) البخاري (٦٥٧٣) ، ومسلم (١٨٢) .

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ أَيْ : تَنَفُّسُهُمْ زَفِيرٌ ، وَأَخْذُهُم النَّفْسَ شَهِيقٌ ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ . ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ **قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ** : مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا ، قَالَتْ : هَذَا دَائِمٌ دَوَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ : هُوَ بَاقٍ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَمَا سَمَرَ ابْنَا سَمِيرٍ ، وَمَا لَأْلَأَتِ الْعُفْرُ بِأَذْنَابِهَا . يَعْنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهُ : أَبَدًا ، فَخَاطَبَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ الْجِنْسَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨]، **وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ يَقُولُ سَمَاءٌ غَيْرُ هَذِهِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضٌ غَيْرُ هَذِهِ فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاءُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنْ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، حَكَاهَا الشَّيْخُ أَبُو الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِهِ (زَادِ الْمَسِيرِ) وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ وَنَقَلَ كَثِيرًا مِنْهَا الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي كِتَابِهِ وَاخْتَارَ : أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى الْعُصَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ فَتُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَقَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِمَضْمُونِ ذَلِكَ ، وَلَا يَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِيهَا ، وَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهَا ، وَهَذَا الَّذِي عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ : فَمَأْوَاهُمُ الجَنَّةُ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ مَعْنَى الإِسْتِثْنَاءِ هَهُنَا : أَنَّ دَوَامَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيئَةِ الله تَعَالَى ، فَلَهُ المِنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا ، وَلِهَذَا « **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُون النَّفَس** »(١). وَقَالَ **الضَّحَّاكُ وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ** : هِيَ فِي حَقِّ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا ، وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أَيْ : غَيرَ مَقْطُوعٍ . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مُتَوهِمٌ بَعْد ذِكْرِهِ المَشِيئَةَ أَنَّ ثَمَّ انْقِطَاعًا أَوْ لَبْسًا أَوْ شَيْئًا ، بَلْ خَتَمَ لَهُ بِالدَّوَامِ وَعَدَمِ الانْقِطَاعِ ، كَمَا بَيَّنَ هُنَاكَ أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ دَائِمًا مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ ، وَأَنَّهُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ عَذَّبَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، وَهُنَا طَيَّبَ القُلُوبَ وَثَبَّتَ المَقْصُودَ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ (**يُؤْتَى بِالمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**)(٢) وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : « **فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا** »(٣).

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) مسلم (حديث ٢٨٣٥) .
(٢) البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .
(٣) مسلم (٢٨٣٧) .

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الْمُشْرِكُونَ ، إِنَّهُ بَاطِلٌ وَجَهْلٌ وَضَلَالٌ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْل ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعَ الْآبَاءِ فِي الْجَهَالَاتِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَقَدْ وَفَّاهُمُ اللهُ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : لَمُوَفُّوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ أُسْوَةٌ ، فَلَا يَغِيظَنَّكَ تَكْذِيبُهُم لَكَ وَلَا يُهِمَّنَّكَ ذَلِكَ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيلِهِ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ لَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمْ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ : أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥]، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : ١٢٩- ١٣٠]ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ قَوِيٍّ فَقَالَ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَمِ وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَقَالَ: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قِرَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ يَرْجِعُ مَعْنَاهَا إِلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٣٢]

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَمُخَالَفَةِ الْأَضْدَادِ وَنَهَى عَنِ الطُّغْيَانِ ، وَهُوَ الْبَغْيُ فَإِنَّهُ مَصْرَعَةٌ حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَلَى مُشْرِكٍ ، وَأَعْلَمَ تَعَالَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ **قِيلَ** : لَا تُدَاهِنُوا ، **وَقِيلَ** : هُوَ الرُّكُونُ إِلَى الشِّرْكِ ، **وَقِيلَ** : لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ ، **وَقِيلَ** : وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ أَيْ : لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّلَمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ يُنْقِذُكُمْ ، وَلَا نَاصِرَ يُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ .

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ ، **وَقِيلَ** : هِيَ الصُّبْحُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَالظُّهْرُ وَالْعَصْرُ مِنْ آخِرِهِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : إِنَّهَا صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاتَانِ . صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَفِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ قِيَامٌ عَلَيْهِ وَعَلَى الْأُمَّةِ ، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وَثَبَتَ وُجُوبُهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نُسِخَ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَقُول : إِنَّ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ السَّالِفَةَ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ تَوَضَّأَ لَهُمْ كَوُضُوءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ وَقَالَ : « **مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي**

هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بِبَابِ أَحَدِكُمْ نَهَرًا غَمْرًا ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « كَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا »(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ »(٣).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ(٤) : أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا ؟ قَالَ : « لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ » .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا(٥) قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً فِي بُسْتَانٍ ، فَفَعَلْتُ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أُجَامِعْهَا قَبَّلْتُهَا وَلَزِمْتُهَا ، وَلَمْ أَفْعَلْ غَيْرَ ذَلِكَ فَافْعَلْ بِي مَا شِئْتَ ، فَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ . فَقَالَ عُمَرُ : لَقَدْ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَوْ سَتَرَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَتْبَعَهُ رَسُولُ اللهِ بَصَرَهُ ثُمَّ قَالَ : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ فَقَالَ مُعَاذٌ : وَفِي رِوَايَةِ عُمَرَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَلَهُ وَحْدَهُ أَمْ لِلنَّاسِ كَافَّةً ؟ قَالَ : « بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً » .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

(١) البخاري (١٥٩) ، ومسلم (٢٢٦) .
(٢) البخاري (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧) .
(٣) مسلم (٢٣٣) .
(٤) البخاري (حديث ٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣) .
(٥) صحيح : أخرجه مسلم في طرق حديث (٢٧٦٣) بنحوه ، وأحمد (١/ ٤٤٥) .

يَقُولُ تَعَالَى : فَهَلَّا وُجِدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِن الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أَيْ : قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللهُ عِنْدَ حُلُولِ غَضَبِهِ وَفَجْأَةِ نِقْمَتِهِ ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - هَذِهِ الْأُمَّةَ الشَّرِيفَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وَفِي الْحَدِيثِ : « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ** »(١) ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أَيْ : اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْكَارِ أُولَئِكَ حَتَّى فَجَأَهُمُ الْعَذَابُ ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا ، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بَأْسُهُ وَعَذَابُهُ قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦]

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩]

---

(١) إسناده صحيح : وقد أعل بالوقف وقد أخرجه أحمد (١/ ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (مع التحفة ٦/ ٣٨٨) وغيرهم وانظر تحرير القول فيه (في المنتخب لعبد بن حميد حديث رقم (١) بتحقيقي) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : وَلَا يَزَالُ الخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : إِلَّا المَرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ، الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الَّذِينَ أَخْبَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ الله إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ ، خَاتَمُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَوَازَرُوهُ فَفَازُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لأَنَّهُمُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ ، **قَالَ عَطَاءٌ** : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يَعْنِي الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسُ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ يَعْنِي الحَنِيفِيَّةُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَهْلُ رَحْمَةِ الله أَهْلُ الجَمَاعَةِ ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ أَهْلُ فُرْقَةٍ وَإِنِ اجْتَمَعَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ **قِيلَ** : وَلِلاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ ، **وقيل** : خَلَقَهُمْ فَرِيقَيْنِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، **وَقِيلَ** : لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ لِلْعَذَابِ ، وَيَرْجِعُ مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، **وَقِيلَ** : بَلِ المُرَادُ وَلِلرَّحْمَةِ وَالِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ .

وَعَنِ الحَسَنِ البَصْرِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ قَالَ : النَّاسُ مُخْتَلِفُونَ عَلَى أَدْيَانٍ شَتَّى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ فَمَنْ رَحِمَ رَبُّكَ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ ، فَقِيلَ لَهُ : فَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، قَالَ : خَلَقَ هَؤُلَاءِ لِجَنَّتِهِ ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِنَارِهِ ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِرَحْمَتِهِ ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِعَذَابِهِ ، **وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ** : سَأَلْتُ مَالِكًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قَالَ : فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ، وَقَدِ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ الْفَرَّاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ - لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ - أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الجَنَّةَ ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنَ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَلَهُ الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالحِكْمَةُ التَّامَّةُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ الجَنَّةُ : مَا لِي**

لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ، وَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، فَقَالَ اللهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي ، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَقَالَ لِلنَّارِ أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ »[1].

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أُمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمُحَاجَّاتِ وَالْخُصُومَاتِ ، وَمَا احْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، وَكَيْفَ نَصَرَ اللهُ حِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ ، كُلُّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، أَيْ : قَلْبَكَ يَا مُحَمَّدُ لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : هَذِهِ السُّورَةِ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقِيلَ : فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، **وَالصَّحِيحُ** : فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُمُ اللهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ ، جَاءَكَ فِيهَا قَصَصٌ حَقٌّ وَنَبَأٌ صِدْقٌ ، وَمَوْعِظَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْكَافِرُونَ وَذِكْرَى يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ ﴿ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن

(١) البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥]، وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ لِرَسُولِهِ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا ، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، وَسَيُؤْتِي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ؛ فَأَمَرَ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكَذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَيَنْصُرُكَ وَحِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ

تفسير سورة يوسف
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ: وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ، أَيْ: الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الَّذِي يُفْصِحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ وَيُفَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا، وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ، فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ عَلَى أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، وَابْتُدِئَ إِنْزَالُهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وَهُوَ رَمَضَانُ، فَكَمُلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بِسَبَبِ إِيحَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ[1] **عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:** أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثُمَّ تَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ حَدَّثْتَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

---

(١) التفسير (١٢ / ١٥٠).

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أُذْكُرْ لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَصَصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ، وَأَبُوهُ هُوَ : يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ** »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ قَالَ : « **أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ** » قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك . قَالَ : « **فَأَكْرَمُ النَّاسِ : يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ** » قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك قَالَ : « **فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟** » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « **فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا** »(٢) **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَعْبِيرِ هَذَا الْمَنَامِ أَنَّ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا عِبَارَةٌ عَنْ إِخْوَتِهِ ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا سِوَاهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عِبَارَةٌ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِابْنِهِ يُوسُفَ حِينَ قَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَعْبِيرُهَا خُضُوعُ إِخْوَتِهِ لَهُ ، وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا ، بِحَيْثُ يَخِرُّونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا ، فَخَشِيَ يَعْقُوبُ عليه السلام أَنْ يُحَدِّثَ بِهَذَا الْمَنَامِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَتِهِ فَيَحْسُدُونَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَيَبْغُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾ أَيْ : يَحْتَالُوا لَكَ حِيلَةً يُرْدُونَكَ فِيهَا ، وَلِهَذَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ**

---

(١) البخاري (٣٣٨٢) .

(٢) البخاري (٤٦٨٩) ، ومسلم (٢٣٧٨) .

مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى جَنْبِهِ الآخَرِ ، وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ »[1].

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

وَيَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِوَلَدِهِ يُوسُفَ إِنَّهُ كَمَا اخْتَارَكَ رَبُّكَ وَأَرَاكَ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : يَخْتَارُكَ وَيَصْطَفِيكَ لِنُبُوَّتِهِ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : **يَعْنِي** تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : بِإِرْسَالِكَ وَالْإِيحَاءِ إِلَيْكَ .وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وَهُوَ الْخَلِيلُ ﴿ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وَلَدُهُ : وَهُوَ الذَّبِيحُ فِي قَوْلٍ ، وَلَيْسَ بِالرَّجِيحِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى .

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَخَبَرِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ أَيْ : عِبْرَةٌ وَمَوَاعِظُ لِلسَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ الْمُسْتَخْبِرِينَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ خَبَرٌ عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ أَيْ : حَلَفُوا فِيمَا يَظُنُّونَ : وَاللهِ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ - يَعْنُونَ بِنْيَامِين وَكَانَ شَقِيقَهُ لِأُمِّهِ - ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ

(١) البخاري حديث (٦٩٨٥ ، ٧٠٤٥) ، وانظر هذه المصادر أيضا ففيها فقرات من هذا الحديث ، مسلم (٢٢٦١ ، ٢٢٦٢ ، ٢٢٦٣) .

عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ ، فَكَيْفَ أَحَبَّ ذَيْنَكَ الِاثْنَيْنِ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيمِهِمَا عَلَيْنَا وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمَا أَكْثَرَ مِنَّا . ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يَقُولُونَ : هَذَا الَّذِي يُزَاحِمُكُمْ فِي مَحَبَّةِ أَبِيكُمْ لَكُمْ ، أَعْدِمُوهُ مِنْ وَجْهِ أَبِيكُمْ ؛ لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ ، إِمَّا بِأَنْ تَقْتُلُوهُ أَوْ تُلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرَاضِي ، تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ وَتَخْلُوا أَنْتُمْ بِأَبِيكُمْ ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فَأَضْمَرُوا التَّوْبَةَ قَبْلَ الذَّنْبِ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : لَا تَصِلُوا فِي عَدَاوَتِهِ وَبُغْضِهِ إِلَى قَتْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ يُرِيدُ مِنْهُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِتْمَامِهِ مِنَ الْإِيحَاءِ إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ ، وَمِنَ التَّمْكِينِ لَهُ بِبِلَادِ مِصْرَ وَالْحُكْمِ بِهَا ، فَصَرَفَهُمُ اللهُ عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوبِيلَ فِيهِ ، وَإِشَارَتِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ : وَهُوَ أَسْفَلُهُ . ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أَيْ : الْمَارَّةُ مِنَ الْمُسَافِرِينَ ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهَذَا وَلَا حَاجَةَ إِلَى قَتْلِهِ ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ : لَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَعُقُوقِ الْوَالِدِ ، وَقِلَّةِ الرَّأْفَةِ بِالصَّغِيرِ الضَّرَعِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ ، وَبِالْكَبِيرِ الْفَانِي ذِي الْحَقِّ وَالْحُرْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَخَطَرِهِ عِنْدَ اللهِ مَعَ حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ، لِيُفَرِّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَحَبِيبِهِ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ ، وَرِقَّةِ عَظْمِهِ ، مَعَ مَكَانِهِ مِنَ اللهِ فِيمَنْ أَحَبَّهُ طِفْلًا صَغِيرًا ، وَبَيْنَ ابْنِهِ عَلَى ضَعْفِ قُوَّتِهِ وَصِغَرِ سِنِّهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى لُطْفِ وَالِدِهِ وَسُكُونِهِ إِلَيْهِ ، يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَقَدِ احْتَمَلُوا أَمْرًا عَظِيمًا .

قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۟نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

لَمَّا تَوَاطَئُوا عَلَى أَخْذِهِ وَطَرْحِهِ فِي الْبِئْرِ - كَمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَخُوهُمُ الْكَبِيرُ رُوبِيل - جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ عليه السلام فَقَالُوا : ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۟نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ وَهَذِهِ تَوْطِئَةٌ وَدَعْوَى وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا ﴾ أَيْ : ابْعَثْهُ مَعَنَا ﴿ غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَسْعَى

وَيَنْشَطُ . ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنَحُوطُهُ مِنْ أَجْلِكَ .

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَعْقُوبَ إِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ فِي جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِرْسَالِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرَّعْيِ فِي الصَّحْرَاءِ : ﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَشُقُّ عَلَيَّ مُفَارَقَتُهُ مُدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ ، وَذَلِكَ لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُ لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الخَيْرِ الْعَظِيمِ وَشَمَائِلِ النُّبُوَّةِ ، وَالْكَمَالِ فِي الخُلُقِ وَالخَلْقِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ يَقُولُ : وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَغِلُوا عَنْهُ بِرَمْيِكُمْ وَرَعْيِكُمْ ، فَيَأْتِيَهُ ذِئْبٌ فَيَأْكُلَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ : ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ بَيْنَنَا . وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ إِنَّا إِذًا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ .

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ بَعْدَ مُرَاجَعَتِهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لِمَا فَعَلُوهُ ، أَنَّهُمُ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى إِلْقَائِهِ فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الجُبِّ ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ إِكْرَامًا لَهُ وَبَسْطًا وَشَرْحًا لِصَدْرِهِ وَإِدْخَالًا لِلسُّرُورِ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ إِنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَدَعَا لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَاكِرًا لُطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَعَائِدَتَهُ ، ثُمَّ إِنْزَالَهُ الْيُسْرَ فِي حَالِ الْعُسْرِ ، أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الحَالِ الضَّيِّقِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَثْبِيتًا لَهُ : إِنَّكَ لَا تَحْزَنْ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَكَ مِنْ ذَلِكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا ، وَسَيَنْصُرُكَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَيُعْلِيكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ ، وَسَتُخْبِرُهُمْ

بِمَا فَعَلُوا مَعَكَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قِيلَ : بِإِيحَاءِ اللهِ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : سَتُنَبِّئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَسْتَشْعِرُونَ بِكَ .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَمَا أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَبْكُونَ ، وَيُظْهِرُونَ الْأَسَفَ وَالْجَزَعَ عَلَى يُوسُفَ ، وَيَتَغَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ ، وَقَالُوا مُعْتَذِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيمَا زَعَمُوا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أَيْ : نَتَرَامَى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أَيْ : ثِيَابِنَا وَأَمْتِعَتِنَا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزِعَ مِنْهُ وَحَذِرَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ تَلَطُّفٌ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يُحَاوِلُونَهُ ، يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تُصَدِّقُنَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ لَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهِمُنَا فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّكَ خَشِيتَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، فَأَنْتَ مَعْذُورٌ فِي تَكْذِيبِكَ لَنَا ، لِغَرَابَةِ مَا وَقَعَ وَعَجِيبِ مَا اتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرِنَا هَذَا . ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أَيْ : مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى ، وَهَذَا مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُفَ بِدَمِهَا ، مُوهِمِينَ أَنَّ هَذَا قَمِيصُهُ الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذِّئْبُ ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يَخْرِقُوهُ ، فَلِهَذَا لَمْ يُرْجِ هَذَا الصَّنِيعُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ . بَلْ قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ لَبْسِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أَيْ : فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَرِّجَهُ اللهُ بِعَوْنِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أَيْ : عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْمُحَالِ ، وَقِيلَ : الصَّبْرُ

الجَمِيلُ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ . وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ[1] هَهُنَا حَدِيثَ عَائِشَةَ فِي الْإِفْكِ حَتَّى ذَكَرَ قَوْلَهَا « وَاللهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ » .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ جَلَسُوا حَوْلَ الْبِئْرِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَا يُصْنَعُ بِهِ ، فَسَاقَ اللهُ لَهُ سَيَّارَةً فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ الْبِئْرِ ، وَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ لَهُمُ المَاءَ ، فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ الْبِئْرَ وَأَدْلَى بِدَلْوِهِ فِيهَا تَشَبَّثَ يُوسُفُ عليه السلام فِيهَا ، فَأَخْرَجَهُ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ وَقَالَ : ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ أَيْ : وَأَسَرَّهُ الْوَارِدُونَ مِنْ بَقِيَّةِ السَّيَّارَةِ ، وَقَالُوا : اشْتَرَيْنَاهُ وَتَبَضَّعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِ المَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يُشَارِكُوهُمْ فِيهِ إِذَا عَلِمُوا خَبَرَهُ . قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : قَوْلُهُ : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ يَعْنِي : إِخْوَةُ يُوسُفَ أَسَرُّوا شَأْنَهُ ، وَكَتَمُوا أَنْ يَكُونَ أَخَاهُمْ ، وَكَتَمَ يُوسُفُ شَأْنَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَتُهُ ، وَاخْتَارَ الْبَيْعَ فَذَكَرَه إِخْوَتُهُ لِوَارِدِ الْقَوْمِ ، فَنَادَى أَصْحَابَهُ ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ يُبَاعُ فَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ وَمُشْتَرُوهُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَرٌ سَابِقٌ ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَمْضِيَ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِإِعْلَامِهِ لَهُ بِأَنِّي عَالِمٌ بِأَذَى قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَلَكِنِّي سَأُمْلِي لَهُمْ ، ثُمَّ أَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالْحُكْمَ عَلَيْهِمْ كَمَا جَعَلْتُ لِيُوسُفَ الْحُكْمَ وَالْعَاقِبَةَ عَلَى إِخْوَتِهِ .

---

(١) البخاري (٤٦٩٠) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ ، وَالْبَخْسُ : هُوَ النَّقْصُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣] أَيْ : اعْتَاضَ عَنْهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنٍ دُونٍ قَلِيلٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهِ بَلْ لَوْ سُئِلُوهُ بِلَا شَيْءٍ لَأَجَابُوا . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ عَائِدٌ عَلَى إِخْوَةِ يُوسُفَ ؛ **وَقَالَ قَتَادَةُ** : بَلْ هُوَ عَائِدٌ عَلَى السَّيَّارَةِ ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ إِنَّمَا أَرَادَ إِخْوَتَهُ لَا أُولَئِكَ السَّيَّارَةُ ؛ لِأَنَّ السَّيَّارَةَ اسْتَبْشَرُوا بِهِ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَلَوْ كَانُوا فِيهِ زَاهِدِينَ لَمَا اشْتَرَوْهُ ، فَتَرَجَّحَ مِنْ هَذَا أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ إِنَّمَا هُوَ لِإِخْوَتِهِ . **وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ** : ﴿ بَخْسٍ ﴾ الْحَرَامُ ، **وَقِيلَ** : الظُّلْمُ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ لَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا ؛ لِأَنَّ هَذَا مَعْلُومٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ ثَمَنَهُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ ؛ لِأَنَّهُ نَبِيٌّ ابْنُ نَبِيٍّ ابْنِ نَبِيٍّ ابْنِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، فَهُوَ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ هُنَا بِالْبَخْسِ : النَّاقِصِ ، أَوِ الزُّيُوفِ ، أَوْ كِلَاهُمَا ، أَيْ : إِنَّهُمْ إِخْوَتُهُ وَقَدْ بَاعُوهُ وَمَعَ هَذَا بِأَنْقَصِ الْأَثْمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا نُبُوَّتَهُ وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ ﷻ .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَلْطَافِهِ بِيُوسُفَ ﷺ أَنَّهُ قَيَّضَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ، حَتَّى اعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ وَأَوْصَى أَهْلَهُ بِهِ وَتَوَسَّمَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ عَزِيزُهَا ، وَهُوَ الْوَزِيرُ بِهَا . **يَقُولُ تَعَالَى** : كَمَا أَنْقَذْنَا يُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي : بِلَادَ مِصْرَ ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَلَا يُرَدُّ ، وَلَا يُمَانَعُ ، وَلَا يُخَالَفُ ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ لِمَا سِوَاهُ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَقُولُ : لَا يَدْرُونَ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَتَلَطُّفِهِ وَفِعْلِهِ لِمَا يُرِيدُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ أَيْ : يُوسُفُ عليه السلام ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أَيْ : اِسْتَكْمَلَ عَقْلُهُ وَتَمَّ خَلْقُهُ ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يَعْنِي : النُّبُوَّةَ أَنَّهُ حَبَاهُ بِهَا بَيْنَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ عَامِلًا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي كَانَ يُوسُفُ فِي بَيْتِهَا بِمِصْرَ ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجُهَا بِهِ وَبِإِكْرَامِهِ فَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ ، أَيْ : حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا لِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَّلَتْ لَهُ وَغَلَّقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ وَ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الرَّبَّ عَلَى السَّيِّدِ الْكَبِيرِ ، أَيْ : إِنَّ بَعْلَكِ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، أَيْ : مَنْزِلِي ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أُقَابِلُهُ بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ فَقَرَأَهُ كَثِيرُونَ : بِفَتْحِ الْهَاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَفَتْحِ التَّاءِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : مَعْنَاهُ أَنَّهَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ، وَقِيلَ : تَقُولُ هَلُمَّ لَكَ . وَاسْتَشْهَدَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه :

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِـ ـينَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هِيتَا

يَقُولُ : فَتَعَالَ وَاقْتَرِبْ ، وَقَرَأَ ذَلِكَ آخَرُونَ : (هِئْتُ لَكَ) بِكَسْرِ الْهَاءِ وَالْهَمْزِ وَضَمِّ التَّاءِ ، بِمَعْنَى : تَهَيَّأْتُ لَكَ ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : هِئْتُ لِلْأَمْرِ أَهِيءُ هَيْئَةً ، وَثَمَّ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

اِخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ النَّاسِ وَعِبَارَاتُهُمْ فِي هَذَا المَقَامِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ وَاللهُ أَعْلَمُ ، **قَالَ بَعْضُهُمْ** : المُرَادُ بِهَمِّهِ بِهَا : خَطَرَاتُ حَدِيثِ النَّفْسِ ، حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، ثُمَّ أَوْرَدَ الْبَغَوِيُّ هَهُنَا(١) حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا**)) ، **وَقِيلَ** : هَمَّ بِضَرْبِهَا ، **وَقِيلَ** : تَمَنَّاهَا زَوْجَةً ، **وَأَمَّا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَآهُ فَفِيهِ أَقْوَالٌ أَيْضًا ، فَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : رَأَى صُورَةَ أَبِيهِ يَعْقُوبَ عَاضًّا عَلَى أُصْبُعِهِ بِفَمِهِ ، **وَقِيلَ** : رَأَى خَيَالَ المَلِكِ . يَعْنِي : سَيِّدَهُ ، **وَقِيلَ** : رَفَعَ يُوسُفُ رَأْسَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ فَإِذَا كِتَابٌ فِي حَائِطِ الْبَيْتِ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، **وَقِيلَ** فِي الْبُرْهَانِ الَّذِي رَآهُ يُوسُفُ : ثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار : ١٠] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ [يونس : ٦١] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ رَأَى آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ تَزْجُرُهُ عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ يَعْقُوبَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ المَلِكِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رَآهُ مَكْتُوبًا مِنَ الزَّجْرِ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا حُجَّةَ قَاطِعَةً عَلَى تَعْيِينِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَالصَّوَابُ أَنْ يُطْلَقَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ ، كَذَلِكَ نَقِيهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمُجْتَبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﷺ .

---

(١) صحيح : أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤ / ٣٣٧ ، ٣٣٨) رقم (٤١٤٨) ، ومسلم (١٢٩) ، وانظر البخاري (٦٤٩١) .

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ ، يُوسُفُ هَارِبٌ وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ ، فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَظِيعًا ، يُقَالُ إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا وَهِيَ فِي إِثْرِهِ ، فَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا عِنْدَ الْبَابِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرِهَا وَكَيْدِهَا ، وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا مُتَنَصِّلَةً وَقَاذِفَةً يُوسُفَ بِدَائِهَا ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أَيْ : فَاحِشَةً ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ أَيْ : يُحْبَسُ ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اِنْتَصَرَ يُوسُفُ ﷺ بِالْحَقِّ وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْخِيَانَةِ ، وَ ﴿ قَالَ ﴾ بَارًّا صَادِقًا ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ وَذَكَرَ أَنَّهَا اِتَّبَعَتْهُ تَجْذِبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أَيْ : مِنْ قُدَّامِهِ ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ هِيَ ، أَيْ : فِي قَوْلِهَا إِنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ، فَيَصِحُّ مَا قَالَتْ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وَذَلِكَ يَكُونُ كَمَا وَقَعَ لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطَلَّبَتْهُ ، أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِتَرُدَّهُ إِلَيْهَا ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ . وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ هَلْ هُوَ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِعُلَمَاءِ السَّلَفِ ، فَقِيلَ إِنَّهُ : ذُو لِحْيَةٍ ، وَقِيلَ : كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أَيْ : لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجُهَا صِدْقَ يُوسُفَ وَكَذِبَهَا فِيمَا قَذَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الْبَهْتَ وَاللَّطْخَ

الَّذِي لَطَّخْتِ عِرْضَ هَذَا الشَّابِّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكُنَّ ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾، ثُمَّ قَالَ آمِرًا لِيُوسُفَ عليه السلام بِكِتْمَانِ مَا وَقَعَ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : اِضْرِبْ عَنْ هَذَا صَفْحًا ، أَيْ : فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ لَيِّنَ الْعَرِيكَةِ سَهْلًا ، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا لِأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ ، فَقَالَ لَهَا : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَقَعَ مِنْكِ مِنْ إِرَادَةِ السُّوءِ بِهَذَا الشَّابِّ ، ثُمَّ قَذْفِهِ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ خَبَرَ يُوسُفَ وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ شَاعَ فِي الْمَدِينَةِ وَهِيَ مِصْرُ ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مِثْلَ نِسَاءِ الْكُبَرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ يُنْكِرْنَ عَلَى اِمْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَهُوَ الْوَزِيرُ ، وَيَعِبْنَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : تُحَاوِلُ غُلَامَهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أَيْ : قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شَغَافِ قَلْبِهَا وَهُوَ غِلَافُهُ ، وقَدْ قِيلَ : إِنَّ الشَّغَفَ : الحُبُّ الْقَاتِلُ ، وَالشَّغَفُ دُونَ ذَلِكَ ، وَالشَّغَافُ حِجَابُ الْقَلْبِ ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : فِي صَنِيعِهَا هَذَا مِنْ حُبِّهَا فَتَاهَا وَمُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : بِقَوْلِهِنَّ : ذَهَبَ الحُبُّ بِهَا ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : بَلْ بَلَغَهُنَّ حُسْنُ

يُوسُفَ فَأَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ ، فَقُلْنَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيَتِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَيْ : دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنْزِلِهَا لِتُضِيِّفَهُنَّ ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ الْمَجْلِسُ الْمُعَدُّ فِيهِ مَفَارِشُ وَمَخَادُّ وَطَعَامٌ ، فِيهِ مَا يُقْطَعُ بِالسَّكَاكِينِ مِنْ أُتْرُجٍّ وَنَحْوِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَةً مِنْهَا ، وَمُقَابَلَةً لَهُنَّ فِي احْتِيَالِهِنَّ عَلَى رُؤْيَتِهِ ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ خَبَّأَتْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ ﴿ فَلَمَّا ﴾ خَرَجَ وَ ﴿ رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أَيْ : أَعْظَمْنَهُ ، أَيْ : أَعْظَمْنَ شَأْنَهُ وَأَجْلَلْنَ قَدْرَهُ ، وَجَعَلْنَ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ دَهْشَةً بِرُؤْيَتِهِ ، وَهُنَّ يَظْنُنَّ أَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ الْأُتْرُجَّ بِالسَّكَاكِينِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُنَّ حَزَزْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِهَا ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ .

وقد ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِيُوسُفَ عليه السلام فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قَالَ : ((**فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ**))[1] ، فَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَعَاذَ اللهِ ، ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ((**مَا هَذَا بِشِرًى**)) أَيْ : بِمُشْتَرًى بِشِرَاءٍ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ تَقُولُ هَذَا مُعْتَذِرَةً إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيقٌ أَنْ يُحَبَّ لِجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أَيْ : فَامْتَنَعَ ، **قَالَ بَعْضُهُمْ** : لَمَّا رَأَيْنَ جَمَالَهُ الظَّاهِرَ أَخْبَرَتْهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَخْفَى عَنْهُنَّ وَهِيَ : الْعِفَّةُ ، مَعَ هَذَا الْجَمَالِ ، ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَعَّدُهُ : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوسُفُ عليه السلام مِنْ شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ ، وَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أَيْ : إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَةٌ ، وَلَا أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، أَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الْآيَةَ . وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام عَصَمَهُ اللهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً وَحَمَاهُ ، فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ ، وَاخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ ، أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ وَهِيَ

---

(١) مسلم (١٦٢) .

اِمْرَأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَةِ الجَمَالِ وَالمَالِ وَالرِّيَاسَةِ ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ وَيَخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنَ اللهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ .

وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اِجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ اِمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ** »(١).

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ المَصْلَحَةِ فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُنُونَهُ إِلَى ﴿ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى مُدَّةٍ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَرَفُوا بَرَاءَتَهُ ، وَظَهَرَتِ الآيَاتُ وَهِيَ الأَدِلَّةُ عَلَى صِدْقِهِ فِي عِفَّتِهِ وَنَزَاهَتِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا شَاعَ الحَدِيثُ إِيهَامًا أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا ، وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَهُ المَلِكُ الْكَبِيرُ فِي آخِرِ المُدَّةِ اِمْتَنَعَ مِنَ الخُرُوجِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الخِيَانَةِ ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ خَرَجَ وَهُوَ نَقِيُّ الْعِرْضِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ أَحَدُهُمَا : سَاقِي المَلِكِ ، وَالآخَر : خَبَّازُهُ .

وَكَانَ يُوسُفُ عليه السلام قَدِ اُشْتُهِرَ فِي السِّجْنِ بِالجُودِ وَالأَمَانَةِ وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَمَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ ، وَالإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ السِّجْنِ ، وَعِيَادَةِ مَرْضَاهُمْ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ ، وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الْفَتَيَانِ إِلَى السِّجْنِ تَأَلَّفَا بِهِ وَأَحَبَّاهُ حُبًّا شَدِيدًا ، وَقَالَا لَهُ : وَاللهِ لَقَدْ أَحْبَبْنَاكَ حُبًّا

---

(١) البخاري (حديث ٦٦٠) ، ومسلم (حديث ١٠٣١) .

زَائِدًا ، قَالَ : بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ، إِنَّهُ مَا أَحَبَّنِي أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ عَلَيَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ ضَرَرٌ : أَحَبَّتْنِي عَمَّتِي فَدَخَلَ عَلَيَّ الضَّرَرُ بِسَبَبِهَا ، وَأَحَبَّنِي أَبِي فَأُوذِيتُ بِسَبَبِهِ ، وَأَحَبَّتْنِي امْرَأَةُ الْعَزِيزِ فَكَذَلِكَ ، فَقَالَا : وَاللهِ مَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا فَرَأَى السَّاقِي أَنَّهُ يَعْصِرُ خَمْرًا ، يَعْنِي عِنَبًا ، وَقَالَ الْآخَرُ وَهُوَ الْخَبَّازُ : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ الْآيَة ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا وَطَلَبَا تَعْبِيرَهُ ، وَقِيلَ : مَا رَأَى صَاحِبَا يُوسُفَ شَيْئًا إِنَّمَا كَانَا تَحَالَمَا لِيُجَرِّبَا عَلَيْهِ .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يُخْبِرُهُمَا يُوسُفُ عليه السلام أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي مَنَامِهِمَا مِنْ حُلْمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ ، وَيُخْبِرُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ قِيلَ أَيْ : فِي نَوْمِكُمَا ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ اللهِ إِيَّايَ ، لِأَنِّي اجْتَنَبْتُ مِلَّةَ الْكَافِرِينَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الْآيَةُ . يَقُولُ : هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ – وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ الضَّالِّينَ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِي قَلْبَهُ وَيُعَلِّمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هَذَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ : الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ ذَٰلِكَ

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : أَوْحَاهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ إِذْ جَعَلَنَا دُعَاةً لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، بَلْ ﴿ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾

[إبراهيم : ٢٨]

يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام أَقْبَلَ عَلَى الْفَتَيَيْنِ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالدُّعَاءِ لَهُمَا إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلْعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا ، فَقَالَ : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَلِيَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِزِّ جَلَالِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمَا أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً إِنَّمَا هِيَ جَعْلٌ مِنْهُمْ ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ تَلَقَّاهَا خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ مُسْتَنَدٌ مِنْ عِنْدِ الله ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : حُجَّةٌ وَلَا بُرْهَانٌ . ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْمَشِيئَةَ وَالْمُلْكَ كُلَّهُ لله ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ قَاطِبَةً أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ الله وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ، الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ ، الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّمَا عَدَلَ بِهِمْ يُوسُفُ عَنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا إِلَى هَذَا ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهَا ضَارَّةٌ لِأَحَدِهِمَا ، فَأَحَبَّ أَنْ يَشْغَلَهُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يُعَاوِدُوهُ فِيهَا ، فَعَاوَدُوهُ فَأَعَادَ عَلَيْهِمُ الْمَوْعِظَةَ . وَفِي هَذَا الَّذِي قَالَهُ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَعَدَهُمَا أَوَّلًا بِتَعْبِيرِهَا ، وَلَكِنْ جَعَلَ سُؤَالَهُمَا لَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالِاحْتِرَامِ وَصْلَةً وَسَبَبًا إِلَى دُعَائِهِمَا إِلَى التَّوْحِيدِ

وَالْإِسْلَام لِمَا رَأَى فِي سَجِيَّتِهِمَا مِنْ قَبُولِ الْخَيْرِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالْإِنْصَاتِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا لَمَّا فَرَغَ مِنْ دَعْوَتِهِمَا شَرَعَ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا مِنْ غَيْرِ تِكْرَارِ سُؤَالٍ فَقَالَ :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

يَقُولُ لَهُمَا : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعْصِرُ خَمْرًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعَيِّنْهُ لِئَلَّا يَحْزَنَ ذَاكَ ، وَلِهَذَا أَبْهَمَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ ﴾ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْزًا ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فَرَغَ مِنْهُ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وَلَمَّا ظَنَّ يُوسُفُ ﷺ أَنَّ السَّاقِي نَاجٍ ، قَالَ لَهُ يُوسُفُ خُفْيَةً عَنِ الْآخَرِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - لِئَلَّا يُشْعِرَهُ أَنَّهُ الْمَصْلُوبُ ، قَالَ لَهُ : ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يَقُولُ اذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ وَهُوَ الْمَلِكُ ، فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يُذَكِّرَ مَوْلَاهُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطْلُعَ نَبِيُّ اللهِ مِنَ السِّجْنِ ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّاجِي ، وَأَمَّا الْبِضْعُ : **فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** : هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** - ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ قَالَ : ثِنْتَا عَشْرَةَ سَنَةً ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً .

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِكِ مِصْرَ مِمَّا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِخُرُوجِ يُوسُفَ ﷺ مِنَ السِّجْنِ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ أَنَّ المَلِكَ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهَالَتْهُ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِهَا وَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُهَا، فَجَمَعَ الْكَهَنَةَ وَالحَاذَّةَ وَكِبَارَ دَوْلَتِهِ وَأُمَرَاءَهُ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا فَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهَا ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أَيْ: أَخْلَاطُ أَحْلَامٍ اقْتَضَتْهُ رُؤْيَاكَ هَذِهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَتْ رُؤْيَا صَحِيحَةً مِنْ أَخْلَاطٍ لَمَا كَانَ لَنَا مَعْرِفَةٌ بِتَأْوِيلِهَا، وَهُوَ: تَعْبِيرُهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِكَ الْفَتَيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السِّجْنِ مَعَ يُوسُفَ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِلْمَلِكِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ: مُدَّةً، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بَعْدَ أَمَهٍ أَيْ: بَعْدَ نِسْيَانٍ، فَقَالَ لَهُمْ: أَيْ لِلْمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لِذَلِكَ ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ أَيْ: بِتَأْوِيلِ هَذَا المَنَامِ ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أَيْ: فَابْعَثُونِ إِلَى يُوسُفَ الصِّدِّيقِ إِلَى السِّجْنِ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ فَبَعَثُوهُ فَجَاءَ، فَقَالَ: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ وَذَكَرَ المَنَامَ الَّذِي رَآهُ المَلِكُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُفُ ﷺ تَعْبِيرَهَا مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ لِلْفَتَى فِي نِسْيَانِهِ مَا وَصَّاهُ بِهِ وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلْخُرُوجِ قَبْلَ ذَلِكَ، بَلْ قَالَ: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أَيْ: يَأْتِيكُمُ الخِصْبُ وَالمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ، فَفَسَّرَ الْبَقَرَ بِالسِّنِينَ؛ لأَنَّهَا تُثِيرُ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْتَغِلُّ مِنْهَا الثَّمَرَاتُ وَالزُّرُوعُ، وَهُنَّ السُّنْبُلَاتُ الخُضْرُ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَعْتَدُّونَهُ فِي تِلْكَ السِّنِينَ فَقَالَ: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ: مَهْمَا اسْتَغْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْعِ السِّنِينَ الخِصْبِ فَادَّخِرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، لِيَكُونَ

أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ عَنْ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ ، إِلَّا المِقْدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ ، وَلْيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا لَا تُسْرِفُوا فِيهِ لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشِّدَادِ ، وَهُنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ المُحْلُ الَّتِي تَعْقُبُ هَذِهِ السَّبْعَ المُتَوَالِيَاتِ ، وَهُنَّ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي تَأْكُلُ السِّمَانَ ؛ لأَنَّ سِنِي الجَدْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الخِصْبِ وَهُنَّ السُّنْبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ . وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُنَّ لَا يُنْبِتْنَ شَيْئًا ، وَمَا بَذَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الجَدْبِ الْعَامِّ المُتَوَالِي : بِأَنَّهُ يَعْقُبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ، أَيْ : يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ : وَهُوَ المَطَرُ ، وَتَغِلُّ الْبِلَادُ وَيَعْصِرُ النَّاسَ مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ وَسُكَّرٍ وَنَحْوِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : يَدْخُلُ فِيهِ حَلْبُ اللَّبَنِ أَيْضًا .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ المَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ الَّتِي كَانَ رَآهَا بِمَا أَعْجَبَهُ وَأَيْقَنَهُ ، فَعَرَفَ فَضْلَ يُوسُفَ ﷺ وَعِلْمَهُ وَحُسْنَ اطِّلَاعِهِ عَلَى رُؤْيَاهُ ، وَحُسْنَ أَخْلَاقِهِ عَلَى مَنْ بِبَلَدِهِ مِنْ رَعَايَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ أَيْ : أَخْرِجُوهُ مِنَ السِّجْنِ وَأَحْضِرُوهُ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ امْتَنَعَ مِنَ الخُرُوجِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ المَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ ، وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّ هَذَا السِّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرٍ يَقْتَضِيهِ ، بَلْ كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، فَقَالَ : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الآيَةَ .

وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمَدْحِهِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَعُلُوِّ قَدْرِهِ وَصَبْرِهِ ﷺ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ [البقرة : ٢٦٠] ، **وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**))(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَوْ كُنْتُ لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ**))(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْمَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَهُوَ يُرِيدُ امْرَأَةَ وَزِيرِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ، قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أَيْ : شَأْنُكُنَّ وَخَبَرُكُنَّ ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الضِّيَافَةِ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ أَيْ : قَالَتِ النِّسْوَةُ جَوَابًا لِلْمَلِكِ : حَاشَ للهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفَ مُتَّهَمًا ، وَاللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : تَقُولُ : الْآنَ تَبَيَّنَ الْحَقُّ وَظَهَرَ وَبَرَزَ ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ تَقُولُ : إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي لِيَعْلَمَ زَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْذُورُ الْأَكْبَرُ ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مُرَاوَدَةً فَامْتَنَعَ ، فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ تَقُولُ الْمَرْأَةُ : وَلَسْتُ أُبَرِّئُ نَفْسِي ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى ، وَلِهَذَا رَاوَدْتُهُ لِأَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، أَيْ : إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهَرُ وَالْأَلْيَقُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ ، وَقَدْ حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَانْتُدِبَ لِنَصْرِهِ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ - رَحِمَهُ اللهُ - فَأَفْرَدَهُ

---

(١) أحمد (٢ / ٣٢٦) ، والبخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) .
(٢) إسناده حسن : وأخرجه أحمد (٢ / ٣٤٦) .

بِتَصْنِيفٍ عَلَى حِدَةٍ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ ﵇ من قَوْلِهِ ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فِي زَوْجَتِهِ ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الْآيَتَيْنِ ، أَيْ : إِنَّمَا رَدَدْتُ الرَّسُولَ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ بَرَاءَتِي ، وَلِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فِي زَوْجَتِهِ ﴿ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَحْكِ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ سِوَاهُ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ كُلَّهُ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفُ ﵇ عِنْدَهُمْ ، بَلْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْضَرَهُ الْمَلِكُ .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ حِينَ تَحَقَّقَ بَرَاءَةَ يُوسُفَ ﵇ وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ، قَالَ : ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أَيْ : أَجْعَلَهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أَيْ : خَاطَبَهُ الْمَلِكُ وَعَرَفَهُ ، وَرَأَى فَضْلَهُ وَبَرَاعَتَهُ وَعَلِمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ وَخَلْقٍ وَكَمَالٍ ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ : إِنَّكَ عِنْدَنَا قَدْ بَقِيتَ ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ ، فَقَالَ يُوسُفُ ﵇ : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ إِذَا جُهِلَ أَمْرُهُ لِلْحَاجَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ : خَازِنٌ أَمِينٌ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا يَتَوَلَّاهُ ، وَقَالَ شَيْبَةُ بْنُ نَعَامَةَ : حَفِيظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي ، عَلِيمٌ بِسِنِي الْجَدْبِ ، وَسَأَلَ الْعَمَلَ لِعِلْمِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ، وَلِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ لِلنَّاسِ ، وَإِنَّمَا سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَهِيَ الْأَهْرَامُ الَّتِي يُجْمَعُ فِيهَا الْغَلَّاتُ ، لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ السِّنِينَ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِشَأْنِهَا ، فَيَصْرِفَ لَهُمْ عَلَى الْوَجْهِ الْأَحْوَطِ وَالْأَصْلَحِ وَالْأَرْشَدِ ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَةً فِيهِ وَتَكْرِمَةً لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَرْض مِصْـرَ ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ قِيلَ : يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِير** : يَتَّخِذُ مِنْهَا مَنْزِلًا حَيْثُ يَشَاءُ بَعْدَ الضِّيقِ وَالحَبْسِ وَالإِسَارِ ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا أَضَعْنَا صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى أَذَى إِخْوَتِهِ ، وَصَبْرَهُ عَلَى الحَبْسِ بِسَبَبِ اِمْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، فَلِهَذَا أَعْقَبَهُ اللهُ ﷻ السَّلَامةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا اِدَّخَرَهُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عليه السلام فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلُّ مِمَّا خَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالنُّفُوذِ فِي الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ عليه السلام ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[ص : ٣٩ - ٤٠]

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

ذَكَرَ عددٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ : أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَقْدَم إِخْوَةُ يُوسُفَ بِلَادَ مِصْرَ ، أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام لَمَّا بَاشَرَ الْوَزَارَةَ بِمِصْرَ ، وَمَضَتِ السَّبْعُ سِنِينَ المُخْصِبَةُ ثُمَّ تَلَتْهَا السَّبْعُ السِّنِينَ المُجْدِبَةُ وَعَمَّ الْقَحْطُ بِلَادَ مِصْرَ بِكَمَالِهَا ، وَوَصَلَ إِلَى بِلَادِ كَنْعَانَ وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوبُ عليه السلام وَأَوْلَادُهُ ، وَحِينَئِذٍ اِحْتَاطَ يُوسُفَ عليه السلام لِلنَّاسِ فِي غِلَالِهِمْ وَجَمَعَهَا أَحْسَنَ جَمْعٍ ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغٌ عَظِيمٌ وَهَدَايَا مُتَعَدِّدَةٌ هَائِلَةٌ ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالمُعَامَلَاتِ يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ، فَكَانَ لَا يُعْطِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ فِي السَّنَةِ ، وَكَانَ عليه السلام لَا يُشْبِعُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَأْكُلُ هُوَ وَالمَلِكُ وَجُنُودُهُمَا إِلَّا أَكْلَةً وَاحِدَةً فِي وَسَطِ النَّهَارِ ، حَتَّى يَتَكَفَّأَ النَّاسُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ

مُدَّةَ السَّبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ .

وَالْغَرَضُ : أَنَّهُ كَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ وَرَدَ لِلْمِيرَةِ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَنْ أَمْرِ أَبِيهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي النَّاسَ الطَّعَامَ بِثَمَنِهِ ، فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَةً يَعْتَاضُونَ بِهَا طَعَامًا ، وَرَكِبُوا عَشَرَةَ نَفَرٍ ، وَاحْتَبَسَ يَعْقُوبُ ﷺ عِنْدَهُ ابْنَهُ بِنْيَامِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ ﷺ ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ يُوسُفَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أُبَّهَتِهِ وَرِيَاسَتِهِ وَسِيَادَتِهِ ، عَرَفَهُمْ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُمْ فَارَقُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ ، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ ، وَلَا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أَيْ : أَوْفَى لَهُمْ كَيْلَهُمْ ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالَهُمْ ، قَالَ : ائْتُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ ، لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ يُرَغِّبُهُمْ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ رَهَّبَهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : إِنْ لَمْ تَقْدِمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيرَةٌ ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أَيْ : سَنَحْرِصُ عَلَى مَجِيئِهِ إِلَيْكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَلَا نُبْقِي مَجْهُودًا ، لِتَعْلَمَ صِدْقَنَا فِيمَا قُلْنَاهُ . ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ أَيْ : غِلْمَانِهِ ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّتِي قَدِمُوا بِهَا لِيَمْتَارُوا عِوَضًا عَنْهَا ﴿ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي أَمْتِعَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بِهَا . **قِيلَ** : خَشِيَ يُوسُفُ ﷺ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةٌ أُخْرَى يَرْجِعُونَ لِلْمِيرَةِ بِهَا ، **وَقِيلَ** : تَذَمَّمَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ عِوَضًا عَنِ الطَّعَامِ ، **وَقِيلَ** : أَرَادَ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِذَا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ تَحَرُّجًا وَتَوَرُّعًا ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤

يَقُولُ تَعَالَى عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ يَعْنُونَ بَعْدَ هَذِهِ المَرَّةِ ، إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بِنْيَامِينَ ، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْيَاءِ ، أَيْ : يَكْتَلْ هُوَ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ ، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَلْ أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ؟ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ «حَافِظًا» ، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي وَسَيَرْحَمُ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بِوَلَدِي ، وَأَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ وَيَجْمَعَ شَمْلِي بِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمَرَ يُوسُفُ فِتْيَانَهُ بِوَضْعِهَا فِي رِحَالِهِمْ . فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ أَيْ : مَاذَا نُرِيدُ ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : مَا نَبْغِي وَرَاءَ هَذَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَقَدْ أَوْفَى لَنَا الْكَيْلَ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أَيْ : إِذَا أَرْسَلْتَ أَخَانَا مَعَنَا نَأْتِي بِالمِيرَةِ إِلَى أَهْلِنَا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ ، أَيْ : أَنَّ هَذَا يَسِيرٌ فِي مُقَابَلَةِ أَخْذِ أَخِيهِمْ ، مَا يَعْدِلُ هَذَا هَذَا ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَحْلِفُونَ بِالْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا كُلُّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أَكَّدَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ ﷺ إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَّزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بِنْيَامِين إِلَى مِصْرَ ، أَنْ لَا يَدْخُلُوا كُلُّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَلْيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ وَمَنْظَرٍ وَبَهَاءٍ ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِعُيُونِهِمْ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ هَذَا الِاحْتِرَازَ لَا يَرُدُّ قَدَرَ اللهِ وَقَضَاءَهُ ، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ قَالُوا : هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ** : لَذُو عَمَلٍ بِعِلْمِهِ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَذُو عِلْمٍ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ .

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بِنْيَامِين ، وَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كَرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيَافَتِهِ ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصِّلَةَ وَالْأَلْطَافَ وَالْإِحْسَانَ ، وَاخْتَلَى بِأَخِيهِ فَأَطْلَعَهُ عَلَى شَأْنِهِ وَمَا جَرَى لَهُ ، وَعَرَّفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَبْتَئِسْ ، أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَى مَا صَنَعُوا بِي ، وَأَمَرَهُ بِكِتْمَانِ ذَلِكَ عَنْهُم وَأَنْ لَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَّلَ لَهُمْ أَبْعِرَتَهُمْ طَعَامًا ، أَمَرَ بَعْضَ فِتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السِّقَايَةَ وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ ، **وَقِيلَ** : مِنْ ذَهَبٍ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عِزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ قَالَ : كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ ، وَكَانَ مِثْلَ الْمَكُّوكِ ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بِنْيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ بَيْنَهُمْ ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ فَالْتَفَتُوا إِلَى الْمُنَادِي ، وَقَالُوا : ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ أَيْ : صَاعَهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجُعَالَةِ ﴿ وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكَفَالَةِ .

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الْفِتْيَانُ بِالسَّرِقَةِ ، قَالَ لَهُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أَيْ : لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مُنْذُ عَرَفْتُمُونَا – لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَةً حَسَنَةً – أَنَّا مَا جِئْنَا لِلفسادِ فِي الْأَرْضِ ﴿ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ سَجَايَانَا تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَةَ ، فَقَالَ لَهُمُ الْفِتْيَانُ : ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أَيْ : السَّارِقُ إِنْ كَانَ فِيكُمْ ﴿ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ عُقُوبَتَهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مَنْ أَخَذَهُ ؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ

نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ : أَنَّ السَّارِقَ يُدْفَعُ إِلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفُ ﷺ ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ، أَيْ فَتَّشَهَا قَبْلَهُ تَوْرِيَةً ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِرَافِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ ، إِلْزَامًا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ ، الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكِ مِصْرَ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا قَيَّضَ اللهُ لَهُ أَنِ الْتَزَمَ لَهُ إِخْوَتُهُ بِمَا الْتَزَمُوهُ ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ اللهُ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ [المجادلة : ١١] ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى اللهِ ﷻ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ حَتَّى يَنْتَهِي الْعِلْمُ إِلَى اللهِ ، مِنْهُ بُدِئَ وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ .

۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوُا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بِنْيَامِينَ : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِ ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، يَعْنُونَ بِهِ يُوسُفَ ﷺ ، **قِيلَ** : كَانَ يُوسُفُ ﷺ قَدْ سَرَقَ صَنَمًا لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ فَكَسَرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ يَعْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَذْكُرُونَ ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ ، أَيْ أَنَّهُ : أَسَرَّ فِي نَفْسِهِ ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لَمَّا تَعَيَّنَ أَخذَ بنيَامِين وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يُوسُفَ بِمُقْتَضَى اِعْتِرَافِهِمْ ، شَرَعُوا يَتَرَقَّقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يَعْنُونَ : وَهُوَ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أَيْ : بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَكَ عِوَضًا عَنْهُ ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : الْعَادِلِينَ الْمُنْصِفِينَ الْقَابِلِينَ لِلْخَيْرِ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أَيْ : كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِسَقِيم .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَئِسُوا مِنْ تَخْلِيصِ أَخِيهِمْ بِنْيَامِين ، الَّذِي قَدِ الْتَزَمُوا لِأَبِيهِمْ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿ خَلَصُوا۟ ﴾ أَيْ : انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿ نَجِيًّا ﴾ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لَتَرُدُّنَّهُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعَذَّرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يُوسُفَ عَنْهُ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : لَنْ أُفَارِقَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ قِيلَ : بِالسَّيْفِ ، وَقِيلَ : بِأَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْ أَخْذِ أَخِي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا أَبَاهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ حَتَّى يَكُونَ عُذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَءُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ :

مَا نَعْلَمُ أَنَّ ابْنَكَ يَسْرِقُ ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : مَا عَلِمْنَا فِي الْغَيْبِ أَنَّهُ سَرَقَ لَهُ شَيْئًا إِنَّمَا سَأَلْنَا : مَا جَزَاءُ السَّارِقِ ؟ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أَيْ : الَّتِي رَافَقْنَاهَا عَنْ صِدْقِنَا وَأَمَانَتِنَا وَحِفْظِنَا وَحِرَاسَتِنَا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذُوهُ بِسَرِقَتِهِ .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لَهُمْ حِينَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِ يُوسُفَ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : لَمَّا جَاءُوا يَعْقُوبَ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا يَجْرِي اتَّهَمَهُمْ ، وَظَنَّ أَنَّهَا كَفَعْلَتِهِمْ بِيُوسُفَ قَالَ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ **وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ** : لَمَّا كَانَ صَنِيعُهُمْ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَى فِعْلِهِمُ الْأَوَّلِ سُحِبَ حُكْمُ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ ، وَصَحَّ قَوْلُهُ : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، ثُمَّ تَرَجَّى مِنَ اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ يُوسُفَ وَأَخَاهُ بِنْيَامِينَ وَرُوبِيلَ الَّذِي أَقَامَ بِدِيَارِ مِصْرَ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللهِ فِيهِ ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ فَيَأْمُرَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ خُفْيَةً ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَلِيمُ بِحَالِي ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : أَعْرَضَ عَنْ بَنِيهِ ، وَقَالَ مُتَذَكِّرًا حُزْنَ يُوسُفَ الْأَوَّلَ : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنُ الِابْنَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينَ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الِاسْتِرْجَاعُ ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أَيْ : سَاكِتٌ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ ، **وَقِيلَ** : كَئِيبٌ حَزِينٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أَيْ : لَا تُفَارِقُ تَذَكُّرَ يُوسُفَ ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أَيْ : ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يَقُولُونَ : إِنِ اسْتَمَرَّ بِكَ هَذَا الحَالُ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ وَالتَّلَفَ . ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ ﴾ أَيْ : هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ . **وَقِيلَ** : أَعْلَمُ أَنَّ رُؤْيَا يُوسُفَ صَادِقَةٌ وَأَنِّي سَوْفَ أَسْجُدُ لَهُ .

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَعْقُوبَ ﷺ : إِنَّهُ نَدَبَ بَنِيهِ عَلَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يُوسُفَ وَأَخِيهِ بِنْيَامِينَ ، وَالتَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الخَيْرِ ، وَالتَّجَسُّسُ يَكُونُ فِي الشَّرِّ ، وَنَهَّضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله ، أَيْ لَا يَقْطَعُوا رَجَاءَهُمْ وَأَمَلَهُمْ مِنَ الله فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُونَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ وَلَا يَيْأَسَ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا مِصْرَ ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أَيْ : وَمَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي نَمْتَارُهُ ، وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقِيلَ** : الدَّرَاهِمُ الرَّدِيئَةُ الَّتِي لَا تَجُوزُ إِلَّا بِنُقْصَانٍ ، **وَقِيلَ** : فَاسِدَةٌ لَا تُنْفَقُ . **وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ** : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ أَيْ : أَعْطِنَا بِهَذَا الثَّمَنِ الْقَلِيلِ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ **قِيلَ** : بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا ، **وَقِيلَ** : تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ وَتَجَوَّزْ فِيهَا .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ

لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُوسُفَ عليه السلام : إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ لَهُ إِخْوَتُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الجَهْدِ وَالضِّيقِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ وَعُمُومِ الجَدْبِ ، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الحُزْنِ لِفَقْدِ وَلَدَيْهِ ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ المُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسَّعَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَتْهُ رِقَّةٌ وَرَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَشَفَقَةٌ عَلَى أَبِيهِ لِإِخْوَتِهِ وَبَدَرَهُ الْبُكَاءُ فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ رَفَعَ التَّاجَ عَنْ جَبْهَتِهِ وَكَانَ فِيهَا شَامَةٌ وَقَالَ : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ يَعْنِي : كَيْفَ فَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا الجَهْلُ بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ، وَقَرَأَ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النحل : ١١٩]

وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي المَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ . وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ ، فَرَّجَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ - ٦] . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَنَتَيْنِ وَأَكْثَرَ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكْتُمُ نَفْسَهُ ، فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ أَيْ : بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ التَّفْرِقَةِ ، وَبُعْدِ المُدَّةِ ، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الْآيَةَ ، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْأَثَرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الخُلُقِ وَالخَلْقِ ، وَالسَّعَةِ وَالمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالنُّبُوَّةِ أَيْضًا ، عَلَى قَوْلِ مَنْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ أَنْبِيَاءَ ، وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَأَخْطَئُوا فِي حَقِّهِ . ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ يَقُولُ : لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَتْبَ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ ، وَلَا أُعِيدُ عَلَيْكُمْ ذَنْبَكُمْ فِي حَقِّي بَعْدَ الْيَوْمِ ، ثُمَّ زَادَهُمُ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ فَقَالَ : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَيْ : يَسْتُرُ اللهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يَقُولُ اذْهَبُوا بِهَذَا الْقَمِيصِ ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : بِجَمِيعِ بَنِي يَعْقُوبَ . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ أَيْ : خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يَعْنِي : يَعْقُوبَ عليه السلام لِمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تَنْسُبُونِي إِلَى الْفَنَدِ وَالْكِبَرِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْعِيرُ هَاجَتْ رِيحٌ فَجَاءَتْ يَعْقُوبَ بِرِيحِ قَمِيصِ يُوسُفَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قَالَ فَوَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : تُسَفِّهُونِ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لَفِي خَطَئِكَ الْقَدِيمِ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ وَلَا تَسْلَاهُ ، قَالُوا لِوَالِدِهِمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً ، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِوَالِدِهِمْ ، وَلَا لِنَبِيِّ اللهِ ﷺ .

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿ ٱلْبَشِيرُ ﴾ الْبَرِيدُ . **قَالَ السُّدِّيُّ** : إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْقَمِيصِ وَهُوَ مُلَطَّخٌ بِدَمٍ كَذِبٍ ، فَأَحَبَّ أَنْ يَغْسِلَ ذَلِكَ بِهَذَا ، فَجَاءَ بِالْقَمِيصِ فَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَرَجَعَ بَصِيرًا ، وَقَالَ لِبَنِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ سَيَرُدُّهُ إِلَيَّ ، وَقُلْتُ لَكُمْ : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِأَبِيهِمْ مُتَرَفِّقِينَ لَهُ : ﴿ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ

إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَرْجَأَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ .

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ وُرُودِ يَعْقُوبَ ﷺ عَلَى يُوسُفَ ﷺ وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ ، لَمَّا كَانَ يُوسُفُ قَدْ تَقَدَّمَ لِإِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ قَاصِدِينَ بِلَادَ مِصْرَ ، فَلَمَّا أُخْبِرَ يُوسُفُ ﷺ بِاقْتِرَابِهِمْ خَرَجَ لِتَلَقِّيهِمْ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أُمَرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِتَلَقِّي نَبِيِّ اللهِ يَعْقُوبَ ﷺ ، وَيُقَالُ إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِتَلَقِّيهِ وَهُوَ الْأَشْبَهُ ، وَقَدْ أَشْكَلَ قَوْلُهُ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ ﴾ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ وَمَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وَأَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَرَفَعَهُمَا عَلَى الْعَرْشِ ، وَرَدَّ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا وَأَجَادَ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ اخْتَارَ مَا حَكَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ : أَنَّ يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ لَمَّا تَلَقَّاهُمَا ، ثُمَّ لَمَّا وَصَلُوا بَابَ الْبَلَدِ قَالَ : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْإِيوَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَنْزِلِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ ((**مَنْ أَوَى مُحْدِثًا**))[1]. وَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ بَعْدَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَآوَاهُمْ إِلَيْهَا : أُدْخُلُوا مِصْرَ ، وَضَمَّنَهُ أُسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ، أَيْ : مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْقَحْطِ ؟.

وَقَوْلُهُ : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَلَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَوْتِ أُمِّهِ ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى حَيَاتِهَا ، وَهَذَا الَّذِي نَصَرَهُ هُوَ الْمَنْصُورُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ .

---

(١) انظر مسلم حديث (١٩٧٨) وفيه ((...... وَلَعَنَ اللهُ مَنْ أَوَى مُحْدِثًا)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي السَّرِيرَ ، أَيْ : أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ﴿ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ . وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ : إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى ﷺ ، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ . وَفِي الْحَدِيثِ : « **لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا** »(١)

وَالْغَرَضُ : أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ ، وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، فَعِنْدَهَا قَالَ يُوسُفُ : ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ أَيْ : هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف : ٥٣] أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِيهِمْ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ أَيْ : صَحِيحَةً صِدْقًا يَذْكُرُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ أَيْ : الْبَادِيَةِ .﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَيَّضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَّرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمَا يَخْتَارُهُ وَيُرِيدُهُ .

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هَذَا دُعَاءٌ مِنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ، دَعَا بِهِ رَبَّهُ ﷻ لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَأَخَوَيْهِ ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ، سَأَلَ رَبَّهُ ﷻ كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ

(١) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه الترمذي (١١٥٩) .

عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ ، وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ وَهُمْ إِخْوَتُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَهَذَا الدُّعَاءُ يَحْتَمِلُ أَنَّ يُوسُفَ ﷺ قَالَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**))[١] ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّه سَأَلَ الْوَفَاةَ عَلَى الإِسْلامِ وَاللَّحَاقَ بِالصَّالِحِينَ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ وَانْقَضَى عُمُرُهُ لا أَنَّهُ سَأَلَهُ ذَلِكَ مُنَجَّزًا كَمَا يَقُولُ الدَّاعِي لِغَيْرِهِ أَمَاتَكَ اللهُ عَلَى الإِسْلامِ ، وَيَقُولُ الدَّاعِي : اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَأَلَ ذَلِكَ مُنَجَّزًا وَكَانَ ذَلِكَ سَائِغًا فِي مِلَّتِهِمْ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ قَوْلُهُ : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لَمَّا جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ وَأَقَرَّ عَيْنَهُ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَغْمُوسٌ فِي نَبْتِ الدُّنْيَا وَمُلْكِهَا وَنَضَارَتِهَا ، اشْتَاقَ إِلَى الصَّالِحِينَ قَبْلَهُ ، وَلَكِنْ هَذَا لا يَجُوزُ فِي شَرِيعَتِنَا .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَلا بُدَّ مُتَمَنِّيًا الْمَوْتَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**))[٢] وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَعِنْدَهُمَا : ((**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ بِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَيَزْدَادُ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**))[٣].

وَهَذَا فِيمَا إِذَا كَانَ الضُّرُّ خَاصًّا بِهِ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِتْنَةً فِي الدِّينِ فَيَجُوزُ سُؤَالُ الْمَوْتِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ السَّحَرَةِ لَمَّا أَرَادَهُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ دِينِهِمْ وَتَهَدَّدَهُمْ بِالْقَتْلِ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[الأعراف : ١٢٦] ، وَقَالَتْ مَرْيَمُ لَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ وَهُوَ الطَّلْقُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] لِمَا عَلِمَتْ مِنْ أَنَّ النَّاسَ يَقْذِفُونَهَا

(١) البخاري (٤٤٣٧) .

(٢) صحيح : أحمد (٣ / ١٠١) .

(٣) البخاري (٥٦٧١) ، ومسلم (٢٦٨٠) .

بِالْفَاحِشَةِ ؛ لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ذَاتَ زَوْجٍ وَقَدْ حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ ، وَقَدْ قَالُوا : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٧ - ٢٨] فَجَعَلَ اللهُ لَهَا مِنْ ذَلِكَ الحَالِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، وَأَنْطَقَ الصَّبِيَّ فِي المَهْدِ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، فَكَانَ آيَةً عَظِيمَةً وَمُعْجِزَةً بَاهِرَةً صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ : « **وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ** »[(1)] وَعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ مَرْفُوعًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **اِثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَالمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ المَالِ وَقِلَّةُ المَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ** »[(2)] فَعِنْدَ حُلُولِ الْفِتَنِ فِي الدِّينِ يَجُوزُ سُؤَالُ المَوْتِ ، وَفِي الحَدِيثِ : « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُرُّ بِالْقَبْرِ** - أَيْ فِي زَمَانِ الدَّجَّالِ - **فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَكَانَكَ !** »[(3)] لِمَا يَرَى مِنَ الْفِتَنِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَابِلِ ، وَالأُمُورِ الهَائِلَةِ الَّتِي هِيَ فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ نَبَأَ إِخْوَةِ يُوسُفَ ، وَكَيْفَ رَفَعَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْمُلْكَ وَالحُكْمَ ، مَعَ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ وَالهَلَاكِ وَالإِعْدَامِ ، هَذَا وَأَمْثَالُهُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّابِقَةِ ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ وَنُعْلِمُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبْرَةِ لَكَ وَالاتِّعَاظِ لِمَنْ خَالَفَكَ ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ ﴿ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى إِلْقَائِهِ فِي الجُبِّ ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ بِهِ ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ وَإِنْزَالًا عَلَيْكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص : ٤٤] . إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنتَ

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (٥ / ٢٤٣) ، والترمذي (٣٢٣٥) وقد أعله بعض العلماء .
(٢) صحيح : أحمد (٥ / ٤٢٧) .
(٣) البخاري (٧١١٥) ، ومسلم (١٥٧) بنحوه .

بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[القصص : ٤٦] . وَقَالَ : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾[القصص : ٤٥] ، وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[ص : ٦٩ - ٧٠] يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ رَسُولُهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ وَنَجَاةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام : ١١٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : مَا تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ مِنْ أَجْرٍ ، أَيْ : مِنْ جَعَالَةٍ وَلَا أُجْرَةٍ بَلْ تَفْعَلُهُ اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَنُصْحًا لِخَلْقِهِ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ ، بِمَا خَلَقَهُ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ كَوَاكِبَ زَاهِرَاتٍ ثَوَابِتَ ، وَسَيَّارَاتٍ وَأَفْلَاكٍ دَائِرَاتٍ ، وَالْجَمِيعُ مُسَخَّرَاتٌ ، وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطَعٍ مُتَجَاوِرَاتٍ وَحَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ ، وَجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ وَبِحَارٍ زَاخِرَاتٍ ، وَأَمْوَاجٍ مُتَلَاطِمَاتٍ ، وَقِفَارٍ شَاسِعَاتٍ ، وَكَمْ مِنْ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتٍ ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ ، وَثَمَرَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ وَمُخْتَلِفَاتٍ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ ، فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ خَالِقِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، الْمُتَفَرِّدُ بِالدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ وَالصَّمَدِيَّةِ ، ذِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : مِنْ إِيمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟ وَمَنْ خَلَقَ

الجِبَالَ ؟ قَالُوا : اللهُ ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ ، **وَهَكَذَا فِي الصَّحِيحِ** : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : « لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ »(١) **وَفِيهِ أَيْضًا** : أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَالُوا : « لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **قَدْ قَدْ** »(٢) أَيْ : حَسْب حَسْب لَا تَزِيدُوا عَلَى هَذَا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]، وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يُعْبَدُ مَعَ اللهِ غَيْرُهُ ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ : أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** »(٣) ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِيَاءَ النَّاسِ ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢]، وَثَمَّ شِرْكٌ آخَرُ خَفِيٌّ لَا يَشْعُرُ بِهِ غَالِبًا فَاعِلُهُ ، وَفِي الحَدِيثِ : « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ** »(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **قَالَ اللهُ : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »(٥).

وَعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ** » قَالُوا : وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِذَا جَازَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟** »(٦).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ وَإِذَا أَخَذْتُ مَضْجَعِي قَالَ : « **قُلْ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ**

(١) صحيح: مسلم (١١٨٥) .
(٢) صحيح: مسلم (١١٨٥) .
(٣) صحيح: وقد تقدم ، انظر تفسير سورة البقرة آية (٢٢) .
(٤) حسن لشواهده: أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥١) وانظر شاهدًا له عند النسائي (٣٧٧٣) .
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥) .
(٦) إسناده صحيح: وأخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨) .

نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ »(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٤٥ – ٤٧]، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧ – ٩٩]

قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، آمِرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ أَيْ : طَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَدْعُو إِلَى اللهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ ، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ شَرْعِيٍّ وَعَقْلِيٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَأُنَزِّهُ اللهَ وَأُجِلُّهُ وَأُعَظِّمُهُ وَأُقَدِّسُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ ، أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٩/ ٣٣٥) وأبو داود (٣/ ٤٠٦) .

ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : **إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ . وَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ** ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفِهِنَّ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] فَوَصَفَهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهَا بِالصِّدِّيقَةِ ، فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّةً لَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَالْإِعْظَامِ ، فَهِيَ صِدِّيقَةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ الْمُرَادُ بِالْقُرَى : الْمُدُنِ ، لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمُدُنِ أَرَقُّ طِبَاعًا وَأَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ بَوَادِيهِمْ ، وَأَهْلُ الرِّيفِ وَالسَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِي وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ﴾ [التوبة : ٩٧] . **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ مِنْ أَهْلِ الْعُمُورِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَاقَةً فَلَمْ يَزَلْ يُعْطِيهِ وَيَزِيدُهُ حَتَّى رَضِيَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهِبَ هِبَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ**))[1] وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**))[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يَعْنِي : هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْأَرْضِ ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : ٤٦] . فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَبَرَ ذَلِكَ ، رَأَوْا أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ

(١) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (١ / ٢٩٥) .
(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٥٠٧) ، وأحمد (٥ / ٣٦٥) .

الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ أَيْ : وَكَمَا نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النَّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١ - ٥٢] وَأَضَافَ الدَّارَ إِلَى الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ ، كَمَا يُقَالُ صَلَاةُ الْأُولَى ، وَمَسْجِدُ الْجَامِعِ ، وَعَامُ أَوَّلَ .

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يَنْزِلُ عَلَى رُسُلِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - عِنْدَ ضِيقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ اللهِ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَى ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤]

وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ كُذِبُوا ﴾ **قِرَاءَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ** قَدْ كُذِّبُوا ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَقْرَؤُهَا ، **رَوَى الْبُخَارِيُّ**[1] : **عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ** عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ قَالَ : قُلْتُ : أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ كُذِّبُوا ﴾ قُلْتُ : فَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ ؟ قَالَتْ : أَجَلْ لَعَمْرِي ، لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ ، فَقُلْتُ لَهَا : ﴿ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ، فَقَالَتْ : مَعَاذَ اللهِ ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا ، قُلْتُ : فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ ؟ قَالَتْ : هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ .

---

(١) البخاري (٤٦٩٥) .

وَفِي الْبُخَارِيِّ[1] أَيْضًا عَنْ عُرْوَةَ : فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا ﴿ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مُخَفَّفَةً ؟ قَالَتْ : مَعَاذَ الله ! اِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ[2] : أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ خَفِيفَةً . ثُمَّ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا بَشَرًا ثُمَّ تَلَا ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا خَالَفَتْ ذَلِكَ وَأَبَتْهُ وَقَالَتْ مَا وَعَدَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَتَّى مَاتَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ . قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ فِي حَدِيثِ عُرْوَةَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقْرَؤُهَا ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مُثَقَّلَةً مِنَ التَّكْذِيبِ . وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ : بِالتَّخْفِيفِ ؛ وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا ؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا تَقَدَّمَ ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مُخَفَّفَةً ، قَالَ عَبْدُ الله : هُوَ الَّذِي تَكْرَهُ[3] ، وَهَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - مُخَالِفٌ لِمَا رَوَاهُ آخَرُونَ عَنْهُمَا ، أَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ قَالَ : لَمَّا أَيِسَتِ الرُّسُلُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمُ النَّصْرُ عَلَى ذَلِكَ ﴿ فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾ وَكَذَا رُوِيَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمِثْلِهِ ، فَرُوِىَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ حِينَ أَبْطَأَ الْأَمْرُ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا بِالتَّخْفِيفِ[4].

فَهَاتَانِ الرِّوَايَتَانِ عَنْ كُلٍّ مِنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَدْ أَنْكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ عَلَى مَنْ فَسَّرَهَا بِذَلِكَ وَانْتَصَرَ لَهَا ابْنُ جَرِيرٍ ، وَوَجَّهَ الْمَشْهُورَ عَنِ الْجُمْهُورِ وَزَيَّفَ الْقَوْلَ الْآخَرَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَرَدَّهُ وَأَبَاهُ وَلَمْ يَقْبَلْهُ وَلَا ارْتَضَاهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

---

(١) البخاري (٤٦٩٦) .

(٢) البخاري (٤٥٢٤ ، ٤٥٢٥) .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه الطبري (٢٠٠٢٦) وفي سنده أبو عامر ، غَالِبُ ظَنِّي أَنَّهُ العَقَدِيّ .

(٤) قلت (مصطفى) : والسند إليه فيه نظر .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَقَدْ كَانَ فِي خَبَرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ وَكَيْفَ نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أَيْ : وَمَا كَانَ لِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ ، أَيْ : يُكْذَبُ وَيُخْلَقُ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ ، هُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ ، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسْخِ أَوِ التَّقْرِيرِ ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ وَمَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ الْجَلِيَّةِ وَعَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ الْمُجْمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَتَنَزُّهُهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَلِهَذَا كَانَتْ ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُم مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى السَّدَادِ ، وَيَبْتَغُونَ بِهَا الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْمَعَادِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَوْمَ يَفُوزُ بِالرِّبْحِ الْمُبَيَّضَةُ وُجُوهُهُم النَّاضِرَةُ ، وَيَرْجِعُ الْمُسَوَّدَةُ وُجُوهُهُمْ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ .

آخِر تَفْسِيرِ سُورَةِ يُوسُفَ ﷺ وَلِلهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ
وَهِي مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرةِ ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ تَبْتَدِئُ بِهَذِهِ الحُرُوفِ فَفِيهَا الانْتِصَارُ لِلقُرْآنِ ، وَتِبْيَان أَنَّ نُزُولَهُ مِنْ عِنْدِ الله حَقٌّ لاَ شَكَّ فِيهِ وَلا مِرْيَةَ وَلاَ رَيْبَ ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، ثُمَّ عُطِفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفُ صِفَاتٍ فَقَالَ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ خَبَرٌ تَقَدَّمَ مُبْتَدَؤُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] أَيْ : مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالنِّفَاقِ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ الَّذِي بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، بَلْ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عَنِ الْأَرْضِ بُعْدًا لَا تُنَالُ وَلَا يُدْرَكُ مَدَاهَا ، فَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ المَاءِ وَالهَوَاءِ ، مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا ، مُرْتَفِعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تُرَى ، وَقَالَ

إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ : السَّمَاءُ مُقَبَّبَةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلَ الْقُبَّةِ يَعْنِي : بِلَا عَمَدٍ ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ ، وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج : ٦٥] ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ ، أَيْ هِيَ مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمَدٍ كَمَا تَرَوْنَهَا ، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي الْقُدْرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ[1] ، وَأَنَّهُ يُمَرَّرُ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، تَعَالَى اللهُ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : ٣٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ إِذَا شَاءَ كَمَا بَدَأَهُ .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ شَرَعَ فِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأَحْكَامِهِ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا مُتَّسِعَةً مُمْتَدَّةً فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ شَامِخَاتٍ ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْجَدَاوِلَ وَالْعُيُونَ لِيَسْقِيَ مَا جُعِلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ، ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَكْلٍ صِنْفَانِ ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا ، فَإِذَا ذَهَبَ هَذَا غَشِيَهُ

---

(١) آية : (٥٤) .

هَذَا وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الْآخَرُ فَيَتَصَرَّفُ أَيْضًا فِي الزَّمَانِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الْمَكَانِ وَالسُّكَّانِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : فِي آلَاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ وَدَلَائِلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ أَيْ : أَرَاضٍ يُجَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَيِّبَةٌ تُنْبِتُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَهَذِهِ سَبِخَةٌ مَالِحَةٌ لَا تُنْبِتُ شَيْئًا ، كَذَا وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ بِقَاعِ الْأَرْضِ ، فَهَذِهِ تُرْبَةٌ حَمْرَاءُ وَهَذِهِ بَيْضَاءُ ، وَهَذِهِ صَفْرَاءُ وَهَذِهِ سَوْدَاءُ ، وَهَذِهِ مُحَجَّرَةٌ وَهَذِهِ سَهْلَةٌ ، وَهَذِهِ مُرَمَّلَةٌ وَهَذِهِ سَمِيكَةٌ وَهَذِهِ رَقِيقَةٌ ، وَالْكُلُّ مُتَجَاوِرَاتٌ ، فَهَذِهِ بِصِفَتِهَا وَهَذِهِ بِصِفَتِهَا الْأُخْرَى ، فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى جَنَّاتٍ فَيَكُونَ : ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مَرْفُوعِينَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى أَعْنَابٍ فَيَكُونَ مَجْرُورًا ، وَلِهَذَا قَرَأَ بِكُلٍّ مِنْهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصِّنْوَانُ : هُوَ الْأُصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ ، كَالرُّمَّانِ وَالتِّينِ وَبَعْضِ النَّخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَغَيْرُ الصِّنْوَانِ : مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ : « **أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ أَيْ : هَذَا الِاخْتِلَافُ فِي أَجْنَاسِ الثَّمَرَاتِ وَالزُّرُوعِ ، فِي أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ، وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا ، وَأَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُمُوضَةِ وَذَا فِي غَايَةِ الْمَرَارَةِ ، وَذَا عَفِصٌ وَهَذَا عَذْبٌ ، وَهَذَا جَمَعَ هَذَا وَهَذَا ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إِلَى طَعْمٍ آخَرَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَهَذَا أَصْفَرُ وَهَذَا أَحْمَرُ وَهَذَا أَبْيَضُ وَهَذَا أَسْوَدُ وَهَذَا أَزْرَقُ ، وَكَذَلِكَ الزُّهُورَاتُ مَعَ أَنَّهَا كُلَّهَا تَسْتَمِدُّ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الْمَاءُ مَعَ هَذَا الِاخْتِلَافِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَنْحَصِرُ وَلَا يَنْضَبِطُ ، فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَاتِ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ،

---

(١) مسلم حديث (٩٨٣) .

وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَعَادِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَائِلِهِ فِي خَلْقِهِ ، عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَمَعَ مَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ فَكَوَّنَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكَذِّبُونَ خَبَرَهُ فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمَ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَقَدِ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ ، فَالْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ فَالْإِعَادَةُ عَلَيْهِ أَسْهَلُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ثُمَّ نَعَتَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أَيْ : يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر : ٦ - ٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [العنكبوت : ٥٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : ١٦] . أَيْ :

عِقَابَنَا وَحِسَابَنَا ، كَمَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، فَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِعَذَابِ الله ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ أَيْ : قَدْ أَوْقَعْنَا نِقَمَنَا بِالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ وَعَفْوُهُ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ وَسِتْرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَيُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] ، وَقَالَ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ - ٥٠] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ، كَمَا تَعَنَّتُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُزِيحَ عَنْهُمُ الْجِبَالَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا مُرُوجًا وَأَنْهَارًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩] . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ الله الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا ، وَ ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ ، **وَقِيلَ** : يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ مُنْذِرٌ وَأَنَا هَادِي كُلِّ قَوْمٍ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أَيْ : نَبِيٌّ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أَيْ : قَائِدٌ .

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الحَيَوَانَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أَيْ: مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، أَوْ طَوِيلِ الْعُمْرِ أَوْ قَصِيرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦] أَيْ: خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَعُمُرِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ**»(٢) رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قَالُوا: يَعْنِي السِّقْطَ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَقُولُ: مَا زَادَتِ الرَّحِمُ فِي الحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا، وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحْمِلُ عَشَرَةَ أَشْهُرٍ وَمَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الحَمْلِ وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ، فَذَلِكَ الْغَيْضُ وَالزِّيَادَةُ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ تَعَالَى. وَقَالَ

---

(١) البخاري بنحوه (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) البخاري (٤٦٩٧).

آخَرُونَ : ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قَالَ : مَا تَرَى مِنَ الدَّمِ فِي حَمْلِهَا وَمَا تَزْدَادُ عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ أَيْ : بِأَجَلٍ ، حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَآجَالَهُمْ ، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا . **وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ** أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا يَقُولُ : « **إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ ، وَلَهُ مَا أَعْطَى ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى ، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ ، وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ أَيْ : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ ، وَدَانَ لَهُ الْعِبَادُ طَوْعًا وَكَرْهًا .

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَأَنَّهُ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَّ قَوْلَهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، وَقَالَ : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : ٢٥] ، **وَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -** : سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتِ ، وَاللهِ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا فِي جَنْبِ الْبَيْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١](٢).

---

(١) البخاري (١٢٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

(٢) **صحيح** : وقد أخرجه البخاري مُعلقًا في كتاب التوحيد باب (وكان الله سميعا بصيرا) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ ﴾ أَيْ : مُخْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ ﴿ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ مَاشٍ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيَائِهِ ، فَإِنَّ كِلَاهُمَا فِي عِلْمِ الله عَلَى السَّوَاءِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١]

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالحَادِثَاتِ ، كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلَائِكَةٌ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، فَاثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الحَسَنَاتِ ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ وَآخَرُ مِنْ قُدَّامِهِ ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ بِالنَّهَارِ ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ بَدَلًا ، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : ((**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**))[١] .

رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ الله خَلَوْا عَنْهُ . عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلَائِكَةِ**)) قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : ((**وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**))[٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قِيلَ : المُرَادُ حِفْظُهُمْ لَهُ مِنْ أَمْرِ الله ، وهذا رَأْيُ الأَكْثَرِينَ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ بِأَمْرِ الله .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥) ، ومسلم (٦٣٢) .
(٢) مسلم (٢٨١٤) .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبَرْقَ ، وَهُوَ مَا يُرَى مِنَ النُّورِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتَهُ وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ الله ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أَيْ : يَخْلُقُهَا مُنْشَأَةً جَدِيدَةً ، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : السَّحَابُ الثِّقَالُ : الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ . ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُرْسِلُهَا نِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا مَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ(١) ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّةً إِلَى رَجُلٍ مِنْ فَرَاعِنَةِ الْعَرَبِ فَقَالَ : « **اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي** » قَالَ : فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ : يَدْعُوكَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ رَسُولُ الله ؟ وَمَا اللهُ ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ ، أَمْ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ ؟ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله قَدْ خَبَّرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لِي : « **ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ** » فَذَهَبَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَهَا ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « **ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ** » فَرَجَعَ إِلَيْهِ الثَّالِثَةَ ، قَالَ : فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ سَحَابَةً حِيَالَ رَأْسِهِ فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَشُكُّونَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : شَدِيدَةٌ مُمَاحَلَتُهُ فِي عُقُوبَتِهِ مَنْ طَغَى عَلَيْهِ

(١) صحيح : أبو يعلى بنحوه (٦ / ٣٣٤١) وغيره ، وانظر أيضا السنة لابن أبي عاصم (١ / ٣٠٤) ، والبزار في كشف الأستار (٣ / ٥٤) وغيرهم .

وَعَتَا وَتَمَادَى فِي كُفْرِهِ ، وَهَذِهِ الآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكۡرًا وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١]، **وَقِيلَ** : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾ أَيْ : شَدِيدُ الْأَخْذِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : شَدِيدُ الْقُوَّةِ .

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤

﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ **قِيلَ** : التَّوْحِيدُ . أَيْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الْآيَة . أَيْ : وَمِثْلُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللهِ ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ ﴾ **قِيلَ** : كَمَثَلِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ مِنْ طَرَفِ الْبِئْرِ بِيَدِهِ ، وَهُوَ لَا يَنَالُهُ أَبَدًا بِيَدِهِ ، فَكَيْفَ يَبْلُغُ فَاهُ ؟ ، **وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِهَا** : يَدْعُو الْمَاءَ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ كَقَابِضٍ يَدَهُ عَلَى الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ .

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّ الَّذِي يَبْسُطُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مُتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بُعْدٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشُّرْبِ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ .

وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝١٥

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلِهَذَا يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَكَرْهًا عَلَى الْكَافِرِينَ ، ﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ ﴾ أَيْ : الْبُكْرَةُ ﴿ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ : آخِرُ النَّهَارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ [النحل : ٤٨]

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمُدَبِّرُهَا ، وَهُمْ مَعَ هَذَا قَدِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَعْبُدُونَهُمْ ، وَأُولَئِكَ الْآلِهَةُ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، أَيْ : لَا تُحَصِّلُ لَهُمْ مَنْفَعَةً وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً ، فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الْآلِهَةَ مَعَ اللهِ ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً تُنَاظِرُ الرَّبَّ وَتُمَاثِلُهُ فِي الْخَلْقِ ، فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَدْرُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقِ غَيْرِهِ ، أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يُمَاثِلُهُ ، وَلَا نِدَّ لَهُ وَلَا عِدْلَ لَهُ ، وَلَا وَزِيرَ لَهُ ، وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ - تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَإِنَّمَا عَبَدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُ آلِهَةً هُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ عَبِيدٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ ، وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر : ٣] فَأَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشْفَعُ أَحَد عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[سبأ : ٢٣] ، وَقَالَ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[مريم : ٩٣ - ٩٥] فَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ عَبِيدًا فَلِمَ يَعْبُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ مُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالِاخْتِرَاعِ وَالِابْتِدَاعِ ، ثُمَّ قَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ تَزْجُرُهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَى اللهِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا مَحَالَةَ ﴿ وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ ، وَالْبَاطِلِ فِي اِضْمِحْلَالِهِ وَفَنَائِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مَطَرًا ﴿ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أَيْ : أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِهِ ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا مِنَ المَاءِ ، وَهَذَا صَغِيرٌ فَوَسِعَ بِقَدْرِهِ ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ وَتَفَاوُتِهَا ، فَمِنْهَا مَا يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّسِعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أَيْ : فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ المَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ عَالٍ عَلَيْهِ ، هَذَا مَثَلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ ﴾ الْآيَة . هَذَا هُوَ المَثَلُ الثَّانِي هُوَ مَا يُسْبَكُ فِي النَّارِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ اِبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ، أَيْ : لِيُجْعَلَ حِلْيَةً أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا فَيُجْعَلُ مَتَاعًا ، فَإِنَّهُ يَعْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَعْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ مِنْهُ ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ أَيْ : إِذَا اِجْتَمَعَا لَا ثَبَاتَ لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ المَاءِ وَلَا مَعَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَنَحْوِهِمَا ، مِمَّا يُسْبَكُ فِي النَّارِ ، بَلْ يَذْهَبُ وَيَضْمَحِلُّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أَيْ : لَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَزَّقُ وَيَذْهَبُ فِي جَانِبَي الْوَادِي وَيُعَلَّقُ بِالشَّجَرِ وَتَنْسِفُهُ الرِّيَاحُ ، وَكَذَلِكَ خَبَثُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ يَذْهَبُ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا المَاءُ ، وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : كُنْتُ إِذَا قَرَأْتُ مَثَلًا مِنَ الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ أَنزَلَ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ الْآيَة . هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ احْتَمَلَتْ مِنْهُ الْقُلُوبُ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهَا وَشَكِّهَا ، فَأَمَّا الشَّكُّ فَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْعَمَلُ ، وَأَمَّا الْيَقِينُ فَيَنْفَعُ اللهُ بِهِ أَهْلَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ﴾ وَهُوَ الشَّكُّ ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وَهُوَ الْيَقِينُ ، وَكَمَا يُجْعَلُ الْحُلِيُّ فِي النَّارِ فَيُؤْخَذُ خَالِصُهُ وَيُتْرَكُ خَبَثُهُ فِي النَّارِ ، فَكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللهُ الْيَقِينَ وَيَتْرُكُ الشَّكَّ ، **وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا** : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ يَقُولُ : اِحْتَمَلَ السَّيْلُ مَا فِي الْوَادِي مِنْ عُودٍ وَدِمْنَةٍ ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ فَهُوَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالْحِلْيَةُ وَالْمَتَاعُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ ، فَلِلنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ خَبَثٌ فَجَعَلَ اللهُ مَثَلَ خَبَثِهِ كَزَبَدِ الْمَاءِ ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ الْأَرْضَ فَمَا شَرِبَتْ مِنَ الْمَاءِ فَأَنْبَتَتْ فَجُعِلَ ذَاكَ مِثْلُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَبْقَى لِأَهْلِهِ وَالْعَمَلُ السَّيِّئُ يَضْمَحِلُّ عَنْ أَهْلِهِ كَمَا يَذْهَبُ هَذَا الزَّبَدُ ، وَكَذَلِكَ الْهُدَى وَالْحَقُّ جَاءَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَنْ عَمِلَ بِالْحَقِّ كَانَ لَهُ وَبَقِيَ كَمَا بَقِيَ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ الْحَدِيدُ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ يُعْمَلَ مِنْهُ سِكِّينٌ وَلَا سَيْفٌ حَتَّى يُدْخَلَ فِي النَّارِ فَتَأْكُلُ خَبَثَهُ وَيَخْرُجُ جَيِّدُهُ فَيُنْتَفَعُ بِهِ ، فَكَذَلِكَ يَضْمَحِلُّ الْبَاطِلُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَأُقِيمَ النَّاسُ وَعُرِضَتِ الْأَعْمَالُ فَيَزِيغُ الْبَاطِلُ وَيَهْلِكُ وَيَنْتَفِعُ أَهْلُ الْحَقِّ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقَدْ ضَرَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِلْمُنَافِقِينَ مَثَلَيْنِ نَارِيًّا وَمَائِيًّا وَهُمَا قَوْلُهُ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٧]، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة : ١٩]، وَهَكَذَا ضَرَبَ لِلْكَافِرِينَ فِي سُورَةِ النُّورِ مَثَلَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ [النور : ٣٩]، وَالسَّرَابُ : إِنَّمَا يَكُونُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[١] فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فَمَا تُرِيدُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : أَيْ رَبَّنَا عَطِشْنَا فَاسْقِنَا ، فَيُقَالُ : أَلَا تَرِدُونَ ؟ فَيَرِدُونَ النَّارَ فَإِذَا هِيَ كَسَرَابٍ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

---

(١) البخاري (حديث ٤٥٨١) ، ومسلم (حديث ١٨٣) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي المَثَلِ الآخَرِ : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾[النور : ٤٠] . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » ، فَهَذَا مَثَلٌ مَائِيٌّ . وَقَالَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا »(٢). أَيْضًا فَهَذَا مَثَلٌ نَارِيٌّ .

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ السُّعَدَاءِ وَالأَشْقِيَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أَيْ : أَطَاعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ وَصَدَّقُوا أَخْبَارَهُ المَاضِيَةَ وَالآتِيَةَ فَلَهُمْ ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، وَهُوَ الجَزَاءُ الحَسَنُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾[الكهف : ٨٧- ٨٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس : ٢٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَمْ يُطِيعُوا اللهَ ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : فِي

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) البخاري (٧٢٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٣) .

الدَّارِ الْآخِرَةِ لَوْ أَنْ يُمْكِنَهُمْ أَنْ يَفْتَدُوا مِنْ عَذَابِ الله بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلِهِ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ، لأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَيْ : يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِي ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخر ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أَيْ : صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَفَهَذَا كَهَذَا ؟ لَا اسْتِوَاءَ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ وَيَعْقِلُ أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الصَّحِيحَةِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ .

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ

عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ : بِأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارُ ، وَهِيَ العَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ وَلَيْسُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ « **إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ** » .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ مِنْ صِلَةِ الأَرْحَامِ ، وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِم وَإِلَى الفُقَرَاءِ وَالمَحَاوِيجِ ، وَبَذْلِ المَعْرُوفِ ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِنَ الأَعْمَالِ ، يُرَاقِبُونَ اللهَ فِي ذَلِكَ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَلِهَذَا أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَالاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمُ القَاصِرَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ .

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : عَنِ المَحَارِمِ وَالمَآثِمِ ، فَفَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا للهِ ﷻ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَخُشُوعِهَا ، عَلَى الوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المَرْضِيِّ ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الإِنْفَاقُ لَهُمْ ، مِنْ زَوْجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَانِبَ ، مِنْ فُقَرَاءَ وَمَحَاوِيجَ وَمَسَاكِينَ ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أَيْ : فِي السِّرِّ وَالجَهْرِ ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الأَحْوَالِ ، آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أَيْ : يَدْفَعُونَ القَبِيحَ بِالحَسَنِ ، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا وَعَفْوًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤- ٣٥] ، وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاءِ المُتَّصِفِينَ بِهَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الحَسَنَةِ بِأَنَّ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، **ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ** : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ وَالعَدْنُ : الإِقَامَةُ ، أَيْ : جَنَّاتُ إِقَامَةٍ يَخْلُدُونَ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أَيْ : يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الآبَاءِ وَالأَهْلِينَ وَالأَبْنَاءِ ، مِمَّنْ هُوَ صَالِحٌ لَهُ دُخُولَ الجَنَّةِ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ، لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ ، حَتَّى أَنَّهُ تُرْفَعُ دَرَجَةُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى امْتِنَانًا مِنَ الله وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَنْقِيصٍ لِلأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : ٢١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ أَيْ : وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا تَفِدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُسَلِّمِينَ ، مُهَنِّئِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الله مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ فِي جِوَارِ الصِّدِّيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكِرَامِ .

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

هَذَا حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَصِفَاتُهُمْ وَذِكْرُ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَصِيرُهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ ، كَمَا أَنَّهُمُ اتَّصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَهَؤُلَاءِ : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ** »[1] وَفِي رِوَايَةٍ « **وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** »[1] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ وَهِيَ الْإِبْعَادُ عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وَهِيَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ وَالْمَآلِ ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ، **وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ : هِيَ سِتُّ خِصَالٍ فِي الْمُنَافِقِينَ ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الظَّهْرَةُ عَلَى النَّاسِ أَظْهَرُوا هَذِهِ الْخِصَالَ : إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا ، وَإِذَا ائْتُمِنُوا خَانُوا ، وَنَقَضُوا عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَإِذَا كَانَتِ الظَّهْرَةُ عَلَيْهِمْ أَظْهَرُوا الثَّلَاثَ

(١) صحيح : وقد تقدم .

الخِصَالَ : إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا ، وَإِذَا ائْتُمِنُوا خَانُوا .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُقَتِّرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ ، وَفَرِحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِمْهَالًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] ، ثُمَّ حَقَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ادَّخَرَهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فَقَالَ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] ، وَقَالَ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧]

عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فِهْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**))[1] وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ، وَالْأَسَكُّ : الصَّغِيرُ الْأُذُنَيْنِ ، فَقَالَ : ((**وَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ أَلْقَوْهُ**))[2].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ لَوْلَآ ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ كَقَوْلِهِمْ : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .
(٢) مسلم (٢٩٥٧) بنحوه .

عَلَى هَذَا غَيْرِ مَرَّةٍ وَإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى إِجَابَةِ مَا سَأَلُوا ، وَفِي الْحَدِيثِ إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ لَمَّا سَأَلُوهُ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُجْرِي لَهُمْ يَنْبُوعًا ، وَأَنْ يُزِيحَ الْجِبَالَ مِنْ حَوْلِ مَكَّةَ فَيَصِيرَ مَكَانَهَا مُرُوج وَبَسَاتِين : إِنْ شِئْتَ يَا مُحَمَّدُ أَعْطَيْتُهُمْ ذَلِكَ فَإِنْ كَفَرُوا أُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَقَالَ : ((**بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ**))(١) ، **وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ** : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُضِلُّ وَالْهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرُّسُلَ بِآيَةٍ عَلَى وَفْقِ مَا اقْتَرَحُوا ، أَوَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَإِنَّ الْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ لَيْسَ مَنُوطًا بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [[illegible] ١٠١] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أَيْ : وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللهِ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : تَطِيبُ وَتَرْكَنُ إِلَى جَانِبِ اللهِ وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أَيْ : هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : فَرَحٌ وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، **وَقِيلَ** : نِعْمَ مَالَهُمْ ، **وَقِيلَ** : غِبْطَةٌ لَهُمْ ، **وَقِيلَ** : خَيْرٌ لَهُمْ ؛ **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَقُولُ الرَّجُلُ : طُوبَى لَكَ ، أَيْ : أَصَبْتَ خَيْرًا ، **وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ** : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ حُسْنَى لَهُمْ ، ﴿ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ أَيْ : مَرْجِعٍ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا ، **وَقِيلَ** : هِيَ أَرْضُ الْجَنَّةِ بِالْحَبَشِيَّةِ ، **وَقِيلَ** : طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بِالْهِنْدِيَّةِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَنَّ طُوبَى

---

(١) حسن : أخرجه الحاكم (١/ ٥٣) ، وفي سنده هنالك عمران بن الحكم السلمي ، وصوابه عمران بن الحارث أبو الحكم السلمي .

شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ دَارٍ مِنْهَا غُصْنٌ مِنْهَا .

عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**وَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**)) قَالَ : فَحَدَّثْتُ بِهِ النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ فَقَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**))[1] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾))[2].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي يَكُون آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ : ((تَمَنَّ)) فَيَتَمَنَّى ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ((**تَمَنَّ مِنْ كَذَا ، وَتَمَنَّ مِنْ كَذَا ، يُذَكِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ : ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ**))[3] . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ عَنِ الله ﷻ : ((**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يُنْقِصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ**))[4] الْحَدِيثُ بِطُولِهِ .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : تُبَلِّغُهُمْ رِسَالَةَ الله إِلَيْهِمْ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِالله ، وَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ فَلَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ ، وَكَمَا أَوْقَعْنَا بَأْسَنَا وَنِقْمَتَنَا بِأُولَئِكَ

---

(١) البخاري (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) ، ومسلم (٢٨٢٧) .

(٢) البخاري (٣٢٥٢) ، ومسلم (٢٨٢٦) .

(٣) البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) .

(٤) صحيح : وأخرجه مسلم ، وقد تقدم .

فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ بِهِمْ ، فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [النحل : ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] أَيْ : كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُقِرُّونَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْ وَصْفِ اللهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَلِهَذَا أَنِفُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا « **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » ، وَقَالُوا : مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[1] ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ** »[2]. ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ ، مُقِرٌّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِي ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أَيْ : إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأُنِيبُ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَادِحًا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُفَضِّلًا لَهُ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ تَسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَنْشَقُّ أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ

(١) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .
(٢) مسلم (٢١٣٢) .

المَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ ، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ ، أَوْ بِطَرِيقِ الأَوْلَى أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الإِعْجَازِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَمَعَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ جَاحِدُونَ لَهُ ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : مَرْجِعُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ ﷻ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ لأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَمْعِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ** »[1] ، وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ هُوَ : الزَّبُورُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَيْ : مِنْ إِيمَانِ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، وَيَعْلَمُوا أَوْ يَتَبَيَّنُوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ حُجَّةٌ وَلَا مُعْجِزَةٌ أَبْلَغُ وَلَا أَنْجَعُ فِي الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِي لَوْ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[2] ، مَعْنَاهُ : أَنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ انْقَرَضَتْ بِمَوْتِهِ ، وَهَذَا الْقُرْآنُ حُجَّةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى الآبَادِ ، لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : أَيْ لَا يَصْنَعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَفَلَمْ يَعْلَمِ الَّذِينَ آمَنُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾

(١) البخاري (٣٤١٧) .
(٢) صحيح : وقد تقدم .

أَيْ : بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ تُصِيبُ مَنْ حَوْلَهُمْ لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٧] ، وَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أَيْ : الْقَارِعَة ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ﴾ قَالَ : سَرِيَّةٌ ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ، قَالَ : مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : فَتْحُ مَكَّةَ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا : ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ﴾ ، قَالَ : عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : نُزُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهِمْ وَقِتَالِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : فَتْحُ مَكَّةَ ، **وَقِيلَ** : يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقُضُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم:٤٧]

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أَيْ : فَلَكَ فِيهِمْ أُسْوَةٌ ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَجَّلْتُهُمْ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أَخْذَةً رَابِيَةً ، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتَ بِهِمْ وَعَاقَبْتَهُمْ وَأَمْلَيْتَ لَهُمْ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) ((**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**)) ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ

(١) صحيح : وقد تقدم .

شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : حَفِيظٌ عَلِيمٌ رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ ، يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وَقَالَ : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، أَفَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا ، وَلَا كَشْفَ ضُرٍّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا ؟ وَحُذِفَ هَذَا الْجَوَابُ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أَيْ : عَبَدُوهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْثَانٍ ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أَيْ : أَعْلِمُونَا بِهِمْ وَاكْشِفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرَفُوا ، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا وُجُودَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَرْضِ لَعَلِمَهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ **قِيلَ** : بِظَنٍّ مِنَ الْقَوْلِ ، **وَقِيلَ** : بِبَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ ، أَيْ : إِنَّمَا عَبَدْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِظَنٍّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣] ، ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : قَوْلُهُمْ ، أَيْ : مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم ﴾ [فصلت : ٢٥] .

﴿ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الصَّادِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَمَّا زُيِّنَ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ

وَأَنَّهُ حَقٌّ دَعَوْا إِلَيْهِ ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ . وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ أَيْ : بِمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ الله ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١]

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَثَوَابَ الْأَبْرَارِ ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أَيْ : الْمُدَّخَرُ مَعَ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿ أَشَقُّ ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ : « **إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ** »[1] ، وَهُوَ كَمَا قَالَ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ ، وَذَاكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا ، وَوَثَاقٌ لَا يُتَصَوَّرُ كَثَافَتُهُ وَشِدَّتُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر : ٢٥-٢٦]

وَلِهَذَا قَرَنَ هَذَا بِهَذَا ، فَقَالَ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيْ : صِفَتُهَا وَنَعْتُهَا ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ، أَيْ : سَارِحَةٌ فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا ، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ، أَيْ : يُصَرِّفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ [محمد : ١٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أَيْ : فِيهَا الْفَوَاكِهُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ ، لَا انْقِطَاعَ

---

(١) صحيح وسيأتي في تفسير سورة النور إن شاء الله .

وَلَا فَنَاءَ ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ وَفِيهِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ ، فَقَالَ : « **إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ – أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ – فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا** »[1].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ ، طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ** »[2].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَم قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ** » قَالَ : إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ أَذًى ؟ قَالَ : « **تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ** »[3].

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة : ٣٢-٣٣] ، وَقَالَ : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[الإنسان : ١٤]

وَكَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَلَا يُقَلَّصُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء : ٥٧] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا** »[4] ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ ، لِيُرَغِّبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحَذِّرَ مِنَ النَّارِ ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بِمَا ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ ، كَمَا قَالَ

---

(١) البخاري (١٠٥٢) ، ومسلم (٩٠٧) .

(٢) مسلم (٢٨٣٥) .

(٣) رجاله ثقات : أخرجه أحمد (٤/ ٣٧١) ، (٤/ ٣٦٧) ، وعبد بن حميد في المنتخب (بحقيقي ٢٦٣) .

(٤) صحيح : وقد تقدم .

تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠]

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، وَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ، أَيْ : مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْبِشَارَةِ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٢١]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٨] أَيْ : إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا اللهُ بِهِ فِي كُتُبِنَا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَحَقًّا وَصِدْقًا ، مَفْعُولًا لَا مَحَالَةَ وَكَائِنًا ، فَسُبْحَانَهُ مَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ فَلَهُ الْحَمْدُ وَحْدَهُ ، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يُكَذِّبُ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩].

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ أَيْ : إِلَى سَبِيلِهِ أَدْعُو النَّاسَ ﴿ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ أَيْ : مَرْجِعِي وَمَصِيرِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَكَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعْرَبًا ، شَرَّفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ: آرَاءَهُمْ ﴿ بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أَيْ: مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالمَحَجَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَيَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ وَيُولَدُ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِهِمْ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « **أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** »[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، أَيْ: لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَلْ إِلَى الله ﷻ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أَيْ: لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، **وَكَانَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ**: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أَيْ: لِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ، يَعْنِي لِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مُدَّةٌ مَضْرُوبَةٌ عِنْدَ الله وَمِقْدَارٌ مُعَيَّنٌ، فَلِهَذَا يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثْبِتُ، يَعْنِي: حَتَّى نُسِخَتْ كُلُّهَا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

يُدَبِّرُ أَمْرَ السَّنَةِ فَيَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ إِلَّا الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ ، وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ ، وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قَالَ : كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، وَالشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ ، فَإِنَّهُمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُمَا ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ ، وَالشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ ، فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ . **وَقَالَ مَنْصُورٌ** : سَأَلْتُ مُجَاهِدًا ، فَقُلْتُ : أَرَأَيْتَ دُعَاءَ أَحَدِنَا يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ اسْمِي فِي السُّعَدَاءِ فَأَثْبِتْهُ فِيهِمْ ، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَشْقِيَاءِ فَامْحُهُ عَنْهُمْ وَاجْعَلْهُ فِي السُّعَدَاءِ » فَقَالَ : حَسَنٌ ، ثُمَّ لَقِيتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَوْلٍ أَوْ أَكْثَرَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ الْآيَتَيْنِ . قَالَ يَقْضِي فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ رِزْقٍ أَوْ مُصِيبَةٍ ، ثُمَّ يُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ ، فَأَمَّا كِتَابُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ فَهُوَ ثَابِتٌ لَا يُغَيَّرُ .

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَبْكِي : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ شِقْوَةً أَوْ ذَنْبًا فَامْحُهُ ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ فَاجْعَلْهُ سَعَادَةً وَمَغْفِرَةً . وَمَعْنَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ : أَنَّ الْأَقْدَارَ يَنْسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثْبِتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ . **قَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : الْكِتَابُ كِتَابَانِ فَكِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ، **وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ يَقُولُ : يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ فَيَنْسَخُهُ ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلَا يُبَدِّلُهُ ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وَجُمْلَةُ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ النَّاسِخِ وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا يُثْبِتُ كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾[البقرة : ١٠٦] ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قَالَ : مَنْ جَاءَ أَجَلُهُ يَذْهَبُ وَيُثْبِتُ الَّذِي هُوَ حَيٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلِهِ ، وَقَدِ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ **قيل** : الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : جُمْلَةُ الْكِتَابِ وَأَصْلِهِ .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُ أَعْدَاءَكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ فِي الدُّنْيَا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللهِ وَقَدْ بَلَّغْتَ مَا أُمِرْتَ بِهِ ﴿ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ أَيْ : حِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قِيلَ : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَحُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْقَرْيَةِ تَخْرَبُ حَتَّى يَكُونَ الْعُمْرَانُ فِي نَاحِيَةٍ ، وَقِيلَ : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قَالَ : خَرَابُهَا ، وَقِيلَ : هُوَ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَقِيلَ : نُقْصَانُ أَهْلِهَا وَبَرَكَتِهَا ، وَقِيلَ : نُقْصَانُ الْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَخَرَابُ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ تُنْقَصُ لَضَاقَ عَلَيْكَ حُشُّكَ ، وَلَكِنْ تَنْقُصُ الْأَنْفُسُ وَالثَّمَرَاتُ ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ : لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ تَنْقُصُ لَمْ تَجِدْ مَكَانًا تَقْعُدُ فِيهِ وَلَكِنْ هُوَ الْمَوْتُ ، وَقِيلَ : خَرَابُهَا بِمَوْتِ عُلَمَائِهَا وَفُقَهَائِهَا وَأَهْلُ الْخَيْرِ مِنْهَا . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الشِّرْكِ قَرْيَةً بَعْدَ قَرْيَةٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الأحقاف : ٢٧] ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ بِرُسُلِهِمْ وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ ، فَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ « وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ » ، وَالْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى :

((الْكُفَّار)) ، ﴿ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ ؟ كَلَّا : بَلْ هِيَ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أَيْ : مَا أَرْسَلَكَ اللهُ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : حَسْبِي اللهُ هُوَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْتُ عَنْهُ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ فِيمَا تَفْتَرُونَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قِيلَ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الله بْنِ سَلَام ، وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ ؛ لأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَعَبْدُ الله بْنُ سَلَام إِنَّمَا أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَالْأَظْهَرُ فِي هَذَا قولُ من قَالَ : هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَقِيلَ : هُوَ اللهُ تَعَالَى .

وَالصَّحِيحُ فِي هَذَا أَنَّ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ اِسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بِشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦-١٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُنَزَّلَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سورةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ[1].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَشْرَفِ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِهَذَا الْكِتَابِ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ إِلَى الْهُدَى وَالرُّشْدِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قَدَّرَ لَهُ الْهِدَايَةَ عَلَى يَدَيْ رَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ يَهْدِيهِمْ ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أَيْ : المَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مُسْتَأْنَفًا مَرْفُوعًا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الْإِتْبَاعِ صِفَةً لِلْجَلَالَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

(١) ذلك في أول تفسير سورة البقرة .

إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : وَيْلٌ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ خَالَفُوكَ يَا مُحَمَّدُ وَكَذَّبُوكَ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، أَيْ يُقَدِّمُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، وَنَسَوْا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَهِيَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أَيْ : وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ الله عِوَجًا مَائِلَةً عَائِلَةً ، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مَنْ خَذَلَهَا ، فَهُمْ فِي ابْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْلٍ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ ، لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَلَاحٌ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ ، لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَفْعَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ . وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ ، أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِلُغَتِهِمْ ، فَاخْتُصَّ كُلُّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَاخْتُصَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله رَسُولُ الله ﷺ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** »[1] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ كُلَّهُمْ ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا . قِيلَ : وَهِيَ التِّسْعُ الْآيَاتُ ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُ قَائِلِينَ لَهُ : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : أُدْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ لِيَخْرُجُوا مِنْ ظُلُمَاتِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِأَيَادِيهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظُلْمِهِ وَغَشْمِهِ ، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَفَلْقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ ، وَتَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي مَا صَنَعْنَا بِأَوْلِيَائِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ لَعِبْرَةً ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أَيْ : فِي الضَّرَّاءِ ، ﴿ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : فِي السَّرَّاءِ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »[1].

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ

(١) مسلم (٢٩٩٩) .

إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى حِينَ ذَكَّرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللهِ عِنْدَهُمْ ، وَنِعَمَهُ عَلَيْهِمْ ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمَا كَانُوا يَسُومُونَهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِذْلَالِ ، حَيْثُ كَانُوا يُذَبِّحُونَ مَنْ وُجِدَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَيَتْرُكُونَ إِنَاثَهُمْ ، فَأَنْقَذَهُمُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا . وَقِيلَ : وَفِيمَا كَانَ يَصْنَعُهُ بِكُمْ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ ﴿ بَلَآءٌ ﴾ أَيْ : اِخْتِبَارٌ عَظِيمٌ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَهَذَا وَاللهُ أَعْلَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : آذَنَكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَآلَى بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أَيْ : لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أَيْ : كَفَرْتُمُ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ وَعِقَابُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَ ، كَقَوْلِهِ ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : ٦] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ قَالَ : « **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ**

المَخِيطُ إِذْ دَخَلَ الْبَحْرَ »[1] فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ مِمَّا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ ﷻ : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ ، قِيلَ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى أَفْوَاهِ الرُّسُلِ يَأْمُرُونَهُمْ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَقِيلَ : بَلْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ تَكْذِيبًا لَهُمْ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ سُكُوتِهِمْ عَنْ جَوَابِ الرُّسُلِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ . قُلْتُ : وَيُؤَيِّدُهُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِتَمَامِ الْكَلَامِ ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فَكَأَنَّ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - تَفْسِيرًا لِمَعْنَى ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، وَقِيلَ : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ عَضُّوا عَلَيْهَا غَيْظًا . ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ الْآيَة . يَقُولُونَ : لَا نُصَدِّقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكًّا قَوِيًّا .

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى

(١) مسلم (حديث ٢٥٧٧) .

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ الْمُجَادَلَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَمَهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ بِالشَّكِّ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَفِي وُجُودِهِ شَكٌّ ، فَإِنَّ الْفِطَرَ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِهِ وَمَجْبُولَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ ، فَإِنَّ الِاعْتِرَافَ بِهِ ضَرُورِيٌّ فِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَابٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ الْمُوَصِّلِ إِلَى وُجُودِهِ ، وَلِهَذَا قَالَتْ لَهُمُ الرُّسُلُ تُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّهُ : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الَّذِي خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحُدُوثِ وَالْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ ظَاهِرٌ عَلَيْهِمَا ، فَلَا بُدَّ لَهُمَا مِنْ صَانِعٍ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَهُهُ وَمَلِيكُهُ ، وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أَيْ : أَفِي إِلَهِيَّتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقِرَّةٌ بِالصَّانِعِ ، وَلَكِنْ تَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللهِ زُلْفَى ، وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود : ٣]، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّينَ فِي مَقَامِ الرِّسَالَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمُ الْمَقَامَ الْأَوَّلَ ، وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أَيْ : كَيْفَ نَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ ، وَلَمَّا نَرَ مِنْكُمْ مُعْجِزَةً ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : خَارِقٍ نَقْتَرِحُهُ عَلَيْكُمْ . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أَيْ : صَحِيحٌ أَنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ ، وَإِذْنِهِ لَنَا فِي ذَلِكَ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ .

ثُمَّ قَالَتِ الرُّسُلُ : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنِهَا ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾[الأعراف : ٨٨] . وَكَمَا قَالَ قَوْمُ لُوطٍ : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال : ٣٠] ، وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَى أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ بِسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا وَجُنْدًا ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى ، وَلَمْ يَزَلْ يُرَقِّيهِ تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا وَأَرْغَمَ أُنُوفَ أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا ، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ الله وَدِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أَيْسَرِ زَمَانٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أَيْ : وَعْدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ يَوْم الْقِيَامَةِ ، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٧ - ٣٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أَيْ : اِسْتَنْصَرَتِ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَى قَوْمِهَا ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : اِسْتَفْتَحَتِ الْأُمَمُ عَلَى أَنْفُسِهَا ، كَمَا قَالُوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُرَادًا وَهَذَا مُرَادًا ، كَمَا أَنَّهُمْ اِسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَاسْتَفْتَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَاسْتَنْصَرَ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ١٩] ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أَيْ : مُتَجَبِّرٌ فِي نَفْسِهِ عَنِيدٌ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ [ق : ٢٤ - ٢٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ وَرَاء هُنَا بِمَعْنَى : أَمَامُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، وَكَانَ اِبْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَؤُهَا : (وَكَانَ أَمَامَهَمْ مَلِكٌ) أَيْ : مِنْ وَرَاءِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ جَهَنَّمُ ، أَيْ : هِيَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يَسْكُنُهَا مُخَلَّدًا يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي النَّارِ لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ ، فَهَذَا حَارٌّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ ، وَهَذَا بَارِدٌ فِي غَايَةِ الْبَرْدِ وَالنَّتْنِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص : ٥٧ - ٥٨] **قِيلَ** : الصَّدِيدُ مِنَ الْقَيْحِ وَالدَّمِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ لَحْمِهِ وَجِلْدِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ أَيْ : يَتَغَصَّصُهُ وَيَتَكَرَّهُهُ ، أَيْ : يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَقَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلَكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج : ٢١] ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ أَيْ : يَزْدَرِيهِ لِسُوءِ طَعْمِهِ وَلَوْنِهِ وَرِيحِهِ ، وَحَرَارَتِهِ أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَيْ : يَأْلَمُ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ ، **وَقِيلَ** : مِنْ كُلِّ عَظْمٍ وَعَصَبٍ وَعِرْقٍ ، **وَقِيلَ** : حَتَّى مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : أَيْ : مِنْ أَمَامِهِ وَخَلْفِهِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ** : وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِ وَمِنْ سَائِرِ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ ، **وَقِيلَ** : أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّذِي يُعَذِّبُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْهُ ، لَوْ كَانَ يَمُوتُ وَلَكِنْ لَا يَمُوتُ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] ، **وَمَعْنَى ذَلِكَ** : أَنَّهُ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ اقْتَضَى أَنْ يَمُوتَ مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوتُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ لِيَخْلُدَ فِي دَوَامِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أَيْ : وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْحَالِ عَذَابٌ آخَرُ غَلِيظٌ ، أَيْ : مُؤْلِمٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ أَغْلَظُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ وَأَدْهَى وَأَمَرُّ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٦٤-٦٨] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَارَةً يَكُونُونَ فِي أَكْلِ زَقُّومٍ ، وَتَارَةً فِي شُرْبِ حَمِيمٍ ، وَتَارَةً يَرِدُونَ إِلَى جَحِيمٍ - عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ - وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن ٤٣-٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣ -٥٠] ،

وَقَالَ : ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[الواقعة : ٤١-٤٤] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَنَوُّعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ ، وَتَكْرَارِهِ وَأَنْوَاعِهِ وَأَشْكَالِهِ مِمَّا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ ﷻ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[فصلت : ٤٦]

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ وَبَنَوْا أَعْمَالَهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ صَحِيحٍ ، فَانْهَارَتْ وَعَدِمُوهَا أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ أَيْ : مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْءٍ ، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا ، وَلَا أَلْفَوْا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ أَيْ : ذِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ عَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا ، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْعِ هَذَا الرَّمَادِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[آل عمران : ١١٧] . وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ أَيْ : سَعْيُهُمْ وَعَمَلُهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ ، حَتَّى فَقَدُوا ثَوَابَهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ .

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ

فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ ، وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَوِهَادٍ وَأَوْتَادٍ وَبَرَارٍ وَصَحَارٍ وَقِفَارٍ وَبِحَارٍ وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَمَنَافِعِهَا وَأَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٧٧-٨٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أَيْ : بِعَظِيمٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ أَنْ يُذْهِبَكُمْ وَيَأْتِيَ بِآخَرِينَ عَلَى غَيْرِ صِفَتِكُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٥-١٧]، وَقَالَ : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨]

وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرَزُوا۟ ﴾ أَيْ : بَرَزَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، أَيْ : اِجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾ وَهُمُ الْأَتْبَاعُ ، لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ عَنْ عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعَنْ مُوَافَقَةِ الرُّسُلِ ، قَالُوا لَهُمْ : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَمَرْتُمُونَا اِئْتَمَرْنَا وَفَعَلْنَا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ

عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : فَهَلْ تَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ الله ، كَمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَنَا وَتُمَنُّونَنَا ، فَقَالَتِ الْقَادَةُ لَهُمْ : ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ، وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ قَدَرُ الله ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَنَا خَلَاصٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَزِعْنَا مِنْهُ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : إِنَّ أَهْلَ النَّارِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : تَعَالَوْا ، فَإِنَّمَا أَدْرَكَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ بِبُكَائِهِمْ وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَى الله ﷻ ، تَعَالَوْا نَبْكِ وَنَتَضَرَّعُ إِلَى الله فَبَكَوْا وَتَضَرَّعُوا ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ ، قَالُوا : إِنَّمَا أَدْرَكَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ بِالصَّبْرِ ، تَعَالَوْا حَتَّى نَصْبِرَ فَصَبَرُوا صَبْرًا لَمْ يُرَ مِثْلُهُ ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ الْآيَة . قُلْتُ : وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ فِي النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]

وَأَمَّا تَخَاصُمُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٣١-٣٣]

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خاطَبَ بِهِ إِبْلِيسُ أَتْبَاعَهُ بَعْدَمَا قَضَى اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ وَأَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللهُ - يَوْمَئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ ، وَغَبْنًا إِلَى غَبْنِهِمْ ، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَوَعَدَكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ النَّجَاةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَبَرًا صِدْقًا ، وَأَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ لِي دَلِيلٌ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا حُجَّةَ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الرُّسُلُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوكُمْ بِهِ ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصِرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾ الْيَوْمَ ﴿ وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لِكَوْنِكُمْ خَالَفْتُمُ الْحُجَجَ ، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أَيْ : بِنَافِعِكُمْ وَمُنْقِذِكُمْ وَمُخَلِّصِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أَيْ : بِنَافِعِي بِإِنْقَاذِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ . قَالَ قَتَادَةُ : أَيْ : بِسَبَبِ مَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ إِنِّي جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا للهِ عز وجل وَهَذَا الَّذِي قَالَ هُوَ الرَّاجِحُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦] ، وَقَالَ : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ تَكُونُ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ كَمَا قَدَّمْنَا .

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَآلَ الأَشْقِيَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَأَنَّ خَطِيبَهُمْ إِبْلِيسُ عَطَفَ بِمَآلِ السُّعَدَاءِ ، وَأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، سَارِحَةً فِيهَا حَيْثُ سَارُوا وَأَيْنَ سَارُوا ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ مَاكِثِينَ أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر : ٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وَهُوَ المُؤْمِنُ ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي قَلْبِ المُؤْمِنِ ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ المُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ . **يَعْنُونَ** : إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ عَمَلِ المُؤْمِنِ وَقَوْلِهِ الطَّيِّبِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَإِنَّ المُؤْمِنَ كَشَجَرَةٍ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي كُلِّ حِينٍ وَوَقْتٍ وَصَبَاحٍ وَمَسَاءٍ .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ المُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا لَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً ، وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** » قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هِيَ النَّخْلَةُ** » فَلَمَّا قُمْنَا ، قُلْتُ لِعُمَرَ : يَا أَبَتَاهُ وَاللهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ قَالَ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ ؟ قُلْتُ : لَمْ أَرَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا ، قَالَ

(١) البخاري بنحوه (٤٦٩٨) ، ومسلم (٢٨١١) .

عُمَرُ : لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قَالَ : هِيَ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قِيلَ : غُدْوَةً وَعَشِيًّا ، وَقِيلَ : كُلَّ شَهْرٍ ، وَقِيلَ : كُلَّ شَهْرَيْنِ ، وَقِيلَ : كُلَّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَقِيلَ : كُلَّ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ ، وَقِيلَ : كُلَّ سَنَةٍ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ ، لَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أَيْ : كَامِلًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هَذَا مِثْلُ كُفْرِ الْكَافِرِ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ ، مُشَبَّهٌ بِشَجَرَةِ الْحَنْظَلِ . ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أَيْ : اُسْتُؤْصِلَتْ ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أَيْ : لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا ثَبَاتَ ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَرْعَ ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ وَلَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ شَيْءٌ .

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ[1] رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ».

وَعَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُثَبِّتُهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فِي الْقَبْرِ ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ .

وَعَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الرَّجُلِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ :

---

(١) البخاري (٤٦٩٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

« اِسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثَبُّتَ ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ »(١).

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ(٢) : قَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ أَلَمْ تَعْلَم كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ ﴾ . الْبَوَارُ : الْهَلَاكُ ، بَارَ يَبُورُ بَوْرًا وَ ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ هَالِكِينَ . **عَنْ عَطَاء سَمِعَ اِبْنَ عَبَّاسٍ** : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ قَالَ : هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ(٣). وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الصَّحِيحُ عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً لِلنَّاسِ ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَرَهَا دَخَلَ النَّارَ . **وَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ** أَنَّ اِبْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ عَلِيًّا عَنْ ﴿ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ قَالَ : هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أَيْ : جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ، عَبَدُوهُمْ مَعَهُ وَدَعَوْا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : مَهْمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا ، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : مَرْجِعُكُمْ وَمَوْئِلُكُمْ إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٧٠]

قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٣/ ٥٥٠) .
(٢) البخاري (مع الفتح ٨/ ٣٧٨) في التفسير .
(٣) البخاري (٤٧٠٠) .

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ ، بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهِيَ عِبَادَةُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ بِأَدَاءِ الزَّكَوَاتِ ، وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْقَرَابَاتِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَجَانِبِ ، وَالْمُرَادُ بِإِقَامَتِهَا هُوَ : الْمُحَافَظَةُ عَلَى وَقْتِهَا وَحُدُودِهَا وَرُكُوعِهَا وَخُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ فِي السِّرِّ ، أَيْ : فِي الْخُفْيَةِ وَالْعَلَانِيَةِ وَهِيَ : الْجَهْرُ ، وَلْيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ أَيْ : لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةٌ أَنْ تُبَاعَ نَفْسُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الحديد : ١٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلا خِلَٰلٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ لَيْسَ هُنَاكَ مُخَالَّةُ خَلِيلٍ ، فَيُصْفَحُ عَمَّنِ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْعِقَابِ لِمُخَالَفَتِهِ ، بَلْ هُنَاكَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ . قُلْتُ : وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ ، وَلَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ صَدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ إِذَا لَقِيَ اللهَ كَافِرًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

يُعَدِّدُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ السَّمَاوَاتِ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَالْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه : ٥٣]مَا بَيْنَ

ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةِ الأَلْوَانِ وَالأَشْكَالِ ، وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالمَنَافِعِ ، وَسَخَّرَ الْفُلْكَ بِأَنْ جَعَلَهَا طَافِيَةً عَلَى تَيَّارِ مَاءِ الْبَحْرِ تَجْرِي عَلَيْهِ بِأَمْرِ الله تَعَالَى ، وَسَخَّرَ الْبَحْرَ لِحَمْلِهَا لِيَقْطَعَ الْمُسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ آخَرَ ، لِجَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ وَمَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا ، وَسَخَّرَ الأَنْهَارَ تَشُقُّ الأَرْضَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ مِنْ شُرْبٍ وَسَقْيٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ المَنَافِعِ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أَيْ : يَسِيرَانِ لَا يَفْتُرَانِ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ، ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَعَاقَبَانِ ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَارَضَانِ ، فَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ ثُمَّ يَأْخُذُ الآخَرُ مِنْ هَذَا فَيَقْصُرُ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يَقُولُ هَيَّأَ لَكُمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ وَقَالِكُمْ ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجْزِ الْعِبَادِ عَنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا ، **كَمَا قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ – رَحِمَهُ اللهُ –**: إِنَّ حَقَّ الله أَثْقَلُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْعِبَادُ ، وَإِنَّ نِعَمَ الله أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا الْعِبَادُ ، وَلَكِنْ أَصْبِحُوا تَوَّابِينَ وَأَمْسُوا تَوَّابِينَ . **وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ** أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ ، وَلَا مُوَدَّعٍ ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**))[1]. **وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –**: الْحَمْدُ لله الَّذِي لَا تُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ إِلَّا بِنِعْمَةٍ حَادِثَةٍ تُوجِبُ عَلَى مُؤَدِّيهَا شُكْرَهُ بِهَا .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ

---

(١) البخاري (٥٤٥٨) .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى فِي هَذَا المَقَامِ مُحْتَجًّا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، بِأَنَّ الْبَلَدَ الْحَرَامَ مَكَّةَ إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّلَ مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَتْ بِسَبَبِهِ آهِلَةً عَامِرَةً ، تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ ، وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٦-٩٧] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فَعَرَّفَهُ لِأَنَّهُ دَعَا بِهِ بَعْدَ بِنَائِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَأَمَّا حِينَ ذَهَبَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ وَهُوَ رَضِيعٌ إِلَى مَكَانِ مَكَّةَ فَإِنَّهُ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة : ١٢٦] ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مُسْتَقْصًى مُطَوَّلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتُتِنَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ وَأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَهَا ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ ، كَقَوْلِ عِيسَى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، وَلَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى لَا تَجْوِيزُ وُقُوعِ ذَلِكَ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَلَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الْآيَةَ وَقَوْلَ عِيسَى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ : ((**اللَّهُمَّ أُمَّتِي ، اللَّهُمَّ أُمَّتِي ، اللَّهُمَّ أُمَّتِي**)) وَبَكَى ، فَقَالَ اللهُ : اذْهَبْ يَا جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - وَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ : فَقَالَ اللهُ : اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي

أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ(١).

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا دُعَاءٌ ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّى عَنْ هَاجَرَ وَوَلَدِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَى اللهِ ﷻ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا جَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا لِيَتَمَكَّنَ أَهْلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: لَوْ قَالَ أَفْئِدَةَ النَّاسِ لَازْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ قَالَ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فَاخْتُصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أَيْ: لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ، وَكَمَا أَنَّهُ وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُمْ ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَكَّةَ شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ، وَهِيَ تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ مَا حَوْلَهَا اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ الْخَلِيلِ ﵇.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

(١) مسلم (٢٠٣).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أَيْ : أَنْتَ تَعْلَمُ قَصْدِي فِي دُعَائِي ، وَمَا أَرَدْتُ بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ إِلَى رِضَاكَ وَالْإِخْلَاصُ لَكَ ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ ﷻ عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنَ الْوَلَدِ بَعْدَ الْكِبَرِ ، فَقَالَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنَ الْوَلَدِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أَيْ : مُحَافِظًا عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أَيْ : وَاجْعَلْهُمْ كَذَلِكَ مُقِيمِينَ لَهَا ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أَيْ : فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ كُلِّهِ . ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ « وَلِوَالِدِي » بِالْإِفْرَادِ ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَتُهُ لله ﷻ ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : كُلِّهِمْ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَحْسَبَنَّهُ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَّلَهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْهُمْ ، مُهْمِلٌ لَهُمْ لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ ، بَلْ هُوَ يُحْصِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيَعُدُّهُ عَلَيْهِمْ عَدًّا : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَجَلَتِهِمْ إِلَى قِيَامِ الْمَحْشَرِ فَقَالَ : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أَيْ : مُسْرِعِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر : ٨]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه : ١٠٨-١١١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ [المعارج : ٤٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أَيْ : بَلْ أَبْصَارُهُمْ طَائِرَةٌ شَاخِصَةٌ مُدِيمُونَ النَّظَرَ لَا يَطْرِفُونَ لَحْظَةً ، لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفِكْرَةِ الْمُخَافَةِ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ ، عِيَاذًا بِاللهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أَيْ : وَقُلُوبُهُمْ خَاوِيَةٌ خَالِيَةٌ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ لِكَثْرَةِ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَجَمَاعَةٌ : إِنَّ أَمْكِنَةَ أَفْئِدَتِهِمْ خَالِيَةٌ ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَدَى الْحَنَاجِرِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ هَوَآءٌ ﴾ خَرَابٌ لَا تَعِي شَيْئًا لِشِدَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ .

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ ﴾ [المنافقون ٩] الْآيَتَيْنِ ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ ﴾ [السجدة : ١٢] . وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر : ٣٧] . قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّهُ لَا زَوَالَ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ فَذُوقُوا هَذَا بِذَلِكَ ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أَيْ : مَا لَكُمْ مِنَ انْتِقَالٍ مِنَ الدُّنْيَا

إِلَى الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أَيْ: قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَغَكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيمَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجَرٌ ﴿ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥]. قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهَا ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يَقُولُ شِرْكُهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم: ٩٠]

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا لِوَعْدِهِ وَمُؤَكِّدًا: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أَيْ: مِنْ نُصْرَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ وَلَا يُغَالَبُ، وَذُو انْتِقَامٍ مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور: ١١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ أَيْ: وَعْدُهُ هَذَا حَاصِلٌ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ الصِّفَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»[1].

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ قَالَتْ: قُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ»[2]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدَّثَنِي

(١) البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).
(٢) مسلم (٢٧٩١).

عَائِشَةُ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **هُمْ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ** »[1].

وَعَنْ **ثَوْبَانَ**[2] **مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ** : كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يَصْرَعُ مِنْهَا ، فَقَالَ : لِمَ تَدْفَعُنِي ؟ فَقُلْتُ : أَلَا تَقُولَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي** » ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : جِئْتُ أَسْأَلُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَيَنْفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثْتُكَ** » قَالَ : أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ ، فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ ، فَقَالَ : « **سَلْ** » ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ** » ، قَالَ : فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً ؟ فَقَالَ : « **فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ** » ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : « **زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ** » ، قَالَ : فَمَا غِذَاؤُهُمْ فِي أَثَرِهَا ؟ قَالَ : « **يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا** » ، قَالَ : فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : « **مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا** » قَالَ : صَدَقْتَ .

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ وَتَبْرُزُ الْخَلَائِقُ لِدَيَّانِهَا ، تَرَى يَا مُحَمَّدُ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أَيْ : بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النُّظَرَاءِ أَوِ الْأَشْكَالِ مِنْهُمْ ، كُلُّ

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٦/ ١١٧) ، وغيره .
(٢) مسلم (حديث ٣١٥) .

صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾[الصافات : ٢٢] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾[ص : ٣٧-٣٨] وَالْأَصْفَادُ : هِيَ الْقُيُودُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أَيْ : ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا عَلَيْهِم مِنْ قَطِرَانٍ ، وَهُوَ الَّذِي تُهْنَأُ بِهِ الْإِبِلُ ، أَيْ : تُطْلَى ، قَالَ قَتَادَةُ : وَهُوَ أَلْصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْقِطْرَانُ : هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٤] عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوهُنَّ : الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾[النجم : ٣١] . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء : ١] ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ فِي حَالِ مُحَاسَبَتِهِ لِعَبْدِهِ سَرِيعُ النَّجَازِ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَإِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ كَالْوَاحِدِ مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان : ٢٨] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَيَانِ مُرَادَيْنِ .

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩]

(١) مسلم : (حديث ٩٣٤) .

أَيْ : هُوَ بَلَاغٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الْآيَة ، ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : لِيَتَّعِظُوا بِهِ ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أَيْ : يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَاتِ ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أَيْ : ذَوِي الْعُقُولِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ .

تفسير سورة الحجر
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الْآيَة. إِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَنْدَمُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ يَوَدُّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ أَنْ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا، وَقِيلَ: هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أَيْ: عَنِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ.

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، وَأَنَّهُ لَا يُؤَخِّرُ أُمَّةً حَانَ هَلَاكُهُمْ عَنْ مِيقَاتِهِمْ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْهَلَاكَ.

وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَدَّعِي ذَلِكَ ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أَيْ : فِي دُعَائِكَ إِيَّانَا إِلَى اتِّبَاعِكَ ، وَتَرْكِ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿ لَّوْ مَا ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ أَيْ : يَشْهَدُونَ لَكَ بِصِحَّةِ مَا جِئْتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣]، ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢١-٢٢]، وَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ .

قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالعَذَابِ ، ثُمَّ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ الحَافِظُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]، وَالمَعْنَى الأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : إِنَّهُ أَرْسَلَ مَنْ قَبْلَهُ فِي الأُمَمِ المَاضِيَةِ ، وَإِنَّهُ مَا أَتَى أُمَّةً مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَلَكَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَانَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الهُدَى .

وَقَوْلُهُ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يَعْنِي : الشِّرْكَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ عُلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ

مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ ، وَكَيْفَ أَنْجَى اللهُ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ : أَنَّهُ لَوْ فُتِحَ لَهُمْ بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَّا صَدَّقُوا بِذَلِكَ ، بَلْ قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ سُدَّتْ أَبْصَارُنَا ، **وَقِيلَ** : أُخِذَتْ أَبْصَارُنَا ، **وَقِيلَ** : شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سُحِرْنَا ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ السَّكْرَانُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ السَّمَاءَ فِي ارْتِفَاعِهَا ، وَمَا زَيَّنَهَا بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ وَكَرَّرَ نَظَرَهُ فِيمَا يَرَى فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، مَا يَحَارُ نَظَرُهُ فِيهِ ، **وَبِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : الْبُرُوجُ هَهُنَا هِيَ : الْكَوَاكِبُ .

قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان : ٦١] . **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : الْبُرُوجُ : هِيَ مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، **وَقِيلَ** : الْبُرُوجُ هَهُنَا هِيَ : قُصُورُ الْحَرَسِ .

وَجَعَلَ الشُّهُبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ ؛ لِئَلَّا يَسَّمَّعُوا إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، فَمَنْ تَمَرَّدَ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ جَاءَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ فَأَتْلَفَهُ ، فَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَلْقَى الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الشِّهَابُ إِلَى الَّذِي هُوَ دُونَهُ ، فَيَأْخُذَهَا الْآخَرُ وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وَلِيِّهِ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[1] فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ

---

(١) البخاري (حديث ٤٧٠) .

أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : لِلَّذِي قَالَ : الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ** » - وَرُبَّمَا قَالَ - حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ : « **فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا ؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ** » .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَهُ الْأَرْضَ وَمَدَّهُ إِيَّاهَا وَتَوْسِيعَهَا وَبَسْطَهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي وَالْأَوْدِيَةِ ، وَالْأَرَاضِي وَالرِّمَالِ ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ الْمُتَنَاسِبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : أَيْ : مَعْلُومٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : مُقَدَّرٌ بِقَدَرٍ . **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُوزَنُ ، وَيُقَدَّرُ بِقَدَرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَسْبَابِ وَالْمَعَايِشِ ، وَهِيَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ **قِيلَ** : وَهِيَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ ، **وَقِيلَ** : هُمُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَالدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ . **وَالْقَصْدُ** : أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكَاسِبِ ، وَوُجُوهِ الْأَسْبَابِ وَصُنُوفِ الْمَعَايِشِ ، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا ، وَالْأَنْعَامُ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا ، وَالْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا ، وَرِزْقُهُمْ عَلَى خَالِقِهِمْ لَا عَلَيْهِمْ ، فَلَهُمْ هُمُ الْمَنْفَعَةُ وَالرِّزْقُ عَلَى اللهِ تَعَالَى .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ، كَمَا يَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ ، وَلِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ بَلْ هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أَيْ : تُلَقِّحُ السَّحَابَ فَتُدِرُّ مَاءً ، وَتُلَقِّحُ الشَّجَرَ فَتُفَتِّحُ عَنْ أَوْرَاقِهَا وَأَكْمَامِهَا ، وَذَكَرَهَا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَكُونَ مِنْهَا الْإِنْتَاجُ بِخِلَافِ الرِّيحِ الْعَقِيمِ فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا ، وَوَصَفَهَا بِالْعَقِيمِ وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتَاجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ حَتَّى تُدِرَّ كَمَا تُدِرُّ اللَّقْحَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ ، وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨ - ٧٠] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ **قِيلَ** : بِمَانِعِينَ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ : وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ ، بَلْ نَحْنُ نُنَزِّلُهُ وَنَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ وَنَجْعَلُهُ مَعِينًا وَيَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى لَأَغَارَهُ وَذَهَبَ بِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْزَلَهُ وَجَعَلَهُ عَذْبًا ، وَحَفِظَهُ فِي الْعُيُونِ وَالْآبَارِ وَالْأَنْهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، لِيَبْقَى لَهُمْ فِي طُولِ السَّنَةِ يَشْرَبُونَ وَيَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثِمَارَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ كُلَّهُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ بِهِمْ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ الْآيَةَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْمُسْتَقْدِمُونَ : كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ : مَنْ هُوَ حَيٌّ وَمَنْ سَيَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : المُرَادُ بِالصَّلْصَالِ هَهُنَا : التُّرَابُ اليَابِسُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : ١٤-١٥] **وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا** : ﴿ صَلْصَٰلٍ ﴾ المُنْتِنُ ، وَتَفْسِيرُ الآيَةِ بِالآيَةِ أَوْلَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أَيْ : الصَّلْصَالُ مِنْ حَمَإٍ وَهُوَ : الطِّينُ ، وَالمَسْنُونُ : الأَمْلَسُ . **قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ** : أَنَّ الحَمَأَ المَسْنُونَ هُوَ : المُنْتِنُ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِالمَسْنُونِ هَهُنَا : المَصْبُوبُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ الإِنْسَانِ ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : هِيَ السَّمُومُ الَّتِي تَقْتُلُ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : السَّمُومُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : السَّمُومُ بِاللَّيْلِ وَالحَرُورُ بِالنَّهَارِ . **قِيلَ** : إِنَّ الجَانَّ خُلِقَ مِنْ لَهَبِ النَّارِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : مِنْ أَحْسَنِ النَّارِ ، **وَعَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ** : مِنْ نَارِ الشَّمْسِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ « **خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** »[1].

وَالمَقْصُودُ مِنَ الآيَةِ : التَّنْبِيهُ عَلَى شَرَفِ آدَمَ عليه السلام وَطِيبِ عُنْصُرِهِ وَطَهَارَةِ مَحْتِدِهِ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْوِيهَه بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ ، وَتَشْرِيفَهُ إِيَّاهُ بِأَمْرِ المَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَيَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عَدُوِّهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ ، حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا

(١) مسلم (٢٩٩٦) .

وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ [الإسراء : ٦٢]

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

يَقُولُ آمِرًا لإِبْلِيسَ أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَإِ الأَعْلَى وَأَنَّهُ رَجِيمٌ ، أَيْ : مَرْجُومٌ ، وَأَنَّهُ قَدِ اتَّبَعَتْهُ لَعْنَةٌ لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةٌ بِهِ لَاحِقَةٌ لَهُ مُتَوَاتِرَةٌ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَأَنَّهُ لَمَّا تَحَقَّقَ الْغَضَبُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ، سَأَلَ مِنْ تَمَامِ حَسَدِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَأَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَإِمْهَالًا ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظِرَةُ قَبَّحَهُ اللهُ .

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ أَنَّهُ قَالَ لِلرَّبِّ : ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : أَقْسَمَ بِإِغْوَاءِ اللهِ لَهُ . **قُلْتُ** : وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ بِسَبَبِ مَا أَغْوَيْتَنِي وَأَضْلَلْتَنِي ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أَيْ : لِذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْمَعَاصِي وَأُرَغِّبُهُمْ فِيهَا ، وَأَؤُزُّهُمْ إِلَيْهَا وَأُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَغْوَيْتَنِي وَقَدَّرْتُ عَلَيَّ ذَلِكَ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] . قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : مَرْجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا

فَشَرٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] ، وَقِيلَ : طَرِيقُ الْحَقِّ مَرْجِعُهَا إِلَى الله تَعَالَى وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل : ٩] ، وَقَرَأَ قَيْسُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَقَتَادَةُ ((هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ)) ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : ٤] أَيْ : رَفِيعٌ ، وَالْمَشْهُورُ الْقِرَاءَةُ الْأُولَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : جَهَنَّمُ مَوْعِدُ جَمِيعِ مَنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ كَمَا قَالَ عَنِ الْقُرْآنِ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أَيْ : قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ يَدْخُلُونَهُ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ ، أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا ! وَكُلٌّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي دَرَكٍ بِقَدْرِ فِعْلِهِ . **عَنْ عَلِيٍّ** ﷺ **قَالَ** : أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَمْتَلِئُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ حَتَّى تَمْتَلِئَ كُلُّهَا ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : ﴿ سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ أَوَّلُهَا جَهَنَّمُ ، ثُمَّ لَظَى ، ثُمَّ الْحُطَمَةُ ، ثُمَّ السَّعِيرُ ، ثُمَّ سَقَرُ ، ثُمَّ الْجَحِيمُ ، ثُمَّ الْهَاوِيَةُ . وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ هِيَ وَاللهِ مَنَازِلُ بِأَعْمَالِهِمْ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ بَابٌ لِلْيَهُودِ ، وَبَابٌ لِلنَّصَارَى ، وَبَابٌ لِلصَّابِئِينَ ، وَبَابٌ لِلْمَجُوسِ ، وَبَابٌ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَهُمْ كُفَّارُ الْعَرَبِ ، وَبَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَبَابٌ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ ، فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ يُرْجَى لَهُمْ وَلَا يُرْجَى لِأُولَئِكَ أَبَدًا .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا
مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا
نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ النَّارِ عَطَفَ عَلَى ذِكْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أَيْ : سَالِمِينَ مِنَ الْآفَاتِ ، مُسَلَّمٌ عَلَيْكُمْ ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ ، وَلَا تَخْشَوْا مِنْ إِخْرَاجٍ وَلَا انْقِطَاعٍ وَلَا فَنَاءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **قِيلَ** : يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالضَّغَائِنِ ، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ اللهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ غِلٍّ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، يُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ** »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **قِيلَ** : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي قَفَا بَعْضٍ ، ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يَعْنِي : الْمَشَقَّةُ وَالْأَذَى ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ** »[2] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَظْعَنُوا أَبَدًا** »[3] . وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف : ١٠٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أَيْ : أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى مَقَامَي الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ .

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

---

(١) البخاري (٢٤٤٠) .

(٢) البخاري (حديث ٣٨١٩ ، ٣٨١٩) ، ومسلم (حديث ٢٤٣٢ ، ٢٤٣٣) بنحوه .

(٣) مسلم (٢٨٣٧) بنحوه ، وليس فيه « **وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا** » وإن كان معناها صحيحًا .

وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالضَّيْفُ : يُطْلَق عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالزَّوْرِ وَالسَّفرِ ، وَكَيْف دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ ، وَقَدْ ذَكَرَ سَبَبَ خَوْفِهِ مِنْهُمْ لَمَّا رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الضِّيَافَةِ ، وَهُوَ الْعِجْلُ السَّمِينُ الْحَنِيذُ . ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ : إِسْحَاقَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ . فـ ﴿ قَالَ ﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ زَوْجَتِهِ ، وَمُتَحَقِّقًا لِلْوَعْدِ ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فَأَجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لِمَا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا ، وَبِشَارَةً بَعْدَ بِشَارَةٍ ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : الْقَنِطِينَ ، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ يَقْنَطُ وَلَكِنْ يَرْجُو مِنَ اللهِ الْوَلَدَ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ كَبُرَ وَأَسَنَّتِ امْرَأَتُهُ ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ، إِنَّهُ شَرَعَ يَسْأَلُهُمْ عَمَّا جَاءُوا لَهُ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يَعْنُونَ : قَوْمُ لُوطٍ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُنَجُّونَ آلَ لُوطٍ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : الْبَاقِينَ الْمُهْلَكِينَ .

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ لَمَّا جَاءَتْهُ المَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ ، قَالَ : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يَعْنُونَ : بِعَذَابِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَشُكُّونَ فِي وُقُوعِهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِهِ بِسَاحَتِهِمْ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨] . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِخَبَرِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاتِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ .

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ المَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِي بِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَنْ يَكُونَ لُوطٌ عليه السلام يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظَ لَهُمْ ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْشِي فِي الْغَزَاةِ ، بِمَا يَكُونُ سَاقَةً يُزْجِي الضَّعِيفَ وَيَحْمِلُ الْمُنْقَطِعَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعْتُمُ الصَّيْحَةَ بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ ، وَذَرُوهُمْ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : وَقْتَ الصَّبَاحِ ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١]

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ قَوْمِ لُوطٍ لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ وَصَبَاحَةِ وُجُوهِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرِحِينَ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ الله ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ ،

وَأَمَّا هَهُنَا فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّهُمْ رُسُلُ الله وَعَطَفَ ذِكْرَ مَجِيءِ قَوْمِهِ وَمُحَاجَّتِهِ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ الْوَاوَ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ الله ، فَقَالُوا لَهُ مُجِيبِينَ : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَوَمَا نَهَيْنَاكَ أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا ؟ ، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِيضَاحُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُصْبِحُونَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُنْتَظَرِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَقْسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّهِ – صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – وَفِي هَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ وَمَقَامٌ رَفِيعٌ وَجَاهٌ عَرِيضٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالَتِهِمْ ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : يَلْعَبُونَ ، قِيلَ : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لَعَيْشُكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قَالَ : يَتَرَدَّدُونَ .

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا ، وَذَلِكَ مَعَ رَفْعِ بِلَادِهِمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلْبَهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَرْسَلَ حِجَارَةَ السِّجِّيلِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى السِّجِّيلِ فِي هُودٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّ آثَارَ هَذِهِ النِّقَمِ الظَّاهِرَةِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّمَهُ بِعَيْنِ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ، كَمَا قِيلَ : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ الْمُتَفَرِّسِينَ ، وَقِيلَ : لِلنَّاظِرِينَ ، وَقِيلَ : لِلْمُعْتَبِرِينَ ، وَقِيلَ : لِلْمُتَأَمِّلِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ قَرْيَةَ سَدُوم الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى صَارَتْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً بِطَرِيقٍ مَهْيَعٍ مَسَالِكُهُ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى الْيَوْمِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الصافات : ١٣٧-١٣٩]

قِيلَ : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴾ مُعَلَّمٌ ، **وَقِيلَ** : بِطَرِيقٍ وَاضِحٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَإِنْجَاءَنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ ، لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ .

وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ۝٧٩

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ هُمْ : قَوْمُ شُعَيْبٍ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : الْأَيْكَةُ : الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ ، وَكَانَ ظُلْمُهُمْ : بِشِرْكِهِمْ بِاللهِ وَقَطْعِهِمُ الطَّرِيقَ وَنَقْصِهِمُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَانِ وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ أَيْ : طَرِيقٍ مُبِينٍ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : طَرِيقٌ ظَاهِرٌ ، وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نِذَارَتِهِ إِيَّاهُمْ ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾[هود : ٨٩]

وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٤

أَصْحَابُ الْحِجْرِ : هُمْ ثَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيَّهُمْ عليه السلام وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ تَكْذِيبُ الْمُرْسَلِينَ .

وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ ، كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ لَهُمْ بِدُعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بِلَادِهِمْ ، لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَمَّا عَتَوْا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾[هود : ٦٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ : ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا احْتِيَاجٍ إِلَيْهَا

بَلْ أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ صَنِيعِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ بِوَادِي الْحِجْرِ الَّذِي مَرَّ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَنَعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ دَابَّتَهُ ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : ((**لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيْ : وَقْتُ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أَيْ : مَا كَانُوا يَسْتَغِلُّونَهُ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، الَّتِي ضَنُّوا بِمَائِهَا عَنِ النَّاقَةِ حَتَّى عَقَرُوهَا لِئَلَّا تَضِيقَ عَلَيْهِمْ فِي الْمِيَاهِ ، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ ﴾ أَيْ : بِالْعَدْلِ . ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ [النجم : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ - ١١٦] ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ الْجَمِيلِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٩] ، **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَهُوَ كَمَا قَالُوا ، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّةٌ ، وَالْقِتَالُ إِنَّمَا شُرِعَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ ، الْعَلِيمُ بِمَا تَمَزَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ ، وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨١ - ٨٣]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : كَمَا آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، فَلَا تَغْبِطْهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، حُزْنًا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَكَ ، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] أَيْ : أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] . **وَقَدِ اُخْتُلِفَ فِي السَّبْعِ المَثَانِي مَا هِيَ ؟ فَقَالَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : هِيَ السَّبْعُ الطِّوَالُ . يَعْنُونَ : الْبَقَرَةَ ، وَآلَ عِمْرَانَ ، وَالنِّسَاءَ ، وَالْمَائِدَةَ ، وَالْأَنْعَامَ ، وَالْأَعْرَافَ ، وَيُونُسَ . **وَقَالَ سُفْيَانُ** : المَثَانِي : الْبَقَرَةُ ، وَآلُ عِمْرَانَ ، وَالنِّسَاءُ ، وَالْمَائِدَةُ ، وَالْأَنْعَامُ ، وَالْأَعْرَافُ ، وَالْأَنْفَالُ وَبَرَاءَةُ سُورَةٌ وَاحِدَةٌ . **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ ، وَقَالَ **عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : وَالْبَسْمَلَةُ هِيَ الْآيَةُ السَّابِعَةُ ، وَقَدْ خَصَّكُمُ اللهُ بِهَا . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاحْتَجَّ بِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهَا فِي فَضَائِلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ وَللهِ الْحَمْدُ . عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ : مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ ، حَتَّى صَلَّيْتُ فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ : ((**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِينِي ؟**)) ، فَقُلْتُ : كُنْتُ أُصَلِّي . فَقَالَ : ((**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ)) فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ فَقَالَ : ((﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**))(١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**))(١) ، فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ السَّبْعُ

(١) صحيح : وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة .

الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصْفَ غَيْرِهَا مِنَ السَّبْعِ الطِّوَالِ بِذَلِكَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ كَمَا لَا يُنَافِي وَصْفَ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فَهُوَ مَثَانِي مِنْ وَجْهٍ وَمُتَشَابِهٌ مِنْ وَجْهٍ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَيْضًا ، كَمَا أَنَّهُ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، فَأَشَارَ إِلَى مَسْجِدِهِ ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ ، فَلَا تَنَافِي فَإِنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ لَا يَنْفِي ذِكْرَ مَا عَدَاهُ إِذَا اشْتَرَكَا فِي تِلْكَ الصِّفَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أَيْ : اِسْتَغْنِ بِمَا آتَاكَ اللهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ .

وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ : أنه النَّذِيرُ الْمُبِينُ الْبَيِّنُ النِّذَارَةِ ، نَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهَا ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالِانْتِقَامِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُتَحَالِفِينَ ، أَيْ : تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَأَذَاهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ أَنَّهُمْ : ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [النمل : ٤٩] أَيْ : نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : تَقَاسَمُوا : تَحَالَفُوا . ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : ٣٨] ، ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] . ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف : ٤٩] ، فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُكَذِّبُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ فَسُمُّوا مُقْتَسِمِينَ . **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : الْمُقْتَسِمُونَ : أَصْحَابُ صَالِحٍ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ**

بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أَيْ : جَزَّءُوا كُتُبَهُمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قَالَ : هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً ، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ ، وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَقِيلَ : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قَالُوا : سِحْرٌ ، وَقَالُوا : كِهَانَةٌ ، وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . قَالُوا : عَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِإِبْلَاغِ مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَبِإِنْفَاذِهِ وَالصَّدْعِ بِهِ ، وَهُوَ مُوَاجَهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أَيْ : أَمْضِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ أَيْ : بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] ، وَلَا تَخَفْهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ وَحَافِظَكَ مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

(١) البخاري (٧٢٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٣) .

وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ مَعْبُودًا آخَرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ يَحْصُلُ لَكَ مِنْ أَذَاهُمْ لَكَ ضِيقُ صَدْرٍ وَانْقِبَاضٌ ، فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ وَلَا يُثْنِيَنَّكَ عَنْ إِبْلَاغِكَ رِسَالَةَ الله ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ ، فَاشْتَغِلْ بِذِكْرِ الله وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَمَّارٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجِزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ** »[1] ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ **عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله** ﴿ ٱلْيَقِينُ ﴾ الْمَوْتُ . وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٣ - ٤٧] ، **وَفِي الصَّحِيحِ**[2] : عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ - امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَقَدْ مَاتَ ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ : رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ ؟** » فَقُلْتُ : بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، فَمَنْ ؟ فَقَالَ : « **أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ** » **وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا ، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رَضِيَ

---

(١) حسن : أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٨٦) ، وأبو داود (٢/ ٦٣) .
(٢) البخاري (١٢٤٣) .

اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**))[1].

وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ المَلَاحِدَةِ إِلَى أَنَّ المُرَادَ بِالْيَقِينِ المعرفة ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى المَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ ، فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ عليهم السلام كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالله وَأَعْرَفُهُمْ بِحُقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُوَاظَبَةً عَلَى فِعْلِ الخَيْرَاتِ إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَإِنَّمَا المُرَادُ بِالْيَقِينِ هَهُنَا : المَوْتُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ وَالحَمْدُ لله عَلَى الهِدَايَةِ وَعَلَيْهِ الاِسْتِعَانَةُ وَالتَّوَكُّلُ ، وَهُوَ المَسْئُولُ أَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى أَكْمَلِ الأَحْوَالِ وَأَحْسَنِهَا ، فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الحِجْرِ وَالحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ .

---

(١) البخاري (١١١٧).

تفسير سورة النحل
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوِّهَا مُعَبِّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١]، وَقَالَ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أَيْ : قَرُبَ مَا تَبَاعَدَ ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الله ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٤]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شِرْكِهِمْ بِهِ غَيْرَهُ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ أَيْ : الْوَحْيِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، وَقَالَ : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا ﴾ أَيْ : لِيُنْذِرُوا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أَيْ : فَاتَّقُوا عُقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ : وَهُوَ السَّمَاوَاتُ ، وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ : وَهُوَ الْأَرْضُ بِمَا حَوَتْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ ، بَلْ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شِرْكِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ ، أَيْ : مَهِينَةٍ ضَعِيفَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُخَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيُكَذِّبُهُ وَيُحَارِبُ رُسُلَهُ ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٤-٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧-٧٩] ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ قَالَ : بَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَفِّهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ ؟ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟**))(١).

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢١٠) .

فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ : الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَفْتَرِشُونَ ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَهُوَ الزِّينَةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وَهُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا مِنَ الْمَرْعَى ، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، وَأَعْظَمَهُ ضُرُوعًا ، وَأَعْلَاهُ أَسْنِمَةً ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أَيْ : غَدْوَةً حِينَ تَبْعَثُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى . ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ ، وَهِيَ الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلِهَا وَحَمْلِهَا ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ وَذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْغَزْوِ وَالتِّجَارَةِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الِاسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَتَحْمِيلٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢١-٢٢] ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا بَعْدَ تَعْدَادِ هَذِهِ النِّعَمِ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمُ الَّذِي قَيَّضَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧١-٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أَيْ : ثِيَابٌ وَ ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾ يَقُولُ : لَكُمْ فِيهَا لِبَاسٌ وَمَنْفَعَةٌ وَبُلْغَةٌ . وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ .

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

هَذَا صِنْفٌ آخَرُ مِمَّا خَلَقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ يَمْتَنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزِّينَةِ بِهَا ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ الْمَقَاصِدِ مِنْهَا ، وَلَمَّا فَصَلَهَا مِنَ الْأَنْعَامِ وَأَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ ، اسْتَدَلَّ مَنِ اسْتَدَلَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ - مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى

تَحْرِيمِ لُحُومِ الْخَيْلِ - بِذَلِكَ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِيهَا ، كَالإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، بِأَنَّهُ تَعَالَى قَرَنَهَا بِالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ وَهِيَ حَرَامٌ ، لَكِنْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ** : نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ(١). **وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَتْ** : نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ(٢) ، **وَإِلَى ذَلِكَ صَارَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ** مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَصْحَابُهُمْ وَأَكْثَرُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَارُ عَلَيْهِ فِي السُّبُلِ الْحِسِّيَّةِ ، نَبَّهَ عَلَى الطُّرُقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[البقرة : ١٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[الأعراف : ٢٦] ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَّةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام : ١٥٣] ، وَقَالَ : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر : ٤١] **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللهِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الْإِسْلَامُ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : وَعَلَى اللهِ الْبَيَانُ . أَيْ : يُبَيِّنُ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هَاهُنَا أَقْوَى مِنْ حَيْثُ السِّيَاقِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طُرُقًا تُسْلَكُ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيقُ الْحَقِّ ، وَهِيَ الطَّرِيقُ

(١) البخاري (٤٢١٩) ، ومسلم (١٩٤١) .
(٢) مسلم (١٩٤٢) .

الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا ، وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَةٌ وَالْأَعْمَالُ فِيهَا مَرْدُودَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أَيْ : حَائِدٌ مَائِلٌ زَائِغٌ عَنِ الْحَقِّ ، أَيْ : هِيَ الطُّرُقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْآرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ ، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالدَّوَابِّ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْعُلُوُّ مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْغَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ عَذْبًا زُلَالًا يَسُوغُ لَكُمْ شَرَابُهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيْ : وَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا تَرْعَوْنَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أَيْ : تَرْعَوْنَ ، وَمِنْهُ الْإِبِلُ السَّائِمَةُ ، وَالسَّوْمُ : الرَّعْيُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أَيْ : يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَحُجَّةً عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : ٦٠] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ وَمِنَنِهِ الْجِسَامِ ، فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَعَاقَبَانِ ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدُورَانِ ، وَالنُّجُومَ الثَّوَابِتَ وَالسَّيَّارَاتِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ نُورًا وَضِيَاءً لِيُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ عَنْهَا ، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَسْهِيلِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ لَدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَجَهُ .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ لَمَّا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَعَالِمِ السَّمَاوَاتِ نَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أَيْ : آلَاءُ اللهِ وَنِعَمُهُ فَيَشْكُرُونَهَا .

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأَمْوَاجَ وَيَمْتَنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَتَيْسِيرِهِمْ لِلرُّكُوبِ فِيهِ ، وَجَعْلَهُ السَّمَكَ وَالْحِيتَانَ فِيهِ وَإِحْلَالِهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيَّهَا وَمَيِّتَهَا فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَتَسْهِيلُهُ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهُمْ مِنْ قَرَارِهِ حِلْيَةً يَلْبَسُونَهَا ، وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السُّفُنِ الَّتِي تَمْخُرُهُ ، أَيْ : تَشُقُّهُ ، **وَقِيلَ** : تَمْخُرُ الرِّيَاحَ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، **وَقِيلَ** : تَمْخُرُهُ بِجُؤْجُئِهَا : وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسَنَّمُ الَّذِي أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا ، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِرْثًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ ﷺ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السُّفُنَ ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، لِجَلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا وَمَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : نِعَمَهُ وَإِحْسَانَهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الرَّوَاسِي الشَّامِخَاتِ ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تَمِيدَ ، أَيْ : تَضْطَرِبُ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، يَنْبُعُ فِي مَوْضِعٍ وَهُوَ رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقِفَارَ وَيَخْتَرِقُ الْجِبَالَ وَالْآكَامَ ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ لِأَهْلِهِ وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَجَنُوبًا وَشَمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا ، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ وَأَوْدِيَةٍ تَجْرِي حِينًا وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ وَقَوِيِّ السَّيْرِ وَبَطِيئِهِ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِيهَا ﴿ سُبُلًا ﴾ أَيْ : طُرُقًا يُسْلَكُ فِيهَا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ ، حَتَّى أَنَّهُ تَعَالَى لَيَقْطَعُ الْجَبَلَ حَتَّى يَكُونَ مَا بَيْنَهُمَا مَمَرًّا وَمَسْلَكًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ [الأنبياء : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ﴾ أَيْ : دَلَائِلُ مِنْ جِبَالٍ كِبَارٍ وَآكَامٍ صِغَارٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، يَسْتَدِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ بَرًّا وَبَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطُّرُقَ . ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ . وَعَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يَقُولُ : النُّجُومُ وَهِيَ الْجِبَالُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنبهًا عَلَى عَظَمَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى كَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : يَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ ، وَلَوْ طَالَبَكُمْ بِشُكْرِ نِعَمِهِ لَعَجَزْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِذَلِكَ ، وَلَوْ أَمَرَكُمْ بِهِ لَضَعُفْتُمْ وَتَرَكْتُمْ ، وَلَوْ عَذَّبَكُمْ لَعَذَّبَكُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ الْكَثِيرَ وَيُجَازِي عَلَى الْيَسِيرِ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ يَقُولُ** : إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ لِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي شُكْرِ بَعْضِ ذَلِكَ ، إِذَا تُبْتُمْ وَأَنَبْتُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ ، رَحِيمٌ بِكُمْ لَا يُعَذِّبُكُمْ بَعْدَ الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٥-٩٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أَيْ : هِيَ جَمَادَاتٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ، فَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْرُونَ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ ، فَكَيْفَ يُرْتَجَى عِنْدَ هَذِهِ نَفْعٌ أَوْ ثَوَابٌ أَوْ جَزَاءٌ ؟ إِنَّمَا يُرْجَى ذَلِكَ مِنَ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تُنْكِرُ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ عِبَادَةِ اللهِ مَعَ إِنْكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠]، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : حَقًّا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ : ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ ﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، أَيْ : مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥]أَيْ : يَفْتَرُونَ عَلَى الرَّسُولِ ، وَيَقُولُونَ أَقْوَالًا مُتَضَادَّةً مُخْتَلِفَةً كُلُّهَا بَاطِلَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٩]، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ فَمَهْمَا قَالَ أَخْطَأَ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ أَمْرُهُمْ إِلَى مَا اخْتَلَقَهُ لَهُمْ شَيْخُهُمُ الْوَحِيدُ الْمُسَمَّى بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ لَمَّا ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : ١٨-٢٤]أَيْ : يُنْقَلُ وَيُحْكَى ، فَتَفَرَّقُوا عَنْ قَوْلِهِ وَرَأْيِه ، قَبَّحَهُمُ اللهُ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ ، لِيَتَحَمَّلُوا أَوْزَارَهُمْ

وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُوَافِقُونَهُمْ ، أَيْ : يَصِيرُ عَلَيْهِمْ خَطِيئَةُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَخَطِيئَةُ إِغْوَائِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَاقْتِدَاءُ أُولَئِكَ بِهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلَ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا** »[1] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَحْمِلُونَ أَثْقَالَهُمْ ، ذُنُوبَهُمْ وَذُنُوبَ مَنْ أَطَاعَهُمْ ، وَلَا يُخَفِّفُ عَمَّنْ أَطَاعَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ شَيْئًا .

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ النُّمْرُوذُ الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : ٢٢] أَيْ : احْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ ، كَمَا يَقُولُ لَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ : ٣٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ **أَيْ** : اجْتَثَّهُ مِنْ أَصْلِهِ وَأَبْطَلَ عَمَلَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] ، وَقَالَ اللهُ هَاهُنَا : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ

---

(١) مسلم (٢٦٧٤) .

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي : يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ وَمَا كَانَتْ تُجِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ فَجَعَلَهُ عَلَانِيَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أَيْ : تَظْهَرُ وَتَشْتَهِرُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، فَيُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ** » ، وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ ، وَيُخْزِيهِمُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تُحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ، أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَاهُنَا ؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٣] ، ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] فَإِذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَالَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ ، وَسَكَتُوا عَنِ الِاعْتِذَارِ حِينَ لَا فِرَارَ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ وَهُمُ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْمُخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَيَقُولُونَ حِينَئِذٍ : ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الْفَضِيحَةُ وَالْعَذَابُ مُحِيطٌ الْيَوْمَ بِمَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ .

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ ، وَمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةِ ﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ أَيْ : أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالِانْقِيَادَ قَائِلِينَ ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١٨] قَالَ اللهُ مُكَذِّبًا لَهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أَيْ :

(١) البخاري (٦١٧٨) ، ومسلم (١٧٣٥) .

بِئْسَ المَقِيلُ وَالمَقَامُ وَالمَكَانُ مِنْ دَارِ هَوَانٍ ، لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَاتِ الله وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ مِنْ يَوْمِ مَمَاتِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَيَنَالُ أَجْسَادُهُمْ فِي قُبُورِهَا مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ سَلَكَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَخَلَدَتْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦]

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

هَذَا خَبَرٌ عَنِ السُّعَدَاءِ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قِيلَ لَهُمْ ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ : لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا إِنَّمَا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَهَؤُلَاءِ ﴿ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ خَيْرًا ، أَيْ : رَحْمَةً وَبَرَكَةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا وَعَدَ اللهُ عِبَادَهُ فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ الآيَة ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، أَيْ : مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، أَيْ : مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْجَزَاءُ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص : ٨٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٧] ، ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَالَ : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، أَيْ : مُقَامَةٌ يَدْخُلُونَهَا ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] . ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ، أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ ، أَيْ : مُخَلَّصُونَ مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّنَسِ وَكُلِّ سُوءٍ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي قَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَرُوحِ الْكَافِرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا ، هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ؟ قَالَهُ قَتَادَةُ ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يُعَايِنُونَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : هَكَذَا تَمَادَى فِي شِرْكِهِمْ أَسْلَافُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَ اللهِ وَحَلُّوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ وَأَقَامَ حُجَجَهُ عَلَيْهِمْ ، بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ وَإِنْزَالِ كُتُبِهِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، فَلِهَذَا أَصَابَتْهُمْ عُقُوبَةُ اللهِ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾

أَيْ : أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿ مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يَسْخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ اللهِ ، فَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : ١٤]

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اغْتِرَارِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَاعْتِذَارِهِمْ مُحْتَجِّينَ بِالْقَدَرِ بِقَوْلِهِمْ ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ابْتَدَعُوهُ وَاخْتَرَعُوهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا .

وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ : أَنَّا لَوْ كَانَ تَعَالَى كَارِهًا لِمَا فَعَلْنَا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَمَا مَكَّنَنَا مِنْهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبْهَتَهُمْ : ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْكُمْ بَلْ قَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْكُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ آكَدَ النَّهْيِ ، وَبَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، أَيْ : فِي كُلِّ قَرْنٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ رَسُولًا ، وَكُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فَلَمْ يَزَلْ تَعَالَى يُرْسِلُ إِلَى النَّاسِ الرُّسُلَ بِذَلِكَ ، مُنْذُ حَدَثَ الشِّرْكُ فِي بَنِي آدَم ، فِي قَوْمِ نُوحٍ ، الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ ، وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي طَبَّقَتْ دَعْوَتُهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَكُلُّهُمْ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ فَكَيْفَ يَسُوغُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ فَمَشِيئَتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ عَنْهُمْ مُنْتَفِيَةٌ ؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، وَأَمَّا مَشِيئَتُهُ الْكَوْنِيَّةُ وَهِيَ تَمْكِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ وَأَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْكَفَرَةِ وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ وَحِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ إِنْذَارِ الرُّسُلِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أَيْ : اِسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَكَذَّبَ الْحَقَّ ، كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك : ١٨] ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنَّ حِرْصَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِذَا كَانَ اللهُ قَدْ أَرَادَ إِضْلَالَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١]، وَقَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ ، كَمَا قَالَ اللهُ : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أَيْ : مَنْ أَضَلَّهُ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ أَيْ لَا أَحَدَ ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ أَيْ : يُنْقِذُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَوَثَاقِهِ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ

حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، أَيْ : اِجْتَهَدُوا فِي الْحَلِفِ وَغَلَّظُوا الْأَيْمَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، أَيْ : اِسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي إِخْبَارِهِمْ لَهُمْ بِذَلِكَ وَحَلَفُوا عَلَى نَقِيضِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلَىٰ ﴾ أَيْ : بَلَى سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِجَهْلِهِمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُلَ وَيَقَعُونَ فِي الْكُفْرِ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَجْسَامِ يَوْمَ التَّنَادِ ، فَقَالَ : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أَيْ : لِلنَّاسِ ﴿ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، ﴿ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، وَلِهَذَا يُدَعُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ، وَتَقُولُ لَهُمُ الزَّبَانِيَةُ : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٤-١٦]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ، وَالْمَعَادُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ كَمَا يَشَاءُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، وَقَالَ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : أَنْ نَأْمُرَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ . أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ لِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْعَظِيمُ ، الَّذِي قَهَرَ سُلْطَانُهُ وَجَبَرُوتُهُ وَعِزَّتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ وَالإِخْوَانَ وَالْخُلَّانَ رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ وَجَزَائِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ **قِيلَ** : المَدِينَةُ ، **وَقِيلَ** : الرِّزْقُ الطَّيِّبُ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ القَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاكِنَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَعَوَّضَهُمُ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ مَكَّنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، وَصَارُوا أُمَرَاءَ حُكَّامًا ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابَهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا **فَقَالَ** : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهِجْرَةِ مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا اِدَّخَرَ اللهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ هُشَيْمٌ عَنِ الْعَوَّامِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ** : أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا أَعْطَى الرَّجُلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عَطَاءَهُ ، يَقُولُ : خُذْ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهِ ، هَذَا مَا وَعَدَكَ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَمَا اِدَّخَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَى ، فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ : صَبَرُوا عَلَى الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِمْ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قَالَ الضَّحَّاكُ : عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ لَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ - أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ - وَقَالُوا : اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولَهُ بَشَرًا ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] ، وَقَالَ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ أَبَشَرًا كَانَتِ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ أَمْ مَلَائِكَةً ؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩] لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُلَ الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا بَشَرًا ، كَمَا هُوَ بَشَرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٣-٩٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٢٠] ثُمَّ أَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا : هَلْ كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ أَيْ : بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ ، وَالزُّبُرُ : جَمْعُ زَبُورٍ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : زَبَرْتَ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتَهُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ رَبِّهِمْ ، لِعِلْمِكَ بِمَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ وَحِرْصِكَ عَلَيْهِ وَاتِّبَاعِكَ لَهُ ، وَلِعِلْمِنَا بِأَنَّكَ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، فَتُفَصِّلَ لَهُمْ مَا أُجْمِلَ ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَهْتَدُونَ ، فَيَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ .

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَإِنْظَارِهِ الْعُصَاةَ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَحَمْلِهِمْ عَلَيْهَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦-١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي تَقَلُّبِهِمْ فِي الْمَعَايِشِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهَا مِنْ أَسْفَارٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُلْهِيَةِ ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أَيْ : أَسْفَارِهِمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُونَ اللهَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أَيْ : أَوْ يَأْخُذَهُمُ اللهُ فِي حَالِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَخْذِهِ لَهُمْ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغُ وَأَشَدُّ ، فَإِنَّ حُصُولَ مَا يُتَوَقَّعُ مَعَ الْخَوْفِ شَدِيدٌ ، وَلِهَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ يَقُولُ : إِنْ شِئْتَ أَخَذْتُهُ عَلَى أَثَرِ مَوْتِ صَاحِبِهِ وَتَخَوُّفِهِ بِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ »[1] ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

(١) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرِهَا جَمَادَاتِهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَفَيَّأُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، أَيْ : بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ للهِ تَعَالَى . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ سَجَدَ كُلُّ شَيْءٍ للهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أَيْ : صَاغِرُونَ ، وَنَزَّلَهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ إِذْ أَسْنَدَ السُّجُودَ إِلَيْهِمْ **فَقَالَ** : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴾ [الرعد : ١٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : تَسْجُدُ للهِ ، أَيْ : غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أَيْ : يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أَيْ : مُثَابِرِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ .

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : دَائِمًا ، **وَقِيلَ** : وَاجِبًا ، **وَقِيلَ** : خَالِصًا . أَيْ : لَهُ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ النَّفْعِ وَالضُّرِّ ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَصْرٍ فَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ أَيْ : لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجَئُونَ إِلَيْهِ

وَتَسْأَلُونَهُ ، وَتُلِحُّونَ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مُسْتَغِيثِينَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ **قِيلَ** : اللَّامُ هَاهُنَا : لَامُ الْعَاقِبَةِ ، **وَقِيلَ** : لَامُ التَّعْلِيلِ ، بِمَعْنَى قَيَّضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا ، أَيْ : يَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ الْمُسْدِي إِلَيْهِمُ النِّعَمَ ، الْكَاشِفُ عَنْهُمُ النِّقَمَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ أَيْ : اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : عَاقِبَةُ ذَلِكَ .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَجَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ، فَقَالُوا : ﴿ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] أَيْ : جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللهِ ، وَفَضَّلُوهَا عَلَى جَانِبِهِ ، فَأَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ لَيَسْأَلَنَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي اِفْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ ، وَلَيُقَابِلَنَّهُمْ عَلَيْهِ وَلَيُجَازِيَنَّهُمْ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَقَالَ : ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، وَجَعَلُوهَا بَنَاتِ اللهِ فَعَبَدُوهَا مَعَهُ ، فَأَخْطَئُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ تَعَالَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ لَهُ ، ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَخَسَّ

الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم : ٢١-٢٢] ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أَيْ : عَنْ قَوْلِهِمْ وَإِفْكِهِمْ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : ١٥١-١٥٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أَيْ : يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ ، وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى اللهِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِنَّهُ ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أَيْ : كَئِيبًا مِنَ الْهَمِّ ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ سَاكِتٌ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ . ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أَيْ : يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أَيْ : إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مُهَانَةً لَا يُوَرِّثُهَا وَلَا يَعْتَنِي بِهَا ، وَيُفَضِّلُ أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ عَلَيْهَا ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أَيْ : يَئِدُهَا وَهُوَ أَنْ يَدْفِنَهَا فِيهِ حَيَّةً ، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَفَمَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ لله ؟ ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : بِئْسَ مَا قَالُوا ، وَبِئْسَ مَا قَسَمُوا ، وَبِئْسَ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف : ١٧] ، **وَقَوْلُهُ هَاهُنَا** : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أَيْ : النَّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ، أَيْ : لَأَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَنْظُرُ ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أَيْ : لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : كَادَ الْجُعَلُ أَنْ يَهْلِكَ فِي جُحْرِهِ بِخَطِيئَةِ بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبَنَاتِ ، وَمِنَ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدُهُ ، وَهُمْ يَأْنَفُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكٌ لَهُ فِي مَالِهِ ، ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ : أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ فَفِيهِ أَيْضًا لَهُمُ الْحُسْنَى ، وَإِخْبَارٌ عَنْ قِيلِ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ٩-١٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم : ٧٧] ، وَقَالَ إِخْبَارًا عَنْ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ إِنَّهُ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٥ - ٣٦] ، فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ عَمَلِ السُّوءِ وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ بِأَنْ يُجَازَوْا عَلَى ذَلِكَ حَسَنًا وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّهُ وُجِدَ حَجَرٌ فِي أَسَاسِ الْكَعْبَةِ حِينَ نَقَضُوهَا لِيُجَدِّدُوهَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ حِكَمٌ وَمَوَاعِظُ ، فَمِنْ ذَلِكَ : تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ ؟ أَجَلْ كَمَا يُجْتَنَى مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : الْغِلْمَانُ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانَهُ وَهُوَ الصَّوَابُ وَللهِ الْحَمْدُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : حَقًّا لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ مَنْسِيُّونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف : ٥١] **وَقِيلَ** : مُفْرَطُونَ ، أَيْ : مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّارِ ، مِنَ الْفَرَطِ وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوِرْدِ ، وَلَا مُنَافَاةَ ؛

لأنَّهُمْ يُعَجَّلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَيُنْسَوْنَ فِيهَا ، أَيْ : يَخْلُدُونَ .

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رُسُلًا فَكَذَّبَتِ الرُّسُلَ ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ فَلَا يَهِيدَنَّكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أَيْ : هُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا ، وَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَالْقُرْآنُ فَاصِلٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿ وَهُدًى ﴾ أَيْ : لِلْقُلُوبِ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ وَمَعْنَاهُ .

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أَيْ : لَآيَةً وَدَلَالَةً عَلَى حِكْمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أَفْرَدَهُ هَاهُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى النَّعَمِ ، أَوِ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْحَيَوَانِ ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ حَيَوَانَاتٌ ، أَيْ : نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطْنِ هَذَا الْحَيَوَانِ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى مِمَّا فِي

بُطُونِهَا ، وَيَجُوزُ هَذَا وَهَذَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [المدثر : ٥٤-٥٥] ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [النمل : ٣٥-٣٦] أَيْ : المَالُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أَيْ : يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضَهُ وَطَعْمَهُ وَحَلَاوَتَهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ ، فَيَسْرِي كُلٌّ إِلَى مَوْطِنِهِ إِذَا نَضِجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِهِ ، فَيُصْرَفُ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ ، وَلَبَنٌ إِلَى الضَّرْعِ ، وَبَوْلٌ إِلَى المَثَانَةِ ، وَرَوْثٌ إِلَى المَخْرَجِ ، وَكُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ وَلَا يُمَازِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ ، ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ أَيْ ، لَا يُغَصُّ بِهِ أَحَدٌ .

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَنَ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا ثَنَّى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ المُسْكِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، وَلِهَذَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ دَلَّ عَلَى إِبَاحَتِهِ شَرْعًا قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، وَدَلَّ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ المُسْكِرِ المُتَّخَذِ مِنَ النَّخْلِ وَالمُتَّخَذِ مِنَ الْعِنَبِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَكَذَا حُكْمُ سَائِرِ الْأَشْرِبَةِ المُتَّخَذَةِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ وَالْعَسَلِ ، كَمَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قَالَ السَّكَرُ : مَا حَرُمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : مَا أُحِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا ، وَفِي رِوَايَةِ السَّكَرُ : حَرَامُهُ ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ : حَلَالُهُ ، يَعْنِي مَا يَبِسَ مِنْهُمَا مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ وَمَا عُمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طِلَاءٍ وَهُوَ الدِّبْسُ ، وَخَلٍّ وَنَبِيذٍ حَلَالٍ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ ، كَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ نَاسَبَ ذِكْرَ الْعَقْلِ هَاهُنَا ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرِبَةَ المُسْكِرَةَ صِيَانَةً لِعُقُولِهَا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس ٣٤-٣٦]

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المُرَادُ بِالْوَحْيِ هُنَا : الإِلْهَامُ وَالْهِدَايَةُ وَالإِرْشَادُ لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا ، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرَصِّهَا ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي بَيْتِهَا خَلَلٌ .

ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطُّرُقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى مُذَلَّلَةً لَهَا ، أَيْ : مُسَهَّلَةً عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ هَذَا الجَوِّ الْعَظِيمِ وَالْبَرَارِيِّ الشَّاسِعَةِ وَالأَوْدِيَةِ وَالجِبَالِ الشَّاهِقَةِ ، ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى مَوْضِعِهَا وَبَيْتِهَا لَا تَحِيدُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً ، بَلْ إِلَى بَيْتِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخٍ وَعَسَلٍ ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنِحَتِهَا وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا ، وَتَبِيضُ الْفِرَاخَ مِنْ دُبُرِهَا ، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أَيْ : مُطِيعَةٌ ، فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَةِ ، **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : وَهُوَ كَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ النَّحْلَ بِبُيُوتِهِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَهُوَ يَصْحَبُهُمْ ؟ وَالْقَوْلُ الأَوَّلُ هُوَ الأَظْهَرُ وَهُوَ أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الطَّرِيقِ ، أَيْ : فَاسْلُكِيهَا مُذَلَّلَةً لَكِ ، نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : كِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أَيْ : مَا بَيْنَ أَبْيَضَ وَأَصْفَرَ وَأَحْمَرَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَلْوَانِ الحَسَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاعِيهَا وَمَأْكَلِهَا مِنْهَا .

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي الْعَسَلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَيْ : مِنْ أَدْوَاءٍ تَعْرِضُ لَهُمْ . **قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطِّبِّ النَّبَوِيِّ** : لَوْ قَالَ فِيهِ الشِّفَاءُ لِلنَّاسِ ، لَكَانَ دَوَاءً لِكُلِّ دَاءٍ وَلَكِنْ قَالَ : فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، أَيْ : يَصْلُحُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ أَدْوَاءٍ بَارِدَةٍ فَإِنَّهُ حَارٌّ ، وَالشَّيْءُ يُدَاوَى بِضِدِّهِ . وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ هُوَ

الْعَسَلُ ، حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ(١) ﷺ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : إِنَّ أَخِي اِسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ ، فَقَالَ : ((**اِسْقِهِ عَسَلًا**)) فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَمَا زَادَهُ إِلَّا اِسْتِطْلَاقًا . قَالَ : ((**اِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**)) فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا زَادَهُ إِلَّا اِسْتِطْلَاقًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيك اِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا**)) فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا فَبَرَأَ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِالطِّبِّ : كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عِنْدَهُ فَضَلَاتٌ ، فَلَمَّا سَقَاهُ عَسَلًا وَهُوَ حَارٌّ تَحَلَّلَتْ فَأَسْرَعَتْ فِي الِانْدِفَاعِ ، فَزَادَهُ إِسْهَالًا فَاعْتَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ أَنَّ هَذَا يَضُرُّهُ وَهُوَ مَصْلَحَةٌ لِأَخِيهِ ، ثُمَّ سَقَاهُ فَازْدَادَ التَّحْلِيلُ وَالدَّفْعُ ، ثُمَّ سَقَاهُ فَكَذَلِكَ ، فَلَمَّا انْدَفَعَتِ الْفَضَلَاتُ الْفَاسِدَةُ الْمُضِرَّةُ بِالْبَدَنِ اِسْتَمْسَكَ بَطْنُهُ وَصَلُحَ مِزَاجُهُ ، وَانْدَفَعَتِ الْأَسْقَامُ وَالْآلَامُ بِبَرَكَةِ إِشَارَتِهِ - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ -

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ : فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**))(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ أَوْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ : فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِي**))(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي إِلْهَامِ اللهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخِلْقَةِ ، إِلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ وَالِاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ ، ثُمَّ جَمْعُهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ ، لَآيَةٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَخِّرِهَا وَمُيَسِّرِهَا ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ .

---

(١) البخاري (حديث ٥٦٨٤) ، ومسلم (٢٢١٧) .
(٢) البخاري (٥٦٨٠) .
(٣) البخاري (٥٦٨٣) ، ومسلم (٢٢٠٥) .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ العَدَمِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ الهَرَمُ : وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الخِلْقَةِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ . قِيلَ فِي : ﴿ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ قَالَ : خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً ، وَفِي هَذَا السِّنِّ يَحْصُلُ لَهُ ضَعْفُ القُوَى ، وَالخَوْفُ ، وَسُوءُ الحِفْظِ ، وَقِلَّةُ العِلْمِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا ﴾ أَيْ : بَعْدَ مَا كَانَ عَالِمًا أَصْبَحَ لَا يَدْرِي شَيْئًا مِنَ الفَنَدِ وَالخَرَفِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو : ((**أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَالكَسَلِ وَالهَرَمِ ، وَأَرْذَلِ العُمُرِ ، وَعَذَابِ القَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَفِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ**))(١).

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلَهُمْ وَكُفْرَهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ للهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عَبِيدٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ فِي حَجِّهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ . فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : أَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوَوْا عَبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ، فَكَيْفَ يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُسَاوَاةِ عَبِيدٍ لَهُ فِي الإِلَهِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [الروم : ٢٨] . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ يَقُولُ** : لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عَبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ عَبِيدِي مَعِي فِي سُلْطَانِي ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ **وَقَالَ قَتَادَةُ** : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ : فَهَلْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُشَارِكُهُ مَمْلُوكُهُ فِي زَوْجَتِهِ وَفِي فِرَاشِهِ فَتَعْدِلُونَ بِاللهِ خَلْقَهُ

(١) البخاري (حديث ٤٧٠٧) .

وَعِبَادَهُ ؟ فَإِنْ لَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ هَذَا فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُنَزَّهَ مِنْكَ ، ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ جَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَجَحَدُوا نِعْمَتَهُ وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَكْلِهِمْ ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرٍ مَا حَصَلَ الِائْتِلَافُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذُّكُورِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْبَنِينَ وَالْحَفَدَةِ وَهُمْ أَوْلَادُ الْبَنِينَ . **وَقِيلَ** : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ ابْنُهُ وَخَادِمُهُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ دَاخِلَةٌ فِي مَعْنَى الْحَفَدَ وَهُوَ الْخِدْمَةُ الَّذِي مِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْقُنُوتِ : « **وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ** » ، وَلَمَّا كَانَتِ الْخِدْمَةُ قَدْ تَكُونُ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْخَدَمِ وَالْأَصْهَارِ فَالنِّعْمَةُ حَاصِلَةٌ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ . قُلْتُ : فَمَنْ جَعَلَ ﴿ وَحَفَدَةٗ ﴾ مُتَعَلِّقًا بِأَزْوَاجِكُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادَ الْأَوْلَادُ ، وَأَوْلَادُ الْأَوْلَادِ ، أَوِ الْأَصْهَارُ ؛ لِأَنَّهُمْ أَزْوَاجُ الْبَنَاتِ أَوْ أَوْلَادُ الزَّوْجَةِ ، وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْحَفَدَةَ هُوَ الْخَدَمُ فَعِنْدَهُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ أَيْ : جَعَلَ لَكُمُ الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ خَدَمًا . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ الْمُنْعِمِ غَيْرَهُ ﴿ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ ﴾ وَهُمُ الْأَنْدَادُ وَالْأَصْنَامُ ﴿ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ يَسْتُرُونَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ : أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟** »[1].

(١) مسلم (٢٩٦٨) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْزَالِ مَطَرٍ وَلَا إِنْبَاتِ زَرْعٍ وَلَا شَجَرٍ ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ ، أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أَيْ : لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ يَعْلَمُ وَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ .

۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، فَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِثْلُ الْكَافِرِ ، وَالْمَرْزُوقُ الرِّزْقَ الْحَسَنَ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ الْمُؤْمِنُ . **وَقِيلَ** : هُوَ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ لِلْوَثَنِ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا ؟ وَلَمَّا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيِّنًا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا كُلُّ غَبِيٍّ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَادُ بِهِ الْوَثَنُ وَالْحَقُّ تَعَالَى . يَعْنِي : أَنَّ الْوَثَنَ أَبْكَمُ

لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْطِقُ بِخَيْرٍ ، وَلَا بِشَيْءٍ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَلَا مَقَالَ وَلَا فِعَالَ وَهُوَ مَعَ هَذَا كَلٌّ ، أَيْ : عِيَالٌ وَكُلْفَةٌ عَلَى مَوْلَاهُ ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أَيْ : يَبْعَثْهُ ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ وَلَا يَنْجَحُ مَسْعَاهُ ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أَيْ : بِالْقِسْطِ فَمَقَالُهُ حَقٌّ وَفِعَالُهُ مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وَقِيلَ : الْأَبْكَمُ مَوْلَى لِعُثْمَانَ ، وَقِيلَ : هُوَ مَثَلٌ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، فِي عِلْمِهِ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، فَلَا اطِّلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَفِي قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أَيْ : فَيَكُونُ مَا يُرِيدُ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِنَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرْزُقُهُمُ السَّمْعَ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يُحِسُّونَ الْمَرْئِيَّاتِ ، وَالْأَفْئِدَةَ وَهِيَ الْعُقُولُ الَّتِي مَرْكَزُهَا الْقَلْبُ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَقِيلَ : الدِّمَاغُ ، وَالْعَقْلُ بِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا ، وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، كُلَّمَا كَبِرَ زِيدَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ

تَعَالَى ، فَيَسْتَعِينَ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ .

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَيْفَ جَعَلَهُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُ هُنَاكَ إِلَّا اللهُ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ، الَّتِي جَعَلَ فِيهَا قُوًى تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ يَحْمِلُهَا وَيُسَيِّرُ الطَّيْرَ كَذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعَمِهِ عَلَى عَبِيدِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ يَأْوُونَ إِلَيْهَا ، وَيَسْتَتِرُونَ بِهَا وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ، أَيْ مِنَ الْأُدُمِ يَسْتَخِفُّونَ حَمْلَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أَيْ : الْغَنَمُ ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أَيْ : الْإِبِلُ ﴿ وَأَشْعَارِهَآ ﴾ أَيْ : الْمَعْزُ ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ ﴿ أَثَٰثًا ﴾ أَيْ : تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثَاثًا : وَهُوَ الْمَالُ ، وَقِيلَ : الْمَتَاعُ ، وَقِيلَ : الثِّيَابُ . وَالصَّحِيحُ : أَعَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنَّهُ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَثَاثِ الْبُسُطَ وَالثِّيَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَيَتَّخِذُ مَالًا وَتِجَارَةً ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَوَقْتٍ مَعْلُومٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي الشَّجَرَ ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ أَيْ : حُصُونًا وَمَعَاقِلَ كَمَا ﴿ جَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وَهِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ وَالصُّوفِ ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ كَالدُّرُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمُصَفَّحِ وَالزَّرَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، لِيَكُونَ عَوْنًا لَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ وَقَرَءُوهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ ﴿ تُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْإِسْلَامِ .

وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ : إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ وَمَا جَعَلَ مِنَ السَّهْلِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ جِبَالٍ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ وَبَرٍ وَشَعْرٍ ؟ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور : ٤٣] لِعَجَبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا أَنْزَلَ مِنَ الثَّلْجِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وَمَا تَقِي مِنَ الْبَرْدِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ حَرٍّ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الِامْتِنَانِ فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وَقَدْ أَدَّيْتَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أَيْ : يَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَيُسْنِدُونَ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ إِلَى غَيْرِهِ ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا وَهُوَ نَبِيُّهَا ، يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا أَجَابَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : فِي الِاعْتِذَارِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَهُ وَكَذِبَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥-٣٦] ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا مِنَ الْمَوْقِفِ بِلَا حِسَابٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ[1] فَيُشْرِقُ عُنُقٌ مِنْهَا عَلَى الْخَلَائِقِ ، وَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ ، فَتَقُولُ : إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَر ، وَبِكَذَا وَبِكَذَا وَتَذْكُرُ أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ثُمَّ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَتَلْتَقِطُهُمْ مِنَ الْمَوْقِفِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّائِرُ الْحَبَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢-١٤]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرُّءِ آلِهَتِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : قَالَتْ لَهُمُ الْآلِهَةُ : كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ

---

(١) مسلم رقم (٢٨٤٢) .

كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١-٨٢]، وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٥]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ يَعْنِي : ذَلُّوا وَاسْتَسْلَمُوا يَوْمَئِذٍ ، أَيْ : اِسْتَسْلَمُوا لله جَمِيعَهُمْ فَلَا أَحَدٌ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم:٣٨] أَيْ : مَا أَسْمَعَهُمْ وَمَا أَبْصَرَهُمْ يَوْمئِذٍ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة : ١٢]. وَقَالَ : ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه : ١١١] أَيْ : خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَكَانَتْ وَأَنَابَتْ وَاسْتَسْلَمَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ اِفْتِرَاءً عَلَى الله ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ وَلَا مُجِيرَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا ﴾ الْآيَة . أَيْ : عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٦] أَيْ : يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَيَبْتَعِدُونَ هُمْ عَنْهُ أَيْضًا ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٦]، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ ، كَمَا يَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] **عَنْ عَبْدِ الله ابْنُ مَسْعُودٍ** فِي قَوْلِ الله ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ قَالَ : زِيدُوا عَقَارِبَ ، أَنْيَابُهَا كَالنَّخْلِ الطِّوَالِ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم

مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : أُمَّتَكَ . أَيْ : اُذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ وَمَا مَنَحَكَ اللهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي اِنْتَهَى إِلَيْهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ قَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ صَدْرَ سُورَةِ النِّسَاءِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((حَسْبُكَ)) فَقَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ : قَدْ بَيَّنَ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلَّ عِلْمٍ وَكُلَّ شَيْءٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كُلَّ حَلَالٍ وَكُلَّ حَرَامٍ ، وَقَوْلُ اِبْنِ مَسْعُودٍ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ اِشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ مِنْ خَبَرِ مَا سَبَقَ ، وَعِلْمِ مَا سَيَأْتِي ، وَكُلِّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ ، وَمَا النَّاسُ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ﴿ وَهُدًى ﴾ أَيْ : لِلْقُلُوبِ ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : بِالسُّنَّةِ . وَوَجْهُ اِقْتِرَانِ قَوْلِهِ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] أَيْ : إِنَّ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ وَمُعِيدُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَائِلُكَ عَنْ أَدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكَ . هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ وَهُوَ مُتَّجَهٌ حَسَنٌ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمُوَازَنَةُ وَيَنْدُبُ إِلَى الْإِحْسَانِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

(١) البخاري (حديث ٤٥٨٢) ، ومسلم (حديث ٨٠٠) .

لِلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى شَرْعِيَّةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ . وَقِيلَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، **وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ** : الْعَدْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ : اِسْتِوَاءُ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مِنْ كُلِّ عَامِلٍ للهِ عَمَلًا ، وَالْإِحْسَانُ : أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ أَحْسَنُ مِنْ عَلَانِيَتِهِ ، وَالْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ : أَنْ تَكُونَ عَلَانِيَتُهُ أَحْسَنُ مِنْ سَرِيرَتِهِ ، ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ فَالْفَوَاحِشُ : الْمُحَرَّمَاتُ . وَالْمُنْكَرَاتُ : مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِهَا ، وَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ : الْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ((**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ ، مِنَ الْبَغْيِ ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعِظُكُمۡ ﴾ أَيْ : يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ** : إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ الْآيَةَ . **وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ** : لَيْسَ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَهُ إِلَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ خُلُقٍ سَيِّئٍ كَانُوا يَتَعَايَرُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَقَدَّمَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ سَفَاسِفِ الْأَخْلَاقِ وَمَذَامِّهَا .

وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذي (٢٥١١) ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

هَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] . وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] أَيْ : لَا تَتْرُكُوهَا بِلَا كَفَّارَةٍ ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « **إِنِّي ، وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَتَحَلَّلْتُهَا** »[1] وَفِي رِوَايَةٍ « **وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي** » لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ وَلَا بَيْنَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هَاهُنَا وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ الْمُرَادُ بِهَا الدَّاخِلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ ، لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَثٍّ أَوْ مَنْعٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يَعْنِي : الْحِلْفَ ، أَيْ : حِلْفُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا حلفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَيُّمَا حلف كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً** »[2] . وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الْحِلْفِ الَّذِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ فَإِنَّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ كِفَايَةٌ عَمَّا كَانُوا فِيهِ . وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : حَالَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دُورِنَا . فَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ آخَى بَيْنَهُمْ ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِ حَتَّى نَسَخَ اللهُ ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَعَنْ **نَافِعٍ قَالَ** : لَمَّا خَلَعَ النَّاسُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ بَنِيهِ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ تَشَهَّدَ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ** : هَذِهِ

(١) البخاري (٦٦٢٣) ، ومسلم (١٦٤٩) .
(٢) مسلم (٢٥٣٠) .
(٣) البخاري (٢٢٩٤) ، ومسلم (٢٥٢٩) .

غَدْرَةُ فُلَانٍ ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ - إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ - أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ فَلَا يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَزِيدَ وَلَا يُشْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَكُونَ صَيْلَمٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ »(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ نَقَضَ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : هَذِهِ امْرَأَةٌ خَرْقَاءُ كَانَتْ بِمَكَّةَ كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْدَ انْبِرَامِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : هَذَا مَثَلٌ لِمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ وَأَظْهَرُ سَوَاءٌ كَانَ بِمَكَّةَ امْرَأَةٌ تَنْقُضُ غَزْلَهَا أَمْ لَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ مَصْدَرٍ ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ أَيْ : أَنْقَاضًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ خَبَرِ كَانَ ، أَيْ : لَا تَكُونُوا أَنْكَاثًا ، جَمْعُ نِكْثٍ مِنْ نَاكِثٍ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أَيْ : خَدِيعَةً وَمَكْرًا ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ : تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ ، فَإِذَا أَمْكَنَكُمُ الْغَدْرُ بِهِمْ غَدَرْتُمْ ، فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، إِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنِ الْغَدْرِ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - فَلَأَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قِيلَ : أَيْ : أَكْثَرُ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَيُحَالِفُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزُّ ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ ، ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي بِالْكَثْرَةِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيْ : بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٨) ، وبعضه في الصحيح ، وقد تقدم ، وانظر البخاري (٣١٨٨) ومسلم (١٧٢٥) .

وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس : ٩٩] أَيْ : لَوَفَّقَ بَيْنَكُمْ وَلَمَا جَعَلَ اخْتِلَافًا وَلَا تَبَاغُضًا وَلَا شَحْنَاءَ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود:١١٨-١١٩] وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا عَلَى الْفَتِيلِ وَالنَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ ، ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلًا ، أَيْ : خَدِيعَةً وَمَكْرًا ؛ لِئَلَّا تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، مَثَلٌ لِمَنْ كَانَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا وَزَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، بِسَبَبِ الْأَيْمَانِ الْحَانِثَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ وُثُوقٌ بِالدِّينِ ، فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ لَوْ حِيزَتْ لِابْنِ آدَمَ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا لَكَانَ مَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُ ، أَيْ : جَزَاءُ اللهِ وَثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ وَآمَنَ بِهِ وَطَلَبَهُ وَحَفِظَ عَهْدَهُ ، رَجَاءَ مَوْعُودِهِ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ أَيْ : يَفْرُغُ وَيَنْقَضِي ، فَإِنَّهُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ مَحْصُورٍ مُقَدَّرٍ مُتَنَاهٍ ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ أَيْ : وَثَوَابُهُ لَكُمْ فِي الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا انْقِطَاعَ وَلَا نَفَادَ لَهُ فَإِنَّهُ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قَسَمٌ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى مُؤَكَّدٌ بِاللَّامِ أَنَّهُ : يُجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، أَيْ : وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئِهَا .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ الله تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا - وَهُوَ الْعَمَلُ الْمُتَابِعُ لِكِتَابِ الله تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى مِنْ بَنِي آدَمَ، وَقَلْبُهُ مُؤْمِنٌ بِالله وَرَسُولِهِ، وَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ مَشْرُوعٌ مِنْ عِنْدِ الله - بِأَنْ يُحْيِيهِ اللهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يَجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْتَمِلُ وُجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ، **وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ فَسَّرُوهَا**: بِالرِّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَفُسِّرَتْ أَيْضًا: بِالْقَنَاعَةِ، وَفُسِّرَتْ أَيْضًا: أَنَّهَا هِيَ السَّعَادَةُ، **وَقِيلَ أَيْضًا**: هِيَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ وَالْعِبَادَةُ فِي الدُّنْيَا. **وَقِيلَ**: هِيَ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ وَالِانْشِرَاحُ بِهَا، **وَالصَّحِيحُ**: أَنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ تَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**))[1] وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا**))[2].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ: أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، **وَهَذَا أَمْرُ نَدْبٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ** حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ. وَالْمَعْنَى فِي الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ لِئَلَّا يَلْبِسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتَهُ، وَيَخْلِطَ عَلَيْهِ وَيَمْنَعَهُ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَلِهَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ.

---

(١) مسلم (١٠٥٤).
(٢) مسلم (٢٨٠٨).

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ **قَالَ الثَّوْرِيُّ** : لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : مَعْنَاهُ لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : كَقَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٣]

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ **قِيلَ** : **يُطِيعُونَهُ** ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الله ﴿ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ أَيْ : أَشْرَكُوا فِي عِبَادَةِ الله ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ ، أَيْ : صَارُوا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ مُشْرِكِينَ بِالله تَعَالَى ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : مَعْنَاهُ أَنَّهُ شَرِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةِ ثَبَاتِهِمْ وَإِيقَانِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسِخَهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ ﴾ أَيْ : كَذَّابٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُم مَا يُرِيدُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ ﴾ أَيْ : رَفَعْنَاهَا وَأَثْبَتْنَا غَيْرَهَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مَا نَنْسَخ مِنْ آيَة أَوْ نُنْسِهَا ﴾[البقرة : ١٠٦]

فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ ﴾ أَيْ : جِبْرِيلُ ﴿ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أَيْ : بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا ، وَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبِشَارَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ .

وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْبهتِ : أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ ، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ غُلَامٌ لِبَعْضِ بُطُونِ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ بَيَّاعًا يَبِيعُ عِنْدَ الصَّفَا ، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْلِسُ إِلَيْهِ وَيُكَلِّمُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَذَاكَ كَانَ أَعْجَمِيُّ اللِّسَانِ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جَوَابَ الْخِطَابِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ ، فَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي افْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ، أَيْ : فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ مَنْ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَمَعَانِيهِ التَّامَّةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ ؟ لَا يَقُولُ هَذَا مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ قَيْنًا بِمَكَّةَ وَكَانَ اسْمُهُ بَلْعَامُ ، وَكَانَ أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالُوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَلْعَامُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَتَغَافَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ ، فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجِعٌ فِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّابٍ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ شِرَارُ الْخَلْقِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ ، وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقُ النَّاسِ وَأَبَرَّهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِيقَانًا ، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ لَا

يَشُكُّ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، بِحَيْثُ لَا يُدْعَى بَيْنَهُمْ إِلَّا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ فِيهَا قَالَ لَهُ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ هِرَقْلُ : فَمَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ ﷻ[1]

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّبَصُّرِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْكُفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ ، أَنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ عُدُولِهِمْ عَنْهُ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّدَّةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَهْدِ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَيُثَبِّتْهُمْ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا ، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا فَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ وَلَا عَجَبَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ﴿ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ ﴾ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَذًى ، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ . وَقَدْ قِيلَ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ ابْنِ يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا ،

(١) البخاري (حديث ٧) .

وَجَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْبَى كَمَا كَانَ بِلَالٌ ﷺ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَضَعُوا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالشِّرْكِ بِاللهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ ، أَحَدٌ ، وَيَقُولُ : وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا ﷺ وَأَرْضَاهُ . وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ : أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ؟ فَيَقُولُ : لَا أَسْمَعُ ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ حَرَّقَ نَاسًا ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : لَمْ أَكُنْ لِأُحَرِّقَهُمْ بِالنَّارِ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ** » وَكُنْتُ أُقَاتِلُهُمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: « **مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ** » فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا ، فَقَالَ : وَيْحَ أُمِّ ابْنِ عَبَّاسٍ[1]. وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَثْبُتَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرُ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مُهَانِينَ فِي قَوْمِهِمْ ، فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمْكَنَهُمُ الْخَلَاصُ بِالْهِجْرَةِ ، فَتَرَكُوا بِلَادَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ ، وَانْتَظَمُوا فِي سِلْكِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَاهَدُوا مَعَهُمُ الْكَافِرِينَ وَصَبَرُوا ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ بَعْدِهَا أَيْ : تِلْكَ الْفَعْلَةِ ، وَهِيَ الْإِجَابَةُ إِلَى الْفِتْنَةِ لَغَفُورٌ لَهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ أَيْ : تُحَاجُّ ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا ، لَا أَبٌ وَلَا ابْنٌ وَلَا أَخٌ وَلَا زَوْجَةٌ ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ

(١) البخاري (حديث ٦٩٢٢) .

الْخَيْرِ وَلَا يُزَادُ عَلَى ثَوَابِ الشَّرِّ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

هَذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقِرَّةً ، يَتَخَطَّفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهَا ، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَافُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾[القصص : ٥٧] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أَيْ : هَنِيئًا سَهْلًا ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : جَحَدَتْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهَا ، وَأَعْظَمُهَا بَعْثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[إبراهيم : ٢٨-٢٩] ، وَلِهَذَا بَدَّلَهُمُ اللهُ بِحَالَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ خِلَافَهُمَا فَقَالَ : ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾ أَيْ : أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمُ اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا الْعِلْهِزَ وَهُوَ : وَبَرُ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ . ﴿ وَٱلْخَوْفِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَتِهِ وَسَرَايَاهُ وَجُيُوشِهِ ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي دَمَارٍ وَسَفَالٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِم الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ فِيهِمْ ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة : ١٥١-١٥٢] ، وَكَمَا أَنَّهُ انْعَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَالُهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ وَجَاعُوا بَعْدَ الرَّغَدِ ، فَبَدَّلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، وَرَزَقَهُمْ بَعْدَ الْعَيْلَةِ وَجَعَلَهُمْ أُمَرَاءَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَسَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَأَئِمَّتَهُمْ .

فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقِهِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، وَبِشُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ اِبْتِدَاءً ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أَيْ : ذُبِحَ عَلَى غَيْرِ اِسْمِ اللهِ ، وَمَعَ هَذَا فَمَنِ اُضْطُرَّ إِلَيْهِ ، أَيْ : اِحْتَاجَ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وَصَفُوهُ وَاصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِآرَائِهِمْ ، مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ شَرْعًا لَهُمْ اِبْتَدَعُوهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنِ اِبْتَدَعَ بِدْعَةً لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللهُ ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللهُ ، بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ وَتَشَهِّيهِ ((وَمَا)) فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ، أَيْ : وَلَا تَقُولُوا الْكَذِبَ لِوَصْفِ أَلْسِنَتِكُمْ . ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤]

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْنَا المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَإِنَّمَا أَرْخَصَ فِيهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ – وَفِي ذَلِكَ تَوْسِعَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي يُرِيدُ اللهُ بِهَا الْيُسْرَى وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَى – ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ حَرَّمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الآصَارِ وَالتَّضْيِيقِ وَالأَغْلَالِ وَالحَرَجِ ، فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا ضَيَّقْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٠]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقِّ الْعُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جَاهِلٌ ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ ﴾ أَيْ : أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ المَعَاصِي ، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أَيْ : تِلْكَ الْفَعْلَةُ وَالزَّلَّةُ ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الحُنَفَاءِ وَوَالِدَ الأَنْبِيَاءِ ، وَيُبَرِّئُهُ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فَأَمَّا الْأُمَّةُ : فَهُوَ الإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ ، وَالْقَانِتُ : هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ ، وَالْحَنِيفُ : الْمُنْحَرِفُ قَصْدًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ ؟ فَقَالَ : الْأُمَّةُ : مُعَلِّمُ الْخَيْرِ ، وَالْقَانِتُ : الْمُطِيعُ لله وَرَسُولِهِ(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أَيْ : قَائِمًا بِشُكْرِ نِعَمِ الله عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[النجم : ٣٧] أَيْ : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ أَيْ : اِخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٥١] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ عِبَادَةُ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، عَلَى شَرْعٍ مَرْضِيٍّ ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ : جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . وَقِيلَ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ : لِسَانَ صِدْقٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَيْ : وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ وَطَرِيقِهِ ، أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ فِي الْأَنْعَامِ ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام : ١٦١] . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْيَهُودِ :

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

لَا شَكَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَعَدَلُوا عَنْهُ وَاخْتَارُوا السَّبْتَ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ

(١) صحيح عن أبي العبيدين .

فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ المَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمَّلَ خَلْقَهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ ، فَأَلْزَمَهُمْ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ وَوَصَّاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ مَعَ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ وَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ وَعُهُودَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : اِتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا الجُمُعَةَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الأَحَدِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ إِلَّا مَا نُسِخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِين هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقًا عَنِ الصَّخْرَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا ، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ** »(1). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَالمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ** »(2).

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إِلَى اللهِ بِالحِكْمَةِ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، أَيْ : بِمَا فِيهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالوَقَائِعِ بِالنَّاسِ ، ذَكَّرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بَأْسَ اللهِ تَعَالَى .

---

(١) البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥) .
(٢) مسلم (٨٥٥ - ٨٥٦)

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ : مَنِ احْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَةٍ وَجِدَالٍ ، فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِرِفْقٍ وَلِينٍ وَحُسْنِ خِطَابٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[العنكبوت : ٤٦] ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِبِ ، كَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى وَهَارُون - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - حِين بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه : ٤٤] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[النحل : ١٢٥] . أَيْ قَدْ عَلِمَ الشَّقِيَّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيدَ ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَفَرَغَ مِنْهُ ، فَادْعُهُمْ إِلَى اللهِ وَلَا تُذْهِبْ نَفْسكَ عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَاتٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[القصص:٥٦] ، وَ ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة:٢٧٢]

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَالْمُمَاثَلَةِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إِنْ أَخَذَ مِنْكُمْ رَجُلٌ شَيْئًا فَخُذُوا مِثْلَهُ .

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّة ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : لَئِنْ كَانَ لَنَا يَوْمٌ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قَالَ رَجُلٌ : لَا تُعْرَفُ قُرَيْشٌ بَعْدَ الْيَوْم ، فَنَادَى مُنَادٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَّنَ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا - نَاسًا سَمَّاهُمْ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ**))[1] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ

---

(١) صحيح : أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (مسند أحمد ٥/ ١٣٥) ، والترمذي بنحوه (٣١٢٩) ، وقال حديث حسن غريب من حديث أُبي بن كعب .

لَهَا أَمْثَالٌ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤١] . وَقَالَ : ﴿ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾ [المائدة : ٤٥] ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بِالصَّبْرِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِعَانَتِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْ خَالَفَكَ ، فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ ﴾ أَيْ : غَمٍّ ﴿ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ أَيْ : مِمَّا يُجْهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عَدَاوَتِكَ ، وَإِيصَالِ الشَّرِّ إِلَيْكَ ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْهِرُكَ وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ أَيْ : مَعَهُمْ ، بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ وَهَدْيِهِ وَسَعْيِهِ وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، وَقَوْلِهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] ، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلصِّدِّيقِ وَهُمَا فِي الْغَارِ ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ فَبِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الحديد : ٤] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة : ٧] ، وَمَعْنَى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ أَيْ : فَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، فَهَؤُلَاءِ اللهُ يَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ ، وَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ ، وَيُظْفِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالِفِيهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ وَللهِ الْحَمْدُ أَجْمَعُهُ وَالْمِنَّةُ
وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

تَفْسِيرُ سُورَةِ سُبْحَانَ (الإِسْرَاء)
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ : إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

يُمَجِّدُ تَعَالَى نَفْسَهُ ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أَيْ : فِي جُنْحِ اللَّيْلِ ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مَكَّةَ ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي بِإِيلِيَاءِ ، مَعْدِنُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَاكَ كُلُّهُمْ ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أَيْ : مُحَمَّدًا ﴿ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ أَيْ : الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] ، وَسَنَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، مُصَدِّقِهِمْ وَمُكَذِّبِهِمْ ، الْبَصِيرُ بِهِمْ ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

---

(١) البخاري (٤٧٣٩) قال الحافظ في الفتح : العتاق : جمع عتيق وهو القديم أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة ، وقوله : وهن من التلادي : أي مما حفظ قديما ، ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن وإن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم ا.هـ بتصرف يسير .

ذِكْرُ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ فِي الإِسْرَاءِ

رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ(١) ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ، قَالَ ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ : يَحْيَى وَعِيسَى ، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا . فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا

(١) المسند (٣/١٤٨ - ١٤٩) ، ومسلم (١٦٢) .

فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، فَقِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قَالَ : فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، قَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ، فَقُلْتُ : أَيْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً . فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ » .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ »[1].

وَعَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[2] أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ قَالَ : « بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ - وَرُبَّمَا فِي الْحِجْرِ - مُضْطَجِعًا ،

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٠) ، ومسلم (٢٣٧٥) .
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٨) ، والبخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

إِذْ أَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَقُولُ : لِصَاحِبِهِ : الْأَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ ، قَالَ : فَأَتَانِي فَقَدَّ - وَفِي رِوَايَةٍ : فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ » قَالَ قَتَادَةُ : فَقُلْتُ : لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي مَا يَعْنِي قَالَ : مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : مِنْ قَصَّتِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ ، قَالَ : « فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي - قَالَ : فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إِيمَانًا وَحِكْمَةً ، فَغُسِلَ قَلْبِي ، ثُمَّ حُشِيَ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ » . قَالَ : فَقَالَ الْجَارُودُ : هُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ ، قَالَ : « فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ ﷺ حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَقِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ : فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ ﷺ قَالَ : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ . ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ، فَقَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ : فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا عِيسَى وَيَحْيَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ ، قَالَ : هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا قَالَ : فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَا : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ . ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ : فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ ﷺ قَالَ : هَذَا يُوسُفُ ، قَالَ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِدْرِيسُ ﷺ قَالَ : هَذَا إِدْرِيسُ ، قَالَ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ . قَالَ : ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ ؛ فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ، قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ :

نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ ﷺ قَالَ : هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، قَالَ : ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ قَالَ : هَذَا مُوسَى ﷺ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، قَالَ : فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَى ، قِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ، قَالَ : أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي . قَالَ : ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ قِيلَ : أَوَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ : فَفُتِحَ لَنَا ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ فَقَالَ : هَذَا إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ . قَالَ : ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى ، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ ، فَقَالَ : هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى ، قَالَ : وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : أَمَّا البَاطِنَانِ : فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ : فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ . قَالَ : ثُمَّ رُفِعَ إِلَيَّ البَيْتُ المَعْمُورُ)) .

قَالَ قَتَادَةُ : وَحَدَّثَنَا الحَسَنُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ : رَأَى البَيْتَ المَعْمُورَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ : ((ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ – قَالَ – فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، قَالَ : هَذِهِ الفِطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ . قَالَ : ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ – قَالَ : فَنَزَلْتُ حَتَّى أَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قَالَ : فَقُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى

فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قُلْتُ : بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ فَقُلْتُ : أُمِرْت بِثَلَاثِينَ صَلَاةً ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ثَلَاثِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قُلْت : بِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ فَقُلْتُ : أُمِرْت بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ، فَقُلْتُ : أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قَالَ : قُلْتُ : قَدْ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ فَنَفَذْتُ ، فَنَادَى مُنَادٍ قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي)).

رِوَايَةُ أَنَسٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ :

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[1] قَالَ كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ

(١) البخاري (حديث ٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) .

بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ ، قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ : افْتَحْ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ، قَالَ : نَعَمْ ، مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ لِجِبْرِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا آدَمُ ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَقَالَ : لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلُ مَا قَالَ لَهُ الْأَوَّلُ ، فَفَتَحَ ». قَالَ أَنَسٌ : فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَاوَاتِ آدَمَ ، وَإِدْرِيسَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، قَالَ أَنَسٌ : فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ : « مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : إِدْرِيسُ ، ثُمَّ مَرَّ بِمُوسَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا قَالَ : هَذَا مُوسَى ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا عِيسَى ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ . قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا إِبْرَاهِيمُ ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَا يَقُولَانِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ » قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ : مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ مُوسَى : فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، قُلْتُ : وَضَعَ شَطْرَهَا ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَرَاجَعْتُهُ فَقَالَ :

هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، قُلْتُ : قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ : لَوْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ ، قَالَ : وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُهُ ! قَالَ كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَى رَبَّهُ ؟ فَقَالَ إِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : « قَدْ رَأَيْتُهُ نُورًا ، أَنَّى أَرَاهُ »(١).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ(٢) : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ قَالَ : « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ » ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : قُلْتُ : لِأَبِي ذَرٍّ لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ : قَدْ سَأَلْتُ ، فَقَالَ : « رَأَيْتُ نُورًا » .

رِوَايَةُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ :

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَّى اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ »(٣).

رِوَايَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٤) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّتْ بِي رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ ؟ قَالَ : مَاشِطَةُ بِنْتُ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادُهَا ، سَقَطَ الْمُشْطُ مِنْ يَدِهَا فَقَالَتْ : بِسْمِ اللهِ ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ : أَبِي ؟ قَالَتْ : رَبِّي وَرَبُّكِ وَرَبُّ أَبِيكِ ، قَالَتْ : أَوَلَكِ رَبٌّ غَيْرُ أَبِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكِ وَرَبُّ أَبِيكِ : اللهُ . قَالَ : فَدَعَاهَا ، فَقَالَ : أَلَكِ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ﷻ . قَالَ : فَأَمَرَ

---

(١) صحيح : أحمد في المسند (٥ / ١٤٧) .
(٢) مسلم (حديث ١٧٨) .
(٣) صحيح : وأخرجه البخاري (٤٧١٠) ، ومسلم (١٧٠) .
(٤) حسن : وقد تقدم ، وحماد بن سلمة قد روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط (عند الجمهور) .

ببقرةٍ مِنْ نُحاسٍ فَأُحْمِيَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى فِيهَا ، قَالَتْ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي مَوْضِعٍ ، قَالَ : ذَاكَ لَكِ ، لِمَا لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ ، قَالَ : فَأَمَرَ بِهِمْ فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى بَلَغَ رَضِيعًا فِيهِمْ ، فَقَالَ : يَا أُمَّهْ قَعِي وَلَا تَقَاعَسِي ، فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(١) قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي ، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ » فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا قَالَ : فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ الله أَبُو جَهْلٍ ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ : هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : « نَعَمْ » قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ » قَالَ : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ » قَالَ : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : فَلَمْ يَرَ أَنْ يُكَذِّبَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَ الحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَتُحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « نَعَمْ » فَقَالَ : هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، قَالَ : فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا ، قَالَ : حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة » فَقَالُوا : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « إِلَى بَيْتِ المَقْدِس » قَالُوا : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ ، قَالُوا : وَتَسْتَطِيعَ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا المَسْجِدَ ؟ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى المَسْجِدَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ ، قَالَ : فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عُقَيْلٍ - أَوْ عِقَالٍ - فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، قَالَ : وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ ، قَالَ : فَقَالَ الْقَوْمُ : أَمَّا النَّعْتُ فَوَالله لَقَدْ أَصَابَ » .

رِوَايَةُ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ :

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ(٢) قَالَ : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ فَانْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى - وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ - وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُصْعَدُ بِهِ حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي

(١) إسناده صحيح : وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٠٩) .
(٢) صحيح : أخرجه مسلم بنحوه (حديث ١٧٣) .

مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم : ١٦] قَالَ : غَشِيَهَا فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَأُعْطِيَ رَسُولُ الله ﷺ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ الْمُقْحِمَاتُ ، يَعْنِي : الْكَبَائِرَ .

رِوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**حِينَ أُسْرِيَ بِي : لَقِيتُ مُوسَى** عليه السلام **فَنَعَتَهُ فَإِذَا رَجُلٌ حَسِبْتُهُ قَالَ - مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، قَالَ : وَلَقِيتُ عِيسَى** - فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ - **قَالَ : رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ** - يَعْنِي حَمَّامًا - **قَالَ : وَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ ، قَالَ : وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ قِيلَ لِي : خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ ، فَقِيلَ لِي : هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ**))

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحجرِ وَقُرَيْش تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كَرْبًا مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي ، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَائِمٌ يُصَلِّي ، أَقْرَبُ النَّاسِ شَبَهًا بِهِ صَاحِبُكُمْ** - يَعْنِي نَفْسَهُ - **فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ**))[1].

فَصْلٌ

وَإِذَا حَصَلَ الْوُقُوفُ عَلَى مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ يَحْصُلُ مَضْمُونُ مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَسْرَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَأَنَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً . وَإِنِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الرُّوَاةِ فِي أَدَائِهِ ، أَوْ زَادَ بَعْضُهُمْ فِيهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ ، فَإِنَّ الْخَطَأَ جَائِزٌ عَلَى مَنْ عَدَا الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَمَنْ جَعَلَ مِنَ النَّاسِ كُلَّ رِوَايَةٍ خَالَفَتِ الْأُخْرَى

(١) أخرجه مسلم (١٧٢) .

مَرَّةً عَلَى حِدَةٍ ، فَأَثْبَتَ إِسْرَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَقَدْ أَبْعَدَ وَأَغْرَبَ ، وَهَرَبَ إِلَى غَيْرِ مَهْرَبٍ ، وَلَمْ يَتَحَصَّلْ عَلَى مَطْلَبٍ . وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِأَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَطْ ، وَمَرَّةً مِنْ مَكَّةَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَطْ ، وَمَرَّةً إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَفَرِحَ بِهَذَا الْمَسْلَكِ ، وَأَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِشَيْءٍ يَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ ، وَهَذَا بَعِيدٌ جِدًّا وَلَمْ يُنْقَلْ هَذَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَلَوْ تَعَدَّدَ هَذَا التَّعَدُّدَ لَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ أُمَّتَهُ ، وَلَنَقَلَهُ النَّاسُ عَلَى التَّعَدُّدِ وَالتَّكَرُّرِ .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : كَانَ الْإِسْرَاءُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ ، وَكَذَا قَالَ عُرْوَةُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : بِسِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ ﷺ **أُسْرِيَ بِهِ يَقَظَةً لَا مَنَامًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَاكِبًا الْبُرَاقَ** . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ رَبَطَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ ، وَدَخَلَهُ فَصَلَّى فِي قِبْلَتِهِ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ أُتِيَ بِالْمِعْرَاجِ - وَهُوَ كَالسُّلَّمِ ذُو دَرَجٍ يُرْقَى فِيهَا - فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا ، وَسَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ ، ثُمَّ جَاوَزَ مَنْزِلَتَيْهِمَا - ﷺ وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوًى يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ، أَيْ : أَقْلَامَ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، وَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ ، مِنْ فَرَاشٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَلْوَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ، وَرَأَى هُنَاكَ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ ، وَرَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ . وَرَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - بَانِيَ الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ - مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا . ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ ، فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ ، وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ أَنَّهُ بِبَيْتِ

المَقْدِسِ ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ ، لأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَهُوَ يُخْبِرُهُ بِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ ؛ لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلَى الْجَنَابِ الْعُلْوِيِّ ، لِيُفْرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ اِجْتَمَعَ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانُه مِنَ النَّبِيِّينَ ، ثُمَّ أَظْهَرَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الإِمَامَةِ ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام لَهُ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ البَيْتِ المَقْدِسِ فَرَكِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَأَمَّا عَرْضُ الآنِيَةِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْعَسَلِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْخَمْرِ ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ ، أَوِ الْجَمِيعُ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، لأَنَّهُ كَالضِّيَافَةِ لِلْقَادِمِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ اِخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ الإِسْرَاءُ بِبَدَنِهِ عليه السلام وَرُوحِهِ ، أَوْ بِرُوحِهِ فَقَطْ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالأَكْثَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ أُسْرِيَ بِبَدَنِهِ وَرُوحِهِ يَقَظَةً لَا مَنَامًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى قَبْلَ ذَلِكَ مَنَامًا ، ثُمَّ رَآهُ بَعْدَهُ يَقَظَةً ؛ لأَنَّهُ كَانَ عليه السلام لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الأُمُورِ الْعِظَامِ ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِيرُ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا ، وَلَمَا بَادَرَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، وَلَمَا اِرْتَدَّتْ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾[الإسراء : ٦٠] **قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ**[1] : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ هِيَ : شَجَرَةُ الزَّقُّومُ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[النجم : ١٧] ، وَالْبَصَرُ مِنْ آلَاتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ بَيْضَاءُ بَرَّاقَةٌ لَهَا لَمَعَانٌ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ

---

(١) البخاري (٤٧١٦) .

هَذَا لِلْبَدَنِ لَا لِلرُّوحِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَى مَرْكَبٍ تَرْكَبُ عَلَيْهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ أَيْضًا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَبَيْنَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَاةُ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : الْكِتَابَ ﴿ هُدًى ﴾ أَيْ : هَادِيًا ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَتَّخِذُوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أَيْ : وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا دُونِي ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تَقْدِيرُهُ : يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، فِيهِ تَهْيِيجٌ وَتَنْبِيهٌ عَلَى الْمِنَّةِ ، أَيْ : يَا سُلَالَةَ مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ تَشَبَّهُوا بِأَبِيكُمْ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فَاذْكُرُوا أَنْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بِإِرْسَالِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَ اللهَ عَلَيْهَا** »[1] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[2]- بِطُولِهِ وَفِيهِ - « **فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا** » .

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) ، وأحمد (٣/ ١١٧) .
(٢) البخاري (٤٧١٢) ، ولفظه « أنا سيد الناس يوم القيامة ... » .

ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ، أَيْ : تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، أَيْ : يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْغَوْنَ وَيَفْجُرُونَ عَلَى النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[الحجر : ٦٦] أَيْ : تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ وَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ وَأَعْلَمْنَاهُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أَيْ : أُولَى الْإِفْسَادَتَيْنِ ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : سَلَّطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، أَيْ : قُوَّةٍ وَعِدَّةٍ وَعَدَدٍ وَسَلْطَنَةٍ شَدِيدَةٍ ﴿ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ أَيْ : تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَكُوا خِلَالَ بُيُوتِكُمْ ، أَيْ : بَيْنَهَا وَوَسَطَهَا ، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي هَؤُلَاءِ الْمُسَلَّطِينَ عَلَيْهِمْ : مَنْ هُمْ ؟ فَقِيلَ : أَنَّهُ جَالُوتُ الْجَزَرِيُّ وَجُنُودُهُ ، سُلِّطَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا ثُمَّ أُدِيلُوا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ **وَقِيلَ** : أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْصِلِ سَنْجَارِيبُ وَجُنُودُهُ ، **وَقِيلَ** : أَنَّهُ بُخْتَنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ .

وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ لَمْ أَرَ تَطْوِيلَ الْكِتَابِ بِذِكْرِهَا ؛ لِأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ مَوْضُوعٌ مِنْ وَضْعِ بَعْضِ زَنَادِقَتِهِمْ ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، وَنَحْنُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهَا وَللهِ الْحَمْدُ . وَفِيمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ غُنْيَةٌ عَمَّا سِوَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، وَلَمْ يُحْوِجْنَا اللهُ وَلَا رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا طَغَوْا وَبَغَوْا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، فَاسْتَبَاحَ بَيْضَتَهُمْ وَسَلَكَ خِلَالَ بُيُوتِهِمْ ، وَأَذَلَّهُمْ وَقَهَرَهُمْ جَزَاءً وِفَاقًا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَمَرَّدُوا وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ(١) قَالَ : ظَهَرَ بُخْتَنَصَّرُ عَلَى الشَّام ، فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَقَتَلَهُمْ ، ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دَمًا يَغْلِي عَلَى كِبًا ، فَسَأَلَهُمْ مَا هَذَا الدَّمُ ؟ فَقَالُوا : أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا ، وَكُلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَا ظَهَرَ ، قَالَ : فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ فَسَكَنَ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ ، وَأَنَّهُ قَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَنْ يَحْفَظُ التَّوْرَاةَ ، وَأَخَذَ مَعَهُ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا أَسْرَى مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، وَجَرَتْ أُمُورٌ وَكَوَائِنُ يَطُولُ ذِكْرُهَا ، وَلَوْ وَجَدْنَا مَا هُوَ صَحِيحٌ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ لَجَازَ كِتَابَتُهُ وَرِوَايَتُهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أَيْ : فَعَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أَيْ : الْكَرَّةُ الْآخِرَةُ ، أَيْ : إِذَا أَفْسَدْتُمُ الْكَرَّةَ الثَّانِيَةَ وَجَاءَ أَعْدَاؤُكُمْ ﴿ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ أَيْ : يُهِينُوكُمْ وَيَقْهَرُوكُمْ ﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ﴾ أَيْ : بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : فِي الَّتِي جَاسُوا فِيهَا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ ﴾ أَيْ : يُدَمِّرُوا وَيُخَرِّبُوا ﴿ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ أَيْ : مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أَيْ : فَيَصْرِفَهُمْ عَنْكُمْ ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ أَيْ : مَتَى عُدْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ ﴿ عُدْنَا ﴾ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا نَدَّخِرُهُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقَرًّا وَمَحْصَرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ . وَقِيلَ : يُحْصَرُونَ فِيهَا ، وَقِيلَ : فِرَاشًا وَمِهَادًا .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ ، ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِهِ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) صحيح الإسناد إليه .

الصَّالِحَاتِ عَلَى مُقْتَضَاهُ . ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١]

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ ، وَدُعَائِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ بِالشَّرِّ ، أَيْ : بِالْمَوْتِ أَوِ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَاللَّعْنَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلَوِ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهَلَكَ بِدُعَائِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ [يونس : ١١] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ : « **لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا** »(١) وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنُ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ قَلَقُهُ وَعَجَلَتُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ فَمِنْهَا مُخَالَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ ، وَيَنْتَشِرُوا فِي النَّهَارِ لِلْمَعَايِشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمَعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، وَيَعْرِفُوا مُضِيَّ الْآجَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلدُّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي مَعَايِشِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسَقًا وَاحِدًا ، وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا ، لَمَا عُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ

(١) **صحيح** : وقد أخرجه مسلم في حديث طويل (٣٠٠٩) ، وفي سنن أبي داود كذلك (١٥٣٢) .

ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧١ - ٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦١-٦٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً ، أَيْ : عَلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا وَهِيَ الظَّلَامُ وَظُهُورُ الْقَمَرِ فِيهِ ، وَلِلنَّهَارِ عَلَامَةٌ وَهِيَ النُّورُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ النَّيِّرَةِ فِيهِ ، وَفَاوَتَ بَيْنَ نُورِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥-٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ مَحْوَ آيَةِ اللَّيْلِ سَوَادُ الْقَمَرِ الَّذِي فِيهِ ، ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : مُنِيرَةً وَخَلَقَ الشَّمْسَ أَنْوَرَ مِنَ الْقَمَرِ وَأَعْظَمَ .

وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الزَّمَانِ وَذِكْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ وَطَائِرُهُ : هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَلِهِ - كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا - مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيَلْزَمُ بِهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧-١٨] ، وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا

صَبَاحًا وَمَسَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أَيْ : نَجْمَعُ لَهُ عَمَلَهُ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِمَّا بِيَمِينِهِ إِنْ كَانَ سَعِيدًا ، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا ، مَنْشُورًا : أَيْ مَفْتُوحًا يَقْرَؤُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ ، فِيهِ جَمِيعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ ﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٣-١٥]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أَيْ : إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُظْلَمْ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ ؛ لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْكَ ، وَلَا يَنْسَى أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ كِتَابَهُ مِنْ كَاتِبٍ وَأُمِّيٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ الْعُنُقَ ؛ لِأَنَّهُ عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْجَسَدِ ، وَمَنْ أُلْزِمَ بِشَيْءٍ فِيهِ فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ .

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ وَاتَّبَعَ الْحَقَّ وَاقْتَفَى أَثَرَ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ وَزَاغَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ ، وَلَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، فَإِنَّ الدُّعَاةَ عَلَيْهِمْ إِثْمُ ضَلَالَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِثْمٌ آخَرُ بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ وَلَا يَحْمِلُ عَنْهُمْ شَيْئًا . وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨- ٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] إِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُدْخِلُ أَحَدًا النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ .

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

اِخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فَالْمَشْهُورُ قِرَاءَةُ التَّخْفِيفِ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا ، فَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدَرِيًّا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس : ٢٤] فَإِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، قَالُوا : مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَفَعَلُوا الْفَوَاحِشَ فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاءَ ، **قُلْتُ** : إِنَّمَا يَجِيءُ هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ **قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ سَلَّطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] . **قَالَ فَرِيقٌ آخَرُ** : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَمًا مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَى الْإِسْلَامِ ، **كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ** : كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ . وَمَعْنَاهُ : أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ ، فَعُقُوبَتُكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ

عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ يَحْصُلُ لَهُ ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللهُ وَمَا يَشَاءُ ، وَهَذِهِ مُقَيِّدَةٌ لِإِطْلَاقِ مَا سِوَاهَا مِنَ الْآيَاتِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ أَيْ : يَدْخُلُهَا حَتَّى تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أَيْ : فِي حَالِ كَوْنِهِ مَذْمُومًا عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ ، إِذِ اخْتَارَ الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مُبْعَدًا مقصيا حَقِيرًا ذَلِيلًا مُهَانًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أَيْ : أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالسُّرُورِ ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أَيْ : طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَهُوَ مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيْ : قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ ، أَيْ : مُصَدِّقٌ مُوقِنٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كُلًّا ﴾ أَيْ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ ، نُمِدُّهُمْ فِيمَا فِيهِ ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى ، وَلَا مُغَيِّرَ لِمَا أَرَادَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ : لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ ، وَقِيلَ : ﴿ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ : مَنْقُوصًا ، وَقِيلَ : مَمْنُوعًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا وَمَنْ يُعَمَّرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا وَبَيْنَ ذَلِكَ ، ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أَيْ : وَلَتَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا ، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ** »(1) ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى - وَالْمُرَادُ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأُمَّةِ - لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ فِي عِبَادَتِكَ رَبَّكَ لَهُ شَرِيكًا ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ أَيْ : عَلَى إِشْرَاكِكَ ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ بَلْ يَكِلُكَ إِلَى الَّذِي عَبَدْتَ مَعَهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، لِأَنَّ مَالِكَ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَاهُنَا بِمَعْنَى : الْأَمْرُ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ يَعْنِي : وَصَّى ، وَكَذَا قَرَأَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ (وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أَيْ : وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، كَقَوْلِهِ فِي

(١) البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .

الآيَةِ الأُخْرَى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤]
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أَيْ : لَا تُسْمِعْهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا ، حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَيْ : وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أَيْ : لَا تَنْفُضْ يَدكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ ، فَقَالَ : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أَيْ : لَيِّنًا طَيِّبًا حَسَنًا ، بِتَأَدُّبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ . ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أَيْ : تَوَاضَعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ أَيْ : فِي كِبَرِهِمَا وَعِنْدَ وَفَاتِهِمَا ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

وَقَدْ جَاءَ فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ (مُتَنَاثِرَةٌ فِي التَّفْسِيرِ) مِنْهَا :
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ، رَجُلٍ أَدْرَكَ أَحَدَ أَبَوَيْهِ أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَ الْكِبَرِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ** »[1].

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ الْكِنْدِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ** »[2].

وَقَالَ النَّبِي ﷺ : « **يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا ، أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ** »[3].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ مِنْهُ الْبَادِرَةُ إِلَى أَبَوَيْهِ ، وَفِي نِيَّتِهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥١) بنحوه .
(٢) صحيح بشواهده : وله شاهد عند الترمذي (١٨٩٧) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعًا .
(٣) حسن : أخرجه النسائي (٥/ ٦١) وغيره .

إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : لِلْمُطِيعِينَ أَهْلِ الصَّلَاةِ ، **وَقِيلَ** : الْمُسَبِّحِينَ ، **وَقِيلَ** : الْمُطِيعِينَ الْمُحْسِنِينَ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : هُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ الضُّحَى ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الَّذِينَ يُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ ، وَيُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ . **وَقِيلَ** : هُمُ الرَّاجِعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهَا . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالأَوْلَى فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : هُوَ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ ، الرَّجَّاعُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، **وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الصَّوَابُ لأَنَّ الأَوَّابَ** : مُشْتَقٌّ مِنَ الأَوْبِ ، وَهُوَ : الرُّجُوعُ ، يُقَالُ : آبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ : « **آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ** »(١).

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدَيْنِ عَطَفَ بِذِكْرِ الإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « **أُمَّكَ وَأَبَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ** » ، وَفِي رِوَايَةٍ « **ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ** » وَفِي الْحَدِيثِ : « **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ** »(٢).

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لَمَّا أَمَرَ بِالإِنْفَاقِ نَهَى عَنِ الإِسْرَافِ فِيهِ ، بَلْ يَكُونُ وَسَطًا كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، ثُمَّ قَالَ مُنَفِّرًا عَنِ التَّبْذِيرِ وَالسَّرَفِ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أَيْ : أَشْبَاهُهُمْ فِي ذَلِكَ . **وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** : التَّبْذِيرُ : الإِنْفَاقُ فِي

---

(١) البخاري (حديث ٣٠٨٤) ، ومسلم (حديث ١٣٤٤) .
(٢) البخاري (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧) .

غَيْرِ حَقٍّ ، وَكَذَا قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : لَوْ أَنْفَقَ إِنْسَانٌ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبَذِّرًا ، وَلَوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبَذِّرًا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : التَّبْذِيرُ : النَّفَقَةُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَفِي غَيْرِ الْحَقِّ وَالْفَسَادِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أَيْ : فِي التَّبْذِيرِ وَالسَّفَهِ وَتَرْكِ طَاعَةِ اللهِ وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أَيْ : جَحُودًا ؛ لأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ الآيَة . أَيْ : إِذَا سَأَلَكَ أَقَارِبُكَ وَمَنْ أَمَرْنَاكَ بِإِعْطَائِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ لِفَقْدِ النَّفَقَةِ ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أَيْ : عِدْهُمْ وَعْدًا بِسُهُولَةٍ وَلِينٍ ، إِذَا جَاءَ رِزْقُ اللهِ فَسَنَصِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، هَكَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ بِالْوَعْدِ .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِالاِقْتِصَادِ فِي الْعَيْشِ ، ذَامًّا لِلْبُخْلِ ، نَاهِيًا عَنِ السَّرَفِ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أَيْ : لَا تَكُنْ بَخِيلًا مَنُوعًا ، لَا تُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا ، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] أَيْ : نَسَبُوهُ إِلَى الْبُخْلِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أَيْ : وَلَا تُسْرِفْ فِي الإِنْفَاقِ ، فَتُعْطِي فَوْقَ طَاقَتِكَ وَتُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنْ دَخْلِكَ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ، أَيْ : فَتَقْعُدَ إِنْ بَخِلْتَ مَلُومًا يَلُومُكَ النَّاسُ وَيَذُمُّونَكَ وَيَسْتَغْنُونَ عَنْكَ ، كَمَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى فِي الْمُعَلَّقَةِ :

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بِمَالِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَتَى بَسَطْتَ يَدَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ قَعَدْتَ بِلَا شَيْءٍ تُنْفِقُهُ ، فَتَكُونَ كَالْحَسِيرِ ، وَهُوَ : الدَّابَّةُ الَّتِي قَدْ عَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا ، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الْحَسِيرُ ،

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْكَلَالِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣-٤] أَيْ : كَلِيلٌ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا .

وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ : كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِي بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ**))(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَنْفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللهُ عَلَيْكِ ، وَلَا تُوكِي فَيُوكِي اللهُ عَلَيْكِ**)) وَفِي لَفْظٍ ((**وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِي اللهُ عَلَيْكِ**))(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ قَالَ أَنْفِقْ ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ**))(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**))(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : ((**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا أَنْفَقَ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ**))(٥).

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إِخْبَارٌ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الرَّزَّاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ فَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَى فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِدْرَاجًا ، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا .

---

(١) البخاري (١٤٤٣) ، ومسلم (١٠٢١) .
(٢) البخاري (١٤٣٣) ، ومسلم (١٠٢٩) .
(٣) مسلم (٩٩٣) ، والبخاري (٥٣٥٢) .
(٤) البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) .
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ ؛ لأَنَّهُ نَهَى عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ كَمَا أَوْصَى الْآبَاءَ بِالْأَوْلَادِ فِي الْمِيرَاثِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُوَرِّثُونَ الْبَنَاتَ ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ رُبَّمَا قَتَلَ اِبْنَتَهُ ؛ لِئَلَّا تُكْثِرَ عَيْلَتَهُ فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أَيْ : خَوْفٌ ، أَنْ تَفْتَقِرُوا فِي ثَانِي الْحَالِ ، وَلِهَذَا قَدَّمَ الِاهْتِمَامَ بِرِزْقِهِمْ فَقَالَ : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أَيْ : مِنْ فَقْرٍ ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[الأنعام : ١٥١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : ذَنْبًا عَظِيمًا ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ (كَانَ خَطَأً كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ((**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**)) ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ((**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**)) ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ((**أَنْ تُزَانِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**))(١).

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ الزِّنَا وَعَنْ مُقَارَبَتِهِ وَمُخَالَطَةِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ﴾ أَيْ : ذَنْبًا عَظِيمًا ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَبِئْسَ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ(٢) أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اِئْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ، وَقَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ : ((**ادْنُهْ**)) فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، فَقَالَ : ((**اجْلِسْ**)) فَجَلَسَ فَقَالَ : ((**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟**)) قَالَ : لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ . قَالَ :

(١) البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٦) .
(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦) .

« وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ » قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟** » قَالَ : لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ . قَالَ : « **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ** » قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟** » قَالَ : لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ . قَالَ : « **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ** » قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟** » قَالَ : لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ . قَالَ : « **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ** » قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟** » قَالَ : لَا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ . قَالَ : « **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ** » قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَأَحْصِنْ فَرْجَهُ** » قَالَ : فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ .

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : النَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنِ ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ** »[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : سُلْطَةٌ عَلَى الْقَاتِلِ ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوَدًا ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَّانًا ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ قَالُوا : مَعْنَاهُ : فَلَا يُسْرِفِ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ ، بِأَنْ يُمَثِّلَ بِهِ أَوْ يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أَيْ : أَنَّ الْوَلِيَّ مَنْصُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا ، وَغَالِبًا قَدَرًا .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

---

(١) صحيح: وقد تقدم مرارًا.

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أَيْ : لَا تَتَصَرَّفُوا لَهُ إِلَّا بِالْغِبْطَةِ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] ، وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ﴾ أَيْ : الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَالْعُقُودَ الَّتِي تُعَامِلُونَهُمْ بِهَا ، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُسْأَلُ صَاحِبُهُ عَنْهُ ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : عَنْهُ ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ ، لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكَسْرِهَا كَالْقِرْطَاسِ ، وَهُوَ : الْمِيزَانُ . **قَالَ مُجَاهِدٌ :** هُوَ الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ . ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا اِنْحِرَافَ وَلَا اِضْطِرَابَ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : لَكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ :** ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيْ : مَآلًا وَمُنْقَلَبًا فِي آخِرَتِكُمْ . **عَنْ قَتَادَةَ :** ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَيْ : خَيْرٌ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَا تَقُلْ ، **وَقَالَ آخَرُونَ :** لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ :** لَا تَقُلْ رَأَيْتُ وَلَمْ تَرَ ، وَسَمِعْتُ وَلَمْ تَسْمَعْ ، وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ ، بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالْخَيَالُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ** »(٢) وَفِي الْحَدِيثِ : « **إِنَّ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَهُ مَا**

---

(١) مسلم (حديث ١٨٢٦) .

(٢) البخاري (٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣) .

لَمْ تَرَ »[1] وَفِي الصَّحِيحِ : « **مَنْ تَحَلَّمَ حُلْمًا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ** »[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ : سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُسْأَلُ عَنْهُ وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا ، وَيَصِحُّ اسْتِعْمَالُ « أُولَئِكَ » مَكَانَ « تِلْكَ » كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... وَالْعَيْشُ بَعْـدَ أُولَئِكَ الْأَيَّامِ

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ التَّجَبُّرِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمِشْيَةِ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَيْ : مُتَبَخْتِرًا مُتَمَايِلًا مَشْيَ الْجَبَّارِينَ ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ بِمَشْيِكَ ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ أَيْ : بِتَمَايُلِكَ وَفَخْرِكَ وَإِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ ، بَلْ قَدْ يُجَازَى فَاعِلُ ذَلِكَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[3] « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أَمَّا مَنْ قَرَأَ : « سَيِّئَةٌ » أَيْ : فَاحِشَةٌ ، فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ كُلُّ هَذَا الَّذِي نُهِينَا عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ إِلَى هَاهُنَا ، فَهُوَ سَيِّئَةٌ مُؤَاخَذٌ عَلَيْهَا ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ عِنْدَ اللهِ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ ، وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ ﴿ سَيِّئُهُۥ ﴾ عَلَى الْإِضَافَةِ ، فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ : كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إِلَى هَاهُنَا فَسَيِّئُهُ ، أَيْ : فَقَبِيحُهُ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللهِ ، هَكَذَا وَجَّهَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -.

---

(١) البخاري (٧٠٤٣) .

(٢) البخاري (٧٠٤٢) .

(٣) البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ ، وَنَهَيْنَاكَ عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لِتَأْمُرَ بِهِ النَّاسَ ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أَيْ : تَلُومُكَ نَفْسُكَ وَالْخَلْقُ ﴿ مَّدۡحُورًا ﴾ أَيْ : مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ مَطْرُودًا ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ الْأُمَّةُ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، فَإِنَّهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مَعْصُومٌ .

أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْكَاذِبِينَ الزَّاعِمِينَ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ الله - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله ، فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَنَاتُ الله ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ فَأَخْطَأُوا فِي كُلٍّ مِنَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ خَطَأً عَظِيمًا ، فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾ ، أَيْ : خَصَّصَكُمْ بِالذُّكُورِ ﴿ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ أَيْ : وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ - عَلَى زَعْمِكُمْ - الْبَنَاتَ ، ثُمَّ شَدَّدَ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ لله وَلَدًا ، ثُمَّ جَعْلُكُمْ وَلَدَهُ الْإِنَاثَ الَّتِي تَأْنَفُونَ أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ ، وَرُبَّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْوَأْدِ ، فَتِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم : ٨٨-٩٥]

وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩] أَيْ : صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْمَوَاعِظِ ، فَيَنْزَجِرُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالإِفْكِ ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أَيْ : الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أَيْ : عَنِ الْحَقِّ وَبُعْدًا مِنْهُ .

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الزَّاعِمِينَ أَنَّ للهِ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ وَأَنَّ مَعَهُ آلِهَةً تُعْبَدُ ؛ لِتُقَرِّبَ إِلَيْهِ وَتَشْفَعَ لَدَيْهِ لَكَانَ أُولَئِكَ الْمَعْبُودُونَ يَعْبُدُونَهُ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ ، وَيَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَةَ ، فَاعْبُدُوهُ أَنْتُمْ وَحْدَهُ كَمَا يَعْبُدُهُ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى مَعْبُودٍ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا يَرْضَاهُ ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ .

ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَقَدَّسَهَا . فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : تَعَالِيًا كَبِيرًا ، بَلْ هُوَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : تُقَدِّسُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، أَيْ : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَتُنَزِّهُهُ وَتُعَظِّمُهُ وَتُبَجِّلُهُ وَتُكَبِّرُهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ :

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ؛ لِأَنَّهَا بِخِلَافِ لُغَتِكُمْ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْجَمَادِ ، وَهَذَا أَشْهَرُ الْقَوْلَيْنِ ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ[1] : كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ قَالَ : الْأُسْطُوَانَةُ (السَّارِيَةُ) تُسَبِّحُ ، وَالشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِنَّ صَرِيرَ الْبَابِ تَسْبِيحُهُ ، وَخَرِيرَ الْمَاءِ تَسْبِيحُهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ . وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : الطَّعَامُ يُسَبِّحُ ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ آيَةُ السَّجْدَةِ فِي أَوَّلِ الْحَجِّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا يُسَبِّحُ مَنْ كَانَ فِيهِ رُوحٌ . يَعْنُونَ : مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ يُسَبِّحُ مِنْ شَجَرٍ أَوْ شَيْءٍ فِيهِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ »[2] ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً ثُمَّ قَالَ : « لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا » . قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّمَا قَالَ : « مَا لَمْ يَيْبَسَا » لِأَنَّهُمَا يُسَبِّحَانِ مَا دَامَ فِيهِمَا خُضْرَةٌ ، فَإِذَا يَبِسَا انْقَطَعَ تَسْبِيحُهُمَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أَيْ : إِنَّهُ لَا يُعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ، فَإِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[3] : « إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٤٨] ، وَمَنْ أَقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ عِصْيَانٍ وَرَجَعَ إِلَى اللهِ وَتَابَ إِلَيْهِ

(١) البخاري (٣٥٧٩) .
(٢) البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) .
(٣) صحيح : وقد تقدم .

تَابَ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر : ٤١ - ٤٥]

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ ؛ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا مَسْتُورًا . **قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ** : هُوَ الْأَكِنَّةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] أَيْ : مَانِعٌ حَائِلٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا مِمَّا تَقُولُ شَيْءٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ بِمَعْنَى : سَاتِرٌ ، كَمَيْمُونٍ وَمَشْئُومٍ بِمَعْنَى : يَامِنٍ وَشَائِمٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ يُمْنِهِمْ وَشُؤْمِهِمْ ، **وَقِيلَ** : مَسْتُورًا عَنِ الْأَبْصَارِ فَلَا تَرَاهُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِجَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى ، وَمَالَ إِلَى تَرْجِيحِهِ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ جَمْعُ كِنَانٍ ، الَّذِي يَغْشَى الْقَلْبَ ، ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ، أَيْ : لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، وَهُوَ الثِّقَلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سَمَاعًا يَنْفَعُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ أَيْ : إِذَا وَحَّدْتَ اللهَ فِي تِلَاوَتِكَ وَقُلْتَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ أَيْ : أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ ﴿ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ وَنُفُورٌ : جَمْعُ نَافِرٍ ، كَقُعُودٍ : جَمْعُ قَاعِدٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ

وَاللهُ أَعْلَمُ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ [الزمر : ٤٥]

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ جَاءُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ ﷺ سِرًّا مِنْ قَوْمِهِمْ ، بِمَا قَالُوا : مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ ، مِنَ السِّحْرِ عَلَى الْمَشْهُورِ ، أَوْ مِنَ السَّحْرِ : وَهُوَ الرِّئَةُ ، أَيْ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِنِ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا ﴿ إِلَّا بَشَرًا ﴾ يَأْكُلُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ ؟ فَإِنَّنَا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ

وَقَالَ الرَّاجِزُ : نُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ . أَيْ : نُغَذَّى ، وَقَدْ صَوَّبَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ . وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا هَاهُنَا أَنَّهُ مَسْحُورٌ لَهُ رِئِيٌّ يَأْتِيهِ بِمَا اسْتَمَعُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يَتْلُوهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : شَاعِرٌ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : كَاهِنٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : مَجْنُونٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : سَاحِرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ وَلَا يَجِدُونَ إِلَيْهِ مَخْلَصًا .

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وُقُوعَ الْمَعَادِ ، الْقَائِلِينَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ مِنْهُمْ لِذَلِكَ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ أَيْ : تُرَابًا ، وَقِيلَ : غُبَارًا . ﴿ أَءِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا بُلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا يُذْكَرُ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات : ١٠-١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ [يس : ٧٨] الْآيَتَيْنِ ، فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إِذْ هُمَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قِيلَ : هُوَ الْمَوْتُ ، أَيْ : لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لَأَحْيَيْتُكُمْ . وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّكُمْ لَوْ فَرَضْتُمْ أَنَّكُمْ لَوْ صِرْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ - الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ - لَأَحْيَاكُمُ اللهُ إِذَا شَاءَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ . وَقِيلَ : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يَعْنِي : السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : مَا شِئْتُمْ فَكُونُوا ، فَسَيُعِيدُكُمُ اللهُ بَعْدَ مَوْتِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أَيْ : مَنْ يُعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا آخَرًا شَدِيدًا ﴿ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أَيْ : الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَنْتَشِرُونَ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صِرْتُمْ إِلَى أَيِّ حَالٍ ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَفْهَمُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا لِأَنَّ « الْإِنْغَاضَ » هُوَ التَّحَرُّكُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَى أَعْلَى ، أَوْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالِاسْتِبْعَادِ مِنْهُمْ لِوُقُوعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ، أَيْ : احْذَرُوا ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ ، سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ أَيْ : الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] أَيْ : إِذَا أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وَقَالَ : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] أَيْ : إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِانْتِهَارٍ ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى ظَاهِرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أَيْ : تَقُومُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِإِرَادَتِهِ . ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أَيْ : بِأَمْرِهِ ، وَقِيلَ : بِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أَيْ : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ . ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمُ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفِعَالِ وَوَقَعَ الشَّرُّ وَالْمُخَاصَمَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ ؛ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ حِينِ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ وَعَدَاوَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ ، وَلِهَذَا نَهَى أَنْ يُشِيرَ الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِحَدِيدَةٍ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ فِي يَدِهِ ، أَيْ : فَرُبَّمَا أَصَابَهُ بِهَا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزَغَ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ نَارٍ** »(١).

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝٥٥

---

(١) البخاري (٧٠٧٢) ، ومسلم (٢٦١٧) .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمُ الْهِدَايَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بِأَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ** » فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّي وَالْعَصَبِيَّةِ ، لَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ ، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وَفِي الشُّورَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ ، ثُمَّ مُوسَى ، ثُمَّ عِيسَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ بِدَلَائِلِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ تَنْبِيهٌ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ ، فَكَانَ يَقْرَؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ** »[2] يَعْنِي : الْقُرْآنَ .

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

---

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) البخاري (حديث ٤٧١٣) .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ ﴿ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْغَبُوا إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ أَيْ : بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أَيْ : يُحَوِّلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ ، **وَالْمَعْنَى** : أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قَالَ : نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا ، **وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ** : كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ ، ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنِّيُّونَ ، وَالْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، **وَقِيلَ** : هُمْ عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، **وَقِيلَ** : وَالْمَلَائِكَةُ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ لِقَوْلِهِ : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ ، وَهَذَا لَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْمَاضِي ، فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ عِيسَى وَالْعُزَيْرُ وَالْمَلَائِكَةُ ، **وَقَالَ** : وَالْوَسِيلَةُ : هِيَ الْقُرْبَةُ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَبِالْخَوْفِ يَنْكَفُّ عَنِ الْمَنَاهِي ، وَبِالرَّجَاءِ يُكْثِرُ مِنَ الطَّاعَاتِ ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أَيْ : يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَ مِنْهُ وَيَخَافَ مِنْ وُقُوعِهِ وَحُصُولِهِ عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهُ .

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كَتَبَ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ : أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا سَيُهْلِكُهَا ، بِأَنْ يُبِيدَ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوِ ابْتِلَاءٍ بِمَا يَشَاءُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود : ١٠١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٩]

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُنَحِّي الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزرَعُوا ، فَقِيلَ لَهُ : ((**إِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْنِيَ بِهِمْ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَأْتِيَهِمُ الَّذِي سَأَلُوا ، فَإِنْ كَفَرُوا هَلَكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، قَالَ : لَا بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ**)) وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الْآيَة(١) .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ ﴾ أَيْ : نَبْعَثُ الْآيَاتِ وَنَأْتِي بِهَا عَلَى مَا سَأَلَ قَوْمُكَ مِنْكَ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ لَدَيْنَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ بَعْدَمَا سَأَلُوهَا وَجَرَتْ سُنَّتُنَا فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ : أَنَّهُمْ لَا يُؤَخَّرُونَ إِذَا كَذَّبُوا بِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْمَائِدَةِ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ حِينَ سَأَلُوا آيَةً - نَاقَةً تَخْرُجُ مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنُوهَا - فَدَعَا صَالِحٌ ؑ رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عَلَى مَا سَأَلُوا ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : كَفَرُوا بِمَنْ خَلَقَهَا وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ وَعَقَرُوهَا فَقَالَ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مَنْ خَلَقَهَا ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ الَّذِي أُجِيبَ دُعَاؤُهُ فِيهَا ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أَيْ : كَفَرُوا بِهَا وَمَنَعُوهَا شِرْبَهَا وَقَتَلُوهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ الشَّمْسَ**

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨) ، وله شواهد يصح بها .

وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا »(١) .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا لَهُ عَلَى إِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ وَمُخْبِرًا لَهُ : بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : عَصَمَكَ مِنْهُمْ ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلِكَ بِلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ، لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أَيْ : اِخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا . وَلِهَذَا اِخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ هِيَ : شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، قَالَ : لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى ذَلِكَ ، أَيْ : فِي الرُّؤْيَا وَالشَّجَرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أَيْ : الْكُفَّارُ بِالْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾ أَيْ : تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِذْلَانِ اللهِ لَهُمْ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) ، وانظر كذلك للوقوف على بعض الألفاظ التي ليست في المصدرين المذكورين . انظر (البخاري ١٠٥٩) ، ومسلم (٩١٢) .

خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللهُ - لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَأَنَّهَا عَدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ مُنْذُ خُلِقَ آدَمُ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ المَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيس اِسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ؛ اِفْتِخَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ أَرَءَيْتَكَ ﴾ يَقُولُ لِلرَّبِّ جَرَاءَةً وَكُفْرًا ، وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيَنْظُرُ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الْآيَة . **قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ** : لَأَسْتَوْلِيَنَّ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : لَأَحْتَوِيَنَّ ، **وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ** : لَأُضِلَّنَّهُمْ ، وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ ، **وَالمَعْنَى أَنَّهُ يَقُولُ** : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي شَرَّفْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ عَلَيَّ لَئِنْ أَنْظَرْتَنِي لَأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ !.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لَمَّا سَأَلَ إِبْلِيسُ النَّظْرَةَ **قَالَ اللهُ لَهُ** : ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ فَقَدْ أَنْظَرْتُكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر : ٣٧-٣٨] ، ثُمَّ أَوْعَدَهُ ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ جَهَنَّمَ ، **فَقَالَ** : ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى أَعْمَالِكُمْ ﴿ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَافِرًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مَوْفُورًا عَلَيْكُمْ لَا يَنْقُصُ لَكُمْ مِنْهُ . ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الْغِنَاءُ . **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ العُلَمَاءِ** : أَيْ : اِسْتَخِفَّهُمْ بِذَلِكَ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قَالوا كُلُّ دَاعٍ دَعَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يَقُولُ : وَاحْمِلْ عَلَيْهِمْ بِجُنُودِكَ خَيالَتِهِمْ وَرَجِلَتِهِمْ فَإِنَّ « الرَّجْلُ » جَمْعُ « رَاجِلٍ » كَمَا أَنَّ « الرَّكْبُ » جَمْعُ « رَاكِبٍ » وَ « الصَحْبُ » جَمْعُ « صَاحِبٍ » ، وَمَعْنَاهُ : تَسَلَّطْ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدَرِيٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] أَيْ : تُزْعِجُهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا ، وَتَسُوقُهُمْ إِلَيْهَا سَوْقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ الله ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِنَّ لَهُ خَيْلًا وَرِجَالًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُمُ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَجْلَبَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ إِذَا صَاحَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ « **الجَلَبَةِ** » وَهِيَ ارْتِفَاعُ الْأَصْوَاتِ ، ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ فِي الآيَةِ أَقْوَالٌ مِنْهَا : هُوَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي مَعَاصِي الله تَعَالَى ، وَمِنْهَا : هُوَ الرِّبَا ، وَمِنْهَا : جَمْعُهَا مِنْ خَبِيثٍ وَإِنْفَاقُهَا فِي حَرَامٍ ، وَمِنْهَا : أن مُشَارَكَتُهُ إِيَّاهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَهُوَ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أَنْعَامِهِمْ يَعْنِي : مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَنَحْوِهَا . **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ **قِيلَ المُرَادُ** : أَوْلَادُ الزِّنَا ، **وَقِيلَ** : هُوَ مَا كَانُوا قَتَلُوهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، **وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ وَقَتَادَةَ** : قَدْ وَالله شَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، مَجَّسُوا وَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا وَصَبَغُوا غَيْرَ صِبْغَةِ الْإِسْلَامِ ، وَجَزَّءُوا مِنْ أَمْوَالِهِ جُزْءًا لِلشَّيْطَانِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ تَسْمِيَتُهُمْ أَوْلَادَهُمْ عَبْدَ الْحَارِثِ ، وَعَبْدَ شَمْسٍ ، وَعَبْدَ فُلَانٍ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ : كُلُّ مَوْلُودٍ وَلَدَتْهُ أُنْثَى عُصِيَ اللهُ فِيهِ بِتَسْمِيَتِهِ بِمَا يَكْرَهُهُ اللهُ ، أَوْ بِإِدْخَالِهِ فِي غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ ، أَوْ بِالزِّنَا بِأُمِّهِ ، أَوْ بِقَتْلِهِ ، أَوْ وَأْدِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَعْصِي اللهَ بِفِعْلِهِ بِهِ أَوْ فِيهِ ، فَقَدْ دَخَلَ فِي مُشَارَكَةِ إِبْلِيسَ فِيهِ مَنْ وُلِدَ ذَلِكَ الْوَلَدُ لَهُ أَوْ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُخَصِّصْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ مَعْنَى الشَّرِكَةِ فِيهِ بِمَعْنًى دُونَ مَعْنًى ، فَكُلُّ مَا عُصِيَ اللهُ فِيهِ أَوْ بِهِ أَوْ أُطِيعَ الشَّيْطَانُ فِيهِ أَوْ بِهِ فَهُوَ مُشَارَكَةٌ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُتَّجِهٌ ، وَكُلٌّ مِنَ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فَسَّرَ بَعْضَ الْمُشَارَكَةِ ، فَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **يَقُولُ اللهُ ﷻ إِنِّي خَلَقْتُ**

عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ »[1] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ ، لَمْ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا »[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤] ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا حَصْحَصَ الْحَقُّ يَوْمَ يُقْضَى بِالْحَقِّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ إِخْبَارٌ بِتَأْيِيدِهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحِفْظِهِ إِيَّاهُمْ ، وَحِرَاسَتِهِ لَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَصِيرًا .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لِعِبَادِهِ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ، وَتَسْهِيلِهِ لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ لِابْتِغَائِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ فِي التِّجَارَةِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ .

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أَيْ : نَسِيتُمْ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) البخاري (حديث ١٤١) ، ومسلم (١٤٣٤)

مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ أَيْ : سَجِيَّتُهُ هَذَا ، يَنْسَى النِّعَمَ وَيَجْحَدَهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ .

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنِ انْتِقَامِهِ وَعَذَابِهِ ؟. ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ، وَهُوَ : الْمَطَرُ الَّذِي فِيهِ حِجَارَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾[القمر : ٣٤-٣٥] ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾[هود : ٨٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَيُنْقِذُكُمْ مِنْهُ .

أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ عَنَّا ، بَعْدَمَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي الْبَحْرِ وَخَرَجُوا إِلَى الْبَرِّ ﴿ أَن يُعِيدَكُمْ ﴾ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ أَيْ : يَقْصِفُ الصَّوَارِي وَيُغْرِقُ الْمَرَاكِبَ ، ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ قِيلَ الْمَعْنَى : نَصِيرًا ، وَقِيلَ : نَصِيرًا ثَائِرًا ، أَيْ : يَأْخُذُ بِثَأْرِكُمْ بَعْدَكُمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَلَا نَخَافُ أَحَدًا يَتْبَعُنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

وَيُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَشْرِيفِهِ لِبَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين : ٤]

أَنْ يَمْشِيَ قَائِمًا مُنْتَصِبًا عَلَى رِجْلَيْهِ ، وَيَأْكُلَ بِيَدَيْهِ ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَيَأْكُلُ بِفَمِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَفُؤَادًا يَفْقَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَيَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَخَوَاصَّهَا وَمَضَارَّهَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ أَيْ : عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، وَفِي الْبَحْرِ أَيْضًا عَلَى السُّفُنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أَيْ : مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَلُحُومٍ وَأَلْبَانٍ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الطُّعُومِ وَالْأَلْوَانِ الْمُشْتَهَاةِ اللَّذِيذَةِ ، وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ ، وَالْمَلَابِسِ الرَّفِيعَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، مِمَّا يَصْنَعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَيَجْلِبُهُ إِلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَالنَّوَاحِي ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَقَدِ اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جِنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ .

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِإِمَامِهِمْ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، **قِيلَ** : أَيْ : بِنَبِيِّهِمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس : ٤٧] . **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : هَذَا أَكْبَرُ شَرَفٍ لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ إِمَامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ، **وَقِيلَ** : بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مِنَ التَّشْرِيعِ .

وَقِيلَ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أَيْ : بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِإِمَامِهِمْ : أَيْ : كُلُّ قَوْمٍ بِمَنْ يَأْتَمُّونَ بِهِ ؛ فَأَهْلُ الْإِيمَانِ ائْتَمُّوا بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَهْلُ الْكُفْرِ ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص : ٤١] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[1] : ((**لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيت**)) الْحَدِيثُ ، وَهَذَا لَا يُنَافِي أَنْ يُجَاءَ بِالنَّبِيِّ إِذَا حَكَمَ اللهُ بَيْنَ أُمَّتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ بِأَعْمَالِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هَاهُنَا بِالْإِمَامِ هُوَ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ فَرْحَتِهِ وَسُرُورِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَقْرَؤُهُ وَيُحِبُّ قِرَاءَتَهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة : ١٩-٢٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَتِيلَ هُوَ : الْخَيْطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ . ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾ أَيْ : فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ أَيْ : عَنْ حُجَّةِ اللهِ وَآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ ﴿ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ يَكُونُ . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : وَأَضَلُّ مِنْهُ كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - وَتَثْبِيتُهُ وَعِصْمَتُهُ وَسَلَامَتُهُ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَكِلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَمُظَفِّرُهُ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

---

(١) البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) .

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قِيلَ : نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَمَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْف ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللهُ وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، فَقَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أَيْ : هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وَآذَوْهُمْ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ﷺ رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَجَاءَهُمْ مِنَ النِّقَمِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ آمِرًا لَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ قِيلَ : لِغُرُوبِهَا . وَقِيلَ : دُلُوكُهَا : زَوَالُهَا ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ . فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَخَلَ فِيهَا أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، فَمِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ - وَهُوَ ظَلَامُهُ ، وَقِيلَ : غُرُوبُ الشَّمْسِ - أُخِذَ مِنْهُ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ، ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْفَجْرِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قَالَ : تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ[1].

(١) أحمد في المسند (٢/ ٤٧٤) ، والترمذي (٣١٣٥) ، وقال حديث حسن صحيح .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **فَضْلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ : خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً ، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ** » ، وَيَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [١] [الإسراء : ٧٨]

وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ** » [٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أَمْرٌ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ : أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ ؟ قَالَ : « **صَلَاةُ اللَّيْلِ** » [٣]. وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَاتِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّ التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ . **وَقِيلَ** : هُوَ مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ وَيُحْمَلُ عَلَى مَا كَانَ بَعْدَ النَّوْمِ .

وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ، **فَقِيلَ** : مَعْنَاهُ أَنَّكَ مَخْصُوصٌ بِوُجُوبِ ذَلِكَ وَحْدَكَ ، فَجَعَلُوا قِيَامَ اللَّيْلِ وَاجِبًا فِي حَقِّهِ دُونَ الْأُمَّةِ . **وَقِيلَ** : إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى الْخُصُوصِ ، لِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يُكَفِّرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَّوَافِلُ الذُّنُوبَ الَّتِي عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أَيْ : افْعَلْ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ لِنُقِيمَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامًا مَحْمُودًا ، يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ، وَخَالِقُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ : ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَقُومُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ ، لِيُرِيحَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

---

(١) البخاري (٤٧١٧) ، ومسلم (٦٤٩) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) مسلم (١١٦٣)

عَنْ حُذَيْفَةَ(١) قَالَ : يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا ، قِيَامًا لَا تُكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يُنَادَى يَا مُحَمَّدُ فَيَقُولُ : ((لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ ، لَا مَنْجَى وَلَا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ)) فَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ .

قُلْتُ : لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْرِيفَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ، وَتَشْرِيفَاتٌ لَا يُسَاوِيهِ فِيهَا أَحَدٌ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، وَيُبْعَثُ رَاكِبًا إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَلَهُ اللِّوَاءُ الَّذِي آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِهِ ، وَلَهُ الْحَوْضُ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْقِفِ أَكْثَرُ وَارِدًا مِنْهُ ، وَلَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى عِنْدَ اللهِ لِيَأْتِيَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا تَسْأَلُ النَّاسُ آدَمَ ، ثُمَّ نُوحًا ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ مُوسَى ، ثُمَّ عِيسَى ، فَكُلٌّ يَقُولُ : لَسْتُ لَهَا ، حَتَّى يَأْتُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ : ((أَنَا لَهَا))(٢) ، كَمَا سَنَذْكُرُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْفَعُ فِي أَقْوَامٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَيُرَدُّونَ عَنْهَا ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ يَقْضِي بَيْنَ أُمَّتِهِ ، وَأَوَّلُهُمْ إِجَازَةً عَلَى الصِّرَاطِ بِأُمَّتِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ(٣) . وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ دَاخِلٍ إِلَيْهَا ، وَأُمَّتُهُ قَبْلَ الْأُمَمِ كُلِّهِمْ ، وَيَشْفَعُ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ أَقْوَامٍ لَا تَبْلُغُهَا أَعْمَالُهُمْ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا تَلِيقُ إِلَّا لَهُ ، وَإِذَا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى فِي الشَّفَاعَةِ لِلْعُصَاةِ شَفَعَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فَيَشْفَعُ هُوَ فِي خَلَائِقَ لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى ، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِثْلَهُ وَلَا يُسَاوِيهِ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ بَسَطْتُ ذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيرَةِ فِي بَابِ الْخَصَائِصِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

(١) **موقوف صحيح** : أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨١) .
(٢) البخاري (٧٥١٠) ، ومسلم (حديث ١٩٣) .
(٣)مسلم (حديث ١٩٦) .

وَلْنَذْكُرِ الْآنَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] قال: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِي الشَّفَاعَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمُ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَيْضًا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ: كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ))[2].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: : ((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ. حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[3].

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِهِ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام))[4].

وَعَنْ أَنَسٍ[5] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا، فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ ﷻ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَةَ سُؤَالِهِ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ،

(١) البخاري (٤٧١٨).
(٢) صحيح: أخرجه الطبري، وانظر كذلك البخاري (١٤٧٤، ١٤٧٥).
(٣) البخاري (٦١٤).
(٤) مسلم (٨٢٠).
(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وَيَقُولُ : وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى ، عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ لَهُمُ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَ بِغَيْرِ نَفْسٍ ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ . فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ، عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأْتُونِي حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أَوْ خَرَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدَعَنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمَنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، قَالَ : ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أَوْ خَرَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدَعَنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمَنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، قَالَ : ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أَوْ خَرَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدَعَنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يُقَال ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمَنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ فِي الرَّابِعَةِ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ » .

فَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] ﷺ قَالَ : أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا

(١) أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) ، والبخاري (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) .

يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ مِمَّا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَه وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اِذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اِذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا ، اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ ، دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اِذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اِذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، فَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اِذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اِذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ اِصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ ، اِشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اِذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اِذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اِذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اِذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ،

أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ؟ فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »(١).

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : الْمَدِينَةَ ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ ، وَقِيلَ : ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يَعْنِي : الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَقِيلَ : غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا : وَعَدَهُ رَبُّهُ لَيَنْزَعَنَّ مُلْكَ فَارِسٍ وَعِزَّ فَارِسٍ ، وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ وَمُلْكُ الرُّومِ وَعِزَّ الرُّومِ ، وَلَيَجْعَلَنَّهُ لَهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ فِيهَا : إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ عَلِمَ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللهِ ، وَلِحُدُودِ اللهِ ، وَلِفَرَائِضِ اللهِ ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ . وَقِيلَ : ﴿ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ حُجَّةً بَيِّنَةً ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ - وَهُوَ الْأَرْجَحُ - ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) .

قَهْرٍ لِمَنْ عَادَاهُ وَنَاوَأَهُ ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ [الحديد : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ **الْآيَة** : تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ ، أَيْ : اِضْمَحَلَّ وَهَلَكَ ، فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ**[1] **قَالَ** : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ ، وَيَقُولُ : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩]

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] إِنَّهُ ﴿ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : يُذْهِبُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَمْرَاضٍ ، مِنْ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكٍ وَزَيْغٍ وَمَيْلٍ ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءً فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةً ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ فَلَا يَزِيدُهُ سَمَاعُهُ الْقُرْآنَ إِلَّا بُعْدًا وَكُفْرًا ، وَالْآفَةُ مِنَ الْكَافِرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

(١) البخاري (٤٧٢٠) ، ومسلم (١٧٨١) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ عَصِمَ اللهُ تَعَالَى، فِي حَالَتَيْ سَرَّائِهِ وَضَرَّائِهِ، بِإِنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَعَافِيَةٍ، وَفَتْحٍ وَرِزْقٍ وَنَصْرٍ، وَنَالَ مَا يُرِيدُ، أَعْرَضَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَأَى بِجَانِبِهِ. **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ**: أَيْ: بَعُدَ عَنَّا. **قُلْتُ**: وَهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - وَهُوَ الْمَصَائِبُ وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبُ - ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أَيْ: قَنَطَ أَنْ يَعُودَ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ **قِيلَ**: عَلَى نَاحِيَتِهِ. **وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: عَلَى حِدَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ. **وَقِيلَ**: عَلَى نِيَّتِهِ. **وَقِيلَ**: دِينِهِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى. وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ١٢١]، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أَيْ: مِنَّا وَمِنْكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ(١) رضي الله عنه **قَالَ**: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ، وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ

(١) البخاري (٤٧٢١).

مَقَامِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ الْآيَة .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أَيْ : مِنْ شَأْنِهِ ، وَمِمَّا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهِ دُونَكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أَيْ : وَمَا أَطْلَعَكُمْ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَالْمَعْنَى : أَنَّ عِلْمَكُمْ فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ ، وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ ، مِمَّا اسْتَأْثَرَ بِهِ تَعَالَى وَلَمْ يُطْلِعكُمْ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعكُمْ إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ عِلْمِهِ - تَعَالَى - وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ ، أَنَّ الْخَضِرَ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ وَقَعَ عَلَى حَافَّةِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً - أَيْ شَرِبَ مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ - فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ ، إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ، أَوْ كَمَا قَالَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ .

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ الْعَظِيمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت : ٤٢] . ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، لَمَا أَطَاقُوا ذَلِكَ ، وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَظَافَرُوا ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ ، وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثَالَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ؟!

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةَ ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَاهُ وَمَعَ هَذَا ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أَيْ : جُحُودًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا لِلصَّوَابِ .

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الْيَنْبُوعُ : الْعَيْنُ الْجَارِيَةُ ، سَأَلُوهُ أَنْ يُجْرِي لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ الْحِجَازِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، يَسِيرٌ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ وَلَأَجَابَهُمْ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ ﴾ أَيْ : أَنَّك وَعَدْتَنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ وَتَهِي ، وَتُدْلِي أَطْرَافُهَا ، فَعَجِّلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَسْقِطْهَا كِسَفًا ، أَيْ : قِطَعًا ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَكَذَلِكَ سَأَلَ قَوْمُ شُعَيْبٍ مِنْهُ ، فَقَالُوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْجِيلَهُمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ، حَتَّى عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ - الَّذِي تَبِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ - أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًّا ، وَأَنَابَ إِلَى اللهِ ﷻ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : **هُوَ** الذَّهَبُ ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أَيْ : تَصْعَدُ فِي سُلَّمٍ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : أَيْ : مَكْتُوبٌ فِيهِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ صَحِيفَةٌ : هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ لِفُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ ، تُصْبِحُ مَوْضُوعَةً عِنْدَ رَأْسِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أَيْ : سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ ، بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِبْكُمْ ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ وَأَمْرُكُمْ فِيمَا سَأَلْتُمْ إِلَى اللهِ ﷻ

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ : أَكْثَرَهُمْ ﴿ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ وَيُتَابِعُوا الرُّسُلَ إِلَّا اسْتِعْجَابُهُمْ مِنْ بَعْثَةِ الْبَشَرِ رُسُلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] ، وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْأُمَمُ لِرُسُلِهِمْ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ : أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَفْقَهُوا عَنْهُ وَيَفْهَمُوا مِنْهُ ، لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَتَهُ وَلَا الْأَخْذَ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا

﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ أَيْ : مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَلَمَّا كُنْتُمْ أَنْتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا فِيكُمْ رُسُلَنَا مِنْكُمْ لُطْفًا وَرَحْمَةً .

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ ، عَالِمٌ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنِّي أَشَدَّ الِانْتِقَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : عَلِيمًا بِهِمْ ، بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهِدَايَةَ ، مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاغَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ وَنُفُوذِ حُكْمِهِ وَأَنَّهُ لَا مُعَقِّبَ لَهُ ، بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : يَهْدُونَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ** : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « **الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ عُمْيًا ﴾ أَيْ : لَا يُبْصِرُونَ ﴿ وَبُكْمًا ﴾ يَعْنِي : لَا يَنْطِقُونَ ﴿ وَصُمًّا ﴾ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، جَزَاءً لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، بُكْمًا وَعُمْيًا وَصُمًّا عَنِ الْحَقِّ ، فَجُوزُوا فِي مَحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : مُنْقَلَبُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ قِيلَ : سَكَنَتْ ، وَقِيلَ :

---

(١) أحمد (٣/ ٢٢٩) ، وبنحوه البخاري حديث (٤٧٦٠) ، ومسلم حديث (٢٨٠٦) .

طَفِئَتْ ﴿ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : لَهَبًا وَوَهَجًا وَجَمْرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠]

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ – مِنَ الْبَعْثِ عَلَى الْعَمَى وَالْبُكْمِ وَالصَّمَمِ – جَزَاؤُهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَّتِنَا ، وَاسْتَبْعَدُوا وُقُوعَ الْبَعْثِ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ أَيْ : بَالِيَةً نَخِرَةً ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا صِرْنَا إِلَى مَا صِرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْبِلَى وَالْهَلَاكِ وَالتَّفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ، نُعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً ؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَقُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَقَالَ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨١-٨٢] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى كَمَا بَدَأَهُمْ ، ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا ، وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنِ انْقِضَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ

ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللهِ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَيْ : الْفَقْرُ ، أَيْ : خَشْيَةَ أَنْ تُذْهِبُوهَا مَعَ أَنَّهَا لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْفَدُ أَبَدًا ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : أَيْ : بَخِيلًا مَنُوعًا ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣] أَيْ : لَوْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي مُلْكِ اللهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلَا مِقْدَارَ نَقِيرٍ وَاللهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَهَدَاهُ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَزَعَ وَالْهَلَعَ صِفَةٌ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**)) (١).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَى بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَهِيَ الدَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَهِيَ : الْعَصَا وَالْيَدُ وَالسِّنِينَ وَالْبَحْرُ ، وَالطُّوفَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقُمَّلُ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالدَّم ، آيَاتٌ

---

(١) البخاري (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .

مُفَصَّلَاتٌ قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ . وَبِنَحْوِهِ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هِيَ يَدُهُ ، وَعَصَاهُ ، وَالسِّنِينَ ، وَنَقْصُ الثَّمَرَاتِ ، وَالطُّوفَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقُمَّلُ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالدَّمُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ حَسَنٌ قَوِيٌّ ، وَجَعَلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ السِّنِينَ وَنَقْصَ الثَّمَرَاتِ وَاحِدَةً ، وَعِنْدَهُ أَنَّ التَّاسِعَةَ هِيَ : تَلَقُّفُ الْعَصَا مَا يَأْفِكُونَ ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] أَيْ : وَمَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا كَفَرُوا بِهَا ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤]، وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَجَبْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْكَ مَا سَأَلُوا ، وَقَالُوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ إِلَى آخِرِهَا لَمَا اسْتَجَابُوا ، وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى ، وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، قَالَ : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ قِيلَ : بِمَعْنَى : سَاحِرٌ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَدْ أُوتِيَ مُوسَى ﷺ آيَاتٌ أُخَرُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : ضَرْبُهُ الْحَجَرَ بِالْعَصَا ، وَخُرُوجُ الْمَاءِ مِنْهُ ، وَمِنْهَا : تَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَإِنْزَالُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أُوتُوهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ بِلَادَ مِصْرَ ، وَلَكِنْ ذَكَرَ هَاهُنَا التِّسْعَ آيَاتِ الَّتِي شَاهَدَهَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مِصْر ، فَكَانَتْ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فَخَالَفُوهَا وَعَانَدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا ، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أَيْ : حُجَجًا وَأَدِلَّةً عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكَ بِهِ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْن مَثْبُورًا ﴾ أَيْ : هَالِكًا ، قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ . وَقِيلَ : مَلْعُونًا . وَقِيلَ : مَغْلُوبًا ، وَالْهَالِكُ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ .

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ بِرَفْعِ التَّاءِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ عَلِمْتَ ﴾ وَلَكِنَّ قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ بِفَتْحِ التَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ لِفِرْعَوْنَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٣-١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : يُخَلِّيهِمْ مِنْهَا وَيُزِيلَهُمْ عَنْهَا ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، وَفِي هَذَا بِشَارَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ،

وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء : ٧٦] الْآيَتَيْنِ ؛ وَلِهَذَا أَوْرَثَ اللهُ رَسُولَهُ مَكَّةَ فَدَخَلَهَا عَنْوَةً عَلَى أَشْهَرِ الْقَوْلَيْنِ ، وَقَهَرَ أَهْلَهَا ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ حِلْمًا وَكَرَمًا ، كَمَا أَوْرَثَ اللهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَوْرَثَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثِمَارَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوكُمْ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ لَفِيفًا ﴾ أَيْ : جَمِيعًا .

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ - أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ ، أَيْ : مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] أَيْ : مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : وَنَزَلَ إِلَيْكَ - يَا مُحَمَّدُ - مَحْفُوظًا مَحْرُوسًا لَمْ يُشَبْ بِغَيْرِهِ ، وَلَا زِيدَ فِيهِ ، وَلَا نُقِصَ مِنْهُ ، بَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِهِ شَدِيدُ الْقُوَى ، الْأَمِينُ الْمَكِينُ الْمُطَاعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ . ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ أَمَّا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ : فَصَّلْنَاهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ - مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا - ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا عَلَى الْوَقَائِعِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَقَرَأَ الْبَعْضُ : ((**فَرَّقْنَاهُ**)) بِالتَّشْدِيدِ ، أَيْ : أَنْزَلْنَاهُ آيَةً آيَةً مُبَيَّنًا مُفَسَّرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : لِتُبَلِّغَهُ النَّاسَ وَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ، أَيْ : ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أَيْ : مَهْلٍ ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ أَيْ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ .

قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ﴾ أَيْ : سَوَاءٌ آمَنْتُمْ بِهِ أَمْ لَا ، فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ ، أَنْزَلَهُ اللهُ وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رُسُلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنْ صَالِحِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِكِتَابِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ وَلَمْ يُبَدِّلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ جَمْعُ ذَقَنٍ ، وَهُوَ أَسْفَلُ الْوَجْهِ ﴿ سُجَّدًا ﴾ أَيْ : لله ﷻ شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَعْلِهِ إِيَّاهُمْ أَهْلًا أَنْ أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ أَيْ : تَعْظِيمًا وَتَوْقِيرًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ الَّذِي وَعَدَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَنْ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ أَيْ : خُضُوعًا لله ﷻ وَإِيمَانًا وَتَصْدِيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَزِيدُهُمُ اللهُ خُشُوعًا ، أَيْ : إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عَطْفُ صِفَةٍ عَلَى صِفَةٍ ، لَا عَطْفَ السُّجُودِ عَلَى السُّجُودِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ ... وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمِ

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لله ﷻ الْمَانِعِينَ

مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِالرَّحْمَنِ : ﴿ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : لَا فَرْقَ بَيْنَ دُعَائِكُمْ لَهُ بِاسْمِ الله أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ ، فَإِنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحشر : ٢٢-٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**[١] **قَالَ** : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ الله ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ ، قَالَ : كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، قَالَ : فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أَيْ : بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّونَ الْقُرْآنَ ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ ، فَلَا تُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ ، حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ . **وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ عَائِشَةَ** - رَضِيَ الله عَنْهَا -: نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ[٢] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ بَلْ هُوَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ : لَيْسَ بِذَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ ، بَلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا بِمَشِيئَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ لَمْ يُحَالِفْ أَحَدًا وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أَحَدٍ . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أَيْ : عَظِّمْهُ وَأَجِلَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

آخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣) ، والبخاري (٤٧٢٢) ، ومسلم (٤٤٦) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٣) ، ومسلم (٤٤٧) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأنعام	٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ... ﴾	٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ... ﴾	١٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾	١٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ... ﴾	٢١
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ ... ﴾	٢٢
مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله	٢٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ... ﴾	٢٧
النفخ في الصور	٣٣
دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه لترك عبادة الأصنام	٣٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ... ﴾	٣٩
بشرى الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق ومن ورائه يعقوب	٤٠
الحكمة من خلق النجوم	٤٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ... ﴾	٥١
أقوال العلماء في رؤية الله ﷻ	٥٣
النهي عن سب آلهة المشركين	٥٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ... ﴾	٦٠
أقوال العلماء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها	٦٢
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ... ﴾	٦٥
الدليل أن الرسل من الإنس	٧٢
حرمة قتل الأولاد والبخل عليهم	٧٨
فرض الزكاة والنهي عن الإسراف	٧٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ... ﴾	٩٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ... ﴾	٨٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾	٨٧
الأمر بالجماعة والنهي عن الاختلاف والفرقة	٩١

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ...﴾	٩٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ... ﴾	٩٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ... ﴾	١٠٢
تفسير سورة الأعراف	١٠٤
الأمر باتباع ما جاء به الرسول ﷺ	١٠٤
أمر الله ﷻ للملائكة بالسجود لآدم ﵇	١٠٧
توعد إبليس لآدم ﵇ وذريته	١٠٩
امتنان الله ﷻ على عبادة بما جعل لهم من اللباس	١١٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ...﴾	١١٤
تحريم الفواحش الظاهرة والباطنة	١١٩
قصة أصحاب الأعراف	١٢٧
خَلْق السماوات والأرض في ستة أيام	١٣١
عقيدة السلف في تفسير آيات الصفات	١٣١
قصة نوح ﵇ مع قومه	١٣٥
قصة عاد قوم هود ﵇	١٣٧
قصة ثمود قوم صالح ﵇	١٣٩
قصة قوم لوط ﵇	١٤٤
قصة قوم شعيب ﵇	١٤٧
ابتلاء الأمم السابقة بالبأساء والضراء	١٥٠
قصة موسى ﵇ مع فرعون والسحرة	١٥٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ ...﴾	١٦٥
تكليم الله ﷻ لموسى ﵇	١٦٦
ضلال بني إسرائيل في عبادتهم العجل	١٧٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ...﴾	١٧٤
عموم رسالة محمد ﷺ إلى العالمين	١٧٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا ...﴾	١٨٨
صفات المنافقين	١٩٣
الدعاء بأسماء الله الحسنى	١٩٤

الموضـوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ...﴾	١٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾....	٢٠٥
الأمر بالإنصات عند سماع القرآن	٢٠٩
تفسير سورة الأنفال	٢١٢
أقوال العلماء في تفسير معنى الأنفال	٢١٢
الكلام على زيادة الإيمان ونقصه	٢١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ...﴾	٢١٧
استشارة النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر	٢١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ...﴾	٢٢٢
النصر والتمكين من الله ﷻ	٢٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ...﴾	٢٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ...﴾	٢٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ...﴾	٢٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ...﴾	٢٣٨
الكلام على الغنيمة والفيء	٢٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ...﴾	٢٥٢
موقف النبي ﷺ والصحابة من أسرى بدر	٢٥٥
إباحة الغنائم لرسول الله ﷺ والمجاهدين	٢٥٥
تفسير سورة التوبة	٢٦١
تبرؤ الله ﷻ ورسوله من المشركين	٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾	٢٦٣
الحكمة من فرض الجهاد	٢٦٩
تحريم دخول المشرك المسجد الحرام	٢٦٩
غزوة حنين	٢٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ...﴾ ..	٢٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ...﴾	٢٨٦
معية الله لرسوله وصاحبه في الهجرة	٢٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ...﴾	٢٩٢

الموضـــوع	الصفحة
مصارف الزكاة الثمانية	٢٩٩
صفات المنافقين	٣٠٣
الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم	٣٠٨
الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن الجهاد	٣١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ...﴾	٣١٨
رضا الله ﷻ عن السابقين من المهاجرين والأنصار	٣٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ...﴾	٣٢٢
مسجد الضرار	٣٢٤
النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا ذا قربى	٣٣٠
قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك	٣٣٣
تفسير سورة يونس عليه السلام	٣٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ ...﴾	٣٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ...﴾	٣٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ...﴾	٣٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ...﴾	٣٥٢
بيان عظم الكذب على الله وحال من فعل ذلك	٣٥٤
من أخبار مسيلمة الكذاب	٣٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾	٣٥٦
شرك الكفار في السراء وإخلاصهم في الضراء	٣٥٧
بيان حال الدنيا وسرعة انقضائها	٣٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ...﴾	٣٦٠
بيان حال الأشقياء عند ربهم يوم القيامة	٣٦١
بيان إعجاز القرآن الكريم	٣٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ...﴾	٣٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ...﴾	٣٧٠
حال الأمم مع أنبيائها يوم القيامة	٣٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ...﴾	٣٧١
امتنانه سبحانه بإنزال القرآن على خلقه	٣٧٢

الموضــوع | الصفحة

إنكاره سبحانه وتعالى على المشركين فيما يحرمونه ويحللونه من الأنعام ٣٧٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ﴾ ٣٧٦
ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه ٣٧٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا ... ﴾ ٣٧٩
بعثة موسى وهارون عليهما السلام إلى بني إسرائيل ٣٨٠
قصة السحرة مع موسى عليه السلام ٣٨١
نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون ٣٨٦
ذكر نعم الله تعالى على بني إسرائيل ٣٨٨
صفة النبي ﷺ في الكتب المتقدمة ٣٨٩
الهداية والإضلال بيد الله ﷻ ٣٩١
تفسير سورة هود ٣٩٥
الأمر بعبادة الله والاستغفار والتوبة ٣٩٥
سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ...﴾ ٣٩٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴾ ٣٩٧
استعمالات لفظ « الأمَّة » في القرآن والسنة ٣٩٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ...﴾ ٤٠١
تفسير قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. ﴾ ٤٠٢
الفطرة والاعتراف بألوهية الله تعالى ﷻ ٤٠٣
قصة نوح عليه السلام مع قومه ٤٠٧
نجاة نوح عليه السلام ومن معه وهلاك قومه ٤١٤
شفاعة نوح عليه السلام لابنه ثم توبته من ذلك ٤١٥
قصة هود عليه السلام مع قومه ٤١٧
قصة صالح عليه السلام مع قومه ٤١٩
تبشير الملائكة لإبراهيم عليه السلام بولده إسحاق ٤٢١
الاستدلال على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ٤٢٢
قصة لوط عليه السلام مع قومه ٤٢٣
قصة شعيب عليه السلام مع أهل مدين ٤٢٦
بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وهلاكه ٤٣١

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾	٤٣٦
بيان فضل الصلوات الخمس	٤٣٧
بيان فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤٣٨
الأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق	٤٣٩
تفسير سورة يوسف	٤٤٣
بيان شرف اللغة العربية لنزول القرآن بها	٤٤٣
رؤيا يوسف عليه السلام	٤٤٤
تآمر إخوة يوسف عليه	٤٤٥
شراء عزيز مصر ليوسف عليه السلام	٤٥٠
مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام	٤٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ...﴾	٤٥٢
قول النسوة في المدينة وكيد امرأة العزيز بهن	٤٥٤
يوسف عليه السلام في السجن ومعه الفتيان	٤٥٦
رؤيا الملك وتأويل يوسف لها	٤٦٠
براءة يوسف عليه السلام واعتراف امرأة العزيز	٤٦١
خروجه من السجن وتوليه خزائن الأرض	٤٦٣
خوف يعقوب على بنيه من العين	٤٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...﴾	٤٦٧
دليل الجعالة والضمان والكفالة	٤٦٨
جزاء السرقة في شريعة يعقوب عليه السلام	٤٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ ...﴾	٤٦٩
تعريف يوسف بنفسه لإخوته وعفوه عنهم	٤٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى ...﴾	٤٧٤
تحقيق رؤيا يوسف عليه السلام وسجود أبويه له وجواز ذلك في شريعتهم	٤٧٥
حكم تمني الموت	٤٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...﴾	٤٧٨
الدعوة إلى الله على بصيرة	٤٨١
الرسالة في الرجال دون النساء	٤٨٢

الموضـوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ ... ﴾	٤٨٣
تفسير سورة الرعد	٤٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾	٤٨٦
استعجال الكفار بالعقوبة	٤٨٩
من آيات الله في الكون: البرق والرعد	٤٩٤
إقرار الكفار بأن الخالق هو الله	٤٩٦
ضرب مثلين للحق في ثباته والباطل في فنائه	٤٩٧
توسيع الله الرزق على من يشاء من عباده	٥٠٣
اطمئنان القلوب بذكر الله ﷻ	٥٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ... ﴾	٥٠٩
ذكر عقاب الكفار وثواب الأبرار	٥١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾	٥١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا ... ﴾	٥١٥
تفسير سورة إبراهيم عليه السلام	٥١٧
إرسال الرسول بلغة قومه	٥١٨
إرسال موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل	٥١٩
امتنان الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون	٥٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ... ﴾	٥٢١
ضرب مثل لأعمال الكفار	٥٢٦
مخاصمة الضعفاء للكبراء يوم القيامة	٥٢٦
خطاب إبليس لأتباعه في النار	٥٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ... ﴾	٥٣٢
دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة بالأمن	٥٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ... ﴾	٥٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ... ﴾	٥٤١
تفسير سورة الحجر	٥٤٣
تمني الكفار أن لو كانوا مسلمين	٥٤٣
هلاك الأمم بعد قيام الحجة	٥٤٣

الموضوع	الصفحة
طلب الكفار نزول الملائكة لتأييد الرسول	٥٤٤
تزيين السماء وحفظها من استراق السمع	٥٤٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ... ﴾	٥٤٧
خلق آدم ورفض إبليس السجود له	٥٤٨
قصة ضيف إبراهيم عليه السلام	٥٥٢
قصة هلاك قوم لوط عليه السلام	٥٥٣
قصة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر	٥٥٥
تفسير العلماء للسبع المثاني	٥٥٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾	٥٦٠
تفسير سورة النحل	٥٦٢
الإخبار عن اقتراب الساعة	٥٦٢
امتنان الله علينا بخلقه الأنعام	٥٦٣
الكلام على لحوم الخيل	٥٦٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ...﴾	٥٦٥
التنبيه على بعض الآيات العظام	٥٦٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ... ﴾	٥٦٩
حلول العقوبة بالماكرين في الدنيا والآخرة	٥٧١
حال المشركين الظالمين عند الاحتضار	٥٧٢
احتجاج المشركين بالقدر	٥٧٥
جزاء المهاجرين في سبيل الله	٥٧٨
إنكار العرب إرسال الله بشرا رسولا	٥٧٨
حلم الله وإنظاره للعصاة	٥٧٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ... ﴾	٥٨١
كراهية الكفار للبنات ونسبتها لله سبحانه	٥٨٢
الإخبار عن حلم الله على ظلم خلقه	٥٨٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ...﴾	٥٨٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى ... ﴾	٥٨٧
التداوي بالعسل	٥٨٨

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ... ﴾	٥٨٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ... ﴾	٥٩٠
مثل للمؤمن والكافر	٥٩١
امتنان الله على عبيده باتخاذ البيوت واللباس	٥٩٣
شهادة الأنبياء على أممهم يوم القيامة	٥٩٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ﴾	٥٩٦
الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى	٥٩٧
الأمر بالوفاء والمحافظة على الإيمان	٥٩٩
تفسير الحياة الطيبة	٦٠٢
الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن	٦٠٢
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ... ﴾	٦٠٣
حال من كفر بعد الإيمان ومن أكره على الكفر	٦٠٥
وصف حال بعض المستضعفين في مكة	٦٠٦
الكفر بالنعم وأثره في ذهاب الأمن	٦٠٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... ﴾	٦٠٩
الإنكار على اليهود في اتخاذهم يوم السبت	٦١٠
أصول الدعوة إلى الله ﷻ	٦١١
الأمر بالعدل في القصاص	٦١٢
الفرق بين المعية العامة والمعية الخاصة	٦١٣
تفسير سورة الإسراء	٦١٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ... ﴾	٦١٤
ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء	٦١٥
توضيح وبيان لما جاء في الإسراء والمعراج	٦٢٤
الإسراء كان بالبدن والروح معا	٦٢٥
الكلام علي إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين	٦٢٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ... ﴾	٦٣٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾	٦٣٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ... ﴾	٦٣٦

الموضـوع	الصفحة
الأمر بالإحسان إلى القرابة والنهي عن الإسراف في الإنفاق	٦٣٦
الأمر بالاقتصاد في العيش	٦٣٧
النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا	٦٣٩
النهي عن القتل وعن أكل أموال اليتيم والأمر بإيفاء الكيل	٦٤٠
النهي عن القول بلا علم	٦٤١
النهي عن التجبر والتبختر في المشية	٦٤٢
تقديس السماوات السبع والأرض ومن فيهن لله ﷻ........................	٦٤٤
حجب قلوب الكفار عن فهم القرآن	٦٤٦
الرد على إنكار وقوع المعاد	٦٤٧
الكلام عن الرؤيا والشجرة الملعونة	٦٥٣
سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس عن ذلك	٦٥٤
تفسير «الصوت» و «الجلب» و «المشاركة في الأموال والأولاد»	٦٥٥
تكريم الله ﷻ لبني آدم	٦٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ...﴾	٦٥٨
الأمر بإقامة الصلاة وفضل قيام الليل	٦٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾	٦٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ...﴾	٦٦٦
القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين	٦٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ...﴾	٦٦٨
سؤالات أهل مكة للنبي ﷺ...	٦٧٠
رحمة الله بعباده في إرساله الرسل من البشر	٦٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ...﴾	٦٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾	٦٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ...﴾	٦٧٦
الرد على الكفار في إنكارهم صفة الرحمة لله ﷻ........................	٦٧٧



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠